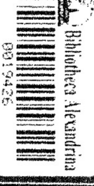
معارك فاصلة
فى تاريخ الإسلام

دار المستقبل العربي



اللواء / محمد فريد عبد القادر
مدير كلية القادة والأركان سابقا
أستاذ الدراسات التاريخية بالكليات العسكرية

معارك فاصلة
فى تاريخ الإسلام

معارك فاصلة فى تاريخ الإسلام

أ . د. محمد فريد عبد القادر

الغلاف والتصميم الداخلى: **أحمد اللبّاد**

الناشر: **دار المستقبل العربي**

٤١ شارع بيروت، مصر الجديدة

القاهرة، ت ـ ٢٩٠٤٧٢٧ ج. م. ع

مقاس الكتاب: ٥ر١٦ × ٥ر٢٣ سم

عدد صفحات الكتاب: ٣١٢

رقم الإيداع بدار الكتب القومية: ١٩٩٩/١٥٠٣

الترقيم الدولي للكتاب: ISBN 977 - 239 - 140 - 6

معارك فاصلة
فى تاريخ الإسلام



اللواء / محمد فريد عبد القادر

مدير كلية القادة والأركان سابقا
أستاذ الدراسات التاريخية بالكليات العسكرية



دار المستقبل العربى

الفهرس

	التاريخ	الصفحة
الباب الأول **فتوحات الخلفاء الراشدين**		٧
المقدمة		٩
الفصل الأول : المثني إبن حارثة الشيبانى	٩ هـ	١٣
الفصل الثانى : فتح الشام	١٢ هـ	٢٧
الفصل الثالث : خالد بن الوليد واليرموك	١٥ هـ	٤٣
الفصل الرابع : سعد ابن ابى وقاص والقادسية	١٥ هـ	٥٩
الفصل الخامس : القعقاع ابن عمرو التميمى	١٢–١٥ هـ	٧٣
الفصل السادس : عمرو ابن العاص وفتح مصر	١٨–٢٠ هـ	٨١
الباب الثاني **فتوحات الدولة الأموية**		١٠١
الفصل السابع : عقبة ابن نافع الفهرى والحملة الكبري	٦٢ هـ	١٠٣
الفصل الثامن : قتيبة ابن مسلم البهلي فاتح ما وراء النهر	٨٦ هـ	١١٥
الفصل التاسع : محمد ابن القاسم فاتح السند	٨٩ هـ	١٢١
الفصل العاشر : موسى بن نصير فاتح الأندلس	٨٩ هـ	١٢٧
الفصل الحادى عشر : عبد الرحمن الغافقى غازى ربوع غالة (فرنسا)	١١٢ هـ	١٤٧
الباب الثالث **فتوحات متنوعة**		١٥٧
الفصل الثانى عشر : أسد ابن الفرات فاتح صقلية	٢١٢ هـ	١٥٩
الفصل الثالث عشر : مقدمة ملاذ كرد	٤٦٣ هـ	١٦٧
الفصل الرابع عشر : الب أرسلان ومعركة ملاذ كرد	٤٦٣ هـ	١٧٣
الفصل الخامس عشر : يوسف ابن تاشفين ومعركة الزلاقة	٤٧٨ هـ	١٨٥

الباب الرابع
الحروب الصليبية

الباب الرابع الحروب الصليبية ١٩٥

الفصل السادس عشر: الحروب الصليبية وبدء المقاومة الإسلامية ٤٨٩هـ ١٩٧
الفصل السابع عشر : صلاح الدين الأيوبى بطل حطين والقدس ٥٨٣هـ ٢٠٩
الفصل الثامن عشر : الملك الصالح أيوب والملكة شجرة الدر ومعركة المنصورة ٦٤٧هـ ٢٢٩
الفصل التاسع عشر : الظاهر بيبرس قاهر التتار والصليبيين وقطز وعين جالوت ٦٤٨هـ ٢٥٣

الباب الخامس ٢٧١

الفصل العشرون : الإمبراطورية البيزنطية فى سطور ٨٥٧هـ ٢٧٣
الفصل الواحد والعشرون : محمد الفاتح وفتح القسطنطينية ٢٨٥
اللوائح والخرائط ٣٠١

الباب الأول

فتوحات الخلفاء الراشدين

المقدمة

لقد جاء علي الأمة الإسلامية حين من الدهر كانت فيه ملء سمع الدنيا وبصرها وحقيقة حضارية كبرى تفرض وجودها الخصب علي العالم بأسره وتثري سيرة البشرية وتلهم خطي الإنسان فى كل مكان. وامتد نفوذ هذه الأمة وإشعاعها الروحي والحضارى إلى مشارق الأرض ومغاربها، وارتفعت أعلامها الظافرة على معظم أرجاء العالم القديم فنرى أنها شملته من أقصاه شرقا إلى أقصاه غربا وما استطاعت منه شمالا وما استطاعت منه جنوبا.

كانت الأمة الإسلامية فى ذلك الوقت كيانا شامخا ينبض بالعزة والكرامة ويتضوع بعطر الرسالة المحمدية الطاهرة. لقد كانت هذه الأمة كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾ تستلهم فى مسيرتها مبادئ الدين الإسلامى الحنيف فهو شريعة الحاكم والمحكوم ودستور الحياة وقانونها الكامل الذى شرعه الله لخير عباده وسعادتهم فى الدنيا والآخرة.

لقد بلغت الأمة الإسلامية فى ذلك الحين ذروة مجدها وعظمتها ورفعتها ودانت لها أكبر امبراطوريات العالم. ورغم اتساع رقعة تلك الأمة العظيمة، وامتداد أرضها فى الشرق والغرب فقد كانت تجمعها وحدة عميقة الجذور تستمد قوتها وأصالتها من العقيدة الواحدة التى تؤلف بين قلوبها، والدين الذى يغمر أرضها بضيائه. والقبلة الواحدة التى تتجه اليها والمثل والقيم الواحدة التى تأتم بها. كانت الأمة الإسلامية فى ذلك الحين قلبا واحدا وكلمة واحدة وكان المسلم للمسلم كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ولذلك ازدهرت هذه الأمة وبلغت من المجد ما لم تبلغه أمة من قبل. فكانت منارة الحضارة والمعرفة والعلوم لباقى أمم العالم.

ثم جاء حين من الدهر انصرفت فيه هذه الأمة العريقة عن جوهر دينها وألهتها

زخارف الحياة وعرضها الزائل وانغمست فى مباهج الدنيا، فأفلت شمس حضارتها وعرتها عوامل الضعف والتفكك وتعرضت لصنوف من القهر والاستعمار وفقدت موقعها الحضارى كطليعة رائدة لموكب البشرية وتلك هى حكمة الأيام، وهى حكمة بدأت تعيها الأمة العربية والإسلامية أخيراً وأخذت الجهود المخلصة تتجه إلى تعميق وتقوية التضامن بين الشعوب والدول العربية والإسلامية فأنشئت الروابط والمؤسسات التى تحقق ذلك، كما ضاعفت هذه الأمة من جهودها وجهود المخلصين من أبنائها لنشر التراث الإسلامى العظيم، وتعريف هذه الأمة بتاريخها وأمجادها المليئة بالعزم والفخار انطلاقا إلى عهد جديد يعيد للإسلام سابق عزه ومجده.

ومع ذلك فمازال أمامنا الكثير حتى نستطيع تحقيق ذلك وأهم ما يجب أن نحققه هو أن نستعيد ذاكرتنا، فعودة الذاكرة إلينا تعنى أن نعرف تاريخنا وأمجادنا وأصالتنا. وما حققناه لهذا العالم الحديث من حضارة ومعرفة ورقى كما تعنى أن نعرف ما قام به أجدادنا الأوائل من بطولات وأمجاد خالدة أبد الدهر لنشر دين الله القويم.

ليس بإنســـان ولا عالـــــم	من لا يعى التاريخ فى صدره
ومن درى أخبار من قبله	أضاف أعمارا إلى عمره

ولعلنى فى هذه الأيام الحافلة بالحوادث الجسام التى تمر بها الأمة العربية والإسلامية وما أبتلاها الله تعالى به من محن وخطوب. فى مطلع القرن الخامس عشر الهجرى لعلنا ننظر إلى تاريخ أمتنا الإسلامية الحافل بالأمجاد والبطولات والتضحيات فى مشارق الأرض ومغاربها مستلهمين منه العبر والعظات ومتخذين منه نبراسا يضئ لنا الطريق إلى مستقبل مشرق زاهر باذن الله حتى نستعيد مكاننا بين الأمم وحتى ننتصر فى تلك الحرب الضروس التى يشنها ضدنا تحالف قوى الاستعمار بشتى الطرق والأساليب مستهدفا طمس معالم حضارتنا والتشكيك فيها وفرض التبعية عليها فى كل مجالات الحياة وخاصة الثقافى والعسكرى منها.

ولعل أخطر أشكال تلك الحرب الحضارية هو الغزو الفكرى والنفسى والإعلامى الذى يستهدف تدمير أغلى ما تملكه هذه الأمة وهو (الإنسان) ذاته.

ولذلك رأيت أن أقدم هذه الدراسة الموجزة والموضحة بما تيسر من وسائل الإيضاح لأهم معارك التاريخ الإسلامى والفتوحات الإسلامية بدءا من عهد الخليفة «أبى بكر الصديق» رضى الله عنه حتى منتصف القرن التاسع الهجرى سواء فى الشرق أم

الغرب مع شرح ما أحاط بها من ظروف وملابسات. هذا بالإضافة إلى التعريف بقادتها العظام الذين سجلوا فى هذه المعارك بطولات فذة وعبقرية نادرة وتضحيات غالية، بقيت آثارها حتى عصرنا الحاضر. آملا أن يجد فيها شباب هذه الأمة ما يحفزهم على استعادة أمجاد الماضى والانطلاق إلى آفاق الرفعة والمنعة والعزة.

راجياً أن أكون قد وفقت فيما قصدت

والله يسدد خطانا لما فيه الخير والصلاح وهو يهدى السبيل...

القاهرة فى ١٩٩٤/٣/٩

اللواء أركان الحرب

محمد فريد عبد القادر

الفصل الأول

المثنى بن حارثة الشيبانى
أول من قاتل الفرس

من هو المثني بن حارثة ؟

هو من بنى شيبان أحد فروع قبيلة بكر بن وائل. من ربيعة كانت أسد ومن أسد كانت جديلة ومن جديلة «بكر بن وائل بن قاسط»، ومن بكر كان شيبان بن ثعلبة جد المثني.

وكانت ديار ربيعة بين الجزيرة والعراق إلى البحرين على شواطئ الخليج، ولم تكن لديهم مدن ولا قرى وإنما كانوا أصحاب مضارب وخيام وأهل بداوة وحل وترحال.

فى هذه البيئة البدوية العربية الخالصة نشأ المثني وساد قومه، فقد كان أكثرهم شجاعة وفروسية وعزيمة وصدقاً وجلداً وصبراً وإقداماً فى الحرب. نشأ معتزاً بعروبته. وكان للفرس سلطان فى البحرين وعمان استوطنها بعضهم وكثيراً ما وقع الصدام بينهم وبين بنى شيبان فاكتسب المثني خلال ذلك جرأة علي قتال الفرس واقتحام سوادهم.

المثني فى الجاهلية

كان المثنى بن حارثة بطلاً عربياً وشجاعاً محباً لعروبته منذ جاهليته ولذلك حارب الفرس من أجل المحافظة على حرية العرب وكرامتهم. وحينما غدر كسرى ملك الفرس «بالنعمان بن المنذر» وكان ملكاً على الحيرة وهى إمارة عربية صغيرة على الحدود بين بلاد العرب والفرس – وقتله فى السجن – غضب المثني غضباً شديداً وأخذ يحمس قومه من قبائل بكر وربيعة وبنى شيبان ويدعوهم إلى الاتحاد والأخذ بالثأر من ملك الفرس. ثم قاد المثني جموعاً كبيرة من أبطال وشجعان هذه القبائل والتقى بالفرس فى «ذى قار»[1] ونشبت لأول مرة معركة كبيرة بين العرب والفرس وانتهز المثني فرصة اختلال جيش الفرس وهاجمهم هجوماً شديداً وأظهر شجاعة نادرة فهزم الجيش وقتل عدداً من قواده.

(١) حدثت معركة «ذى قار» فى السنة الثالثة للبعثة المحمدية. أى سنة ٦٢٣ م.

إسلام المثنى (٩ هـ)

ظهر الإسلام وأشرق نوره على الأرض وبدأ «رسول الله (صلعم) » يقود جيوش الصحابة والمسلمين للدفاع عن دين الله وإعلاء كلمة الحق وإقامة موازين العدل بين الناس ونشر مبادئ الحرية والإخاء الإسلامي والمساواة بين الناس، وكان «المثني بن حارثة» يعيش وقتئذ مع قومه على شواطئ الفرات لا يعلم شيئاً عن الإسلام وتعاليمه الجديدة. ولكن أخبارا سارة كانت تصل إليه بين الحين والآخر عن سماحة الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعدالة الدين الجديد ودعوته إلى الحق والحرية والكرامة والعزة، وكان المثني يحب هذه المبادئ جميعها بل لقد قاتل الفرس من أجلها. ولذلك أخذ يفكر في الإسلام تفكيراً جدياً وشعر في قرارة نفسه أن هناك شيئاً يجذبه إليه فأرسل رسلاً من أصدقائه المخلصين إلى مكة والمدينة ليأتوه بخبر هذا الدين الجديد وليحصلوا على صورة كاملة لدعوة الإسلام التى جاء بها الرسول «محمد (صلعم) »وعاد الرسل بعد أن أقاموا أياماً فى مكة والمدينة ومعهم الأخبار الصحيحة عن دين الإسلام ودعوة الرسول صلوات الله وسلامه عليه. فأسرع بالسفر إلى المدينة المنورة فى جماعة من بنى شيبان وقابل الرسول (صلعم) وأعلن إسلامه راضياً فى السنة التاسعة من الهجرة وباركه الرسول ودعا له. ودخل الإيمان قلبه وارتاحت نفسه لهذا الدين الجديد.

المثنى وحربه للمرتدين

كانت الردة حركة سياسية اجتماعية هدفها الخروج عن سيادة المدينة المنورة وسلطانها وكان للتعصب القبلى أثر واضح فيها حتي أن من امتنع عن دفع الزكاة إنما كان للخروج على السلطة الشرعية للمدينة لاعتقاده أنها جزء من إذلاله وامتهانه.

وقد حدثت ردة بكر بن وائل فى البحرين بعد وفاة الرسول وقد شكلوا وفداً من رؤسائهم وقدموا على كسرى ملك الفرس لاختيار الشخص الذى سيؤمر عليهم وقد اختار لهم كسرى المنذر بن النعمان بن المنذر ليكون ملكاً «فعقدوا التاج على رأسه وقد عزموا على إطفاء نور الله وقتل أولياء الله».

ولكن بنى شيبان وعلى رأسهم المثني بن حارثة قد أغاظهم موقف بنى بكر بن وائل من إقبالهم على الردة فكتب إليهم المثنى بن حارثة ينهاهم عما قد أزمعوا عليه من حربهم لإخوتهم عبد القيس ويهددهم بالمهاجرين والأنصار. ولكن بكر بن وائل ركبت رأسها واستمرت على ردتها، لذلك لم يكن هناك من سبيل أمام بنى شيبان إلا أن يقفوا فى وجههم ويقاتلوهم للقضاء على هذه الردة.

وكان المثنى وهو البطل العظيم والمجاهد الكبير يتذكر غزوات الرسول وما حدث فيها من أعمال البطولة والفداء فتضيق نفسه لأنه لم يبادر بإسلامه حتى يكسب شرف الجهاد مع رسول الله (صلعم). وكأن الله تعالى قد استجاب لرجائه فقد أخذ يقاتل المرتدين بكل شدة، وجهز الخليفة أبو بكر الصديق جيوش المسلمين لمحاربة هؤلاء المرتدين. وهنا تهيأت الفرصة للبطل الشجاع المثني بن حارثة لكى يقوم بدور طالما تمناه فى خدمة الإسلام والدفاع عنه فقاد جيوشاً من ربيعة وبنى شيبان يحارب بها المرتدين ويساعد جيوش الخليفة «أبى بكر الصديق». وكانت الأخبار تصل إلى الخليفة «أبى بكر الصديق» بما يقوم به هذا البطل الشجاع فى حرب المرتدين وتأديبهم وإعادتهم إلى حظيرة الإسلام مرة أخرى. فيتعجب الخليفة كل العجب ويعظم من شأن هذا الفارس المتطوع لنصرة الإسلام لأنه لم يكلفه القيام بهذه الأعمال لكن المثني كان يشعر أن من واجبه الجهاد فى سبيل الله لرفع راية الإسلام وقتال المرتدين عنه. وقد انتصر المثني فى كل معاركه ضد هؤلاء المرتدين واستمر فى قتالهم حتى التقى بجيوش الخليفة أبى بكر فى البحرين بقيادة «العلاء ابن الحضرمى» فحارب معه جنباً إلى جنب حتى تم النصر على جميع المرتدين.

المثنى يجاهد الفرس

لم يكن العراق وخاصة أطرافه المتاخمة للجزيرة العربية بغريبة على بنى شيبان إذ كانوا يتاخمون العراق وكثيراً ما شنوا الغارات على أطرافه كما أن معركة ذى قار وقعت فى صحراء العراق بقيادة بنى شيبان الذين كانوا فى نزاع دائم مع الفرس. ولم تكن معركة ذى قار إلا حافزاً كبيراً لبنى شيبان خاصة والعرب عامة على الإغارة على الفرس والجرأة على ممتلكاتهم. واستمرت غاراتهم حتى أيام أبى بكر الصديق عندما دخل المثنى بن حارثة الشيبانى جنوب العراق فى السنة الحادية عشرة للهجرة لمطاردة المرتدين.

ولذلك فإن قرب منازل بنى شيبان من دولة آل ساسان بالإضافة إلي غاراتهم القوية على أطراف العراق كانت عاملاً أساسياً فى معرفة بنى شيبان لمسالك العراق وثغرات الضعف فيها ومواطن القوة، فلا غرابة إذن فى أن يكون بنو شيبان هم أول من اعتاد الحروب مع العجم.

وقد رأي المثني بعد إسلامه وبعد انتصاره على المرتدين أنه لابد من محاربة الفرس لكى ينتشر الإسلام فى بلادهم ويعيدهم إلى الهدى وعبادة الله الواحد القهار بدلاً من عبادة النار وأن ذلك الأمر لا يتم إلا بفتح بلادهم. وأراد المثني أن يرجع فى

ذلك إلى الخليفة «أبى بكر الصديق» لكى يستأذنه فى محاربة الفرس ولكنه خشى ألا يأذن له الخليفة حينئذ فتضيع عليه الفرصة - فرصة قتال الفرس الذين أذلوا العرب قروناً طويلة، لذلك ندب نفسه وقومه لمحاربتهم فى جنوب العراق دون الرجوع للخليفة «أبى بكر الصديق» الذى كان فى هذه الفترة يرسل جيوش المسلمين إلى بلاد الشام اتماماً للعمل الذى بدأه (صلعم) فى غزوة مؤتة إنفاذاً لجيش «أسامة بن زيد» الذى عينه الرسول (صلعم) قبل وفاته للتوجه إلى بلاد الروم وأنفذه الخليفة «أبو بكر» بعد أن ولى الخلافة مباشرة ولهذا لم يكن الخليفة أبو بكر يفكر فى غزو الفرس حينئذ.

سار «المثنى ابن حارثة» لقتال الفرس وهو واثق من النصر، فقد انتصر عليهم فى الجاهلية وسوف ينتصر عليهم إن شاء الله بعد أن أعزة الله بالإسلام سار ومعه أخواه «المعنى ومسعود بن حارثة» والجيش الذى أعده من قومه فهزم جيوش الفرس التى وقفت فى طريقه واستمر فى سيره حتى وصل إلى شط العرب فى جنوب العراق الذى يلتقى عنده النهران الكبيران «الدجلة والفرات». وكانت أخبار هذه الانتصارات تصل إلى الخليفة أبى بكر فيشتد فرحه ويقول: «من هذا الذى تأتينا أخباره وانتصاراته قبل أن نعرف نسبه». فرد عليه قيس بن عاصم «هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا بقليل العدد والمدد أيها الخليفة إنه المثنى بن حارثة الشيبانى».

الإذن للمثني فى قتال الفرس

بعد حروب الردة وما بعدها قدم المثني إلى المدينة المنورة وقابل الخليفة «أبا بكر الصديق» ليستأذنه فى قتال من يليه من الفرس فأذن له الخليفة بذلك بعد استشارة كبار الصحابة. وقد قال المثني للخليفة: «أمّرنى على من قبلى من قومى وأنا أقاتل من يلينى من أهل فارس وأكفيك ناحيتى». فقبل أبو بكر ذلك. وطلب المثني من الخليفة «أبى بكر» الموافقة على إشراك المرتدين فى الحرب لأن الخليفة كان يرى حرمان المرتدين الذين عادوا للإسلام من الانضمام إلى جيوش المسلمين وعدم الاشتراك فى الجهاد فى سبيل الله كنوع من العقاب لهم بإشراكهم فى غزو بلاد الروم والفرس وغيرها بينما كان يرى المثني أنهم إذا حملوا السيوف دفاعاً عن دين الله كان ذلك تكفيراً لذنوبهم وفرصة لتقوية الإسلام فى نفوسهم ولكي يثبتوا ويبرهنوا على حسن إسلامهم وقوة إيمانهم. فاقتنع الخليفة «أبو بكر رضى الله عنه» بقول المثني وعدل عن رأيه وقرر إشراك جميع المسلمين الذين عادوا للإسلام بعد ارتدادهم فى جيوش الفتح. عندئذ أخذت جموع كثيرة منهم تتدفق على المدينة انتظاراً للأوامر التى يصدرها الخليفة - فى لهفة - للتوجه إلى الجهاد فى سبيل الله.

رجع المثنى إلى قومه وأخذ يغير على أسفل العراق تارة وعلى نواحى كسكر فيما بين «دجلة والفرات» . وتارة على أسفل الفرات. وكان المثني ذا نظرة حربية ثاقبة فأعمل فكره فى الأمر ثم بعث أخاه «مسعود بن حارثة» إلى أبى بكر بالمدينة يسأله المدد ويقول: «إن أمددتنى وسمع بذلك العرب أسرعوا إلى وأذل الله المشركين مع أنى أخبرك يا خليفة رسول الله (صلعم) أن الأعاجم تخافنا وتتقينا».

أبو بكر يندب خالد لفتح العراق

ما لبث أبو بكر أن نظر إلى موضوع العراق نظرةً أخرى ورسم خطته على أن يطبق عليه «بفكى كماشة» بجيشين جيش من أسفله بقيادة «خالد بن الوليد» وجيش من أعلاه بقيادة «عياض بن غنم» على أن يلتقيا فى الحيره وكتب إلى خالد بن الوليد بذلك وهو فى اليمامة بعد أن فرغ من أمر مسيلمة الكذاب وبنى حنيفة فى حروب الردة. كما كتب للمثني بكتاب جاء فيه: «أنى قد وليت خالد بن الوليد فكن معه» وكان عندئذ بسواد الكوفة فجاء مسرعاً إلى خالد ليعمل تحت إمرته فى فتح سواد العراق. وقد فرح الشيبانيون بمدد الحجاز فرحة كبيرة وخطب المثني بن حارثة فى جنوده قائلاً «بكامل التعظيم والتكريم بلغتنا رسالة الصديق وبمجيء خالد ستكون البشرى».

وقد سار خالد فى عام ١٢ هـ فى ألفين من المسلمين وانضم إليه ٨ آلاف من ربيعة ومضر فكان جيش خالد بذلك أول جيش إسلامى يتجه خارج الجزيرة العربية نحو الشمال الشرقى لنصرة المثني وحرب الفرس كما انضم إليه بعض أمراء الجند فى ٨ آلاف آخرين وجميعهم لم تسبق لهم ردة.

خالد يبدأ الزحف على سواد العراق

بدأ خالد زحفه على سواد العراق والمثني وقواته تحت إمرته واتجه نحو ثغر «الأبلة» وكانت أكبر ميناء على شط العرب ويحكمها هرمز الفارسى وكان من أسوأ الأمراء جواراً للعرب.

وقد سارع هرمز لملاقاة خالد بعد أن دبر مكيدة للإيقاع بخالد ولكن فشلت مكيدته وقتله خالد وتمكن من هزيمة الفرس فى واقعة «ذات السلاسل» أو «كاظمة» فى محرم ١٢ هـ. كما استطاع خالد هزيمة الفرس فى واقعة «المذار». ثم استمر تقدم خالد بعد ذلك إلى «الولجة» حيث هزم الفرس مرة أخرى. وبعد ذلك انتصر خالد فى معركة «أليس» حيث دار فيها قتال عنيف مستميت بين الطرفين إلا أن خالد أنهى

المعركة لصالحة. ثم تقدم بعد ذلك إلى «الحيرة» حيث انتصر خالد على أهلها وصالحهم على الجزية واتخذ من الحيرة مقرا لقيادته.

وقد أقام خالد بالحيرة عاماً كاملاً انتظاراً لوصول عياض بن غنم وقواته ولكن عياض لم يستطع التغلب على «دومة الجندل» فسئم خالد الانتظار وخرج إلى الأنبار فاستولى عليها ثم سار إلى عين التمر فحاصرها وفتحها. وقد أرسل عياض إلى خالد يستنجد به بعد أن عجز عن فتح «دومة» فأسرع إليه خالد واستطاع اقتحام حصون «دومة» وفتحها. وقد استمر خالد فى تقدمه شمالاً حتى بلغ «الفراض» وهى على تخوم العراق والشام.

وهكذا استطاع خالد فض جميع حصون الفرس وفرق جموعهم فى كل مكان ما بين دجلة والفرات ولم يبق له سوى عبور دجلة والوصول إلى المدائن.

المثني يتولى القيادة مرة أخرى

عندئذ وصل إلى «خالد» أمر الخليفة «أبى بكر الصديق» بترك العراق والتوجه إلى الشام حيث كان موقف المسلمين خطيراً أمام حشود الروم. ويبدو أن خالد قد استأثر بأصحاب رسول الله (صلعم) ولم يبق مع المثني منهم أحداً، فاعترض المثني على ذلك فنزل خالد على رغبته وأرضاه. وبعد رحيل خالد وجنوده تولى المثني قيادة المسلمين.

وقد أصبحت مهمة المثنى بن حارثة صعبة بعد رحيل خالد بن الوليد كما تضاعفت مسئوليته إذ أصبح عليه أن يحافظ على الأراضى المحررة وأيضاً الاستمرار فى إنجاز خطة التحرير حسب قواعد الدين الإسلامى الجديد.

ولكن المثنى كان أهلاً لهذه المسئولية فعاد إلى الحيرة بعد توديع خالد فى «قراقر» وأخذ يعد قواته وينظم الحاميات ويستعد استعداداً كاملاً لملاقاة الفرس.

معركة بابل (أواخر ربيع الأول سنة ١٣هـ - أواخر مايو سنة ٦٣٤م)

ظن الفرس أن موقف العرب أصبح ضعيفاً بعد رحيل خالد فتغلبوا على خلافاتهم الداخلية فآل ملك الفرس إلي شهر براز (خنزير الدولة) ابن أردشير واستتب له الملك فكان أول ما قام به هو إرسال جيش ضخم بقيادة القائد الكبير هرمز جاذويه قدر بعشرة آلاف مقاتل يتقدمه فيل ضخم. وجعل على يمينه «الكوكبذ» وعلى ميسرته «الخركبذ».

وقد خرج المثنيى من الحيرة نحو حشود الفرس بعد أن ضم إليه المسالح ونظم

جيشه فجعل على ميمنته أخاه المعنى الشيبانى وعلى ميسرته أخاه الآخر مسعود واتخذ معسكره فى بابل.

وتقدمت جحافل الفرس يتصدرها الفيل الضخم الذى أرهب خيول العرب وأربكها فتولى المثني بنفسه أمر هذا الفيل فاستل سيفه وقتله بعد أن قطع خرطومه.

وعلى الرغم من ضراوة المعركة إلا أن الفرس لم يصمدوا بعد قتل الفيل طويلاً إذ سرعان مادبت الهزيمة بين صفوفهم فولت فلولهم هاربة وقوات العرب والمسلمين تلاحقهم حتى وصلوا إلى المدائن ثم عادوا.

نتائج المعركة

يبدو أن هذا الانتصار الرائع الذى حققه الشيبانيون ومن معهم من العرب والمسلمين بقيادة المثنى بن حارثة الشيبانى قد نبه المسئولين من حكام فارس إلى أن الملاحم البطولية التى انتصر فيها العرب ليست بالغارات العابرة والتقليدية كما كانت فى الفترات السابقة للإسلام وإنما هى معارك من طراز جديد سيكون لها نتائجها الكبيرة والخطيرة عليهم فراحوا يتأهبون لمعارك فاصلة غير التى ألفتها حشودهم السابقة.

أما من جهة العرب فقد أدرك المثني بن حارثة أن تحرير العراق والاحتفاظ بما فتحه من أرض وطرد النفوذ الفارسى الضخم منه لا يمكن القيام به بتسعة آلاف فقط من الرجال فذهب إلى الحجاز سراً فى ١١ جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ ليحيط الخليفة أبا بكر الصديق بالموقف ويطلب منه العون فوصل المثني إلى المدينة المنورة والخليفة أبو بكر مريض مرض الموت فأوضح له موقف المسلمين وموقف الفرس المضطرب بعد وفاة كسرى وما ترتب عليه من اضطراب حول عرش فارس وأقنعه بضرورة إرسال جيش كبير يقوم بمهمة الفتح، فاقتنع أبو بكر رضى الله عنه وأرسل إلى عمر بن الخطاب قائلاً: «إذا أنا مت فلا تمسين حتى تندب الناس مع المثني ولا تشغلنكم مصيبة وإن عظمت». وتوفى الخليفة أبو بكر رضى الله عنه من يومه وقام عمر بن الخطاب فندب الناس مع المثني بمجرد أن بويع الخليفة بالخلافة.

المثني جندى إسلامى أمين

جهز الخليفة عمر بن الخطاب بعد توليه الخلافة جيشاً لغزو بلاد الفرس ولكنه رأي ألا تكون قيادته للمثنى بن حارثة بل جعلها «لأبى عبيد الله بن مسعود الثقفى». ومع أنه – أى ابن مسعود – لم يكن معروفاً بالكفاءة الحربية كما أنه لم يكن خبيراً فى حروب الفرس ولا عالماً بطبيعة المنطقة والبلاد التى ستحارب فيها جيوش المسلمين

ولكنه كان من كبار الصحابة. إلا أن المثني قد عمل تحت قيادته جندياً إسلامياً مخلصاً أميناً مجاهداً فى سبيل الله لا يبغى عرض الدنيا وزخرفها. وكان يتقدم إلى قائده ابن مسعود بالنصيحة والرأي والمشورة وكان ابن مسعود بدوره يتقبلها ويعمل بها عن طيب خاطر فالجميع كانوا – قادة وجنوداً – مجاهدين فى سبيل الله.

المثني ينسحب إلى خِفّان[1] ويلحقه أبو عبيد

سارع المثني بالعودة من المدينة إذ علم باستعداد الفرس مرة أخرى لقتال المسلمين. وانسحب بقواته من الحيرة دون قتال إلى «خفان» على تخوم الصحراء جنوب القادسية حتى يتمكن المسلمون إذا لم يستطيعوا التغلب على الفرس وخافوا أن يطوقهم العدو – أمكنهم أن يتقهقروا إلى الصحراء خلفهم التى لا يعرف الفرس دروبها ولا طرق القتال فيها وذلك نظراً لضخامة قوات الفرس وكثرة عددهم وعدتهم. وقد لحقه أبو عبيد وقواته فى هذا المكان بعد شهر فى حوالى ٣ شعبان سنة ١٣ هـ. وكانوا حوالى أربعة آلاف من المهاجرين والأنصار.

بوران ورستم والفتنة فى بلاط فارس

بوران بنت كسرى برويز كانت من أكثر أهل فارس عقلاً وغيرةً على صالح دولتها كما كان لها مواقفها وشخصيتها مما جعل ساسة فارس يلجأون إليها ويأتمرون بأمرها. بينما كان رستم بن فرخزاد حاكماً لخراسان بعد مقتل أبيه بواسطة آزر ميدخت بنت كسرى التى تآمرت على قتله فى صراع على السلطة على عرش فارس. وقد ثار رستم بخراسان بعد مقتل أبيه وزحف إلى المدائن حيث تمكن من دخولها وقتل آزر ميدخت ثأراً لمقتل أبيه. وبذلك استقرت الأوضاع الداخلية لبلاد فارس وانتهى الصراع على العرش باعتلاء بوران بنت كسرى العرش فولت رستم شئون الحرب ومنحته أوسع السلطات (وزير حربية تقريباً) فى وجود الفيروزان وزير الحربية الأصلى. وهنا دب الخلاف بين القائدين، ولكن نظراً لازدياد تهديد الجيوش العربية لبلادهم وللهزائم المتكررة التى منيت بها الجيوش الفارسية، فقد اتفق القائدان على اقتسام السلطة للتفرغ للحرب ضد العرب. وبمجرد استقرار الأوضاع أخذ الفرس فى الاستعداد استعداداً كاملاً لملاقاة العرب. فكتب رستم إلى دهاقين السواد بالتمرد على المسلمين وأمّر على كل رستاق رجلاً يثور بأهله – فبعث جابان إلى أسفل العراق وبعث نرسى إلى كسكر وأرسل قوة لمجابهة المثنى بن حارثة. ويبدو أن رستم أراد من وراء خطته إرباك القوات العربية

(١) موقع قرب الكوفة وفوق القادسية. (ياقوت – معجم البلدان).

الإسلامية المنتشرة من خلال تعدد بؤر التمرد - فلما أدرك المثنى بن حارثة ذلك أمر بانسحاب حامياته وضمها إليها وأخذ يرقب الأوضاع بحذر تام.

وحينما زحف جابان إلى النمارق[1] وتمردت الرساتيق الفارسية على طول نهر الفرات انسحب المثنى بن حارثة إلى خِفّان.

العمليات العسكرية قبل معركة الجسر

بعد استراحة فى خفان عبأ خلالها أبو عبيد جيشه تقدم بجموع المسلمين إلى حشود الفرس بقيادة «جابان» فى النمارق والتى استعدت تماماً للحرب.

وقد بدأت المعركة بقتال شديد أبلى فيه المسلمون والعرب بلاء الأبطال وصمدوا صمود المقاتلين الأفذاذ الأمر الذي أدي إلي هزيمة الفرس وأسر قائدهم «جابان» ومقتل مساعده، وولت جموعهم هاربة إلى كسكر[2] يبغون الحماية من «نرسى» حاكمها الفارسى. وقد أثر انتصار بنى شيبان والعرب والمسلمين تأثيراً كبيراً على معنويات الفرس ملكاً وشعباً فأرسلوا إلى نرسى يحثونه على الصمود. ولم يكن الرجل أسعد حظاً عمن سبقه فأمر أبو عبيد المثنى بن حارثة بملاحقة من قصد نرسى من فلول الفرس الهاربة.

وبينما كانت قوات بنى شيبان تلاحق الفرس المذعورين - قصد أبوعبيد معسكر نرسى جنوب كسكر وبخطة محكمة بين القائدين أبو عبيد والمثنى بن حارثة تقدما بهجوم خاطف فى السقاطية[3] (١٢ شعبان ١٣ هـ) نحو قوات نرسى فقاتلاهم قتالاً شديداً اضطر الفرس بعده إلى الفرار قائداً وجنوداً يجرون وراءهم أذيال الهزيمة.

لم يترك الشيبانيون قوات الفرس المنهزمة وإنما لاحقهم المثنى بن حارثة وأعمل فيهم السيف حتى خرج له اثنان من دهاقين الفرس طالبين الصلح فأرسلهم إلى أبى عبيد فقبل صلحهما.

معركة الجسر (٢٣ شعبان ١٣ هـ - اكتوبر ٦٣٤ م)

بعد هزيمة الفرس عين رستم قائداً جديداً هو «بهمن جاذويه» فقاد جيشاً قوامه ثمانون ألف مقاتل وعدد من الفيلة عليهم رماة السهام.

---

(١) موضع قرب الكوفة من أرض العراق. نزل به المسلمون فى أول ورودهم للعراق.
(٢) كسكر موضع بين الكوفة والبصرة. «ياقوت. معجم البلدان».
(٣) السقاطية ناحية بكسكر من أراضى واسط (ياقوت، معجم البلدان).

تحرك «بهمن» من المدائن إلى الحيرة وتحرك أبو عبيد فجعل الفرات بينه وبين المجوس. فأرسل بهمن رسولاً إلى أبي عبيد فقال له «إما أن تعبروا إلينا أو نعبر إليكم». فقال المسلمون لا تعبر يا أبا عبيد ونصحه قادته وعلى رأسهم المثني[1] بعدم العبور. ولكنه أصر على العبور بعد جدال عنيف والاتهام بالجبن لمن لا يعبر متناسياً نصيحة الخليفة عمر له بمشورة أصحابه وكتمان سره عن العدو. وأمر بإقامة جسر للعبور. (كان الجسر قديماً لأهل الحيرة يعبرون عليه فأصلحه أبو عبيد بعد أن كان معتلاً مقطوعاً).

عبر المسلمون النهر والتحم الفريقان وأطلق الفرس الفيلة وجموعهم الكبيرة وراءها على المسلمين الذين وجدوا أنفسهم محصورين بين النهر من خلفهم والعدو من أمامهم. قاتل المسلمون قتالاً شديداً مضحين بأنفسهم رخيصة فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ولكن فعلت الفيلة فعلها وقتل أبو عبيد بواسطة أحدها كما قتل سبعة من أهله تولوا القيادة من بعده ولكن هزم المسلمون رغم ذلك وغرق عدد كبير منهم فى النهر.

المثني ينقذ الموقف ويسحب باقى المسلمين

تولى المثني القيادة فى هذه الظروف العصيبة بعد استشهاد أبو عبيد وتجلت شجاعته وحسن تدبيره فقد استطاع أن يصلح الجسر الذى عبر عليه المسلمون والذى حاول أحدهم قطعه حتى لا يتراجع المسلمون. ووقف ومن معه من بنى شيبان الذين التفوا حوله ولبوا نداءه بصد قوات الفرس والفيلة حتى عبر المسلمون عليه. وقد خسر المسلمون فى هذه المعركة ٤٠٠٠ شهيد بين قتيل وغريق بينهم عدد كبير من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين وهم الذين خرجوا من المدينة مع أبى عبيد وكانت هذه خسائر فادحة جداً بالنسبة للمسلمين حينئذ. ويذكر المسعودى أن من غرق فى هذه المعركة كان أكثر ممن قتل وأن من نجا منهم غادر المعسكر يريد النجاة.

وأرسل المثنى بن حارثة رسولاً إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليخبره بخبر هذه المعركة وكان متلهفاً لسماع أخبار العمليات الحربية فى العراق لانقطاعها عنه فترة من الزمن فلقيه رسول المثني فى المسجد فأخبره بأمر المسلمين حيث قال له «يا أمير المؤمنين أنعى أليك أبو عبيد رحمه الله وأنعى إليك بنيه الثلاثة» ثم لم يزل ينعى وجوه المهاجرين والأنصار، فقاطعه عمر رضى الله عنه وسأل عن المثنى بن حارثة الشيبانى، فقال تركته جريحاً يا أمير المؤمنين، فأظلمت الدنيا فى

(١) قال المثنى «أيها الأمير لا تقطع هذه اللجة فتجعل نفسك ومن معك عرضة لأهل فارس»

عيني عمر وبكى وأبكى من معه في المسجد ثم نهض من مكانه في المسجد داعياً الناس إلى التطوع لتعزيز قوة المثني لإتمام الرسالة. ثم أمر جرير بن عبد الله البجلى مع قومه بالسير إلى العراق كما كتب إلى أهل الردة بالتوجه إلى المثني.

وهكذا أنقذ المثني موقف المسلمين ولولاه لكانت الكارثة أشد هولاً والمصيبة أفدح وقد أصيب المثني في هذا القتال إصابة كبيرة أدت إلى وفاته فيما بعد.

الموقف بعد الجسر

ابتهج رستم والفرس بهذا النصر، الذى كان أول وآخر نصر حققوه ضد المسلمين فى العراق. وقرر رستم انتهاز فرصة هذه الهزيمة للقضاء المبرم على المسلمين. فقرر إرسال جيش كبير من الفرسان بقيادة مهران بن باذان على وجه السرعة.

معركة البويب (رمضان ١٣ هـ - نوفمبر ٦٣٤ م)

لم تفتر همة المثني بعد الجسر فبعث رغم جرحه العميق إلى من يليه من قبائل العرب لنيل شرف القتال ضد الفرس فتوافدوا إليه فى جموع كثيرة لم تقتصر على القبائل العربية المسلمة فحسب وإنما سارع إليه بعض العشائر العربية النصرانية التي أرادت نصرة قومها حمية منها وانتقاماً من الفرس الذين طالما أذلوهم فى الماضى. وكان المثني قائداً عظيماً محنكاً مقداماً فطاف بالصفوف راكبا «الشموس» يأمرهم بأمره ويحرضهم ويهزهم بأحسن ما فيهم ثم سارع المثني لملاقاة الفرس بمن بقى معه من أبطال الجسر وبما كان قد وصله من إمداذات متتابعة من المدينة وغيرها. والتقى الجيشان عند البويب والنهر بينهما. وقد دعا الفرس المثني للعبور ولكنه لم يعبر فعبر «مهران» إليه وعاجلوا المسلمين بالقتال ولكن المسلمين استبسلوا وقاتلوا قتال الأبطال واندفع المثني نحو القلب حيث يوجد القائد الفارسى مهران ودفعه للخلف حتى انفصلت ميمنة الفرس عن ميسرتهم فأحاطتهم قوات المسلمين فانهزم الفرس وولوا الأدبار نحو الجسر ليعبروا فارين نحو المدائن ولكن المثني أسرع وسبقهم للجسر وردهم عنه فازداد اضطرابهم وهزموا شر هزيمة وقتل مهران قائد الفرس فى المعركة وسمى ذلك بيوم الأعشار حيث أحصوا مائة مسلم كل منهم قتل عشرة من الفرس. وكان لمقتل «مهران» قائد الفرس فى المعركة أثر كبير فى زيادة ارتباكهم وتفرق جمعهم ثم هزيمتهم هزيمة نكراء.

مطاردة المثني لفلول الفرس

بعد ذلك انطلق المثني ورجاله فى حركة مطاردة مثيرة نحو بلاد السواد وفى أعماقها وفلول الفرس تفر أمامهم فرار النعام حتى وصل قرب المدائن. وبذلك حقق المثني نصراً رائعاً خالداً على مدى التاريخ أزال به وصمة الجسر عن جبين المسلمين وأعاد لهم الثقة فى النصر النهائى وانتقم لشهداء الجسر أشد الانتقام، وبذلك استتب الأمر للمثني كما استتب لخالد من قبل. وقد استشهد فى هذه المعركة أحب الناس إليه وشريكه فى الجهاد سنين طويلة أخوه البطل مسعود بن حارثة.

والواقع أن هزيمة الفرس فى البويب قد فتحت الباب أمام المثني ورجاله على مصراعيه ليجولوا فى العراق من شماله إلى جنوبه فى غارات وضربات سريعة ما بين «أليس» و«كسكر» جنوباً إلي «الخنافس» شمالاً.

أثر الهزيمة على الفرس

كانت هزيمة البويب أليمة الوقع على الفرس عامةً ورستم بصفة خاصة فوحد بلاط كسرى صفوفه بعد طول تمزق وصراع على السلطة، فقد كان رستم «والفيروزان» يتنازعان السلطة والدهاقون منقسمون بينهما فذهب أهل فارس إلى «بوران» وحذروها من سوء العاقبة فاتفق رستم والفيروزان على تعيين «يزدجرد» بن شهريار بن كسرى على عرش الأكاسرة وكان شاباً عمره حوالى واحد وعشرين سنة. وبدأوا جميعاً فى العمل على حشد الجيوش الجرارة لإلحاق هزيمة كبرى بالعرب واتحدت كلمة الفرس على «يزدجرد» وتباروا جميعاً فى معونته وشد أزره ليثأر لهم من العرب.

المثني يطلب المدد

بعث المثني بهذه الأنباء إلى أمير المؤمنين رضى الله عنه واضطراره للانسحاب بقواته إلى «ذى قار» على تخوم الصحراء مرة أخرى بعد ثورة أهل السواد على المسلمين بأمر وتشجيع من «يزدجرد» حيث قرر المثني انتظار الإمدادات.

وهنا أصدر الخليفة عمر بن الخطاب نداءه الشهير إلى جميع قبائل العرب «بالتعبئة العامة» وقال (والله ليضربن ملوك العجم بملوك العرب) وكان كل ذلك مقدمة للمعركة الفاصلة الشهيرة وهى معركة القادسية.

وفاة المثني

بقى المثنى يحشد قواته ويرسل السرايا حوله انتظاراً للإمدادات من المدينة المنورة ولكن فى هذه الفترة وقبل أن يصل إليه سعد بن أبى وقاص توفى المثني من أثر

الجرح الذى أصيب به يوم معركة الجسر. وذهب أخوة المعنى ومعه أرملة المثني «سلمى» إلى سعد فى القادسية حيث انضم إلى سعد وتزوج سعد بن أبى وقاص بسلمى تكريماً للمثني كعادة العرب حينئذ.

مكانة المثنى كقائد عظيم

كان المثني من أعظم أبطال المسلمين وفى معركة «البويب» وقف المثني على رايات المسلمين راية راية يحضهم ويحرضهم ويأمرهم بأمره ويهز مشاعرهم بأحسن ما فيهم وكان يقول لهم: (إنى لأرجو ألا تؤتى العرب اليوم من قبلكم، والله ما يسرنى بنفسى اليوم شيء إلا وهو يسرنى لعامتكم) وخالط الناس فى المكروه والمحبوب فلم يستطع أحد أن يعيب له قولاً أو فعلاً أو عملاً. بل ازدادوا له حباً وبه تعلقاً.

أفعال المثني باقية

لقد حمل هذا الرجل عن المسلمين فى حرب الفرس عبئاً لم يحمله أحد مثله. كان أول مسلم ذهب إلى دلتا النهرين فدعا أبا بكر للتفكير فى فتح العراق ولولا مغامراته فيها لما فكر الخليفة فى مواجهة فارس. ولولا إقدام المثني وحسن رأيه وبراعة قيادته لما استطاع بعد أن ذهب خالد إلى الشام أن يثبت للفرس أو أن يواجههم. ثم نراه بعد ذلك جندياً باسلاً يقر معنى النظام والطاعة ويعمل تحت إمره «أبى عبيد» ولا يجد فى إقصائه عن قيادة الجيش غضاضة.

وإن يكن خالد ابن الوليد عبقرى الحرب فالمثنى بن حارثة هو السابق الأول إلي فتح العراق وهو القائد المحنك الذى حمل العبء فى أشد مواقف المسلمين دقة خاصة بعد هزيمة الجسر. وهو الحكيم الذى جمع قلوب العرب من أهل العراق حوله مع أنهم لم يكونوا مسلمين فاستطاع بما صنع من ذلك أن يضرب الفرس فى البويب ضربة لم ينتصروا بعدها قط.

ويزيد المثني فخاراً أنه أتم كل ذلك فى زمن ما أقصره. ولو جاء المدد للمثني بعد البويب لسار إلى المدائن ففتحها قبل أن يطوى العام ١٣ هـ أيامه. ولكن المدد أبطأ عليه – والموت عاجله فمات وقد عقد النصر على هامته إكليلاً من الفخار باقيا ما بقى الدهر.

تعاطف المثني مع جنوده

لقد كان المثني متعاطفاً مع جنوده وكان الشعور متبادلا تماماً وقد أشاد بالمثني وأعماله وبطولاته الكثير من الشعراء فقد قال أحدهم:

ما رأينا أميرا بالعـــراق مضـــى   مثل المثني الذى من آل شيبانـا

ان المثني الأمير القرم لا كذب   فى الحرب أشجع من ليث بخفانا

فصاحب هذه الأبيات يفضل المثني صراحة علي «خالد بن الوليد» وعلي «أبى عبيد الثقفي».

بل لقد وجدنا من يفضل المثني على سعد بعد القادسية عام ١٥ هـ وبعد أن توفى المثني فقد قال أحدهم:

وعند أمير المؤمنين نوافل   وعند المثني فضة وحرير

ومن العجيب أننا لم نعثر فى شعر المعارك والفتوح فيما رجعنا إليه من مراجع ما يشيد بخالد بن الوليد كما وجدنا من الإشادة بالمثني وامتداحه فى أكثر من موضع.

لقد كان المثني وهو في غمار المعمعة لا يغفل عن أى اعتبار حتى معنويات جنوده – فعندما رأى أثر مقتل أخيه مسعود على المسلمين قال على الفور: «يا معشر المسلمين لا يرعكم مصرع أخي – فإن مصارع خياركم هكذا».

ولا يقل هذا عن قول مسعود نفسه وهو يجود بنفسه مستبشراً بالشهادة «ارفعوا راياتكم رفعكم الله – لا يهولنكم مصرعى».

لقد كان المثني عبقريا من عباقرة الحرب بكل معنى الكلمة وقائداً من كبار قادة المسلمين فقد استطاع أن يعيد معركة الجسر مرة أخرى مع تبادل أوضاع الغالب والمغلوب فيها كما حقق منجزات رائعة فى توغله خلف الفرس بعد البويب واضعاً الخطط ومتخذا الحيطة ومقدراً للظروف المحيطة أتم التقدير حتى عاد منتصراً مرفوع الرأس والكرامة له وللمسلمين أجمعين. جزاه الله عنا خير الجزاء.

خاتمة:

والآن وداعا أيها القائد العظيم وفى ذمة الله وليذكر الناس جميعاً على تعاقب الأيام أن المثني كان الطليعة فى التمهيد للفتوحات الإسلامية العظيمة وفى نشر دين الإسلام حتى حدود الصين وبلاد الهند ولن يقلل من عظمته أنه لم يكن قرشياً ولا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد تولى القيادة من خالد ثم تولاها مرة أخرى فى البويب فكان فيها ندا لخالد إقداما وشجاعة وقيادة، بل لعله كان فيها أكثر من خالد تسامحا وحكمة.

الفصل الثانى

فتح الشام(١)

مقدمة

كان للانتصارات الكبيرة التى حققها العرب بقيادة المثنى بن حارثة الشيبانى ثم بقيادة خالد بن الوليد على الفرس فى العراق وفى جميع المعارك التى التقى فيها الطرفان، كان لها وقع كبير فى الشام وباديته مما عزز شكوك وحذر الامبراطور الرومانى الشرقى فى بيزنطية. فالغساسنة الذين يقيمون تحت كنفه بالشام هم من العرب مثلهم فى ذلك مثل القبائل العربية التى كانت على حدود العراق من اللخميين بنى تغلب وإياد...

لذا رأى من باب الحيطة والحذر أن يحصن التخوم بين الشام وبلاد العرب لصد المسلمين عن التفكير فى العدوان على أى ناحية من نواحى الامبراطورية.

وبذلك انقلبت الأمور فبعد أن كان المسلمون على عهد الرسول (صلعم) هم

---

(١) يجدر بنا ان نشير إلى أن الذى يقرأ كتب الفتوح مثل فتوح البلدان للبلاذرى وفتوح الشام للواقدى وفتح الشام للأزدى وفتوح مصر لابن عبد الحكم يرى اختلافاً كبيراً فى الروايات وهذا الاختلاف يتصل بالتواريخ وتسلسل الفتوح وغيرها.

ويرى بعض المؤرخين عدم العناية كثيراً بهذه الاختلافات إذ لا توجد هناك فائدة كبيرة فى معرفة ما إذا كانت دمشق فتحت قبل اليرموك أو بعدها – وأى أجزائها فتح على يد خالد حرباً وأيها فتح على يد أبى عبيدة سلماً. فالنتيجة التاريخية النهائية هى أن العرب انتصروا فى حروب الشام على طول الخط وهزموا الروم على طول الخط – ويلاحظ ان البلاذرى كان اكثر هذه الكتب دقة وشمولاً.

ومع ذلك فهناك من المؤرخين من تصدى لحل هذه المشكلة وبذل فيها جهداً كبيراً وهو الاستاذ أحمد كمال فى كتابه (الطريق إلى دمشق) فقد اقتحم هذه المشكلة وأفرد لها أكثر من ٧٦ صفحة من كتابه مفنداً كل كتاب وكل رواية بل وكل إسناد لها حتى وصل إلى ترتيب تاريخى لهذه المعارك على أرجح الأقوال وهو ما أخذت به واطمأننت إليه فى كتابى وهو بحث شيق ودقيق يمكن الرجوع إليه لمن شاء المزيد من التفاصيل.

الذين يسعون لتأمين تخومهم فى الشمال مخافة عدوان الروم عليهم، أصبح الروم هم الذين يسعون لتقوية تخومهم في الجنوب خوفاً من تقدم المسلمين فى عهد أبى بكر.

التفكير فى غزو الشام

دعا الخليفة أبو بكر كبار الصحابة والمهاجرين وعلى رأسهم عمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وأبو عبيدة بن الجراح للنظر فى غزو الشام فقال لهم: [إن رسول الله (صلعم) كان عول على أن يصرف همته إلى الشام[1] فقبضه الله اليه واختار له ما لديه – والعرب بنو أم وأب وقد اردت ان أستغفرهم إلى الروم بالشام فمن هلك منهم هلك شهيداً وما عند الله خير للأبرار. ومن عاش منهم عاش مدافعاً عن الدين متوجباً على الله عز وجل ثواب المجاهدين].

ثم طلب من الحاضرين رأيهم. وبعد مناقشة الأمر رضوا بالجهاد وإن آثروا أن يستعين الخليفة على عدوه بأهل اليمن وأهل شبه الجزيرة جميعاً. وفوضوه فى اتخاذ ما يراه.

فبدأ أبو بكر يستنفر الناس وكتب إلى أهل اليمن بذلك فسارع إليه الناس وعلى رأسهم ذو الكلاع الحميرى وقومه وغيره من الزعماء مع أقوامهم. كما استنفر الخليفة أبو بكر أيضاً من حوله من المهاجرين والأنصار وأهل مكة وغيرهم ليوفدهم إلى الشام.

وقد سار أول جيش إلى الشام حسب أغلب الروايات فى آخر السنة الثانية عشرة وأول السنة الثالثة عشرة من الهجرة – أواخر سنة ٦٣٣م ، أوائل سنة ٦٣٤ م.

جيوش العرب إلى الشام

١– جيش يزيد بن أبى سفيان إلى دمشق
٢– جيش شرحبيل بن حسنة إلى البلقاء (شرق الأردن حالياً)
٣– جيش عمرو بن العاص إلى فلسطين
٤– جيش عبيدة بن الجراح إلى حمص

١ – وأول جيش قصد إلى الشام كان جيش يزيد وعدد رجاله ما بين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف وقد خرج الخليفة معه يشيعه وألقى فيهم خطاباً بليغاً يبين عظمة الإسلام

(١) كان الرسول (صلعم) قد قام بنفسه بقيادة جيش المسلمين فى غزوة تبوك فى السنة التاسعة للهجرة. كما كان قد أعد جيش أسامة بن زيد ليوفده إلى حيث استشهد أبوه وأصحابه فى غزوة مؤتة. ولكن تأخر خروج الجيش بسبب مرضه ثم وفاته (صلعم).

وسمو تعاليمه وأيضاً يوضح الاستراتيجية العسكرية الإسلامية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله (صلعم).

٢- أما الجيش الثانى وهو جيش شرحبيل فكان عدده أيضاً يتفاوت ما بين ٣٠٠٠ ، ٤٠٠٠ مقاتل وأمره الخليفة أن يسير إلى تبوك - البلقاء (شرق الأردن) وآخر مراحله هى بصرى. وألقى فيه كلمة تشابه كلمته إلى جيش يزيد.

٣- أما الجيش الثالث وهو جيش عمرو بن العاص فكان أكثرهم عدداً إذ بلغ عدد رجاله سبعة آلاف مقاتل. وودعه الخليفة أبو بكر بكلمة جامعة وأمره أن يتجه إلى فلسطين وأن يكاتب أبا عبيدة وينجده إذا أراد ولا يبت أمراً إلا بمشورته.

٤- أما الجيش الرابع فكان جيش أبو عبيدة بن الجراح أمين الأمة ولما ودعه قال له لقد سمعت ما قلته لصاحبك أمس (عمرو بن العاص) فلا أعيده عليك ولا أكرره.

وقد سارت جيوش العرب من المدينة إلى معان ومن هناك كان كل جيش يأخذ طريقه إلى الوجهة التى وجهه إليها الخليفة أبو بكر رضى الله عنه.

ملاحظات حول المهمة الملقاة على عاتق القادة العرب

أولا: يلاحظ أنهم كلفوا بالعمل فى منطقة واسعة يبلغ عرضها من غزة إلى صحراء الشام حوالى ٣٠٠ كم بتقدير اليوم وعمقها من معان حتى أبواب دمشق حوالى ٤٠٠ كم.

ثانيا: كانت هذه الجيوش تبعد عن قيادتها العليا فى المدينة المنورة حوالى ١١٠٠ كم والمواصلات تكاد تكون شبه مقطوعة إلا على ظهور الإبل والتى كانت تقطع المسافة فى شهر وتعود فى شهر.

ثالثا: لم تكن لهذه الجيوش قيادة عليا موحدة فى الميدان ولكن كانت المدينة هى المرجع لكل واحد منهم يرسل إليها أخباره ويتلقى منها التعليمات والأوامر التى يسير عليها. وإن كان يمكن القول إن الرئاسة الأدبية كانت لأبى عبيدة بن الجراح لمنزلته فى الإسلام، فهو من العشرة المبشرين بالجنة وهو من أصحاب رسول الله (صلعم) الأوائل وكان من المرشحين للخلافة بعد وفاة الرسول (صلعم) حينما أراد أبو بكر أن يبايعه.

ومن المهم هنا أن نورد مقتطفات من وصايا أبى بكر إلى جيوشه وإلى المسلمين والتى تدل على عبقرية هذا الخليفة وسعة أفقه وحسن قيادته للمسلمين ولجيوش

المسلمين خاصة فى مهمة هى الأولى من نوعها فى تاريخ الإسلام وهى غزو الروم فى عقر دارهم.

«وصية أبى بكر إلى جيوشه»

من خطبته فى جيش يزيد

«إذا سرت فلا تضيق على نفسك ولا على أصحابك فى مسيرك ولا تغضب على قومك ولا على أصحابك. وشاورهم فى الأمر واستعمل العدل وباعد عنك الظلم والجور فإنه لا أفلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم».

«وإذا لقيتم القوم فلا تولوهم الأدبار» ﴿ومن يولهم يومئذ دبرة إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير﴾.

«وإذا انتصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولدا ولا شيخا ولا امرأة ولا طفلا ولا تعقروا بهيمة إلا بهيمة المأكول ولا تغدروا إذا عاهدتم ولا تنقضوا إذا صالحتم. وستمرون على قوم فى الصوامع (الرهبان) حبسوا انفسهم فذروهم وما حبسوا أنفسهم له.

ومما قاله لشرحبيل

«إذا قدم عليك رسل عدوك فأكرم مثواهم وأقلل من حبسهم حتى يخرجوا من عندك وهم جاهلون بما عندك - ولا تجعل سرك مع علانيتك فيخرج أمرك - وإذا بلغك عن العدو عورة فاكتمها حتى توافيها واستر فى عسكرك الأخبار. واذك حراسك وأكثر مفاجآتهم فى ليلك ونهارك. واصدق اللقاء إذا لقيت ولا تجبن فيجبن من سواك».

وقد اطمأن الخليفة أبو بكر حين ودع هذه الجيوش كلها ورأى النصر قريبا منه. وكيف لا يطمئن وفى هذه الجيوش زهرة المسلمين من المهاجرين والأنصار وفيها ما يزيد على ألف من صحابة رسول الله (صلعم) الذين سمعوا له وجاهدوا معه وفيها من أهل بدر والذين أمدهم الله بالملائكة فأين هؤلاء من جيش خالد بن الوليد الذى غزا العراق ومزق شمل الفرس رغم أنه كان مكونا من بقية قليلة من جيش اليمامة وأكثره ممن استنفرهم خالد بن أهل البحرين وعمان وممن قاتل أهل الردة وثبت على الإسلام فى هذه النواحى.

فأين هؤلاء ممن شهدوا بدرا وأحدا والخندق مع رسول الله (صلعم)؟؟

هذا ويلاحظ أن القوات كانت قليلة جدا بالنسبة للروم ولذلك استمر ابو بكر يستنفر الناس إلى الجهاد ويرسلهم إلى الشام حتى بلغ عددهم يوم اليرموك ٢٨ ألف

مقاتل بخلاف جيش خالد الذى جاء من العراق ويبلغ عشرة آلاف مقاتل.

كما يلاحظ أن القوة الإيمانية ووجود عدد كبير من الصحابة كان له أكبر الأثر فى الانتصارات التى حققها المسلمون بالإضافة إلى خفة الحركة والقدرة على المناورة أمام قوات الروم.

قوات الروم واستعداداتهم

لكى تكتمل أمامنا الصورة عن طبيعة القتال فى بلاد الشام ضد الروم لابد لنا من أن نلقى بعض الأضواء على قوات الروم العسكرية واستعداداتهم فى بلاد الشام. وبطبيعة الحال فليس المجال هنا مجال وصف عظمة الإمبراطورية البيزنطية واتساع ملكها العظيم الذى امتد حول البحر الأبيض المتوسط جميعه شرقا وغرباً ولا عن عظمة جيوشها العسكرية التى كانت أعظم قوة فى العالم فى ذاك الوقت خاصة بعد أن هزمت قوات الإمبراطورية الفارسية وإنما سيقتصر حديثنا على قوات الروم أو البيزنطيين العسكرية فى بلاد الشام وهى التى واجهها العرب عند غزوهم لهذه البلاد لنشر راية التوحيد والإسلام فى ربوعها.

يمكن القول إنه كان للروم فى بلاد الشام أى من المنطقة الممتدة من شمال حلب إلى بيت المقدس فى الجنوب مراكز وقلاع متعددة أهمها:

١- انطاكية وكانت عاصمة الشام.

٢- قنسرين فى جنوب غرب حلب وعلى بعد حوالى ٢٥ كم منها وكانت حلب قرية من قراها.

٣- حمص وتمتد سيطرتها العسكرية حتى تدمر وصحراء الشام حتى منطقة الجزيرة.

٤- عمان وكانت قاعدة البلقاء العسكرية وللروم فيها قلعة عسكرية ومثلها فى الكرك.

٥- أجنادين وكانت قاعدتهم العسكرية فى جنوب فلسطين وعلى حدود بلاد العرب الغربية وعلى حدود مصر.

٦- قيسارية فى شمال فلسطين جنوب حيفا وتبعد عنها حوالى ١٣ كم وعلى شاطئ البحر المتوسط ولا تزال أنقاضها قائمة إلى اليوم.

وكانت هناك أيضا مراكز عسكرية فرعية متعددة تتبع هذه القواعد.

وكان القائد العام الرومى يقيم فى أنطاكية أو فى حمص.

ويلاحظ أن الروم اعتنوا ببلاد الشام وتحصينها وتقوية حامياتها على هذا النحو

لمواجهة عدوهم الأكبر وهو الامبراطورية الفارسية التى كانت تواجه الشام من الشرق والشمال الشرقى.

أما من جهة الجنوب والجنوب الشرقى حيث بلاد العرب فلم يخطر لهم على بال بأنهم هم الذين سيحطمون ملكهم وأنهم سيحطمون قواتهم وينتزعون بلاد الشام من أيديهم بعد أن ظلت تحت حكمهم قرونا عديدة.

بالإضافة إلى ذلك كله فقد كان الروم يتفوقون فى عدد الجنود على العرب تفوقا كبيراً بالإضافة إلى الحصون والقلاع والخيل والسلاح ومعدات الحرب ووسائل المواصلات والطرق المعبدة. وكانوا يقاتلون فى عقر دارهم وفى داخل أراضيهم ومناطقهم الدفاعية والإدارية وكانوا على اتصال وثيق بعاصمة ملكهم وتأتيهم النجدات تباعاً من جميع أرجاء الامبراطورية الرومية (البيزنطية) برا أو بحراً.

الخطة العامة للروم

يبدو أن قادة الروم العسكريين فى انطاكية قرروا فتح أبواب الحدود أمام الجيش العربى لاستدراجه إلى الداخل فيثبون عليه ويضربونه ضربة قاصمة لا يعود بعدها إلى غزو الشام. ولتحقيق هذه الخطة عكفوا على حشد جيش كبير فى انطاكية جمعوا له الأرمن والروم من الأناضول ويقدر بعض المؤرخين عدد هذا الجيش بمائتى ألف مقاتل جمعت فى خلال بضعة أشهر. وبعد أن تم تجهيزها زحفت إلى الجنوب قاصدة حمص فدمشق لإعطاء العرب درسا قاسيا لا يعودون بعده إلى بلاد الشام مرة أخرى.

وفى نفس الوقت عزز الروم قواتهم العسكرية فى فلسطين بمعدات قوية جمعوها من مختلف أرجاء الامبراطورية. ويقول بعض المؤرخين العرب أن هذه القوات كانت حوالى مائتى ألف جندى آخرين. أى أنه كان على العرب أن ينازعوا ما لا يقل عن ثلاثمائة ألف جندى إذا صح هذا الرقم - مع أن تعداد الجيوش العربية ما كان يزيد على أربعين ألف رجل على أكبر تقدير.

الموقف العسكرى العام للمسلمين

١- كانت مهمة الجيش الأول من جيوش العرب وهو جيش يزيد بن أبى سفيان الوصول إلى غوطة دمشق ثم احتلال دمشق نفسها ومساعدة الجيوش العربية الأخرى فى قتالها. وقد توغل هذا الجيش فى بلاد الشام بعد أن هزم قوة للروم فى وادى عربة شرقى غزة وواصل تقدمه فاجتاز البلقاء وحوران والغوطة حتى وصل أبواب دمشق وظل مرابطاً حولها حتى اجتمعت كلمة قواد الجيوش على الانسحاب حينما بلغهم مسيرة الروم إليهم.

٢- أما بالنسبة للجيش العربى الثانى وهو جيش شرحبيل بن حسنة فإن هذا الجيش كانت مهمته قتال الروم فى البلقاء (منطقة شرق الأردن حاليا).

ولم يلق هذا الجيش مقاومة تذكر فى تقدمه وكان يسير على الجناح الأيسر لجيش أبى عبيدة بن الجراح والجناح الأيمن لجيش عمرو بن العاص فى فلسطين.

وقد استمر فى تقدمه حتى وصل إلى بصرى وكانت من القواعد العسكرية الكبرى للروم وكان يدافع عنها قوة كبيرة من الروم والعرب الغساسنة فحاصرها شرحبيل ولكن لم يوفق إلى فتحها. وقد تم فتحها فيما بعد على يد خالد بن الوليد حينما قدم من العراق.

٣- أما بالنسبة للجيش الثالث وهو جيش فلسطين بقيادة عمرو بن العاص فكانت مهمته من أصعب المهام. فبعد عدة معارك بينه وبين الحاميات الرومية استطاع التغلب عليها واستمر فى تقدمه شمالاً إلا أن الروم حشدوا له قوات ضخمة ورأى عمرو أنه لا قبل له بها فانسحب إلى غور الأردن. وقد سلك عمرو بن العاص فى تقدمه طريق معان وادى عربة[1] - البحر الميت.

٤- أما بالنسبة لجيش أبى عبيدة بن الجراح فقد واصل تقدمه نحو الجابيه بعد أن هزم قوة للعدو واعترضته حيث احتلها دون مقاومة تذكر. ومنها تقدم إلى حمص سالكاً الطريق الواقع شرقى دمشق وكان ذلك فى نفس الوقت الذى انتشر فيه جيشا يزيد وشرحبيل فى الغوطه وحوران.

إنجازات العرب فى المرحلة الأولى

وهكذا يمكن القول أن العرب حققوا إنجازات لا يستهان بها فى المرحلة الأولى من الحروب فى بلاد الشام. وقد امتدت هذه المرحلة حوالى سنة ونصف من شهر ذى الحجة سنة ١٢ هـ (فبراير سنة ٦٣٤م) إلى شهر رجب سنة ١٣ هـ (سبتمبر سنة ٦٣٥م) استطاعت الجيوش العربية خلالها احتلال مقاطعات مؤاب والبلقاء والجابية والغوطة ثم محاصرة مدينة دمشق نفسها - وبصرى واحتلال حمص بل والتقدم شمالاً.

كذلك فقد حقق جيش فلسطين نتائج كبيرة فبسط نفوذه على معظم أجزاء هذا الإقليم الجنوبية والشرقية وكاد يحتله لولا أن عجل الروم بحشد قواهم للدخول فى معركة فاصلة.

(١) وادى عربة هو واد متسع الجنبات عظيم الخطورة ومنه خرج إلى البحر الميت فاستقر حوله، واتخذه قاعدة لأعماله العسكرية وهو قريب من القدس.

ورأى قادة الجيش الرومى بعدما وصلت الحالة إلى هذا الحد وبعد أن فقدوا القسم الجنوبى من بلاد الشام (ماعدا دمشق) وبصرى وبعدما كادوا يفقدون فلسطين أن يبدأوا بالعمل فزحفت قواتهم الكبرى إلى حمص من أنطاكية بقيادة «تيودور» شقيق الإمبراطور «هركليوس». ويبدو أنه ترك منصب القيادة العامة لجيش فلسطين بعدما أكمل تجهيزه للبطريق «أرطبون» وجاء إلى أنطاكية طبقاً لأوامر أخيه فتولى قيادة جيشها وسار إلى حمص. وكانت خطته تقوم على ضرب جيوش العرب الثلاثة الواحد بعد الآخر وطردها إلى ما وراء الحدود.

هذا ويلاحظ أن حركة هذا الجيش الرومى قد بدأت فى وقت واحد مع حركة جيش فلسطين الرومى مما يدل على أنهم كانوا يسيرون على خطة محكمة ترمى إلى سحق الجيوش العربية.

وقد أدرك قادة الجيوش العربية الخطط التى يعدها الروم وشعروا بما يتهددهم من مخاطر ووصلت إليهم معلومات عن حشود الروم وتدبيرهم. فتكاتب قواد الجيوش الأربعة للاتفاق على خطة يسيرون عليها لأنهم أدركوا أن تفرقهم مؤذن بالقضاء عليهم وتمزيقهم فأجمعوا على الجلاء عن المناطق التى احتلوها فى الداخل على أن يجتمعوا فى منطقة بصرى دون أن يعطوا للعدو فرصة للاشتباك معهم ثم أرسلوا للخليفة أبى بكر الصديق يخطرونه بالموقف.

الخليفة أبو بكر يقرر إرسال خالد ابن الوليد ويعينه أميراً للجماعة

عند ذلك رأى الخليفة أبو بكر أن يبعث خالد بن الوليد وقواته من العراق إلى الشام حيث إن الموقف بالعراق كان يبدو أقل صعوبة وخاصة بعد الانتصارات السريعة والعديدة التى حققها خالد هناك. كما رأى الخليفة أبو بكر أن الموقف بالشام يحتاج إلى مدد كبير جاهز فوراً كما يحتاج إلى عقلية قيادية فذة. وكل هذا وجده فى خالد وفى جيشه بالعراق فكتب إليه (فى ٢١ محرم ١٣ هـ – ٢٨ مارس ٦٣٤م): [أما بعد فإذا جاءك كتابى هذا فدع العراق وخلف فيه أهله الذين قدمت عليهم وهم فيه، وامض متخففاً فى أهل القوة من أصحابك الذين قدموا معك من اليمامة وصحبوك فى الطريق وقدموا عليك من الحجاز حتى تأتى الشام فتلقى أبا عبيدة بن الجراح ومن معه من المسلمين. فإذا التقيتم فأنت أمير الجماعة والسلام عليك] كما أرسل خطاباً إلى أبى عبيدة يخطره بذلك جاء فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

[من عبد الله بن عتيق بن أبى قحافة إلى أبى عبيدة بن الجراح – سلام الله

عليك أما بعد فقد وليت خالداً قتال العدو فى الشام فلا تخالفه واسمع له وأطع فإنى لم أبعثه عليك أن لا تكون عندى خيراً منه ولكن ظننت أن له فطنة في الحرب ليست لك. أراد الله بنا وبك خيرا والسلام].

من هو خالد بن الوليد

والآن يجدر بنا أن نذكر من هو خالد بن الوليد الذى سماه الرسول (صلعم) سيف الله والذى ولاه الخليفة أبو بكر رضى الله عنه قيادة جيوش المسلمين جميعها فى بلاد الشام ضد الروم وقوات بيزنطة الجبارة.

هو أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مره بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر. فهو يجتمع مع رسول الله (صلعم) وكذلك مع أبى بكر رضى الله عنه فى الأب السابع للنبى (صلعم) وهو (مرة).

لم يحدد التاريخ يوم ميلاد خالد بالضبط إلا أن البعض يرجح بأنه من سن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعلى ذلك تكون سنه حين جاء الإسلام ٢٧ سنة تقريباً وهو نفس سن الخليفة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه.

ولد خالد ونشأ وتربى فى مكة وبين قبيلته وهى قريش فتطبع بذلك بطباع عرب مكة واكتسب من هذه البيئة صفات الإقدام فى حزم والنجدة فى عزم والذكاء فى روية والخبرة بفنون الحرب البدوية وهى الصفات التى جعلته قائداً عسكريا مظفراً. وكان أبوه أبو عبد شمس الوليد بن المغيرة المخزومى أحد حكام قبيلة قريش وكان فى سعة كبيرة من العيش وبسطة فى الجاه والولد. الأمر الذى ساعد خالد فى صباه إلى الإنصراف إلى أعمال الفروسية وركوب الخيل كعادة أبناء أشراف العرب.

وقد كثرت الروايات فى تحديد العام الذى أسلم فيه خالد على أن الأرجح أنه أسلم فى صفر سنة ٨ هـ. وقد صادف إسلامه هوى فى قلب رسول الله (صلعم) فقد قال له عندما أسلم «الحمد لله الذى هداك، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير». وقد ارتحل من مكة إلى المدينة ليعلن إسلامه فتقابل مع عمرو بن العاص وكان أيضا قد بيت على الإسلام فذهبا جميعا إلى المدينة حيث أخطر النبى (صلعم) بقدومهما لإعلان إسلامهما. ولقد رجا خالد بن الوليد النبى (صلعم) أن يدعو الله عز وجل ليغفر له ما كان منه قبل الإسلام. فقال النبى (صلعم) «الإسلام يجب ما كان قبله». وإن إسلام خالد جاء متأخراً إلا أنه قال لكنى والله أسلمت حين تبين لى الحق.

وكان أول عمل قام به خالد فى الإسلام هو ما قام به فى غزوة مؤتة وهى التى قال عنه النبى (صلعم) فيها عندما علم أن خالد قد أخذ اللواء بعد استشهاد أمراء الجيش الثلاثة زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبى طالب ثم عبد الله بن رواحة: «اللهم إنه سيف من سيوفك فأنت تنصره». ومنذ ذلك الحين سمى خالد «سيف الله». وقد استطاع خالد فى تلك الغزوة إعمال الحيلة فى خلاص الجيش وإنقاذه من الفناء فقاتل فى يومه قتالا عنيفاً ثم أخذ يتقهقر بالجيش قليلاً قليلاً مع حفظ نظامه حتى استطاع الانسحاب التام وإنقاذ جيش المسلمين من فناء محقق.

وفى فتح مكة قاد خالد الفرقة التى دخلت مكة من جهة اليمين وهى الجهة التى يقطن بها أشد الناس عداوة للإسلام. وقد تداركها خالد بقوة بطشه وشدة بأسه وعمله الحاسم فأنهى القتال بسرعة وبحسم لصالح المسلمين. كما أنه قام بعد ذلك بهدم صنم العزى وكانت أعظم الأصنام عند قريش بأمر من النبى (صلعم) بعد فتح مكة بخمسة أيام فقط. كما أرسله الرسول(صلعم) أثناء غزوة تبوك لفتح «دومة الجندل» ففتحها وعاد للمدينة بما معه من أسلاب وغنائم وأميرها الذى كان مرتديا حلة من ديباج موشى بالذهب مما كان له أكبر الأثر فى نفوس أهل المدينة.

وهكذا تبين لنا أن خالدا منذ أسلم كان من أشد المسلمين تفانيا فى خدمة رسول الله (صلعم) وكان مرافقا له فى كل أسفاره لم يتخلف عن أي غزوة غزاها رسول الله (صلعم).

أما بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام فقد عمل خالد تحت إمرة الخليفة أبى بكر الصديق رضى الله عنه حيث تجلت فى عهده قدرات خالد العسكرية ومواهبه الفذة مما كان له أكبر الأثر فى نصرة الإسلام والمسلمين.

ولعل الدور الذى قام به خالد بن الوليد في حروب الردة يعتبر من الأدوار العظيمة التى قام بها لنصرة الإسلام والمسلمين حيث أمره الخليفة أبو بكر الصديق بالتقدم لمقاتلة طليحة بن خويلد فإذا فرغ منه قصد مالك بن نويرة بالبطاح. ثم بعد ذلك أمره أبو بكر الصديق بالسير إلى اليمامة لقتال مسيلمة الكذاب فانتصر خالد فى النهاية بعد قتال عنيف مرير وتضحيات كبيرة من جانب المسلمين.

وكان لانتصار خالد هذا أثر كبير فى إضعاف الروح المعنوية لدى المرتدين فى بقية حروب الردة فى البحرين وعمان ومهرة واليمن وغيرها.

هذا هو خالد بن الوليد الذى أرسله الخليفة أبو بكر الصديق على عجل إلى الشام

لإنقاذ موقف جيوش المسلمين هناك وعينه أميرا للجماعة بدلا من أبى عبيدة بن الجراح.

سير خالد إلى الشام

فى ٨ صفر سنة ١٣ هـ - ٢٨ مارس ٦٣٤م، سارع خالد بالسير إلى الشام هو وجنوده فسار خمسة أيام فى صحراء موحشة ليلا ويستريحون نهارا حتى وصلوا إلى مدينة سوى. ثم منها إلى تدمر فى صحراء الشام حيث سلمت بعد مقاومة يسيرة. كانت رحلة خالد خلال الصحراء رحلة تاريخية ومغامرة بطولية فذة فقد رأى خالد أنه إذا اتخذ الطريق العادى من فارس إلى الروم فإن أخباره ستصل إلى الروم وربما حاولوا اعتراضه ومنعه من الوصول إلى جيوش المسلمين ولذلك رأى أن يقتحم الصعاب وأن يتخذ طريقا غير مأهول عبر الصحراء بعيداً عن الآبار ومنابع الماء حتى يفاجئ قوات الروم، أولا ثم لكى يصل فى أسرع وقت ممكن إلى قوات المسلمين بالشام ثانيا.

أعمال خالد بالشام

سار خالد بعد ذلك حتى غوطة دمشق ومنها إلى بصرى - والمسافة بينهما حوالى ١٧٠ كيلو مترا - حيث وصل إلى قناة بصرى وكان عليها أبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وسار إليهم يزيد بن أبى سفيان وكان الأمراء مقيمين ولم يفتحوا شيئا فتقدمهم خالد فاقتحموا بصرى وفتحها الله عليهم وكان ذلك فى ٢٥ ربيع الأول سنة ١٣هـ - ٣٠ مايو سنة ٦٣٤م.

بعد سقوط بصرى فى أيدى المسلمين انطلقت جيوشهم فى مختلف الجبهات تهاجم قوات الروم وتغير على حصونهم وما حولها من الجهات، حتى يظل المتحصنون محبوسين إلى حين فى حصونهم بينما تكون للمسلمين حرية الحركة والمناورة خارجها.

معركة أجنادين

وهنا دبر الروم خطة للإطاحة بجيوش العرب وقطع خطوط مواصلاتهم مع قاعدتهم فى المدينة المنورة فساروا بقواتهم مباشرة إلى منطقة أجنادين فى جنوب فلسطين منتهزين فرصة تفرق جيوش المسلمين فى أرجاء متفرقة من بلاد الشام.

ولكن خالد بن الوليد سارع بعد التشاور مع أبى عبيده بن الجراح إلى توحيد كل جيوش المسلمين لتجتمع عند أجنادين.

وهناك فى أجنادين بعد تجمع جيوش المسلمين وقادتهم دارت رحى معركة عنيفة بين جموع الروم (أكثر من مائة ألف) وجيوش المسلمين (٣٣ ألفا) هزم فيها الروم شر هزيمة وكان ذلك يوم ٢٧ جمادى الأولى ١٣هـ الموافق ٣٠ يوليو سنة ٦٣٤م.

موقعة مرج الصفر[1]

بعد الفراغ من أجنادين سار المسلمون إلى دمشق فحاصروها واشتبكوا مع الروم فى مرج الصفر جنوبها ولكن هرقل وجه قوات رومية كبيرة من حمص لنجدة دمشق كما بعث فى نفس الوقت بجيوشه إلى بيسان بهدف تطويق قوات المسلمين حول دمشق وحمص فى حركة تطويق واسعة لهزيمة قوات المسلمين هناك وقطع اتصالاتها بباقى القوات الإسلامية فى الجنوب. مع ملاحظة أن بيسان تقع عند مخرج الممر الطبيعى - مرج بن عامر - ويدلنا تجمع جيش الروم هناك على ان ذلك الجيش قد جاء من المناطق الساحلية وبعضه من بيزنطة بحرا ثم توجه إلى بيسان.

المعركة (مرج الصفر)

ترك خالد حصار دمشق ومهاجمة اسوارها وابوابها وسار بقواته وخرج معه يزيد بن ابى سفيان فى جنده فالتقوا بجيش الروم فى مرج الصفر - وهو سهل واسع جنوبى دمشق يبعد عنها حوالى ٣٨ كم بين قريتى الكسوة وغياغب - وهذه القوات هى التى بعث بها هرقل لنجدة دمشق كما ذكرنا من قبل للوصول إليها بعد تطويقها من الجنوب.

وقد نظر خالد إلى جيش الروم ثم سارع بتعبئة جيشه كتعبئة يوم أجنادين ويقول الرواة: «كان من ابصر الناس بالحرب مع وقار وسكينة وشفقة على المسلمين وحسن النظر لهم والتدبير لأمورهم». وتحركت صفوف المسلمين والتحمت بالروم فى قتال شديد فانهزم الروم وفروا فى كل اتجاه بعد أن قتل منهم من قتل وأسر من أسر، وكان ذلك فى ١٧ جمادى الآخرة سنة ١٣هـ الموافق ١٨ أغسطس ٦٣٤م.

عزل خالد عن القيادة العامة للمسلمين وتولية أبى عبيدة بن الجراح

بعد وفاة الخليفة أبى بكر فى مساء الثلاثاء ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣هـ

---

(١) مرج الصفر هو المرج أو السهل الواقع جنوبى نهر الأعوج. ومرج الصفر هو المكان الذى هُزم فيه خالد بن سعيد بن العاص فى بداية خلافة أبى بكر. ولايبعد هذا المرج عن دمشق أكثر من ٢٥ كيلو متراً. ويقع فى جنوبها الغربى فى المنطقة الممتدة بينها وبين القنيطرة.

الموافق ٢٣ أغسطس سنة ٦٣٤م واستخلافه لعمر بن الخطاب من بعده كان أول ما فعله عمر بن الخطاب أن أرسل خطابا إلى أبى عبيدة بن الجراح يعينه فيه لإمارة الجند بالشام ويعزل خالد بن الوليد. وقد وصل هذا الكتاب إلى أبى عبيدة فى حوالى ٦ رجب سنة ١٣هـ الموافق ٥ سبتمبر ٦٣٤م.

من هو أبو عبيده بن الجراح

هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهد بن مالك بن النضر بن كنانه بن خزيمة. اشتهر بكنيته ونسبه إلى جده فيقال أبو عبيدة بن الجراح. وأمه أميمة بنت غنم بن جابر بن عبد العزى أدركت الإسلام وأسلمت. كان أبو عبيدة معروفاً بالدهاء وشدة الذكاء فى الجاهلية. وكان من السابقين إلى الإسلام بدعوة أبى بكر. وقد لقبه النبى (صلعم) بأمين الأمة فقال فى حديث صحيح: «لكل أمة أمين وإن أميننا هو أبو عبيدة بن الجراح».

التقى أبو عبيدة وأبوه عبد الله بن الجراح فى يوم بدر، هذا فى جيش المسلمين وذلك فى جيش قريش وجعل أبوه يقصده وجعل أبو عبيدة يحيد عنه فلما أكثر قصده قتله فى خضم المعركة. فجاء فى حقه من القرآن الكريم : ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم﴾ (المجادلة ٢٢).

شهد المشاهد كلها مع رسول الله (صلعم) وثبت معه يوم أحد ونزع الحلقتين اللتين دخلتا فى وجهه (صلعم) من المغفر.

وسأل وفد نجران حينما قدم المدينة النبى (صلعم) أن يبعث معهم من يأخذ بالحق ويعطيه فقال لهم : «والذى بعثنى بالحق لأرسلن معكم القوى الأمين، ثم دعا بأبى عبيدة» وأرسله معهم.

اختاره أبو بكر لقيادة الجيش الذى وجهه لفتح حمص وعينه عمر بعد توليه الخلافة قائداً عاماً لجيش الشام بعد أن عزل خالد بن الوليد عنها.

أصيب بالطاعون فى عمواس سنة ١٨ هـ فهلك فيها ودفن فى غور الأردن وقبره معروف يزار ويقصد. وكان عمره حين وفاته ٥٨ سنة.

موقعه فحل - بيسان

(الاثنين ٢٨ ذى القعدة سنة ١٣هـ الموافق ٢٣ من يناير سنة ٦٣٥م)

سبق القول أن هرقل ارسل جيشا كبيرا إلى بيسان لتطويق جيوش المسلمين وهزيمتها هزيمة ساحقة. (موقعة مرج الصفر)

وقد أرسل أبو عبيدة خالد بن الوليد ومعه ١٥٠٠ من الفرسان على وجه السرعة كمقدمة إلى منطقة فحل حيث كانت تعسكر قوات عمرو بن العاص وشرحبيل وبقيت قوات يزيد بن أبي سفيان حول دمشق وتوافدت باقى قوات المسلمين إلى فحل وجمع الروم قواتهم فى بيسان.

وبعد مفاوضات بين الجانبين عرض فيها البيزنطيون على المسلمين أن يعطوهم دنانير ودراهم ليعودوا ولكن المسلمين أصروا على شروطهم المعروفة وهى إما الإسلام أو الجزية أو الحرب.

وبعد مناورات بين الجيشين ومناوشات نشب القتال بين جيش الروم ويقدر عدده بحوالى ٨٠٫٠٠٠ وبين جيش المسلمين ويقدر عدده بحوالى ٢٦٫٠٠٠ وكانت الفرسان بقيادة خالد بن الوليد والمشاة بقيادة أبى عبيدة. وقاتل خالد بن الوليد يومئذ قتالا شديداً ما قاتل مثله أحد. وقد قتل خالد فى ذلك اليوم ١١ من بطارقة[١] الروم وأهل الشجاعة منهم وكان هو مخطط ومنفذ هذا النصر العظيم.

وقد حاول الروم القيام بهجوم مضاد ولكن برز لهم معاذ بن جبل فى رجاله فقاتلهم قتالا شديداً هو أشد قتال اقتتلوه قط. وقد طوى المسلمون جناحى جيش الروم ثم انفردوا بعدها بالقلب حتى تضعضع وقد أظلم الليل. وانهزم الروم هزيمة ساحقة وقتل قائدهم سقلار (سكلاريوس) والذى يليه (نسطورس). وقد قتل من الروم حوال ١٠٫٠٠٠ وتفرق الباقون فى مدن الشام ولحق بعضهم بهرقل فى أنطاكية.

وكانت هذه الهزيمة من أكبر الهزائم التى منى بها الروم فى حروب الشام حتى ذلك الوقت.

فتح دمشق

لقد اختلف المؤرخون العرب اختلافا كبيرا فى تاريخ فتح دمشق، ولكن يكاد يكون هناك إجماع على أن هذا الفتح قد تم يوم الأحد ١٥ رجب سنة ١٤هـ الموافق ٣ سبتمبر ٦٣٥م. أى أنه بين المعركتين (فحل بيسان) و(فتح دمشق) سبعة أشهر وعشرة أيام منها ثلاثة أشهر للإعداد والأربعة أشهر هى مدة حصار دمشق.

وقد أحاطت جيوش المسلمين بدمشق بعد أن تحركت شمالا من منطقة فحل

---

(١) بطارقة الروم هى رتبة عسكرية لقادة الروم وليست كلمة بطريرك «المنصب الدينى». وكله بطريق هى تعريب للكلمة اللاتينية Patricuis وهى رتبة فى الجيش الرومانى أنشأها الامبراطور الرومانى قنسطنطين ٣٠٦ – ٣٣٧م.

بيسان بقيادة أبى عبيدة بن الجراح، وقد عين خالد بن الوليد لحصار الباب الشرقى لدمشق بالإضافة إلى قيادته للفرسان إذا وقع اشتباك مع الروم. كما بعث أبو عبيدة بقوة شمال دمشق (حوالى ٤٥ كم) لمنع أى امدادات لدمشق تصل من حمص حيث كان يقيم هرقل ملك الروم.

وأحاطت باقى الجيوش العربية بدمشق وبأبوابها من جميع الجهات وبذلك أحكم أبو عبيدة الحصار حول دمشق وحاصرها حصارا شديدا.

ولما أيقنت حامية دمشق ان الإمدادات لا تصل إليها وأن الحصار أصبح محكما حولها أدركها الفشل واليأس وازداد رجاء المسلمين فى فتحها.

وفى يوم الأحد ١٥ رجب سنة ١٤هـ انتهز خالد بن الوليد فرصة إقامة حفل لبطريق الروم فاقتحم المدينة من جهة الباب الشرقى ودخلها عنوة بينما فتحت دمشق أبوابها أمام أبو عبيده من الغرب بدون قتال. وقد اعتبر أبو عبيدة أن دمشق قد فتحت صلحا وأقر أبو عبيدة الأمان الذى كتبه خالد بن الوليد لأسقف دمشق عن شعبها ودمائهم وأموالهم وكنائسهم وبيوتهم.

وقد أقام المسلمون بدمشق لإعادة تنظيم قواتهم ولتمضية فصل الشتاء بأمطاره وبرده الشديد داخل دمشق.

التقدم نحو حمص

بعد سبعة شهور من سقوط دمشق استأنفوا مسيرتهم شمالاً نحو حمص فى حوالى ٤ ربيع الأول سنة ١٥هـ - ١٥ ابريل سنة ٦٣٦م.

وقد أمر أبو عبيدة بن الجراح خالد بن الوليد بالتقدم شمالا لفتح حمص كمقدمة لقوات المسلمين. وقد أخضع خالد وادى البقاع فى طريقه نحو الشمال كما استولى على بعلبك واخضعها بعد مقاومة لم تدم طويلا فصالح أهلها. وقد استمر تقدم خالد شمالا حتى لقى فرسان الروم الذين أرسلوا جنوبا لإيقاف تقدم خالد وقواته.

وقد استطاع خالد أن يهزم قوات الروم هزيمة ساحقة وتقدمت قوات المسلمين حتى أحاطت بحمص من جميع الجهات كما قطعت مواصلاتها من جهة الشمال عند الرستن. وبعد حصار شديد لم يستمر طويلا - حوالى ١٨ ليلة - سلمت مدينة

حمص للمسلمين وكتب لهم المسلمون كتاباً بالأمان والمصالحة وكان ذلك فى حوالى ٢١ ربيع الآخر سنة ١٥هـ الموافق أول يونية سنة ٦٣٦م[١].

ويفهم من سير القتال أن الروم قد تخلوا عن بعلبك كما تخلوا عن حمص أيضا. مع أنها منطقة دفاعية حصينة، وانسحبوا شمالا حتى انطاكية حيث كان يقيم ملكهم هرقل.

الموقف بعد سقوط حمص

ارسل أبو عبيدة بن الجراح مقدمة قواته للتقدم شمالا نحو حلب كما كتب للخليفه عمر بن الخطاب خطابا بذلك بعد أن أخبره بسقوط حمص.

ولكن الخليفة عمر بن الخطاب رد على أبى عبيدة بالتوقف عن الاتجاه شمالا. ويبدو أن هذا الموقف من جانب عمر بن الخطاب كان بسبب أن الموقف فى العراق كان غاية فى الدقة حيث كان سعد بن أبى وقاص يستعد لخوض معركة القادسية وهى أهم وأقسى المعارك على الجبهة الشرقية فى تاريخ الإسلام.

(١) كان سقوط بعلبك قبل ذلك بشهر تقريبا فى ٢٥ ربيع الأول سنة ١٥ هـ الموافق ٦ مايو سنة ٦٣٦م.

الفصل الثالث

«اليرموك»

وخالد بن الوليد

(HEIROMAX)

٥ رجب لسنة ١٥ هـ - ١٢ أغسطس لسنة ٦٣٦م

موقف الروم وحشودهم

بعد الهزائم المتكررة التى منى بها الروم فى الشام كان هرقل مقيما فى إنطاكية يفكر فى موقفه وقرر أن يخوض معركة فاصلة بينه وبين المسلمين يحشد لها كل طاقته وطاقات الإمبراطورية البيزنطية وحلفائها حتى يستعيد هيبته وهيبة الإمبراطورية، تماما كما حدث فى الجبهة الشرقية عندما قرر يزدجرد الثالث امبراطور الفرس حشد قواته فى معركة فاصلة مع المسلمين فى القادسية.

أرسل هرقل (هراكليوس) إلي بيزنطة عاصمة دولته وكتب إلى كل عماله أن يحشدوا إليه كل من يستطيع القتال من شبابه وشيوخه فى أرجاء الإمبراطورية، ويقول الرواة أنه استطاع أن يحشد ٢٠٠,٠٠٠ جندى يقودهم باهان - وكان من عظماء الروم وأشرافهم - كما وجه هرقل القادة والجنود وأمر بإعطائهم الجوائز والأموال تشجيعا لهم وخطب فيهم لحثهم على هزيمة المسلمين والحفاظ على أموالهم وأرضهم وأعراضهم.

قوات المسلمين

اختلفت الأقوال فى عدد قوات المسلمين فى اليرموك فقد جاء فى الطبري أن عدد المسلمين كان ٤٦,٠٠٠ والثانى أنهم كانوا ٢٤,٠٠٠ (لابن عساكر) والثالث أنهم كانوا ٣٦,٠٠٠ وهو العدد الذى ارتضاه معظم المؤرخين، وكان من هذا العدد ٢٧,٠٠٠ هم جنود الجيوش الأربعة بالإضافة إلي ٩,٠٠٠ جيش خالد بن الوليد الذى جاء به من العراق.

وقد شهد اليرموك أيضا ألف رجل من أصحاب رسول الله (صلعم) وفيهم نحو مائة ممن شهدوا بدرا (وجميع أهل بدر كانوا ٣١٣ صحابيا).

موقف المسلمين

قدمت عيون أبي عبيدة وأخبروه بجمع الروم لهذا الجيش الجرار وخطاب هرقل فيهم وسيرهم إليه، وعند ذلك جمع أبو عبيدة قادة جيوشه ورؤوس المسلمين وذوى الهيئة منهم والصلاح ليستشيرهم فى الموقف ويسمع رأيهم، وقال لهم أبو عبيدة:

«قد سار إليكم عدوكم من المشركين بعدد كثير ونفروا اليكم نفير الروم الأعظم فجاءوكم برا وبحرا حتى خرجوا إلى صاحبهم بأنطاكية.

ثم قد وجه إليكم ثلاثة عساكر، فى كل عسكر منها ما لا يحصيه إلا الله من البشر. وقد أحببت ألا أطوى عنكم خبر عدوكم ثم تشيرون على رأيكم وأشير عليكم برأيى فإنما أنا كأحدكم».

وقد استقر رأى أبى عبيدة وأصحابه على التنحى عن الروم - أى الانسحاب - وأرسل أبو عبيدة كتابا بهذا إلى عمر بن الخطاب.

الانسحاب من حمص

فى الصباح أمر أبو عبيدة قواته بالإنسحاب من حمص إلى دمشق كما أمر برد الجزية التى كانوا قد صالحوا أهل حمص عليها قائلاً: «أنه لا ينبغى لنا أن نأخذ منهم شيئا إذا لم نمنعهم به»، وقد أخذ أهل حمص يقولون: «ردكم الله الينا ولعن الله الذين كانوا يملكوننا من الروم. ولكن والله لو كانوا هم ماردوا علينا بل غصبونا وأخذوا ما قدروا عليه من أموالنا. ثم قالوا إنا على العهد والمصالحة بيننا وبينكم». وسار أبو عبيدة بقواته حتى وصل إلى دمشق حيث كان خالد بن الوليد مقيما بها بقواته.

رأى الخليفة عمر بن الخطاب فى الانسحاب

قال عمر للرسول الذى ارسله أبو عبيدة: «ما رجوعهم عن عدوهم وقد أظفرهم الله بهم فى غير موطن من مواطنهم؟؟ وما تركهم ارضا قد احتووها وفتحها الله عليهم وصارت فى أيديهم؟؟ إنى أخاف أن يكونوا قد اساءوا الرأى وجاءوا بالعجز وجرأوا عليهم عدوهم».

ثم قال «اخبرنى أجُمعَ رأى جميعهم إلى التحويل (الانسحاب) ؟».

ثم قال: «الحمد لله على ذلك، فإنى أرجو أن يكون الله قد جمع رأيهم على الخير إن شاء الله».

ثم بعث عمر برده إلى أبى عبيدة ووعده بإرسال المدد ثم قال: «واعلموا أنه ليس بالجمع الكثير كنا نهزم الجمع الكبير ولا بالجمع الكثير كان الله ينزل النصر عليهم ... والسلام عليكم».

الانسحاب من دمشق

لما دخل أبو عبيدة إلى دمشق بقواته أتاه خالد بن الوليد وضم قواته إلى قوات أبى عبيده، واجتمع أبو عبيدة بخالد بن الوليد واخبره بالمعلومات عن الروم وباتفاق القادة على الانسحاب من حمص، وهنا قال خالد: «أما أنه لم يكن الرأى إلا الإقامة بحمص حتى نناجزهم فيها، فأما إذا اجتمع رأيكم على أمر واحد فإنى لأرجو ألا يكون الله جمع رأيكم إلا على ما هو خير لكم».

وأقام أبو عبيدة بدمشق يومين وأمر برد ما كان اجتبى من أهل دمشق اليهم مع القول بأنهم مازالوا على العهد الذى قطعوه لأهل دمشق من الأمان والمصالحة.

ثم جمع أبو عبيدة قادته لمشاورتهم فى الأمر. وفى خلال تلك الفترة اتضح أن الروم يسيرون إلى الجنوب ولم يحاولوا دخول دمشق لانسحاب المسلمين اليها ولكنهم كانوا يهدفون إلى القيام بحركة التفاف واسعة يقطعون بها خط الرجعة على جيوش المسلمين بقواتهم الضخمة (أى الروم)، وبذلك يصبح جيش المسلمين فى مصيدة خطيرة.

وقد استقر الرأى للمرة الثانية على الانسحاب إلى منطقة الجابية. وقد وافق أبو عبيدة على ذلك، ولكن خالد بن الوليد اعترض على الانسحاب مرة أخرى وكأنه رأى البقاء فى دمشق.

الموقف فى فلسطين

وخلال هذه المشاورات وصلت رسالة عاجلة من عمرو بن العاص إلى أبى عبيدة بن الجراح يخطره فيها بأن أهل ايلياء (القدس) وكثيرا ممن تصالحوا من أهل الأردن قد نقضوا العهد بينهم وبين المسلمين وذكروا أن الروم قد أقبلت بجموع كثيفة وأن المسلمين ينسحبون أمامهم مما جرأهم على المسلمين وعلى عمرو وقواته.

وأخيرا طلب عمرو بن العاص الإفادة هل يبقى مكانه حتى يأتيه أبو عبيدة أم يتقدم هو إلى أبى عبيدة حتى ينضم إليه فى أى مكان يحدده له أبو عبيدة.

وقد رد عليه أبو عبيدة بأنه قادم عليه بجماعة المسلمين إن شاء الله «فليحسنوا

بالله الظن ولا يجدن أهل حربكم وعدوكم فيكم ضعفا ولا وهنا ولا فشلا فيغمزوا فيكم ويتجرأوا عليكم ... والسلام عليكم» .

الانسحاب إلى الأردن واليرموك

كانت رسالة عمرو بن العاص إلى أبى عبيدة فيصلا فى الموقف إذ تقرر الانسحاب إلى الأردن فسارت قوات المسلمين إلى الأردن وسار خالد بن الوليد فتقدم كمقدمة للقوات إلى اليرموك حيث وافاه عمرو بن العاص بقواته ونزل معه. وفى نفس الوقت توالت الأنباء بتقدم جيوش الروم بجموع كثيفة لمحاولة قطع خط الرجعة على الجيوش الإسلامية.

وهنا كتب أبو عبيدة بن الجراح إلى عمر بن الخطاب كتابا يستنجد به جاء فيه:

[أما بعد .. أخبر أمير المؤمنين أكرمه الله أن الروم نفرت إلى المسلمين برا وبحرا ولم يخلفوا وراءهم رجلا يطيق حمل السلاح إلا جاشوا به علينا وخرجوا معهم بالقسيسين والأساقفة ونزلت إليهم الرهبان من الصوامع واستجاشوا بأهل أرمينية وأهل الجزيرة وجاءونا وهم نحو من ٤٠٠,٠٠٠ رجل (أربعمائة ألف رجل). وإنه لما بلغنى ذلك من أمرهم كرهت أن أعز المسلمين من أنفسهم أو أكتمهم ما بلغنى عنهم فكشفت لهم عن الخبر وشرحت لهم من الأمر وسألتهم عن الرأى، فرأى المسلمون أن يتنحوا (ينسحبوا) إلى أرض من أرض الشام ثم نضم إليهم أطرافنا ونواحينا ونكون بذلك المكان جماعتنا حتى يقدم علينا من قبل أمير المؤمنين الرد لنا. فالعجل العجل يا أمير المؤمنين بالرجال بعد الرجال ... فقد جاءهم ما لا قبل لهم به إلا أن يمدهم الله بملائكته أو يأتيهم بغياث من قبله ... والسلام عليكم].

فلما اتاه الكتاب دعا عمر المهاجرين والأنصار فقرأه عليهم فبكى المسلمون بكاءً شديداً ورفعوا أيديهم يضرعون إلى الله أن ينصرهم ويعافيهم ويدفع عنهم.

وقد رد عمر بكتاب طويل إلى أبى عبيدة ملئ بالثقة فى الله سبحانه وتعالى ونصره للمؤمنين: ﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ صدق الله العظيم.

وقال لرسول أبي عبيدة [إذا قدمت على المسلمين فسر فى صفوفهم وقف على أهل كل راية منهم وأخبرهم أنك رسولى إليهم وقل لهم عمر يقرئكم السلام ويقول لكم يا أهل الإسلام أصدقوا اللقاء وشدوا عليهم شد الليوث واضربوا هاماتهم بالسيوف ... فإننا قد علمنا أنكم عليهم منصورون فلا تهولنكم كثرة عدوكم].

الاجتماع فى الجابية وتولية خالد القيادة العامة

اجتمعت جيوش المسلمين فى الجابية واجتمع القادة للتشاور فى الموقف فظهرت آراء بالانسحاب إلى آيله (القدس) أو جنوبا إلى قرب الجزيرة العربية ولكن خالد بن الوليد قال بعد أن سأله أبو عبيدة عن رأيه: [أرى والله إن كنا انما نقاتل بالكثرة والقوة فهم أكثر منا وأقوى علينا وما لنا بهم إذن طاقة، وإن كنا نقاتلهم بالله وفى الله فما إن جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض جميعا أنها تغنى عنهم شيئا]. ثم غضب وقال لأبى عبيدة [أفتطيعنى فيما آمرك به؟؟].

فقال أبو عبيدة [نعم] قال خالد: [فولنى ما وراء بابك وخلنى والقوم فإنى لأرجو أن ينصرنى الله عليهم] قال: [لقد فعلت].

وهكذا ولاه أبو عبيدة سلطانة فى القيادة العامة على جيوش المسلمين بالشام وكان خالد[1] رضى الله عنه من أعظم الناس بلاء وأحسنهم غناء وأعظمهم بركة وأيمنهم نقيبة وكانوا - أى الروم - أهون عليه من الذباب.

السباق بين الروم والمسلمين

لقد كان الجيشان جيش الروم وجيش المسلمين فى حالة سباق نحو الجنوب فالروم يحاولون قطع طريق جيوش المسلمين، والمسلمون يحاولون الوقوف فى أنسب مكان لهم لخوض المعركة ضد الروم.

و قد استقر رأى المسلمين على الوقوف على نهر اليرموك ورحلت جيوش المسلمين من الجابية إلى اليرموك حيث نزل المسلمون خلف اليرموك وجعلوا أذرعات خلف ظهورهم والفرسان تحمى ظهورهم أما الروم فقد نزلوا ما بين دير أيوب إلى نهر اليرموك والنهر بين الفريقين وعسكروا على ذلك أياما. وكان ذلك حوالى الثلاثاء ٢١ جمادى الآخرة لسنة ١٥هـ - ٣٠ يوليو لسنة ٦٣٦[2]م.

وقد اختار المسلمون هذه المنطقة بالذات للقاء الروم فى المعركة الفاصلة لأنها قريبة من حدود الحجاز ومن الصحراء حيث يستطيع المسلمون اللجوء إليها عند الضرورة وتكون خطوط مواصلاتهم مفتوحة مع خليفة المسلمين وقيادتهم العليا فى المدينة المنورة.

---

(١) يلاحظ أن خالد كان قائدا عاما لقوات المسلمين بالشام بأمر الخليفة أبى بكر عندما أرسله من العراق فى ٨ صفر لسنة ١٣ هـ - ٢٤ ابريل لسنة ٦٣٤م حتى عزله الخليفة عمر فى أول ولايته الخلافة.

(٢) أى بعد شهرين فقط من سقوط حمص فى أيدى المسلمين.

خالد يضع خططه ويوحد جيوش المسلمين

فى أدب جم وإيمان عميق بدأ خالد يضع خططه فأتى أبا عبيدة فسأله: من كنت تجعل على ميمنتك قال: [ميعاذ بن جبل]. قال خالد: [أهل ذلك هو الرضا والثقة]. فولها إياه. وهكذا حتى ولى القادة كلهم ثم قال لأبى عبيدة: [ابعث إلى أهل كل راية فمرهم أن يطيعونى]. فدعا أبو عبيدة الضحاك بن قيس فأمره بذلك. فخرج الضحاك يسير فى الناس ويقول لهم: إن اميركم أبو عبيدة يأمركم بطاعة خالد بن الوليد فيما يأمركم به. قالوا: سمعنا وأطعنا.

بعد ذلك وحد خالد جيوش المسلمين لأنهم كانوا حتى حينذاك يقاتلون متساندين أى كل جيش وحدة قائمة بذاتها تتساند وتتعاون مع الجيوش الأخرى، ولكن خالد عبأ جيشه تعبئة لم تعبئها العرب من قبل، فقد مزج الجيوش الإسلامية الخمسة مزجا تاما[1]، حتى صارت جيشا واحدا لا يمت إلى التقسيم الأول بصلة وقسم الجيش إلى قطاعات كل قطاع منه يشمل على عناصر من الجيوش الخمسة الأولى، وهكذا فى يوم اليرموك لم يكن أمير من الأمراء الذين بعثهم أبى بكر الصديق رضى الله عنه قائدا لجيش وإنما كان قائدا لربع من الجيش الموحد تحت القيادة العامة لخالد بن الوليد ويمكن القول بأنهم كانوا بمثابة هيئة قيادة عليا للميدان.

ومن جهة أخرى فقد قام خالد بترك طريقة الصفوف فى القتال وقسم الجيش إلى كراديس، وقد جاء فى معنى الكردوس أنه القطعة العظيمة من الخيل فكانوا بين ستة وثلاثين إلى الأربعين كردوسا.

تعبئة المسلمين فى اليرموك

عملاً بالنظام الجديد للجيوش العربية والذى طبقه خالد بن الوليد فقد أنشأ ثلاثة صفوف من القوات أو ثلاثة خطوط دفاعية كما يطلق عليها فى الاصطلاحات العسكرية الحديثة بينما حشد الرماة على الجانبين.

وقد تولى عمرو بن العاص قيادة الجناح الأيمن كما تولى يزيد بن أبى سفيان قيادة الجناح الأيسر وفى الوسط هاشم بن عتبة بن أبى وقاص. بينما جعل أبا عبيدة بن الجراح فى قوة منفصلة خلف جيوش المسلمين تحت راية أبى بكر وقد عقدها له يوم سفره إلى الشام وهى راية رسول الله (صلعم) التى سار بها إلى خيبر.

---

(١) الجيوش الخمسة هى جيش أبى عبيدة وجيش يزيد بن أبى سفيان وجيش شرحبيل بن حسنة وجيش عمرو بن العاص ثم جيش خالد بن الوليد الذى قدم من العراق.

أما خالد فقد وقف فى الوسط تحت راية «العقاب» وهى راية رسول الله (صلعم) وحوله كبار الصحابة وأقطابهم وشيوخهم كما أقام طلائع أمام جيشه بقيادة قباث بن أشيم وبذلك تمت التعبئة على أكمل وجه.

نساء المسلمين فى المعركة

أنزل المسلمون نساءهم - وكن يصحبنهم - على تل فى مؤخرة الجيش مع أطفالهم وذراريهم. وكانت المرأة العربية تشارك زوجها فى الخطير من غزواته وحروبه خاصة إذا كانوا يريدون الثبات حتى النهاية. وكان للمرأة العربية وظائف تؤديها فى ميدان المعركة وفى مقدمتها العناية بالجرحى والمرضى أولا ثم إثارة الحماس فى الصدور بما ينشدنه من أناشيد وما يلقينه من كلمات.

وقد ذهب خالد إلى نساء المسلمين خلف ميدان القتال وهو على تل مرتفع وقال لهن: «يا نساء المسلمين أيما رجل أقبل إليكن مهزوماً فاقتلنه أو ارددنه بالقوة إذا لزم الأمر». وقد ثبت نجاح هذه الخطة فى الميدان مما كان له أثر كبير فى صمود القوات للقتال.

وفى مقدمة السيدات القرشيات المسلمات اللاتى شهدن معركة اليرموك السيدة أسماء بنت أبى بكر زوجة الزبير بن العوام وهند بنت عتبة زوجة أبى سفيان ووالدة معاوية وأم أبان زوجة عكرمة بن أبى جهل وخوله بنت الأزور ونسيبة بنت كعب وعزة بنت عامر بن عاصم الغمرى ورسلة بنت طليحة الزبيرى وإمامة وزينب وهند ويعمر وسمية بنت عاصم الخولانى وعنيرة بنت غفار وغيرهن.

مفاوضات خالد وباهان

جرت العادة فى معارك العرب مع أعدائهم من الفرس والروم أن يعرض العرب عليهم ما جاءوا من أجله وهو ليس الحرب فى حد ذاتها وإنما لدعوتهم إلى دين الإسلام فإن أسلموا فقد أصبحوا أخوة للعرب لهم ما لهم وعليهم ما عليهم وإن أبوا ذلك فعليهم دفع الجزية عن يد وهم صاغرون فإذا رفضوا ذلك كانت الحرب فى النهاية هى الفيصل.

وفى معركة اليرموك بصفة خاصة أرسل باهان قائد قوات الروم إلى أبى عبيدة رجلا من خيارهم وعظمائهم اسمه «جرجه» للتفاوض مع العرب فدعا أبو عبيده خالد ابن الوليد للتفاوض معه وأنتهت المناقشة بإسلام «جرجه».

ثم ذهب خالد بعد ذلك إلى باهان الذى صف له عشرة صفوف ذات اليمين وعشرة صفوف ذات الشمال من الجنود مقنعين بالحديد عليهم الخوذات والدروع والسواعد والسيوف لا يرى منهم إلا الحدق، وصف من وراء تلك الصفوف خيلا عظيمة لا يرى طرفها ولعله كان حرس شرف أو نوعا من الإرهاب لخالد ليريه مدى قوتهم وعظمتهم ولكن خالد لم يكن ذلك ليؤثر فيه بل أقبل غير مكترث لما رأى وكأنهم أهون عليه من الكلاب.

ودارت مفاوضات طويلة بين الرجلين تخللتها مجاملات بين الطرفين كما عرض خلالها باهان على خالد عروضا مادية ودنانير كثيرة لكل قائد بل لكل جندى وذكره بما كان من انتصارات الروم الساحقة على امبراطورية الفرس العظيمة، ولكن فى النهاية لم يتزحزح خالد عن موقفه، وبذلك أصبح لابد من الحرب والقتال.

زحف الروم

الاثنين ٥ رجب لسنة ١٥هـ - ١٢ أغسطس لسنة ٦٣٦م زحفت صفوف الروم من مكانها إلى المسلمين يدفون دفا وقد رفعوا الصلبان وأقبل معهم الأساقفة والقسيسون والرهبان والبطارقة مما يعنى أن الروم أستغلوا عامل الدين أيضا فى التعبئة للمعركة. وكان للروم وهم يتقدمون دوى كدوى الرعد وقد تبايع عظماؤهم على الموت وكان منهم ثلاثون ألفا مقرنين فى السلاسل (كل عشرة منهم فى سلسلة حتى لا يفروا).

وقد وضع خالد خطته على أن يثبت المسلمون أمام هجمة الروم حتى تتضعضع هذه الهجمه وتتصدع صفوف الروم.

وكان فى حسبانه أيضا أن المسلمين ربما عجزوا عن الثبات المطلوب ولكن سوف يختل النظام فى صفوف الروم على أية حال. وهنا يكون الوقت المناسب لهجومه المضاد بالفرسان التى لم تتعرض إلى هذه الهجمة على صفوف الروم التى يكون قد أصابها الاضطراب والخلل ويكون الهجوم على الأجناب.

وكان هذا هو أسلوب خالد دائما فى معاركة الحاسمة فهو ينتظر لحظة حدوث الخلل فى صفوف عدوه المتفوق وينتهز هذه اللحظة للقيام بهجومه الحاسم ضد العدو بفكر ثاقب ونظر عميق واعصاب هادئة وثقة فى النفس وفيمن يقود.

الهجوم على ميمنة المسلمين:-

كانت صفوف الروم مازالت تتقدم وأقبلت تريد أن تنقض على ميمنة المسلمين.

وكان باهان يجول فى جيشه ويدعو جنوده للقتال دون ذراريهم وأموالهم وسلطانهم ثم أمر «الدرنجار» قائد مسيرته أن يحمل على ميمنة المسلمين فنشب قتال عنيف ثبت فيه المسلمون فى مواقعهم ثباتا صادقا وقاتلوهم قتالا شديدا حتى تكاثر الروم عليهم وركبهم من الروم أمثال الجبال فزال المسلمون عن مواقعهم من الميمنة إلى ناحية القلب، وانكشفت طائفة منهم فى اتجاه المعسكر خلف الصفوف فقابلتهم النساء ومعهن أعمدة الخيام يضربن بها وجوههم ويرمينهم بالحجارة.

واضطربت ميمنة المسلمين إلى القلب فصارت الميمنة والقلب شيئا واحدا، فحمل خالد ابن الوليد على الروم الذين يهاجمون ميمنة المسلمين فقصف بعضهم على بعض وخرج فى خيله يطرد الروم الذين دخلوا المعسكر فأجلاهم عنه.

الهجوم على ميسرة المسلمين

قبل أن نستمر فى وصف ما يجرى على ميمنة المسلمين ننتقل الآن إلى وصف ما حدث لميسرة المسلمين، فقد حمل القائد الرومى «ابن قناطر» قائد ميمنة الروم على ميسرة المسلمين حملة شرسة فانكشف المسلمون وزالت الميسرة عن مصافها ما عدا القليل وركبت الروم أكتاف من انهزم من المسلمين وتعقبوهم حتى دخلوا معهم المعسكر فاستقبلهم نساء المسلمين يضربن وجوه المنهزمين من المسلمين ووجوه الروم أيضا بأعمدة الفساطيط ويرمينهم بالحجارة فعاد من كان انهزم من المسلمين إلى صفوفهم وتنادوا بالصبر والصمود.

صمود فى القلب

وقد صمد فى القلب شرحبيل بن حسنة فى الربع الذى كان يقوده كما قاتل بجواره أيضا سعيد بن زيد وظل القلب صامدا رغم المعارك الضارية والقتال العنيف وضغط الروم المتواصل عليهم بينما حدث اختراق لصفوف المسلمين فى كلا الجناحين وقد توقفت قوات الروم نحو معسكر المسلمين فى الخلف ولكن مازال خلال هذين الاختراقين جزر وصفوف وكراديس من المسلمين تقاوم وتقاتل ويعود إليهما من جديد من كانت جحافل الروم قد اجتاحته كما كانت هناك مقاومة خلف الصفوف لقوات الروم التى استطاعت النفاذ للخلف.

وحقق جنود المسلمين بطولات عظيمة رائعة وضحوا بأنفسهم رخيصة فى سبيل الله غير هيابين الموت ومرحبين بالشهادة فى سبيل الله.

الهجوم المضاد لخالد

وهنا فى هذه المرحلة من مراحل القتال وفى هذه الفترة من المعركة ضم خالد خَيْله بعضها إلى بعض وصاح قائلاً: [يا أهل الإسلام لم يبق عند القوم من الجلد والقتال والقوة إلا ما قد رأيتم، فالشدة الشدة، فو الذى نفسى بيده ليعطينكم الله الظفر عليهم الساعة وإنى لأرجو أن يمنحنا الله أكتافهم].

كان خالد فى نصف فرسان المسلمين خلف جناحهم الأيمن فى حين كان قيس بن هبيره من أبطال المسلمين وفرسانهم فى نصفهم الآخر خلف جناح المسلمين الأيسر يرقبون سير القتال وينتظرون اللحظة الحاسمة التى تتضعضع فيها صفوف الروم كما تتحطم الموجه العاتية على رمال الشاطئ وصخوره.

وهنا أمر خالد قواته وزحف إلى الروم فى فرسانه حتى تصافحوا بالسيوف وكان الروم قد أنهكهم التعب واختلت صفوفهم وخالد فى فرسانه لم يقاتلوا من البداية وصفوفهم منظمة.

ويقول أحد المسلمين: [وشددنا على من يلينا من رجالهم فانكشفوا وأتبعناهم نقتلهم كيف نشاء].

وذهل «درنجار» قائد ميسرة الروم وقد رأى مصير هجومه الكاسح كيف صار أمره. لقد كان هجومه بالمشاة والفرسان، أما الفرسان فكانت فى تقدمها أسرع من المشاة فتوغلت نحو معسكر المسلمين فى الخلف، وما أن انفرج لهم سبيل خلال جيش المسلمين مع استمرار تماسكه وعدم انهياره حتى انهارت عزائمهم وآثروا الفرار على العودة إلى الانحصار. وكذلك فعل قيس بن هبيره بخيله فى الميسرة فقد اعترض جيش الروم وقصف بعضهم على بعض وانقلب المسلمون من الدفاع إلى الهجوم وحدثت نفس النتائج فى الميسرة كما حدثت فى الميمنة.

وقد صلى المسلمون العصر إيماءً أثناء القتال وكان ميدان القتال ضيق المهرب فلما رأت خيل الروم منفذا نفذت منه وتوجهت للهرب وأفرج لها المسلمون الطريق ودعوها تهرب ولم يحاولوا إحراجها فهربوا فى حالة من الفوضى وتفرقوا فى البلاد، وأخر المسلمون صلاة المغرب إلى ما بعد الفتح.

وأمر خالد عكرمة بن أبى جهل والقعقاع بن عمرو وكانا على أجناب القلب، أمرهما بالهجوم المضاد الشامل ضد قوات الروم.

إنهيار الروم

انهارت الروم تماما وأتبعهم المسلمون يقتلونهم كل مقتل، وتزاحم الروم فركب بعضهم بعضا حتى انتهوا إلى مكان مشرف على هاوية تحتهم فأخذوا يتساقطون فيها وهم لا يبصرون وكان اليوم ذا ضباب وقال بعض الرواة أنه كان فى الليل وهو الأرجح، فكان أولهم لا يعلم ما يلقى آخرهم وكان الساقطون فى الهاوية عشرات الألوف قدرها بعضهم بـ- ١٢٠٫٠٠٠ والبعض بأنهم كانوا ١٠٠٫٠٠٠ والبعض قال أنهم كانوا ٨٠٫٠٠٠ وقد سميت تلك الهاوية «بالواقوصه» حتى اليوم لأنهم وقصوا فيها[١].

وقد قدر عدد القتلى فى المعركة بخمسين ألفا واستطاع الفرار تحت اجنح الليل نحو من ٤٠٫٠٠٠ ومعنى ذلك أن الذين أفسح لهم خالد الطريق من الفرسان هم حوالى ٣٠٫٠٠٠.

المطاردة إلى دمشق ثم حمص

أصبح خالد فى رواق قائد الروم يوم الثلاثاء ٦ رجب لسنة ١٥هـ - ١٣ أغسطس لسنة ٦٣٦م. ثم خرج خالد فى الخيل يتعقب الفلول الهاربة لجيوش الروم ويقتلهم فى كل واد وفى كل شعب وجبل فى مطاردة عميقة حتى انتهى إلى دمشق، فخرج إليه أهلها واستقبلوه وقالوا نحن على العهد الذى كان بيننا وبينكم، فأكد لهم العهد ثم استمر فى المطاردة حتى انتهى إلى حمص، وخرج إليه أهل حمص يستوثقون منه عهدهم السابق فقال لهم: [نحن على ما كان بيننا وبينكم] ثم أقام خالد فى حمص ينتظر رأى أبى عبيدة. وكان خالد قد أعاد القيادة إلى أبى عبيدة قبل خروجه للمطاردة.

وأخذ أبو عبيدة يدفن شهداء المسلمين، فقد استشهد باليرموك ثلاثة آلاف من المسلمين فصلى كل أمير قوم على قتلاه.

كانت معركة اليرموك أهم وآخر المعارك الكبرى فى الشام بين المسلمين والبيزنطيين (الروم) فقد أنتصر فيها المسلمون انتصارا ساحقا على أعظم جيش جمعه هرقل امبراطور الروم فقد انتصر ٣٦٫٠٠٠ من المسلمين على ٢٠٠٫٠٠٠ من فرسان الروم وقواتهم وأوقعوا بهم خسائر فادحة أدت إلى تحطيم هذا الجيش الجرار تحطيما يكاد يكون تاماً، فقد قتل منهم ٥٠٫٠٠٠ وسقط فى الواقوصة ٨٠٫٠٠٠ وفر الباقون ولذلك لم تقم للروم بعد ذلك قائمة فى بلاد الشام.

(١) مازالت هناك قرية حتى اليوم تسمى الياقوصة وهى تواجه هذا الموقع.

وكانت كل المعارك التى حدثت بعد اليرموك عبارة عن تصفية لجيوب المقاومة الرومية المتبقية فى الشام وحصار بعض الحصون والقلاع المتناثرة والتى لم تصمد للمسلمين واضطرت للتسليم واحدة بعد الأخرى.

الموقف فى فلسطين قبل استسلام القدس

انتشر العرب فى أرجاء فلسطين بعد اليرموك وعبأوا قواتهم على المنوال التالى:-

١- تولى معاوية بن أبى سفيان (وكان فى جيش أخيه يزيد) قيادة الحملة التى أرسلت إلى قيسارية لإحكام الحصار حولها ومنعها من القيام بأى حركة عسكرية تحول دون تنفيذ خطط المسلمين فى فلسطين.

٢- تولى علقمة بن حكيم ومسروق بن فلاك المكى قيادة الحملة التى أرسلت إلى القدس لحصارها ومنازلة حاميتها.

٣- تولى أيوب المالكى قيادة الحملة التى أرسلت إلى الرملة.

٤- تولى علقمة بن مجزر قيادة الحملة التى أرسلت إلى غزة وكانت القيادة العليا لعمرو بن العاص وقد تولى محاصرة أجنادين وبذل جهوداً عظيمة فى سبيل الاستيلاء عليها وكان فيها حامية قوية بقيادة «أرطبون» أحد مشاهير قادة الروم.

واتخذ عمرو بن العاص أجنادين قاعدة لجيشه فاستراح فيها مدة ثم زحف إلى القدس وضرب عليها الحصار وأخذ يناجز حاميتها. ولما طال على أهلها الموقف ورأوا أنه لا فائدة من المقاومة جنحوا للسلم وطلبوا عقد الصلح بشرط أن يتم على يد الخليفة نفسه لما للقدس من مقام دينى عظيم.

استسلام القدس

كتب عمرو بن العاص بذلك إلى الخليفة عمر بن الخطاب ودعاه لتسلم مدينة القدس. فوافق عمر على ذلك وغادر المدينة إلى الشام وكتب إلى أمراء جيش الشام أن يقابلوه فى الجابية.

كان يزيد بن أبى سفيان أول من استقبل الخليفة عند وصوله إلى الجابية ثم جاء أبو عبيدة فخالد بن الوليد وتأخر عمرو بن العاص وشرحبيل لأنهما كانا مشغولين بحصار القدس. وفى الجابية استقبل عمر بن الخطاب وفد أهل القدس فصالحهم وكتب لهم كتاباً أعطاهم فيه الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم على أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المداين وعليهم أن

يخرجوا منها الروم فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أحب من أهل إيلياء (أى القدس) أن يسير بماله ونفسه مع الروم فإنهم آمنون على أنفسهم حتى يبلغوا مأمنهم.

ثم ختمه بقوله:

«وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية».

وتأتى القدس أو (ايليا) على رأس البلاد التى فتحها المسلمون صلحاً وسلماً فى ربيع الآخر لسنة ١٦هـ - مايو لسنة ٦٣٧م أى بعد اليرموك بعشرة شهور. وتسلمها وعقد صلحها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شخصياً بناء على طلب من أهلها، وقد شهد على هذا الصلح خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان. بعد ذلك غادر عمر بن الخطاب الجابية متجهاً إلى بيت المقدس فى موكب بسيط يحيط به قواده وخاصته فنزل فى مخيم الجيش العربى المرابط حولها وأقام فيه حتى فرغ الروم من الجلاء عنها ثم دخلها بدون موكب فاستقبله البطريرك صفرونيوس وكبار الرجال وقصدوا معه كنيسة القيامة لزيارتها وأدركته الصلاة وهو يزور الكنيسة فخرج منها وصلى أمامها حيث توجد كنيسة السيدة مريم الآن.

وقد صالح عمر بن الخطاب مندوبى الرملة وهو فى الجابية على نفس الشروط التى صالح عليها مندوبى القدس ووقع لهم عهداً كعهدهم.

وفى القدس قسم عمر فلسطين إلى ولايتين فعين علقمة بن مجزر على القسم الجنوبى وعاصمته القدس وعين علقمة بن حكيم على القسم الشمالى وعاصمته الرملة. ثم عاد من هناك إلى الحجاز ولم يزر المدن الأخرى.

تعليق وخاتمة

الواقع أن هذا الانتصار العربى الساحق فى اليرموك على أكبر امبراطورية فى ذلك الزمان - حيث إن هرقل سبق أن انتصر على الفرس وهزمهم شر هزيمة واستعاد منهم الصليب العظيم، كما جاء فى القرآن الكريم وصدقته الأيام - هذا الانتصار الساحق ليدعو إلى التأمل والتفكير فى العوامل التى أدت إلى ذلك ثم استخلاص الدروس والعبر منها.

أما بالنسبة للروم فيمكن القول أنهم لم يكونوا يدافعون عن عقيدة يؤمنون بها

ولا عن دين يخلصون له وإنما كانوا يدافعون عن أملاكهم وثرواتهم ونفوذهم وسلطانهم أو مستعمراتهم بمعنى أدق.

بينما كان المسلمون يحاربون فى سبيل نشر دين الإسلام الذى يؤمنون به كل الإيمان والذى يرحبون بالاستشهاد فى سبيله، فكانوا يحاربون طمعاً فى إحدى الحسنيين إما النصر وإما الشهادة فى سبيل الله.

وقد كان الروم يحاولون الاعتماد على خفة الحركة وذلك بمحاولة تطويق المسلمين فى حركات تطويق واسعة من الطرق الداخلية وسهل البقاع لقطع طريقهم مع باقى القوات الإسلامية فى البلقاء وفلسطين ومحاولة الانفراد بقوة منفصلة من المسلمين ولكن المسلمين كانوا أكثر سرعة منهم.

وكان العرب يقاتلون مجتمعين دائماً حيث إن الروم كانوا يعتمدون على كثرتهم العددية الساحقة. ولذلك كان المسلمون باجتماعهم دائما يعوضون تلك الكثرة الهائلة فى أعداد الروم بالنسبة لهم.

ولم تنجح سياسة التطويق الواسعة التى كان يقوم بها الروم مرة بعد أخرى ضد المسلمين قبل معركة مرج الصفر مثلا أو قبل معركة فحل بيسان أو قبل معركة أجنادين أو حتى قبل معركة اليرموك نفسها، وذلك لأن المسلمين كانوا أسرع حركة من الروم بخيولهم العربية وعاداتهم البيئية فى الترحال، كما أنهم لم يكونوا يتمسّكون بالأرض مهما كانت بل كان تدمير قوات الروم هو الهدف الأساسى لهم فمثلا نجد أنهم ينسحبون من حمص ومن دمشق العاصمة الكبرى بعد فتحها والتصالح مع أهلها ويسرعون جنوبا ليسابقوا الروم حتى الجابية ثم منها إلى أذرعات ثم إلى اليرموك.

ولهذا يلاحظ أن المناطق التى دارت فيها معارك أجنادين وبيسان ومرج الصفر واليرموك كانت كلها تجاه منافذ طبيعية تخرج بجيوش هرقل من داخل جبال لبنان وسورية إلى حيث يمكن قطع خط الرجعة على جيوش المسلمين التى تسيرعادة على المحور الخارجى للجبال أى على حافة الصحراء، ولكن فى كل مرة كان المسلمون يسارعون للالتقاء بالروم من حيث خرجوا ويحبطون خططهم فى محاولة التطويق.

أما من ناحية القيادة فيلاحظ أن قادة الروم لم يكونوا على المستوى الذى يضارع قادة العرب الأفذاذ، ولم يكن لديهم بعد النظر الاستراتيجى فى القتال، ورغم كثرة أعداد الروم فى كل معركة عن أعداد المسلمين فلم يحاول أى قائد منهم أن يكون لديه احتياطى لمجابهة ظروف المعركة وتطوراتها أو حتى للقيام بهجوم مضاد أو المناورة

على الأجناب بل كانت هجماتهم كلها تقريبا بالمواجهة وبدون أى مرونة فى تحريك هذه القوات الضخمة، هذا وقد قتل عدد كبير من قادة الروم فى هذه المعارك.

فقد قتل قائد الروم فى معركة أجنادين (القبقلار) كما قتل قائدهم (Sakellarius) (سقيلار) فى معركة فحل بيسان ونائبه (Nestauros) (نسطورس). كما قتل (Boccinatar) (ابن قناطر) قائد ميمنة الروم فى اليرموك كما قتل «الدرنجار» قائد مسيرة الروم نتيجة لهزيمته الساحقة فى اليرموك أيضا.

أما قادة المسلمين فكان على رأسهم سيف الله المسلول. ذلك القائد الفذ العبقرى – خالد ابن الوليد– الذى كان من أبصر الناس بالحرب مع وقار وسكينه – كما كان من أعظم الناس بلاء وأحسنهم غناء وأعظمهم بركة وأيمنهم نقيبة. وكان الروم اهون عليه من الذباب وكان دائما نافذ البصيرة وينتهز اللحظة المناسبة للهجوم المضاد الكاسح على العدو فيهزمه شر هزيمة.

وكان دائما يحرك قواته فى المعركة مراقبا سيرها حتى إذا سنحت له الفرص التى ينتظرها – انتهزها بقوات يحتفظ بها بعيدا عن المعركة حتى يتسنى لها الزحف السريع الكاسح على عدو قد أنهكته المعركة وأجهده القتال.

وهو قائد الفرسان الذى لا يبارى، وهو دائما فى المقدمة يشد أزر قواته ويستثير حماسهم بثقته الكاملة بالنصر مهما كانت صعوبة القتال. أمَّر نفسه فى اليرموك. وأعاد تنظيم جيوش المسلمين إلى قوة واحدة متماسكة بعد أن كانت خمسة جيوش – وقسمها إلى كراديس ونظم صفوفها ونظم قيادتها وأعدها للمعركة الكبرى خير إعداد. بل إنه استعان بعامل معنوى ونفسى هائل ألا وهو نساء المسلمين وأبناؤهم فجعلهن على مرتفع خلف ميدان المعركة لصد الفارين من المسلمين وسحق المهاجمين من الروم.

وقد قام نساء المسلمين بدورهن فى هذه المعركة خير قيام. كما قام قادة الجيوش وعلى رأسهم أبو عبيدة بن الجراح الذى لم يجد غضاضة فى تسليم خالد القيادة العامة – ثم يزيد بن أبى سفيان وعمرو بن العاص وعكرمة بن أبى جهل وشرحبيل بن حسنة وغيرهم قاموا بواجبهم خير قيام وكانوا أمراء بالنهار رهبانا فى الليل فلم تصمد أمامهم جحافل الروم ولم يدخل فى قلوبهم وهن ولا خوف وإنما قاتلوا جميعا والموت أحب إليهم من الحياة.

فقد كان معظمهم من صحابة رسول الله (صلعم) والذين تربوا فى مدرسة النبوة

العظيمة. وبالإضافة إلى كل ما سبق نجد أن الروم كانوا يفسدون فى الأرض ويظلمون الناس ويعتدون على أعراضهم ويصادرون محاصيلهم وماشيتهم.

بينما كان المسلمون يسيرون فى الناس بالعدل والإحسان وبما أمر به الله سبحانه وتعالى عباده الصالحين حتى أننا نرى أن أبا عبيدة بن الجراح – وهو القائد المنتصر – الذى يأمر فيطاع – نجده يعيد الجزية التى جباها من أهل حمص وتلك التى جباها من أهل دمشق عند انسحابه منهما وهى آلاف مؤلفة من الدنانير – يعيدها لأهلها لأن «لا ينبغى لنا إذا لم نمنعهم أن نأخذ منهم شيئا» وفعلا ردت الأموال لأهلها وسط دهشة وذهول الأهالى وهم لا يصدقون ما يحدث. ويقارنون هذا السلوك الإنسانى الرفيع بسلوك الروم الظالمين المغتصبين. ولعلنا نرجع فى ذلك إلى تعليمات وأوامر وتوجيهات الخليفة أبى بكر الصديق إلى قادة جيوشه التى سارت عليها جيوش المسلمين فى حروبهم بالشام وغيرها.

وهكذا هزمت جيوش الإمبراطورية البيزنطية فى الشام هزيمة تامة وانسحبت منه نهائيا بعد أن ظل فى قبضتهم أكثر من ستة قرون.

الفصل الرابع

«معركة القادسية»

وسعد بن أبى وقاص

١٦ شعبان سنة ١٥ هـ - ٢٢ سبتمبر ٦٣٦م[1]

مقدمة

فى عام ١١هـ سار المثني بن حارثة فى مطاردة المرتدين حتى دخل جنوب العراق.

وفى عام ١٢هـ ندب الخليفة «أبو بكر» «خالد بن الوليد» و«عياض بن غنم» للسير إلى العراق وهو يومئذ جزء لا يتجزأ من الإمبراطورية الفارسية.

بدأ خالد زحفه والمثني تحت إمرته فأخذ يحقق النصر تلو النصر على الفرس وفض جميع حصونهم وفرق جموعهم غربى «دجلة» - ولم يبق له سوى عبور دجلة والوصول إلى المدائن.

عندئذ وصله أمر الخليفة «أبى بكر الصديق» بالذهاب إلى الشام لمساندة المسلمين أمام الروم.

وفى صفر سنة ١٣هـ غادر «خالد» العراق إلى الشام وتولى المثني القيادة بعده حيث وجد أنه لا يستطيع أن يحافظ على الفتوحات الإسلامية فى أرض السواد بما بقى له من قوات بعد رحيل خالد.

فذهب إلى المدينة المنورة فى جمادى الآخرة سنة ١٣هـ يطلب المساعدة فبعث الخليفة «عمر بن الخطاب» (بعد وفاة الخليفة أبى بكر) أبو عبيد بن مسعود الثقفى كقائد لقوات العراق بعد خالد ومعه مدد كبير. وصل «أبو عبيد» بالقرب من القادسية فى شعبان سنة ١٣هـ حيث دارت معارك مع الفرس فى النمارق ثم فى السقاطية وباقسياثا هزم فيها الفرس على طول الخط.

---

(١) أى بعد شهر واحد فقط من معركة اليرموك.

أعد الفرس عدتهم للانتقام للهزائم التى منوا بها، وأرسل «رستم» جيشا كبيرا بقيادة «بهمن جاذويه» للقضاء على العرب نهائيا.

التقى الجيشان فى معركة «الجسر» حيث هزم المسلمون لأول ولآخر مرة واستشهد أبو عبيد فى المعركة وتولى المثني القيادة بعده.

وفى رمضان سنة ١٣هـ نشبت معركة «البويب» بين الفرس بقيادة «بهمن جاذويه» والعرب بقيادة «المثني بن حارثة» حيث كان الفرس يأملون فى تحقيق انتصار آخر على العرب بعد معركة «الجسر» ولكنهم هزموا شر هزيمة - وثأر المثنى بذلك لهزيمة الجسر وشهدائها. وانتقلت قواته بعد المعركة تطارد الفرس فى أرجاء السواد وهم يفرون أمامهم وهنا أصبح الموقف سواء من وجهة نظر العرب أو من وجهة نظر الفرس يتطلب حسما نهائيا.

الموقف بعد معركة البويب بالنسبة للفرس

لقد أصبح الموقف بعد النصر العربى الكبير فى معركة «البويب» سيئا بالنسبة للفرس. فقد توالت عليهم الهزائم من العرب الذين كانوا منذ سنوات قليلة مضت تحت حكمهم المتسلط واستعبادهم وقهرهم ولكن ها هم الفرس اليوم يفرون أمامهم فرار النعام وها هى الهزائم تتوالى عليهم من كل جانب. لذلك كان وقع هزيمة البويب عليهم أليما ورد فعلها لديهم كبيراً فقرروا توحيد صفوفهم وشحذ عزائمهم لهزيمة العرب هزيمة ساحقة لا تقوم لهم بعدها قائمة أبداً.

ولذلك سارع الفرس إلى توحيد كلمتهم - إذ كان النزاع مستمرا بين «رستم» و«الفيرزان» والأمراء والدهاقين منقسمون بينهما - فذهب اليهما أهل الرأى وحذراهما من عاقبة ذلك فاتفقوا على تعيين «يزدجرد الثالث» بن شهريار بن كسرى على العرش - وكان شابا عمره حوالى ٢١ سنة - وتباروا فى طاعته. واطمأنت فارس وأخذت تعد العدة للثأر لكرامتها وشرفها من العرب. وأخذت ترسل الجيوش تلو الجيوش لقتال العرب وتوحدت فارس كلها خلفه لهزيمة العرب هزيمة حاسمة.

وقد اهتم «يزدجرد» شخصيا بهذه الموقعة اهتماما عظيما وكان يشعر بأنها المعركة الفاصلة حيث كان يرجو أن يضع حدا لهذه الجرأة العربية على بلاده ويعيدهم من حيث أتوا. وما كان يطيق أن ينتظر الأنباء حتى تصل إليه بل عمل على أن تصله الأنباء أولا بأول. فوضع رجالاً متتابعين من باب إيوانه حتى قيادة رستم فى الميدان ليبلغوه أولا بأول كل ما يحدث فى ميدان القتال.

بالنسبة للعرب

بعث المثنى بالموقف العام بعد نصر البويب إلى أمير المؤمنين عمر واضطراره للانسحاب إلى ذى قار على تخوم الصحراء بعد ثورة أهل السواد بالمسلمين مرة أخرى. فسكت عمر بعض الوقت حتي تهدأ النفوس ثم اصدر نداءه لعماله فى بلاد العرب كلها «لا تدعوا احدا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إليّ. والعجل العجل كما أرسل إلى أبى عبيدة بن الجراح فى الشام لإعادة القوات التى جاءته مع خالد إلى العراق مرة أخرى. ثم قال: «والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب».

قيادة الحملة

توافد الناس على عمر من أنحاء شبه الجزيرة العربية فأنزلهم على ماء يدعى «صرار» بالقرب من المدينة على طريق العراق. عند ذلك نادى «الصلاة جامعة»، فاجتمع الناس فأخبرهم الخبر. فقال العامة «سر وسر بنا معك». ولكن كبار الصحابة كرهوا ذلك وقال «عبد الرحمن بن عوف» إن يهزم جيشك ليس كهزيمتك، وإنك إن تقتل أو تهزم خشيت ألا يكبر المسلمون وأن لا يشهدوا ألا إله إلا الله أبداً».

وفى النهاية استقر الرأى على أن يبقى عمر بالمدينة وأن يبعث قائداً سواه. واختار المجتمعون «سعد بن أبى وقاص» ليكون قائداً لهذا الجيش وأميرا له.

من هو سعد بن أبى وقاص

«خال الرسول(صلعم» (وأحد العشرة المبشرين بالجنة) من بنى زهرة اخوال النبى صلى الله عليه وسلم. كان من اسبق قريش للإسلام. اسلم وعمره ١٧ سنة وقيل إنه كان سابع سبعة فى الإسلام. وكان ذا مال ونعمه. وكان صحابيا جليلا وفارسا شجاعاً وبطلا مقداماً. شهد [بدرا وأحداً والخندق والحديبية وفتح مكة وغزوات الرسول كلها]. ثبت يوم أحد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. ودافع عن الرسول دفاعاً مستميتاً وكان الرسول يقول له «ارم سعد فداك أبى وأمى». وكان أول من رمى بسهم فى الإسلام فلا عجب أن يكون «الأسد فى براثنه». وكان احد الستة الذين رشحهم عمر للخلافة بعده. وبعد تعيينه للقيادة اوصاه عمر وصية رائعة جاء فيها:

«يا سعد بنى وهيب – لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله (صلعم). فإن الله عز وجل لا يمحو السيىء بالسيىء ولكن يمحو السيىء بالحسن. فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته – فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء. الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة. فانظر الأمر الذى رأيت النبى

«سلعم» منذ بعث إلى أن فارقنا فالزمه فإنه الأمر «هذه عظتى إياك. إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين» ثم عند خروج سعد بالجند أوصاه مره أخرى قائلاً: «الصبر الصبر على ما أصابك أو نابك يجتمع لك خشية الله».

سعد يخرج من المدينة

خرج سعد من المدينة فى ١٤ شعبان سنة ١٤هـ - أول اكتوبر (تشرين الأول) سنة ٦٣٥م. على رأس أربعة آلاف معهم نساؤهم وأبناؤهم. وكانت القوات تقبل على المدينة تلبية لنداء عمر فكان يبعثها فى إثر سعد لتنضم إليه. وقد بعثت شبه الجزيرة العربية بخيرة رجالها من الأبطال والفرسان والشعراء والخطباء والرؤساء والزعماء، كل على رأس قبيلته. وقد بلغت قوات سعد عشرين ألفا، أما «المثنى بن حارثة» فكان ينتظر قدوم سعد ومعه قواته التى انسحبت إلى ذى قار فكانت ستة آلاف من بكر بن وائل انضم اليهم ستة آلاف من القبائل المجاورة من سائر ربيعة وبجيلة وطئ وكانت القوات التى أرسلها أبو عبيدة من الشام بقيادة هاشم بن عتبة تبلغ ٨ آلاف. وبذلك بلغ عدد الجيش الذى سار نحو القادسية ٣٦ ألفا أو نحوها - وهو أضخم جيش عبأه المسلمون لغزو العراق منذ بدأ «المثنى بن حارثة» دخوله فى عهد أبى بكر عام ١٢ هـ.

اكتمل عدد القوات عدا قوات الشام، ولكن فى خلال فترة الانتظار لوصول سعد وقواته مرض المثني مرضا شديدا ثم توفى اثر الجرح الذى أصيب به فى معركة الجسر. فقدم «المعنى بن حارثه» أخو المثنى على سعد ومعه سلمى أرملة المثني ثم ذكر له وصية المثنى له» :

بأن يقاتل الفرس على حدود ارضهم فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ماوراءهم وإن تكن الأخرى كانوا أعلم بسبيلهم. فلما سمع سعد وصية المثنى ازداد حزنه لموته وترحم عليه وخطب سلمى وتزوجها وبنى بها تكريما لذكرى العظيم المتوفى كما كانت تقاليد العرب.

وقد أرسل سعد إلى عمر يذكر له انباءه ويطلب الرأى فأرسل عمر رأيه وكان كرأى المثنى واوصاه بالمبادرة إلى «القادسية» ووصية مفصلة رائعة ختمها بقوله: «اكتب إلى بجميع احوالكم وتفاصيلها وكيف تنزلون واين يكون منكم عدوكم واجعلنى بكتابك إلى كأنى انظر اليكم واجعلنى من امركم على الجلية» مما يوضح شدة اهتمام الخليفة عمر وقلقه على مصير المسلمين وحرصه على كل صغيرة وكبيرة من أمورهم.

سعد يتحرك نحو القادسية

لم يبدأ سعد فى التحرك إلى القادسية إلا بعد أن عبأ جيشه تعبئة عرفها عمر وأقرها.

فقد كتب عمر إلى سعد:

[إذا جاءك كتابى هذا فعشر الناس (أى اجعلهم عشرة أعشار) وعرف عليهم (أى اجعل عليهم عرفاء) وأمر عليهم أجناحهم (أى عين أمراء الجند) وعبئهم (أى اجعلهم على تعبئة). ومر رؤساء المسلمين فليحضروا ثم وجههم إلى أصحابهم وواعدهم بالقادسية واكتب إلى بالذى يستقر عليه أمرك].

كما أمّر على الرايات رجالا من أهل السابقة في الإسلام، وجعل على المقدمة والمجنبتين ابطالا ممن حاربوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم. وكان فى هذا الجيش ١٤٠٠ حاربو مع رسول الله منهم بضعة وسبعون بدريا وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كانت لهم صحبة فى بيعة الرضوان وما بعدها وثلاثمائه ممن شهدوا الفتح وسبعمائة من أبناء الصحابة فى جميع أحياء العرب.

سار سعد بالناس متمهلا حتى بلغ العذيب فنزلها، واقام بها شهرا قبل أن يسير إلى «القادسية». ثم بعث قوات من جنده تغير على ما حولها وتنشر الرعب وتجئ بالغنائم والأسرى – ثم حصن موقعه فيها وترك بها نساء المسلمين ووضع معها خيلا تحميهن (الحريم) ثم سار إلى القادسية فنزل بحصن قديس. ووزع الجند وأخذ يبعث بالغارات والسرايا تجئ إليه بمئونة الجيش من غنم وابقار ودقيق وكل ما يحتاج له الناس.

وقد كان غرض سعد من إرسال هذه السرايا هو إعاشة جيش المسلمين فى الميدان وكان الغرض الثانى هو استنزاف قوات الفرس وانهاكها وتهديد بلادهم مما يدفعهم لسرعة الخروج لملاقاة المسلمين فى المنطقة التى تم إختيارها للوقوف فيها وقبول المعركة الحاسمة على أرضها ألا وهى «القادسية».

ورغم كل ذلك فقد تباطأ الفرس فى مواجهة سعد وجنوده فقد بعث «يزدجرد» إلى «رستم» ليخرج لملاقاة العرب ولكن «رستم» كان يفضل ان يبقى بالمدائن يدبر المعارك ويرسل الجيوش ويعين غيره للقيادة. ولكن عندما اشتدت غارات العرب على ارض السواد من اسفله إلى اعلاه وبعث المراذبة والدهاقين إلى «يزدجرد» لينجدهم وإلا سيدخلون فى طوع المسلمين – زال عنه كل تردد وامر «رستم» ابن الفرخزاد بالخروج لملاقاة المسلمين.

من هو رستم

قال «البلاذرى» فى فتوح البلدان - رستم من أهل الرى ويقال بل من أهل همذان - وقالوا إنه أرمنى. وقد أراد أبوه الوصول إلى ملك فارس بالزواج من «آزرميدخت» (الفتاة الطاهرة) بنت كسرى ولكنها تحايلت حتى قتلته. وعمت الفوضى فارس فأرادت «بوران» بنت كسرى أن تحسمها فأرسلت إلى «رستم» - وكان أميرا على خراسان - واستحثته للسير فزحف إلى المدائن لا يلقى جيشا «لأزرميدخت» إلا هزمه - ثم حاصر «المدائن» واقتحمها وقتل «أزرميدخت».

ولته بوران أمر فارس عشر سنوات يعود بعدها الملك إلى آل ساسان. وتوجته وأمرت أهل فارس أن يسمعوا له ويطيعوا - ولكن كان ينافسه الفيرزان.

وكانت «بوران» بنت كسرى برويز من أكثر أهل فارس عقلا وغيرة على مصالح بلادها كما كانت قوية الشخصية.

ولكن بعد هزيمة «البويب» طلب رستم والفيرزان من بوران أن تدلهما على نساء آل كسرى فوجدا «يزدجرد» مختبئا عند أخواله فنصباه ملكا وعاد «رستم» يوجه الجيوش ضد المسلمين.

وفد سعد إلى يزدجرد

وقد بعث سعد إلى «يزدجرد» تنفيذاً لأمر «عمر بن الخطاب» بوفد فيه أهل الرأى والشجاعة. وكان عددهم أربعة عشر شخصا وأمرهم أن يدعوه إلى الإسلام فإن أبى فالجزية وإلا الحرب. وصل الوفد إلى المدائن وعجب الفرس من منظرهم ولباسهم وخيولهم الهزيلة. ودارت مناقشة غاية فى الروعة تمثل عزة الإسلام والمسلمين وسماحة الإسلام وما جاء به الرسول (صلعم) من دين الله القويم وتبين صلف المجوس وغرورهم. وانتهت بغضب «يزدجرد» ثم أمر من جاءه بوقر من تراب فقال: «احملوه على اشرف هؤلاء ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن». فخرجوا مسرعين حتى أتوا إلى سعد وأخبروه الخبر ثم قال: «أبشروا فقد والله اعطانا الله مقاليد ملكهم بهذا التراب». أما الفرس فقد تشاءموا مما حدث وخاصة أنهم كانوا يؤمنون بالتنجيم والغيبيات إلى أقصى درجة.

خروج رستم بقواته

خرج «رستم» كارها وبعث على مقدمته جالينوس فى ٤٠ ألفا وخرج هو وضرب عسكره فى «ساباط» خارج المدائن فى طريق الحيرة وعبأ جيشه فجعل على الميمنة

الهرمزان وعددها ٣٠,٠٠٠ وعلى الميسرة مهران بن بهرام وعددها ٣٠,٠٠٠ وجعل مؤخرة عليها فيرزان وعددها ٢٠,٠٠٠ وبلغ مجموع قواته ١٢٠ ألفا (ومعه ثلاثة وثلاثون من الفيله) هذا بالإضافة إلى التوابع وعددهم ٨٠,٠٠٠. هذا ويمكن القول أن الفرسان كانوا يعادلون نصف الجيش أى حوالى ستين ألفا. وكان رستم عالما بالنجوم فرأى فيها ما يضمره الغيب لفارس ولكن طموحه وكبرياءه دفعاه ليخالف ما رأى وليشارك «بوران» فى حكم بلاده. تابع «رستم» مسيرته حتى بلغ «القادسية» بعد أربعة أشهر منذ خروجه من «المدائن» مع أنه كان يستطيع أن يصل فى بضعة أيام[1] ولكنه آثر التباطؤ ظنا منه أن ذلك يوهن عزم العرب. ورغم ضخامة القوات لديه فكان يود أن يصرف العرب عن بلاده دون قتال فصف قواته الهائلة ومعها الفيلة أمام العرب عبر النهر ثم بعث إلى سعد ليرسل له رجلا من عقلاء المسلمين يبين له ما جاءوا فيه. فأرسل إليه سعد رسولا يتلوه آخر وآخر وأجمعوا جميعا بعد مناظرات طويلة مع رستم على الإسلام أو الجزية أو الحرب.

وعند ذلك لم يكن أمام رستم من بد سوى الحرب وخاصة بعد أن تضعضعت هيبه الدولة وضعف سلطانها فى نفوس أهل العراق من فرس وعرب، فإن لم يضرب فى القادسية ضربته أوشك هذا السلطان أن ينهار. لذلك ارسل رستم لسعد يقول: كالمعتاد «إما إن تعبروا الينا أو أن نعبر إليكم» ولكن سعد بقى فى موقعه مطمئناً إلى موقفه – فنهر العتيق يحميه من أمامه وخندق سابور عن يمينه والصحراء المترامية وراء ظهره. فتمهل رستم حتى الليل ثم أمر رجاله فطموا العتيق بالتراب والقصب ثم عبر رستم وقواته وجعل الفيلة على القلب والمجنبتين عليها الصناديق والرجال وجنوده من ورائها وضرب لنفسه قبة نصب فيها سريره الفخم المحلى بالذهب. وكان يزدجرد يتابع الأخبار بكل اهتمام ووضع الرجال من المدائن للقادسيه لإبلاغه فورا بها.

سعد يستعد للمعركة

وقبل بدء المعركة مرض سعد فكان لا يستطيع أن يركب أو يجلس وفى صدره وسادة مكب عليها ويشرف على الناس من القصر يرمى بالرقاع فيها أمره ونهيه. وقد استبشر يزدجرد حينما وصلت الأنباء بمرض سعد. وتندر جنوده بذلك ولكن سعدا قابل الموقف بحزم وشدة وأمر برجال فقيدهم بالقصر منهم أبو محجن الثقفى. ثم دعا سعد جماعة من الذين انتهى اليهم امر الناس والخطباء والشعراء وقال لهم [انطلقوا فقوموا

(١) كانت المسافة من المدائن إلى ساباط ثم القادسية تبلغ ١٨٥ كيلو مترا فقط قطعها رستم فى أربعة شهور.

للناس بما يحق عليكم. ويحق عليهم فى مواطن البأس. فسيروا فى الناس فذكروهم وحرضوهم على القتال] وخطب «سعد» وهو فى تلك الحالة فيمن يليه من الجند فشجعهم وحثهم وحرضهم واشتد الحماس للقتال. كما اصطف رستم بقواته معتزا بها لينتقم من العرب ويلقنهم درسا لن ينسوه «وليدقهم دقا».

المعركة الفاصلة عام ١٥هـ

اليوم الأول «أرماث»(١)

الخميس ١٣هـ شعبان - ١٩ سبتمبر سنة ٦٣٦م

بدأت المعركة بعد أن كبر «سعد» ثلاثا فخرج صناديد العرب لمبارزة أبطال الفرس فأسر «غالب بن عبد الله الاسدى» «هرمز» وجاء به سعد وخرج «عاصم بن عمرو» فطارد فارسيا فإذا هو خباز الملك ومعه طعام رستم فأسره ثم كبر سعد الرابعة فالتقى الجيشان وزحفت قوات المسلمين نحو الفرس وأبلى أبطال المسلمين بلاء لم يعرف له سعد نظيراً وكانوا جميعا يعلمون ما رمتهم به فارس من عدد وعدة. ورأى الفرس «بنى بجيلة» وعليهم «جرير بن عبد الله» يصولون ويجولون فوجهوا إليهم ١٣ فيلا حملوا عليهم ففرت خيولهم وبقى الرجال وتكاد الفيلة تبيدهم وعندما رأى سعد ذلك ارسل إلى بنى اسد ليذبوا عنهم فخرج إليهم «طليحه(٢) بن خويلد» وجماعة من قبيلته فشدوا على الفيلة حتى حبسوها عنهم. ولكن الفيلة عادت فحملت عليهم فأرسل سعد إلى «عاصم بن عمرو» وقال «يا معشر بنى تميم أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة». قالوا: بلى. فخرج عاصم واصحابه واستدبروا الفيلة وضربوها بالنبل فارتفع عواؤها وألقت بركابها فقتلوا ونفس عن أسد وعن بجيلة جميعها بعد أن قتل من اسد وحدها أكثر من خمسمائة شهيد.

وكانت سلمى بجانب سعد ترى ما يرى من سير القتال فصاحت: «وامثنياه ولا مثنى للخيل اليوم» فأثار كلامها سعدا فصفعها فقالت له فى عزة: «أغيرة وجبنا» !!

انقضى النهار وغربت الشمس والقتال لايزال حاميا وطيسه. فلما ذهبت هدأة من

---

(١) الأسماء التى أطلقت على أيام القتال فى القادسية وهى «أرماث وعماس وأغواث» لم يجد لها المؤرخون أى تعليل أو معنيى اللهم إلا «أغواث» حيث وصلت فيه إغاثة من قوات الشام.

(٢) «طليحة بن خويلد» هو صاحب ردة بنى أسد وقد عاد إلى الإسلام وحسن إسلامه وبلاؤه.

الليل رجع الجيشان كل إلى مواقعه وكل يحسب للغد حسابه والمسلمون أشد قلقا بعدما نزل بهم فى هذا اليوم الأول من خسائر رغم كل البطولات التى أبلوها. فلما بدأ الصباح شغل الطرفان بدفن القتلى ونقل الجرحى. وبينما كانا كذلك كان «القعقاع بن عمرو التميمى» يسرع السير فى ألف من الجند كمقدمة لقوات «هاشم بن عتبه[1]» التى تحركت من الشام عائدة إلى العراق بعد انتصار المسلمين فى اليرموك هناك وفتح دمشق بأمر من الخليفة عمر، ولكن لم يكن معهم «خالد بن الوليد» الذى استبقاه «أبو عبيدة بن الجراح» معه فى الشام.

اليوم الثانى «أغواث»

ولكى يشد القعقاع من أزر المسلمين فى القادسية وكان على مقربة منها صبح اليوم الثانى قسم رجاله الألف إلى عشر فرق لا تسير فرقة حتى تكون الأخرى على مدى البصر حتى يعطى الانطباع بوصول إمدادات ضخمة للمسلمين. ثم سار هو على رأس الفرقة الأولى ووصل قبل بدء القتال فنادى فى الصفوف هل من مبارز فخرج له «بهمن جاذويه» صاحب موقعة «الجسر» فانقض عليه القعقاع فقتله وانتقم بذلك لهزيمة المسلمين فى «الجسر».

وقد استمرت المبارزات بعد ذلك بين أبطال العرب وبين قادة المجوس حتى الظهر. واستطاع خلالها «القعقاع بن عمرو» أن يقتل قائدا فارسيا آخر هو «البيرزان» قائد مؤخرة الفرس ثم قال: «يا معشر المسلمين باشروهم بالسيوف فإنما يحصد الناس بها». وقد استشهد خلال هذه المبارزات أبناء الخنساء الأربعة – واحدا بعد الآخر – وبلغ الخنساء خبر بنيها الأربعة – وهى التى عاشت حياتها تبكى أخاها صخرا الذى قتل فى الجاهلية – فقالت:

[الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته!!] روعة الإيمان وقمة الصبر.

ولما صلى المسلمون الظهر تزاحف الناس فاقتتلوا وخاصة عندما رأوا أفعال القعقاع ووصول المدد تنشطوا وكأن لم تكن بالأمس مصيبة وزادهم نشاطا أن لم يروا الفيلة بعد أن تكسرت صناديقها فدارت رحى القتال واشتد وطيسها. وفكت «سلمى بنت خصفة» قيود أبى محجن وأعطته «البلقاء» – فرس سعد – بعد أن عاهدها على العودة إلى محبسه مره أخرى بعد المعركة – فصال وجال فى ميدان المعركة فكان يقصف المجوس قصفا منكرا دون أن يعلم «سعد» وكان يقول [وكأنه هو] واستمر

(١) هاشم بن عتبة هو بن أخى سعد بن أبى وقاص.

القتال فى هذا اليوم إلى منتصف الليل والمسلمون يرون فيه الظفر. فلما انتصف الليل لم يكن للفريقين بد من أن يرجع كل إلى عسكره يعيد تنظيم صفوفه ليعودا للقتال فى الصباح. واطمأن سعد بنتيجة هذا اليوم ونام. أما القعقاع فنظم رجاله كما جاء بهم من الأمس وأمرهم أن يقدموا صباح اليوم الثالث كأنهم مدد جديد وبنفس الطريقة أى جماعة بعد جماعة دون أن يفطن جنود المسلمين لذلك.

اليوم الثالث «عماس»

أصبح الناس والجيشان فى مواقفهم وبين الصفين من القتلى والجرحى ألفان من المسلمين وعشرة آلاف من الفرس وأقبل رجال من المسلمين فحملوا الشهداء والجرحى إلى «العذيب» حيث دفن الشهداء بينما كان نساء المسلمين يعنين بالجرحى ويمرضنهم وبذلك اشتركن فى هذه المعركة الحاسمة.

وفى صباح اليوم الثالث قدم جنود القعقاع كإمداد للمسلمين كما فعلوا فى اليوم الثانى فكبروا وكبر المسلمون. ولكن الفرس لم يضعفوا واقتحموا المعركة بأفيالهم بعد أن أصلحوا صناديقها منذ طلوع الشمس وبدأ القتال حامى الوطيس واشتركت فيه الفيلة فكان المسلمون يتقدمون تارة فيردهم الفرس ويتقدم الفرس تارة فيردهم العرب وظل القتال سجالاً. ثم ازداد الفرس بأساً بوصول حرس «يزدجرد» كإمداد «لرستم». وظلت الفيلة تفعل فعلها حتى استطاع القعقاع وأصحابه مهاجمة الفيلة فى أعينها ومشافرها فولت هاربة نحو النهر. وبفرار الفيلة رآها المسلمون آية من آيات الله واستمروا فى القتال.كما أن الفرس شدوا عزائمهم بوصول حرس «يزدجرد» وخاضوا القتال بكل حماس. ولكن القتال اشتد مرة أخرى بوصول الإمداد من الشام بقيادة «هاشم بن عتبة». وقد استمر القتال دون أن يتدخل «سعد» فيه من المسلمين أو «رستم» من الفرس بل إن جنود الطرفين استمروا فيه وكأن الاقدار قضت به ودفعت إليه وكأنما جنود الطرفين قد قرروا الاستمرار فى القتال حتى يحسم الأمر بينهما.

القتال أثناء الليل - ليلة الهرير

قدر سعد أن الجيشين سيقضيان الليل للاستعداد ولكنه خشى أن يأتيه العدو من مخاضة بأسفل المعسكر فأرسل اثنين من أقوى فرسانه وهما «طليحة بن خويلد» و«عمرو بن معدى كرب» فى جماعة من الجنود لحراستها إذا لم يجدا عليها أحدا من الفرس والبقاء عندها حتى يأتيهما أمره. فذهبا ولم يجدا أحدا فسولت لهما نفساهما أن يخوضاها ويأتيا الفرس من خلفهم وكبروا فارتاع الفرس وظنوا أنهم قد أحيط بهم فقدموا صفوفهم زاحفين، ورأى القعقاع ذلك فزاحفهم من غير أن يستأذن سعدا ورأى

سعد ذلك من مكانه «بقديس» فقال [اللهم اغفرها له وانصره. وقد أذنت له إذ لم يستأذننى] ثم قال لأصحابه إذا كبرت ثلاثا فاحملوا، ولكنه ما كاد يكبر الأولى حتى اندفعت أسد وبجيلة وكندة وغيرها نحو القتال مع القعقاع وزحف الناس واستقبلوا الفرس بسيوفهم وخالطوهم. وكان القتال يشتد كلما تقدم الليل وبات الجيشان يقتتلان أشد القتال وأقساه وسعد ورستم قد انقطعت عنهما الأخبار. وقد استمر القتال عنيفا متلاحما خلال الليلة الثالثة لا يسمع فيها إلا صليل السيوف ولذلك سميت ليله «الهرير».

اليوم الرابع «يوم القادسية» والنصر الساحق

تنفس الصبح عن هذه الليلة الدامية الصاخبة ولم يكن النصر قد عقد لواؤه لأحد الفريقين. فهل أحس الجند والمسلمون بالجهد بعد أن استمر قتالهم ٢٤ ساعة متصلة فى أعنف قتال؟؟ كلا بل سار القعقاع فى الناس يقول - بعد أن قدر موقف الطرفين فى المعركة بعد ثلاثة أيام ولياليها من القتال المتواصل تقريبا - [إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم فاصبروا ساعة واحملوا فإن النصر مع الصبر] فحملت القبائل على من بإزائهم من الفرس فى قتال شديد ظل متصلا حتى الظهيرة من يوم القادسية. عند ذلك بدأت صفوف الفرس تضطرب وتراجع «الفيرزان» و«مهران» عن المجنبتين فانفرج القلب. وهبت ريح عاصفة فأطارت طيارة «رستم» عن سريره فهوى فى نهر العتيق.

وزحف القعقاع ومن معه إلى رستم بعد أن أحدثوا فدغاً فى قلب الفرس فإذا رستم قد قام عن سريره وألقى بنفسه فى النهر.

وقد كانت معنويات المسلمين تزداد ارتفاعا وعلوا بمضى الوقت وضغطوا على عدوهم ضغطا شديدا فاستطاعت قبائل اليمن من «بنى قحطان» إرغام قطاع «هرمزان» على التراجع للخلف كما تراجع قطاع «بيرزان» أمام ضغط «بنى بكر بن وائل» مع استمرار تقدم القعقاع فى القلب فكانت هذه بداية النهاية.

واستطاع أحد رجال القعقاع أن يتابع «رستم» وأن يظفر به ويقتله وهو «هلال بن علفة» ثم صاح [قتلت رستم ورب الكعبة]. وعرف الفرس ما اصاب قائدهم فوهنت قوتهم وانهد ركنهم ووصل القعقاع وكتيبته من «تميم» إلى السرير وقد قام عنه «رستم» ثم إلى «العتيق» وبذلك فصل ما بين ميمنة الفرس وميسرتهم.

عند ذلك وقف «جالينوس» على الردم يدعو الفرس لعبور العتيق على الردم ولكن الردم انهار فى النهر المتدفق فغرق بانهياره ثلاثون ألف فارسى مكبلين بالسلاسل وقد فر

الباقون. وقد حاول «جالينوس» جمع فلول الفارين إلا أن أحد المسلمين وصل إليه وقتله كما أخذ «ضرار بن الخطاب» علم الفرس الأكبر غنيمة «الدرفش كابيان». وهكذا هزمت جيوش «يزدجرد» شر هزيمة وانطلقت فلولهم يولون الأدبار لا يعقبون وانحطت روحهم المعنوية لأقصى درجة. وقد استحيا بعض العجم من الفرار فبعد أن استبانت الهزيمة ثبت بضعة وثلاثون كتيبة وقاتلوا ولم يتبعوا الفرار، ولكنه كان قتال شراذم. فتصدى لهم بضعة وثلاثون من رؤساء المسلمين فيمن معهم. فمنهم – أى من الفرس – من قاتل حتى قتل ومنهم من عاد وهرب مرة أخرى.

وقد أمر سعد القعقاع بن عمرو بمطاردة الفرس مطاردة سريعة وقريبة للهاربين فى اتجاه الشرق كما أرسل قوات أخرى لمطاردة الهاربين نحو الشمال والشمال الغربى.

وقد خرج نساء المسلمين وصبيانهم ومعهم أوعية الماء فانحدروا من «العذيب» يسقون من به رمق من المسلمين ويشاركون فى هذا النصر العظيم. ثم بعد ذلك تم جمع وتوزيع الغنائم الهائلة التى لم يجمع مثلها من قبل فى ميادين القتال.

اهتمام عمر بن الخطاب بالمعركة ورسول سعد إليه

أما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فكان يدير المعركة بنفسه تقريبا من المدينة وكان يرسل الإمدادات إلى سعد فوجا بعد فوج وكما سبق القول فقد اعلن التعبئة العامة فى بلاد العرب كلها لندبهم لقتال الفرس. وأرسل لسعد الوصايا والكتب يتبع بعضها البعض مليئة بالنصائح والتوجيهات الإيمانية والحربية الرائعة. وكان يتلقى من سعد كتبا عن تطورات الموقف أولا بأول. وعندما أصبح القتال وشيكا كان عمر يخرج يوميا من داره بيثرب يتطلع إلى الأفق البعيد لعله يجد ركبا قادما بالخبر. وأخيراً لمح رجلا على ناقته يسرع فى السير صوب المدينة فأسرع أمير المؤمنين إليه وسأله عن الأخبار، فقال جئت من القادسية وقد هزم الله العدو وانتصر المسلمون وقتل رستم والجالينوس وقواد كثيرون وكانت معركة ما شهد العرب مثلها. واستمر القادم يصف ما دار فى القادسية وهو يسرع السير بناقته وأمير المؤمنين يسير مسرعا بجواره حتى دخلا المدينة فراح الرجل يسلم على الناس والناس يسلمون عليه بقولهم يا أمير المؤمنين. وهنا علم الراكب شخصية أمير المؤمنين فنزل وقال «فهلا اخبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين» ؟؟ ودفع بكتاب سعد إليه وقال «أنا سعد بن عميلة الفزارى» قد بعثنى إليك بهذا الكتاب.

خاتمة

لقد اشترك المسلمون جميعا رجالا ونساء فى هذه المعركة الفاصلة التى جعلت

كلمة الذين آمنوا العليا وكلمة الذين كفروا السفلى والتى كان لها من الأثر فى تدمير الإمبراطورية الفارسية ما كان لغزوة بدر من الأثر فى قيام الإسلام. لم يضن المسلمون بثمن ولو بأرواحهم ودمائهم. ليدركوا هذا النصر فجزاهم الله إحدى الحسنيين فقد استشهد منهم فى اليومين الأولين ألفان وخمسمائة واستشهد فى اليوم والليلة الأخيرة التى انتهت بالنصر ستة آلاف كان من بينهم عديد من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم جميعا. وهذا العدد من الشهداء كان مما يفوق تصور العرب فى ذلك العهد ولكنه لم يكن شيئا بالنسبة لمن قتل من الفرس أو غرق فى النهر أو قتل عند الفرار بعد الهزيمة. رجع القعقاع وسائر الأمراء والجند فأحاطوا بسعد فوجدوه قد خفف النصر عليه بعض علته وجمع الناس الاسلاب والأموال فإذا بها شيء لا يحيط به خيال عربى.

القادسية ونتائجها فى التاريخ

لقد فتحت القادسية الطريق إلى «إيوان كسرى» فى عاصمة ملكه «بالمدائن» ومهدت للقضاء على دولته وسلطانه. لذا روى أكثر المؤرخين من تفاصيلها الشيء الكثير. بل لقد أسهب المستشرقون والفرس فى روايتها كما اسهب المؤرخون المسلمون. ولا عجب فالقادسية أعظم أثرا فى تاريخ الإنسانية من كل الغزوات التى وقعت فى عصرنا الحاضر بما فيها غزوات «تيمورلنك» و«نابليون».

ولاشك أن القادسية – وتقاربها اليرموك – تقع على قمة المعارك الحاسمة فى تاريخ العالم فهى التى فتحت أبواب العراق ومن ورائه فارس كلها للمسلمين وكانت بداية لإنتصارات متوالية وهزائم مطّرده للساسانيين من الناحيتين الحربية والسياسية. كما كانت بداية لسقوط المجوس المطّرد من الناحية الدينية والعقائدية.

ومن هنا انساح الإسلام فى العالم شرقا وغربا. ولولا ذلك لظل محصورا فى جزيرة العرب لا يتعدى القبائل الضاربة فى صحاريها وحواضرها القليلة.

كان الإسلام جديدا فهو مازال فى فتوته فإن لم يستطع المسلمون كسب انجازاتهم حينذاك ودينهم فى عنفوان قوته لما امكنهم أن يهزموا الفرس بل لأمكن للدولتين الكبيرتين – الروم والفرس – توحيد صفوفهما ضد هذا الدين الناشئ والإطباق عليه من الجهتين وربما استطاعوا لا قدر الله القضاء عليه.

فى «القادسية» كسر المسلمون شوكة المجوس كسرا لم ينجبر بعدها ابدا. فقد القى فيها الفرس بكل طاقاتهم من سلاح وعتاد وفيلة كثيرة واعداد ضخمة من الجنود بقيادة تمثلت فى أعظم قادتهم وأشهرهم فى الحرب والسياسة. وطالما استطاعوا بهذه

الامكانيات الضخمة هزيمة الروم والزحف إلى بلادهم أكثر من مرة – ولكن كل هذه الحشود لم تصمد لحشود المسلمين الذين ملأ الإيمان بالله العلى العظيم وحب الشهادة فى سبيله قلوبهم. ورأسهم رجل من صحابه رسول الله «سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم» ومن السابقين للإسلام «سعد بن أبى وقاص» فخاضوا غمار الحرب غير هيابين مقدمين غير مدبرين حتى ألحقوا بالفرس هزيمة ساحقة بإذن الله وبفضله. وصدق الله العظيم إذ يقول فى كتابه العزيز ﴿ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم﴾ «محمد آية ٧» وقوله تعالى: ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ «آل عمران آية ١٢٦».

الفصل الخامس

«القعقاع بن عمرو التميمى»
«فارس العرب»

نشأته وإسلامه

أسلم القعقاع بن عمرو حين أسلمت قبيلته تميم وقدم وفدها على النبى (صلعم) فى العام التاسع للهجرة بعد غزوة تبوك.

وكان القعقاع أحد فرسان العرب المشهورين وشعرائهم، قال القعقاع: [قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أعددت للجهاد؟ «قلت: طاعة الله ورسوله والخيل». قال صلى الله عليه وسلم: «تلك الغاية»].

وفى رواية عن سيف يضعفها أهل الحديث أنه شهد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم.

بدأ القعقاع جهاده العظيم فى سبيل الله فى حروب الردة فقد استعان به الخليفة «أبو بكر الصديق» وأرسله فى سرية للقضاء على ردة «بنى كعب».

دوره فى حروب العراق

وبعد انتهاء حروب الردة أمر أبو بكر الصديق خالد بن الوليد أن يسير إلى العراق وأن يعاونه المثني بن حارثة فى ذلك وأذن خالد لمن شاء من جنده بالرجوع قبل السير للعراق فرجع أهل المدينة وما حولها ونقصت قوات خالد حتى لم يبق معه إلا ألفان.

كتب خالد إلى أبى بكر يطلب المدد فأمده أبو بكر بالقعقاع بن عمرو فقيل للخليفة أتمد رجلا قد انفض عنه جنوده برجل]. وكان أبو بكر عليما بالرجال فقال [لا يهزم جيش فيهم مثل هذا] كما قال [لصوت القعقاع فى الجيش خير من ألف رجل].

وكتب الخليفة أبو بكر إلى خالد [استنفر من قاتل فى الردة ومن ثبت على

الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يغدون معكم أحد ارتد حتى أرى رأيى] فلم يشهد هذه المعارك من سبقت له ردة حتى سمح لهم بذلك فيما بعد فى عهد عمر لما ظهرت توبتهم وحسن إسلامهم وعلى ألا يتولوا رئاسات لقوات المسلمين.

بعد أن توالى وصول الإمدادات لخالد سار فى جنوب العراق بادئا بالأبله والتقى جيش خالد بجيش الفرس بقيادة «هرمز» فى أولى المعارك عند «كاظمة».

القعقاع ينقذ خالد فى كاظمة

وفى هذه المعركة دبر «هرمز» خطة غادرة لقتل خالد فخرج بين الصفين وطلب خالد للمبارزة وكان قد عهد لفرسانه بالغدر. ومشى إليه خالد وبدأت المبارزة فاحتضن خالد هرمز فغدرت فرسان هرمز وهجموا على خالد وهو مشتبك مع هرمز وأحاطوا بهما من كل جانب. ولما رأى القعقاع ذلك قاد المسلمين وهجم على الفرس وكشفهم عن خالد فإذا به يقاومهم ويبارزهم بعد أن قتل هرمز. وانتصر المسلمون فى هذه المعركة نصرا كبيرا. وتعرف هذه المعركة أيضا بمعركة «ذات السلاسل» وكانت فى محرم عام ١٢ هجرية - مارس/ آذار - ابريل/ نيسان ٦٣٣ ميلادية.

سار خالد بعد ذلك فى سواد العراق يحقق النصر تلو النصر ومعه القعقاع بن عمرو والمثنى بن حارثة وغيرهم من أبطال المسلمين حتى فض جميع حصون الفرس وفرق جموعهم فى كل مكان غربى دجلة.

القعقاع يتوجه إلى الشام بصحبة خالد

عندئذ جاءه أمر الخليفة أبى بكر بترك العراق والتوجه إلى الشام لنجدة المسلمين الذين كان موقفهم دقيقا هناك أمام الروم. إذ قال أبو بكر [والله لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد].

دوره فى معركة اليرموك وفتح دمشق

غادر خالد بن الوليد العراق فى صفر عام ١٣ هجرية إلى الشام وصحب معه القعقاع بن عمرو. وقد اشترك مع خالد فى فتوحاته بالشام وأظهر فيها بطولات نادرة وخاصة فى معركة اليرموك، فقد كان القعقاع أحد أبطال المسلمين فيها. وكذا فى فتح دمشق إذ كان أحد الذين تسلقوا أسوارها بالحبال مع خالد بن الوليد ونزلوا معه إلى داخل الحصن فقاتلوا حراس أبوابه حتى فتحوها للمسلمين.

بعد انتهاء فتوحات الشام أمر الخليفة عمر بعودة قوات خالد التى خرجت معه

من العراق – بعودتها ثانية إليه استعدادا لمعركة القادسية ولكنها لم تعد هذه المرة بقيادة خالد وإنما عادت بقيادة «هاشم بن عتبة».

عودة القعقاع إلى القادسية

سارع هاشم بإرسال القعقاع بن عمرو أمامه على رأس ألف مقاتل حتى يصل إلى سعد بن أبى وقاص فى القادسية فى أسرع وقت فوصل فى صباح اليوم الثانى للمعركة.

أحاط القعقاع بموقف المسلمين بسرعة فقسم الألف إلى عشر فرق لا تسير فرقة إلا بعد أن تكون السابقة لها على مرمى البصر وسار هو على رأس الفرقة الأولى حتى يشد من أزر المسلمين ويوهم العدو بوصول إمدادات ضخمة للمسلمين. وصل القعقاع إلى ميدان القتال قبل أن يبدأ القتال فى صباح اليوم الثانى للمعركة.

القعقاع يقتل بهمن جاذويه الذى هزم المسلمين فى الجسر

ما أن وصل القعقاع حتى نادى فى الصفوف هل من مبارز فخرج له القائد الفارسى الكبير «بهمن جاذويه» – الذى أذاق المسلمين مرارة الهزيمة فى واقعة الجسر – فانقض عليه القعقاع فقتله وبذلك انتقم لشهداء الجسر منه. وما أن رأى المسلمون فعال القعقاع وقتله «بهمن» ووصول الإمدادات حتى تنشطوا وكأن لم تكن أصابتهم بالأمس مصيبة إذ أن الفيلة فعلت فعلها فى اليوم الأول من القتال فى القادسية وخسر المسلمون بسببها خسائر كبيرة خاصة من قبيلتى «بجيلة» و«أسد» – وانقضوا على الفرس كالأسود الكاسرة ونادى القعقاع فى الناس [يا معشر المسلمين باشروهم بالسيوف فإنما يحصد الناس بها].

واستمر القتال عنيفا إلى منتصف الليل ولم يكن هناك بد للفريقين من أن يرجع كل إلى معسكره ليعيد تنظيم قواته ويدفن قتلاه ويداوى جرحاه استعدادا لليوم الثالث من المعركة. وقد اطمأن سعد بن أبى وقاص لنتيجة القتال فى هذا اليوم، وقد رأى فيه الظفر، كيف لا وقد ذكروا أن القعقاع وحده قد قتل فيه ثلاثين من الفرس.

القعقاع يستعد لليوم الثالث من معركة القادسية

أما القعقاع فسارع إلى تنظيم رجاله كما نظمهم بالأمس وأمرهم أن يقدموا صباح اليوم الثالث جماعة بعد أخرى كما فعلوا فى اليوم السابق كأنهم مدد جديد. وفى صبيحة اليوم الثالث دخل رجال القعقاع للمعركة كما أمرهم فكبروا وكبر

المسلمون وراءهم واقتحموا المعركة بكل حماس كما اقتحمها أيضا الفرس وخاصة أنهم أحضروا الفيلة مرة أخرى بعد إصلاح صناديقها.

وظلت الفيلة تفعل فعلها فى المسلمين حتى استطاع القعقاع وأصحابه مهاجمة الفيلة فى أعينها وضرب مشافرها فولت هاربة نحو النهر بعد أن تدافعت بين صفوف المسلمين والفرس عدة مرات وهى تصيح صياح الخنازير. وأستمر القتال حتى الليل وكان سعد فى تلك الليلة الثالثة يخشى أن يأتيه العدو من مخاضة فى الجنب بأسفل المعسكر فأرسل طليحة وعمر فى جماعة من الجند لحراستها والبقاء عندها إذا لم يكن الفرس قد وصلوا إليها حتى يأتيهم أمر سعد. ولكن عندما وصلا ولم يجدا من الفرس أحدا سولت لهما نفساهما أن يخوضاها ويأتيا الفرس من خلفهم فأتوهم من خلفهم وكبروا.

القعقاع يزاحف الفرس دون إذن سعد

ظن الفرس أنه قد أحيط بهم فقدموا صفوفهم زاحفين ضد المسلمين فلما رأى القعقاع ذلك زاحفهم من غير أن يستأذن سعدا. وأطل سعد من مجلسه بقديس. وقد بدأ يحسب لزحف الفرس الحساب فلما رأى القعقاع يزاحفهم قال: [اللهم اغفرها له وانصره فقد أذنت له وإن لم يستأذننى] واندفعت القبائل تقاتل حول القعقاع واشتد القتال وكبر سعد فلحق الناس بعضهم بعضا واستقبلوا الفرس بالسيوف وخالطوهم. واستمر القتال طوال الليل.

القعقاع يحث المسلمين على الصمود للفرس

تنفس الصبح من هذه الليلة الدامية الصاخبة ولم يكن النصر قد عقد لواءه لأحد الفريقين فهل أحس المسلمون بالجهد بعد قتال استمر ٢٤ ساعة متوالية؟ كلا بل سار القعقاع فى الناس وهو يقول [إن الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم فاصبروا ساعة واحملوا فإن النصر مع الصبر].

القعقاع يندفع نحو رستم قائد الفرس

فى اليوم الرابع للمعركة حملت القبائل على الفرس فى قتال عنيف ضار استمر حتى الظهر، عند ذلك بدأت صفوف الفرس تضطرب وتراجع قائدا الفرس الفيرزان ومهران عن المجنبتين فانفرج القلب واندفع القعقاع ومن معه إلى رستم القائد العام فإذا به قد قام من سريره وألقى نفسه فى النهر. واستطاع أحد رجال القعقاع أن يظفر برستم فقتله وهو يقول صائحا [قتلت رستم ورب الكعبة]. عرف الفرس ما أصاب قائدهم

«رستم» فوهنت قواهم وانهد ركنهم وسارعوا بعبور نهر العتيق منسحبين فغرق فى النهر حوالى ٣٠٫٠٠٠ فارس مكبلين بالسلاسل وهزمت جيوش يزدجرد شر هزيمة فى القادسية وفتحت أبواب العراق كله بل الشرق كله على مصراعيه أمام العرب والمسلمين فقد كانت القادسية من كبرى معارك الإسلام الفاصلة التى غيرت وجه التاريخ.

القعقاع يقود العبور العظيم إلى المدائن

بعد هذا الدور العظيم الذى قام به القعقاع فى القادسية حتى تحقق هذا النصر الكبير الحاسم اندفع القعقاع مع قواته تحت قيادة سعد بن أبى وقاص نحو «المدائن» للقيام بمطاردة سريعة للفرس أولا ثم كمقدمة للقوات ثانيا.

والآن نروى قصة بطولة أخرى من بطولات القعقاع فعندما وصل سعد بن أبى وقاص وجنوده إلى «المدائن» عاصمة الفرس وكان بينه وبينها نهر دجلة والفرس قد قطعوا جميع المعابر ونقلوا جميع السفن إلى الشاطئ الشرقى عند المدائن حتى لا يستطيع سعد العبور إليهم. ولكن سعد صمم على العبور مهما كان الثمن فاكتشف مخاضة فى النهر وانتدب كتيبتين من الفرسان الأولى كتيبة الأهوال وعددها ستون رجلاً يقودها عاصم بن عمرو والثانية الكتيبة الخرساء وعددها ستمائة رجل يقودها القعقاع لعبور المخاضة. دفع عاصم فرسه فى النهر واقتحم زملاؤه معه ورأى القعقاع هذه الكتيبة تتقدم سابحة ورأى الفرس على الجانب الآخر كأنما يتهيأون للقائها فلم ينتظر وأمر سائر أصحابه الستمائة فدفعوا خيولهم إلى النهر فدخلوه كما دخله عاصم وأصحابه.

وتولى الفرس العجب لما صنعه المسلمون وقال بعضهم: [مجانين .. مجانين] وقال آخرون: [والله إنكم ما تقاتلون إنسا بل تقاتلون جنا]. وأقام الفرس حتى رأوا عاصم وأصحابه قد توسطوا النهر ثم أرسلوا فرسانهم ليمنعوهم من الخروج وليقاتلوهم فى الماء ولكن عاصم قال لأصحابه [الرماح ... الرماح أشرعوها وتوخوا العيون]. فارتدت خيول الفرس حينما أصابت الرماح عيونها وعبر عاصم ومن معه ولم يصب من رجاله أحد من كتيبة الأهوال وأدركه القعقاع على رأس الكتيبة الخرساء فلم يبق على الشاطئ من الفرس أحدا، وعندما رأى سعد ذلك أمر فرسانه فاندفعوا فى النهر ألوفا مؤلفة من حيث اقتحمه عاصم فكان هذا العبور بمثابة معجزة من معجزات الحرب. انطلق سعد والمسلمون بعدها إلى «إيوان كسرى» و«قصر المدائن» واستولوا عليهما كما أخبر النبى محمد صلوات الله وسلامه عليه من قبل.

وقد علق المؤرخون العرب على هذا العبور «بأنه معجزة لم ير مثلها فى تلك البلاد ولا فى بقعة من البقاع» كما قال «ابن كثير».

القعقاع يقتحم جلولاء بعد حصار طويل

بعد المدائن تجمع الفرس فى «جلولاء» على نحو ٤٠ ميلا شمال المدائن وأقاموا بها التحصينات وتعاهدوا ألا يفروا وأن يفنوا المسلمين عن آخرهم. وجاءت هذه الأنباء لسعد وهو بقصر كسرى فى المدائن فبعث بها إلى الخليفة عمر فى المدينة فأمر عمر بإرسال «عتبة بن هاشم» فى ١٢ ألف مقاتل على مقدمته القعقاع بن عمرو. وسار عتبة إلى جلولاء فوجد الفرس متحصنين بها ومستميتين فى الدفاع عنها فحاصرها ولكن الحصار وحده لم يكن ليحملها على التسليم فإنه كانت تأتيها الإمدادات تباعا من خلفها.

لذا طال الحصار حوالى ثمانين يوما كان الفرس يخرجون خلاله إلى لقاء المسلمين ويرتدون منهزمين. لذا أمرهم قائدهم بالخروج لقتال المسلمين. يقول ابن كثير: [فاقتتلوا قتالا شديدا لم يعهد مثله حتى فنى النشاب من الطرفين وتقصفت الرماح من هؤلاء ومن هؤلاء فصاروا إلى السيوف والطبرزينات (آلة للحرب مثل الفأس)].

وحانت صلاة الظهر فصلى المسلمون إيماء وذهبت فرقة المجوس وجاءت أخرى مكانها وهنا تجلت عبقرية القعقاع فقد قام فى المسلمين فقال: [هل هالكم ما رأيتم؟] قالوا: [نعم إنَّا كالون وهم مريحون] فقال القعقاع [بل إنا حاملون عليهم حتى يحكم الله بيننا] فحمل وحمل الناس. ثم إن القعقاع أندفع مع جماعة من الفرسان والأبطال الشجعان حتى انتهى إلى «باب الخندق» الذى حول حصون الفرس.

وأقبل الليل بظلامه ورأى القعقاع الناس يتحاجزون لإقبال الليل فنادى مناديه [أيها المسلمون هذا أميركم على باب خندقهم فأقبلوا عليه] وحمل المسلمون وقاتلوا عدوهم قتالا شديدا ذكرهم بقتال الليل فى القادسية إلا أنه كان أعجل. فلما انتهوا إلى باب الخندق رأوا القعقاع قد أخذ به ورأوا الفرس ينهزمون يمنة ويسرة إذ يحول الخندق بينهم وبين الإرتداد إلى المدينة. عندئذ أخذهم المسلمون من كل وجه حتى لقد قتل منهم حينئذ ١٠٠٫٠٠٠ رجل.

القعقاع يندفع إلى حلوان

فر من بقى من الفرس من جلولاء إلى حلوان فاتبعهم القعقاع فأدرك القائد الفارسى «مهران» بخانقين فقتله. وقدم القعقاع إلى حلوان فخرج إليه حماتها فقاتلوه

قتالا شديدا ثم انهزموا أمامه ودخل المسلمون المدينة فغنموا وسبوا وضربوا الجزية عليها وعلى من حولها من الأقاليم.

وكتب سعد إلى أمير المؤمنين عمر بفتح جلولاء والغنائم العظيمة التى غنموها وبنزول القعقاع حلوان، فسر الخليفة بذلك.

خاتمة

هكذا كان تاريخ القعقاع الناصع العظيم فى الفتوحات الإسلامية وبطولاته التى تكاد تفوق الخيال مقداما شجاعا غير هياب ولا وجل. وكما كان للقعقاع دوره العظيم فى الفتوحات كذلك كان له ماضيه فى ميادين السياسة. فكانت له جهود كبيرة إبان الفتنة الكبرى لتهدئتها فبعد وصول «على بن أبى طالب» رضى الله عنه إلى «ذى قار» عام ٣٦ هجرية فى جمادى الآخرة قام القعقاع بمساع للتفاهم بينه وبين معسكر عائشة واستجاب أصحاب الجمل للقعقاع ووافق على بن أبى طالب على ذلك.

وكان القعقاع قد انتبه إلى وجود قتلة عثمان فى معسكر على بن أبى طالب وأنهم لما صاروا فى العراق صاروا فى معقل قوتهم وقبائلهم وأن قتلهم يفتح بابا لا يستطيع على بن أبى طالب أن يسده بعد ذلك. وتحدث القعقاع فى ذلك إلى أم المؤمنين «عائشة» و«طلحة» و«الزبير» فعذروا عليا ووافقوا على التفاهم معه على ما يخرجهم من هذه الفتنة. فكان القعقاع يرى أن موقف على بن أبى طالب هو موقف ضرورة.

وفى عهد معاوية أخرج القعقاع من «الكوفة» إلى «ايلياء» بفلسطين. وقد توفى هذا البطل العظيم فى مصر عام ٤٠ هجرية - ٦٦٠ ميلادية. حيث دفن فى مدينة «المنزلة» وبنى له مسجد فيها.

الفصل السادس

«عمرو بن العاص وفتح العرب لمصر»

(١٨هـ - ٦٣٨م) - (٢١هـ - ٦٤٣م)

تمهيد(١)

لقد كان فتح العرب لمصر كتاباً مؤجلا إلى أوانه المقدور فقد بشر النبى محمد صلوات الله عليه وسلامه بهذا اللقاء بين المسلمين والمصريين بتلك الرسالة التى كتبها (صلعم) إلى المقوقس عظيم القبط فى مصر يدعوه فيها إلى الإسلام بعد أن استقرت له الأمور بعد صلح الحديبية سنة ٦هـ جاء فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم – من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط.. سلام على من اتبع الهدى.. أما بعد.

فإنى أدعوك بدعاية الإسلام فأسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فعليك إثم القبط. ﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون﴾.

وقد حمله إليه حاطب بن أبى بلتعة رسول رسول الله إلى المقوقس. وقد أجاب المقوقس على رسالة النبى محمد (صلعم) برسالة يستشف منها عدم الضيق بما دعى إليه أو السخط على ما يقرأه جاء فيها:

«لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام – أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه. وقد علمت أن نبيا قد بقى... وكنت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مقام فى القبط عظيم وبكسوة وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام».

---

(١) لقد استغرق فتح مصر سنتين وشهرين منذ دخول جيش عمرو بن العاص العريش حتى فتح دمياط والمنطقة الساحلية وشمال الدلتا. وقد فتحت هذه المناطق خلال سنة واحدة تقريبا بعد فتح الإسكندرية.

وليس من شك أن البشرى التى بشر بها النبى الكريم قد علقت بأذهان المسلمين فى حياته (صلعم) أو بعد وفاته وما كان من مسلم إلا وهو يعلم أن مصر مفتوحة للمسلمين على يقين وإنما هو الأوان المحتوم. ومرت الأيام والسنون – وانتقل الرسول صلوات الله وسلامه عليه إلى جوار ربه بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة وجاء من بعده الخليفة أبو بكر الصديق رضى الله عنه، فجاهد فى الله حق جهاده وبدأ يدفع الجيوش الإسلامية نحو الإمبراطوريتين العتيدتين الفارسية والرومانية أو البيزنطية فى الشام وأخذت بشائر النصر تتوالى. ثم انتقل أبو بكر رضى الله عنه إلى رحاب ربه وخلفه من بعده أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب وتوالت الانتصارات الإسلامية على جميع الجبهات.

مقدمة

بعد فتح بيت المقدس عاد الخليفة عمر بن الخطاب إلى المدينة المنورة حاضرة الإسلام الكبرى وأقام فيها يشرف على أعمال القتال فى الجبهتين جبهة الشام وجبهة العراق. وكان شمال سوريا لم يفتح بعد وكان الفرس لا يزالون يناضلون فى المناطق الجبلية وفى الأهواز وكان الخليفة يصدر الأوامر والتعليمات إلى أمرائه وقواده بالخطط العامة التى يسيرون عليها لأنه «أى الخليفة» كان يتقلد القيادة العليا للجيوش بحكم منصبه ويضع الخطط العسكرية الرئيسية بنفسه ويعهد إلى القواد بتنفيذها تاركاً لهم التفاصيل. وكان إلى جانب ذلك يرسل القوى والإمدادات كما كان يشرف على إدارة بلاد العرب الداخلية.

ولما تم فتح الشام من شمالى حلب حتى رفح (أول حدود مصر الشرقية فى العهد الرومى وفى الوقت الحاضر أيضا) ولم تبق سوى قيسارية فقط هى التى تقاوم – قصد الخليفة إلى الشام ثانية ليرتب أمورها ولكنه عاد بسبب انتشار مرض الطاعون[١] – «ويسمى طاعون عمواس»

لم تطل إقامة عمر فى المدينة المنورة إلا ريثما تقلص ظل الطاعون فقصد الجابية مرة أخرى. وكان عمرو بن العاص قد تولى القيادة العامة لقوات المسلمين فى الشام خلفاً لأبى عبيده بن الجراح الذى هلك فى الطاعون وهلك أيضاً يزيد بن أبى سفيان ومعاذ بن جبل وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام وعتبة بن سهيل وعدد كبير من قادة المسلمين وأبطالهم.

وقد استقبل عمرو بن العاص الخليفة عمر بن الخطاب فى الجابية بهذه الصفة

(١) تجدر الإشارة إلى الحكمة المشهورة التى قالها عمر بن الخطاب عندما قيل له: «أفراراً من قضاء الله» . فرد عمر قائلاً: «فراراً من قدر الله إلى قدر الله».

وبحث معه مشروع إعادة تنظيم بلاد الشام إدارياً وعسكرياً ومالياً. وفى خلال هذه الاجتماعات اقترح عمرو بن العاص على الخليفة أن يسمح له بأن يقود جيشاً يفتح به مصر (وكان قد زارها من قبل وعرف عظمتها وشهد عمرانها ووفرة ثروتها وغناها) وقال له ليس فى البلاد ما هو أقل منها قوة ولا أعظم منها ثروة وغنى. وإن فتحها سيعود على المسلمين بالخير إليهم كما أن قعودهم عن فتحها قد يكون وبالاً على المسلمين فهم لا يأمنون أن يجهز «أرطبون» قائد الروم فى أجنادين (وكان قد انسحب إلى مصر قبل تسليم القدس) قوة كبيرة يغير بها على الشام مرة أخرى لمحاولة انتزاعها أو مضايقة المسلمين فيها.

ولقد بذل المسلمون آلاف الشهداء فى حروبهم ضد الروم فى بلاد الشام وفلسطين فأصبحت هذه الديار غالية عليهم وكان عمرو بن العاص هو الذى قاد جيش المسلمين إلى فلسطين من أول حروب الشام إلى نهايتها فأين يقف عمرو بن العاص فى زحفه نحو الجنوب وخاصة أنه ليس هناك بين مصر وفلسطين حدود طبيعية أو جغرافية؟؟ كما أن مصر كانت تحت حكم الروم وبها جيش كبير لهم كما كان الأمر فى فلسطين قبل الفتح الإسلامى، الأمر الذى يهدد فلسطين وبلاد الشام. لذلك كان الزحف نحو مصر لتأمين فلسطين وبلاد الشام أمراً طبيعياً.

هذا بالإضافة إلى أن مصر كانت تعانى ما عانته سوريا وفلسطين من تعسف الروم وظلمهم كما أنها كانت كالعهد بها دائما غنية ونيلها الخالد ينساب بالخير، وعلى جانبيه تمتد المزارع الغنية والحدائق الغناء ولها تاريخها التليد الذى يضرب آلاف السنين فى أعماق الزمان. ولذلك كله كان الاستيلاء على مصر إنما هو ضمان لاستقرار الإسلام فى كل هذه الأقطار فى آسيا وأفريقيا التى تحررت أخيرا من جبروت دولة الروم، ففتح مصر إذن كان عملا طبيعيا وبدونه ما كانت جيوش المسلمين بفلسطين تنعم بأمن أو استقرار. ومن هنا فإننا نأخذ الروايات التى أثيرت حول الخلاف بين الخليفة عمر بن الخطاب وبين قائده عمرو بن العاص بتحفظ كبير.

لم يبت الخليفة فى هذا المشروع لخطورة شأنه بل آثر التريث للبحث والدرس وخاف من فتح ميدان جديد للقتال خاصة أن الروم كانوا مايزالون على حدود سوريا الشمالية. كما كان الفرس مازالوا يقاومون فى بلاد ايران وإن فتح ميدان جديد مثل هذا قد يؤدى إلى إضعاف قوة العرب وزيادة أعبائهم العسكرية أكثر من طاقتهم.ولكن عمرو بن العاص أعاد مقالته على الخليفة مرة أخرى مؤكدا أن فتح مصر لا يحتاج لأكثر من أربعة آلاف جندى لا يضعف سفرهم جيش الشام. وقد ارتاح الخليفة مبدئيا إلى اقتراح

عمرو ووعد بأن ينظر فيه بعد العودة إلى المدينة المنورة وسيكتب إليه بما يستقر عليه الرأى. وقد استشار الخليفة عدداً من الصحابة وأصحاب الرأى ومن بينهم عثمان بن عفان.

لم يطل انتظار عمرو بن العاص فقد حمل إليه بعد أشهر قلائل شريك بن عبيدة كتابا سريا من الخليفة يبلغه فيه إقراره لمشروعه ويأمره بالمضى فى تنفيذه ويوصيه بالكتمان الشديد فلا يعرف الروم من أمره شيئاً فيحبطوا مشروعه ويدعو له بالنجاح والتوفيق. وقد فرح عمرو بذلك فرحاً كبيراً وعكف سراً على إعداد الجيش الذى قرر أن يسير على رأسه وكان لايزال على أسوار قيسارية يحاصرها مع معاوية بن أبى سفيان.

وتاريخ الكتاب الذى أرسله الخليفة إلى عمرو غير معروف بالضبط، كما أن اليوم الذى بدأ فيه عمرو بن العاص زحفه نحو مصر غير معروف أيضا إلا أن الدلائل تدل على أنه تسلم الخطاب فى منتصف السنة الثامنة عشرة للهجرة ثم أخذ يعد العدة للزحف على مصر.

من هو عمرو بن العاص

كان عمرو بن العاص فى نحو الخامسة والأربعين فى وقت غزو مصر وكان قصير القامة، قوى البنية، مرن الأعضاء، تعود جسمه احتمال المشقة. وقد ساعده ذلك على أن يبرز فى أفانين الفروسية والضرب بالسيف. وقد كان عريض الصدر، له عينان سوداوان ثاقبتان سريعتا التأثير سواء أكان ذلك فى حال الغضب أم فى حال السرور، وكان وجهه ينم عن القوة فى غير شدة وتلوح عليه لائحة البشر والأنس.

وكان عمرو بن العاص من بنى سهم من قريش وهو عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سهم بن هصيص بن كعب بن لؤى، ووالدته سلمى بنت حرملة من بنى عفرة وكان إسلامه فى السنة السابعة أو الثامنة من الهجرة، وروى فى الخبر أن عمراً قال للنبى (صلعم) يارسول الله إنى أبايعك على أن يغفر لى ما مضى من ذنبى، فقال له النبى (صلعم) «إن الإسلام والهجرة يجبان ما كان قبلهما».

وكان النبى (صلعم) يرى فى عمرو رأيا حسناً. وكان أكبر ما امتاز به عمرو أن النبى (صلعم) نفسه عقد له على بعض سراياه وقال له عند ذلك أنه قد أمّره على الناس ودعا له بالسلامة والغنيمة. وقد عقد النبى (صلعم) لعمرو بعد موقعة السلاسل على عمان مسقط فظل عليها حتى لحق النبى (صلعم) بربه. وبعد سنة أو سنتين جعله أبو بكر أحد القواد الأربعة الذين سيرهم إلى الشام. فقلده قيادة الجيش الذى أرسله لفتح

فلسطين وقد اشترك فى معركة اليرموك فأبلى فيها بلاء حسناً وقام بحركة التفاف حول جناح الروم الأيسر عجلت بهزيمته وتمزيقه. وأخيراً وليس آخراً فقد كان قوى الجسم، ذكى العقل وله قوة من عزمه كالحديد إذا عزم. وكان شجاعاً لا ينكل ولكن كان يؤثر الأناة ويعلم أن الرأى يأتى أولاً والشجاعة ثانياً. وكان فى أمر الدين والعبادات على تقى وصلاح وكان فى العلم على ما كان عليه أهل عصره وعرف بين العرب بأنه من أحدّهم ذهنا ومن أكملهم عقلاً. وكان خطيباً بليغاً وله خيال خصب، فاجتمعت فيه صفات المحارب والشاعر جوّاب الآفاق والرجل الصالح. وكان محبباً مؤلفاً يملك قلوب الناس ويستهوى أفئدتهم شأنه فى ذلك شأن عظماء الرجال.

والمتفق عليه بين المؤرخين أن عمرو بن العاص كان يشتغل بالتجارة كبقية أعيان قريش وأنه زار مصر فى تجارة له قبل الإسلام.

وقد انضم عمرو إلى معاوية بن أبى سفيان فى الفتنة الداخلية فولاه مصر مكافأة له. ومات فيها على فراشه فى أول شوال سنة ٤٣هـ وقد أشرف على السبعين ودفن فى سفح جبل المقطم وقد درس موضع قبره ولا يعرف مكانه الآن.

هذه صفات القائد الذى أرسله عمر بن الخطاب على رأس أربعة آلاف فارس بايعوا أنفسهم على انتزاع مصر من يد الروم والقياصرة وضمها إلى دولة الإسلام.

السير نحو مصر

سار عمرو بن العاص بجيشه الصغير من قيسارية إلى عسقلان ومنها إلى غزة ثم رفح. وسار فى الطريق الشمالى القريب من البحر فدخل رفح. وهناك وصله كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. ويقول المقريزى: «قال عمرو فإن أمير المؤمنين عهد إلىّ وأمرنى إن لحقنى كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع وإن لم يلحقنى كتابه حتى دخلنا أرض مصر فسيروا وامضوا على بركة الله». وعرف عمرو أن ذلك الكتاب الذى لحق به لم يأته بالرضا عما هو فيه ولهذا لم يأخذه من الرسول حتى عبر مهبط السيل (وادى العريش الآن). وهناك أتى له بالكتاب فقرأه ثم سأل من حوله أنحن فى مصر أم نحن فى الشام؟؟ فقيل له: «نحن فى مصر». فقرأ على الناس كتاب الخليفة ثم قال: «إذن نسير فى سبيلنا على بركة الله كما يأمرنا أمير المؤمنين».

وقد استولى عمرو على العريش بكل سهولة إذ يبدو أنها كانت خالية من جنود الروم مع أنها كانت مدينة ذات حصون. وقد أقام جيش عمرو الصغير بها فى عيد الأضحى فى العاشر من ذى الحجة من عام ١٨ هـ الموافق اليوم الثانى عشر من

ديسمبر سنة ٦٣٩م. ثم غادرها وما حولها من بساتين النخيل[١] وسار فى الطريق إلى مدينة الفرما. ولم يلق العرب أحداً من جنود الروم حتى اقتربوا من المدينة. وفى طريقه مر على بير المساعيد وبير العبد وقاطيا. ومدينة (بلوز) أو «الفرما»[٢] وهى عبارة عن ميناء صغير على البحر يسمى عند الروم PELUSIUM وكان يصب بالقرب منها فرع من فروع دلتا النيل يسمى الفرع البيلوزى. والفرما كانت مدينة كبيرة وقديمة قوية الحصون وبها كثير من اثار قدماء المصريين كما كان بها كنائس وأديرة. وكانت مفتاح مصر من الشرق وتشرف على الطريق القادم من الصحراء. وكانت تبعد عن البحر نحو عشرة كيلو مترات وكانت ذات مرفأ بحرى ترسو فيه السفن وكان فرع النيل يصب بالقرب منها وكانت فيها حامية عسكرية كبيرة.

ولم يكن عند جيش عمرو بن العاص شيء من عدة الحصار وما كانوا ليستولوا على المدينة إلا بالمهاجمة وفتح الأبواب. وكانت حامية المدينة تخرج لقتال العرب بين الحين والحين واستمرت الحرب متقطعة لعدة شهور ثم خرج إليهم جنودها مرة ليقاتلوهم ولما عادوا إلى مدينتهم تبعهم العرب فملكوا الباب قبل أن يغلق.

وبالاستيلاء على الفرما أصبح للعرب معقل يؤمن لهم طريق العودة إذا نزلت بهم هزيمة. كما أن القتال حول الفرما أوضح لعمرو بن العاص ما هو مقبل عليه من قتال الروم، الأمر الذى أصبح يتطلب أن يبعث إليه أمير المؤمنين بالإمدادات التى وعده بها.

كان عند ذلك قد مضى نصف شهر يناير سنة ٦٤٠م (وذلك العام الميلادى يكاد يتفق مع سنة ١٩هـ لأن أول عام ١٩هـ هو ٢ يناير سنة ٦٤٠م وآخرها يوم ٢٠ ديسمبر سنة ٦٤٠م). واستأنف عمرو تقدمه فسار إلى موقع مدينة القنطرة الآن، إذ فى هذا الموضع تصير الأرض صلبة وصالحة لتقدم قواته التى كانت جميعها من الفرسان ولم يكن عندهم شيء من وسائل بناء القناطر على الترع والأنهار. ثم استأنف السير إلى مكان الصالحية ووادى الطميلات إلى الجنوب، ثم تقدم بعد ذلك إلى بلبيس حيث وجد بها جمعاً من الروم يقودهم قائد يسمى Arteon وقد سماه العرب «الأرطبون»[٣] فاستولى عليها العرب بعد قتال استمر نحو شهر. وبعد استيلاء عمرو على بلبيس اتجه

(١) مازالت بالعريش بساتين النخيل حتى اليوم نتيجة لالتقاء مياه الأمطار التى تجرى فى وادى العريش بالبحر عند العريش. والمسافة بين قيسارية والعريش تبلغ حوالى ٢٤٥ كيلو مترا.

(٢) كما يسميها العرب. وقد اندثرت الآن وكأنها اليوم قرية قاطية بالقرب من محطة رمانة.

(٣) كان أرطبون قائد قوات الروم فى معركة أجنادين. وقد قال الخليفة عمر بن الخطاب قبل المعركة «لقد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب» يقصد عمرو بن العاص. وقد قتل الأرطبون فى معركة بلبيس هذه.

نحو رأس الدلتا إلى قرية تسمى «تندونياس» ويسميها العرب «أم دنين» وكانت إلى الشمال من حصن «بابليون» وموقعها اليوم فى قلب القاهرة قرب الأزبكية حالياً وكانت إذ ذاك على مجرى النيل. وكان جنوب أم دنين حصن للروم يسمى «بابليون» أو «باب ليون» جعل الروم فيه حامية كبيرة لحكم البلاد والسيطرة عليها والدفاع عنها ضد أى هجوم من جهة الشرق. وكان الروم قد حصنوا هذا الموقع بعد أن أخرجوا الفرس من مصر والشام قبل الفتح العربى بقليل. وكانت المنطقة المحيطة بالحصن ومنه إلى رأس الدلتا تسمى كلها مدينة مصر. وهى عبارة عن منطقة مزارع وقرى وحدائق تمتد جنوباً إلى ما يقابل منف أو ممفيس على الضفة الغربية للنيل عند الجيزة.

وحاصر عمرو حصن بابليون للاستيلاء عليه ولكنه وبعد القتال الذى صادفه فى الطريق منذ دخوله إلى مصر أحس أنه لن يستطيع أن يفتح حصن بابليون أو يحاصره بمن بقى معه من الناس كما أنه رأى أنه لن يستطيع أن يفتح مدينة مصر – وكانت متصلة بالحصن وتحيط به من كل جوانبه فأرسل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يطلب المدد الذى وعد به.

وفى نفس الوقت عزم على أن يسير إلى مكان آخر انتظارا لوصول المدد، ولم يكن هذا المكان سوى الفيوم. وهى عبارة عن إقليم خصيب على نحو خمسين ميلاً جنوب مدينة مصر ولكن على الجانب الغربى للنيل ولذلك كان لابد من الاستيلاء على أم دنين بأى ثمن حتى يتسنى له الاستيلاء على ميناء كبير على النيل حتى يستطيع العبور منها إلى الجانب الغربى للنهر.

وقد دار هناك قتال شديد وأبطأ الفتح على المسلمين ولم يدر الناس لمن تكون الغلبة. ولكن هذا الموقف لم يكن ليرد عمرو بن العاص عن قصده، إذ استطاع فى النهاية الاستيلاء على أم دنين فملك العرب بذلك منزلاً على النيل جعلوا فيه قوة منهم واستطاع عمرو أن يأخذ من السفن ما يكفى لبقية جنده لاجتياز النهر نحو الجانب الغربى.

موقعة هليوبولس

سار عمرو بمن معه إلى الجنوب بعد أن عبروا النهر سالمين وكان سيرهم بجوار المزارع حتى بلغوا ممفيس (العاصمة القديمة لمصر) ومنها اتجهوا إلى حافة الصحراء حيث التقوا ببعض جماعات من جنود الروم واستطاعوا هزيمتهم بسهولة وقتلوا قائد حامية الفيوم ويدعى «حنا»، ويبدو أنه كان من كبار قادة الروم. وقد حزن الإمبراطور لهزيمة حنا وقتله حزناً شديداً. كما استولى على مصر الوسطى أى الجيزة والفيوم وبنى

سويف ومدينة البهنسا القديمة من مديرية المنيا رغم قلة عدد قواته وكثرة قوات الروم ومعداتهم العسكرية.

وقد وصلت الإمدادات لعمرو بن العاص فى هذه الفترة فعاد إلى مصر لملاقاتها والتقى الجميع قرب هليوبولس بعد أن عبر عمرو بن العاص النيل بقواته مرة أخرى من الغرب إلى الشرق دون أن يستطيع القائد الرومى «تيودور» أن يمنعهم. وكان على رأس هذا المدد الزبير بن العوام بن عمة النبى (صلعم) ومعه عبادة ابن الصامت ومسلمة بن مخلد الأنصارى والمقداد بن الأسود. وكتب له أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يقول «قد أمددتك بأربعة آلاف فيهم رجال الواحد منهم يعادل ألف رجل». وقد اختلف الرواة فى عدد الإمداد الذى وصل إلى عمرو بن العاص، فقال البعض أنهم ٤٠٠٠ أربعة آلاف مثل ابن عبد الحكم وقال البلاذرى أنهم كانوا ١٠٫٠٠٠ أو ١٢٫٠٠٠ وأورد المقريزى أن الإمداد جاء إرسالاً إلى أن بلغ ١٢٫٠٠٠ رجل.

وبذلك أصبح لعمرو بن العاص جيش تعداده حوالى ١٥٫٠٠٠ من بينهم طائفة من أكبر فرسان الإسلام[١] وشجعانه.

أما من جهة الروم فقد كان أمير الجيوش فى مصر اسمه «تيودور». وعندما تبين له أن هجوم عمرو بن العاص لم يكن غارة من غارات البدو بل كانت غزواً مبيتاً فقد سارع إلى حصن بابليون. ولعل المقوقس قد توجه معه إلى الحصن أيضاً وجمعا فيه جنداً قوياً لمقاتلة العرب ولذا كان فى استطاعة الجيش الرومى الأكبر الذى فى الحصن أن يهبط فى أى وقت يشاء إلى العرب ثم يعود فى أى وقت شاء إلى حصنه آمناً وراء أسواره العظيمة. ولكن بعد وصول الإمداد للعرب تغير الموقف وأصبحوا يتصرفون بحذر.

معركة العباسية

كانت خطة عمرو بن العاص أن يجعل الروم يخرجون لقتاله فى منطقة هليوبولس بعيداً عن الحصن وفى الأرض المفتوحة والتى تبعد عن الحصن حوالى ستة أو سبعة أميال. وعندما علم بخروج الروم إليه أعد قوتين على الأجناب وأرسل الأولى إلى أم دنين

(١) ذكر ابن عبد الحكم الأسماء الآتية للصحابة من المهاجرين وهم عمرو بن العاص وابنه عبد الله والزبير بن العوام وعبد الله بن عمر وخارجة بن حذافة وعيسى بن أبى العاصى السهمى والمقداد بن الأسود وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ونافع بن عبد قيس الفهرى وأبو رافع مولى رسول الله (صلعم) وعبد الرحمن وربيعة ابنا شرحبيل بن حسنة ووردان مولى عمر.
ومن الأنصار عبادة بن الصامت ومحمد بن مسلمة وأبو أيوب خالد بن يزيد وأبو الدرداء عويمر بن عامر. وغيرهم آخرون ممن هم أقل من هؤلاء ذكراً بين العرب.

والأخرى إلى مكان واقع إلى الشرق، لعله كان إلى الشرق فى ثنية الجبل فى الموقع الذى فيه اليوم قلعة صلاح الدين بقيادة خارجة بن حذافة. وفى يوم المعركة خرج الروم بين البساتين التى كانت إلى الشمال الشرقى من الحصن وانتشروا فى السهل فى الصباح الباكر ولم يكن لديهم علم بما أعده لهم عمرو بن العاص. واستمروا فى التقدم حتى التقوا بالعرب فى مكان وسط بين معسكرى العرب والروم ولعله موقع العباسية اليوم. وهنا دار قتال عنيف بين الطرفين استمات فيه الجميع لأنهم تيقنوا أن هذه المعركة ستكون هى الفاصلة بين الطرفين. فلما حمى وطيس القتال أقبلت قوات خارجة بن حذافة من مكمنها فى الشرق وانحدرت كالعاصفة لمهاجمة مؤخرة الروم فوقع الفشل والارتباك فى صفوفهم واتجهوا إلى يسارهم نحو أم دنين، وهناك فاجأتهم القوة الأخرى من جهة الغرب فظنوا أنها جيش عربى ثالث فاختل نظام الروم وفروا فى كل اتجاه يطلبون النجاة من سيوف العرب واستطاعت بعض قواتهم أن تصل إلى الحصن وتحتمى به مرة أخرى وأغلقوا الأبواب. ورغم هذه الهزيمة الكبيرة للروم إلا أنه قد بقيت لديهم قوات كافية للدفاع عن الحصن.

وكانت نتائج النصر العربى فى المعركة كبيرة فقد استطاع عمرو إلقاء الرعب فى قلوب الروم والاستيلاء على مدينة مصر بغير قتال كما نقل عسكره من هليوبولس إلى شمال الحصن وشرقه بين البساتين والكنائس، وهو المكان الذى يعرف الآن باسم الفسطاط فأصبح الجيش العربى قادراً على إحكام الحصار حول الحصن بعد أن قضى على جيش الروم فلم تبق منه إلا الفلول.

ووجد عمرو بن العاص أن إحكام الحصار حول حصن بابليون يحتاج إلى قوات كبيرة تستوعب معظم جيشه وأن ما يتبقى من قواته بعد ذلك لا يستطيع أن يتقدم به داخل الدلتا خاصة وقد اقترب موسم فيضان النيل. لذلك صمم عمرو بن العاص على فتح الحصن أولاً ثم التوجه بعد ذلك بقواته إلى الدلتا ومنها إلى الإسكندرية عاصمة البلاد.

من هو المقوقس

قبل أن نبدأ فى وصف المرحلة التالية للقتال بين عمرو بن العاص وقوات الروم التى تحصنت داخل بابليون لابد لنا من أن نحاول أن نوضح من هو المقوقس. إذ أجمعت المصادر التاريخية على أنه كان داخل الحصن حين بدأ حصار عمرو بن العاص له.

والواقع أن شخصية المقوقس ومنصبه وعمله كانت محل خلاف كبير بين

المؤرخين سواء من العرب أو من الأجانب. ولكننى سأحاول أن أشرح هذا الخلاف بشكل مبسط وأن أوضح باختصار أهم ما قاله عنه المؤرخ بتلر فى كتابه «فتح العرب لمصر» وكذا ما ذكره الدكتور حسين مؤنس فى كتابه «الأطلس الإسلامى».

يقول الدكتور بتلر فى كتابه «فتح العرب لمصر»: إن المقوقس كان هو الحاكم الرومى لمصر والذى يدعى «قيرس Cyrus»، وقد أرسله هرقل إمبراطور الروم سنة ٦٣١م وولاه رئاسة الدين والدنيا فى الإسكندرية، وكان ظالما وأساء فى حكمه حتى كرهه الناس، وأصبح اسمه مفزعاً للقبط كريهاً عندهم لمدة عشر سنوات أمعن فيها ما استطاع فى اضطهاد القبط ومذهبهم وبذلك مهد السبيل أمام فتح العرب لمصر.

بينما يقول الدكتور حسين مؤنس أنه كان فى الغالب مصرياً وليس «قيرس Cyrus» كما زعم بتلر فى كتابه. لأن «قيرس» كان رجل دين من أهل فلسطين ندبه هرقل ليتولى إدخال المصريين فى مذهب الروم. فكان بذلك مندوب الروم فى مصر وكان المصريون يكرهونه لأنه اضطهدهم. وكان المقوقس وأصله فى الغالب من قرب دمياط يتزعم الأقباط المصريين لأنه من أهل بيوتهم الكبيرة وأخوه بنيامين كان أسقف مدينة الإسكندرية فعزله «قيرس» عندما اضطهد القبط، فاختفى ثم عاد إلى أسقفيته بعد فتح العرب لمصر. والظاهر أن «المقوقس» كان اسماً أطلقه عليه العرب الذين كانوا يفدون إلى مصر للتجارة فى الجاهلية. وبهذا الاسم خاطبه الرسول (صلعم) عندما كتب إليه يدعوه إلى الإسلام ووصفه فى كتابه بأنه «عظيم القبط» مما يدل على أن رسول الله (صلعم) كان يعرف حقائق الواقع المصرى. ولولا ذلك لوجه كتابه إلى «قيرس» بينما يقول عنه الدكتور أحمد شلبى أن المقوقس كان هو الحاكم المصرى الذى عينه قيصر الروم ليحكم البلاد باسمه.

والواقع أن المقوقس كان هو الحاكم[1] الملكى من قبل روما الذى يجمع بين السلطة المدنية كحاكم مصر والسلطة الدينية كبطريرك الكنيسة القبطية فى مصر.

أما بالنسبة للكنيسة القبطية فقد كان أحد الدخلاء على بطارقة هذه الكنيسة العتيدة أما البطريرك الحقيقى فى ذلك الوقت فكان الأنبا «بنيامين» وكان كبطارقة هذه المرحلة من الاضطهاد الرومانى هارباً فى صعيد مصر بعيداً عن جواسيس روما.

وقد كان المقوقس مجرد حاكم لمصر ولكنه كان فى نفس الوقت البطريرك غير الشرعى لأقباط مصر فرضه عليهم هرقل أحد أباطرة الرومان. وكلمة مقوقس يونانية تعنى حاكم. وكان العرب يسمونه عظيم القبط. أما اسمه الحقيقى فكان (جرجس بن مينا)

(١) قصة فتح مصر للأستاذ حامد سليمان.

وهو مصرى ولكنه يونانى الأصل من الذين استقر أجدادهم فى الإسكندرية بعد انتهاء حكم البطالسة اليونانيين لمصر. ورغم يونانيته فقد كان الرجل يميل إلى الأقباط ويرثى لحالهم لما نالهم من عذاب واضطهاد على يد أباطرة الرومان، ولذلك نراه لا يتصدى للفتح الإسلامى لمصر لأن الحكم الرومانى فى مصر كان قد ترهل وضعف فى روما والقسطنطينية مما دفع «هرقل» والى افريقيا الرومانى إلى محاولة السيطرة على مصر بعد توطيد حكمه فى المملكة الرومانية بالشام.

وقد وجد هرقل أن القابض على أمور أقباط مصر هو (المقوقس) فتركه يحكم واهتم بالسيطرة العسكرية على مدن مصر، ولكى يتقرب هرقل من المصريين كلف «قيرس Cyrus» أحد أساقفة الرومان بأن يقرب بين مذهب الكنيسة الرومية والكنيسة المصرية، ولكنه أساء إلى المصريين والكنيسة القبطية وفشل فى مهمته، ولذلك انضم المقوقس الذى كان يميل إلى الأقباط إلى قضية المصريين والكنيسة القبطية وأصبح لديه استعداد للتفاهم مع أى قوة يمكن أن يخلص بها الأقباط من اضطهاد البيزنطيين.

حصار بابليون وفتحه

كان حصن بابليون منيعاً على أعدائه وكانت تحيط به أسوار عظيمة وصروح عالية يحيط بها من ورائها نهر النيل كما كان الخندق المحيط بها مملوءا حينئذ بالماء نظراً لحلول موسم الفيضان. وكان عمرو لا يستطيع أن يحاصر الحصن من جانب النهر لأنه ليس لديه أى عتاد بحرى أو خبرة فى تسيير السفن.

وقد استمر عمرو بن العاص فى حصار الحصن مدة طويلة ولعله كان ينتظر انخفاض مياه الفيضان حتى تجف المناطق المحيطة بالحصن حيث يتمكن حينئذ من اقتحامه نظراً لأنه لم تكن لديه أى معدات حصار تساعده فى اقتحام أسوار الحصن المنيعة.

وفى نفس الوقت فإن الروم فى داخل الحصن كانوا فى موقف دقيق، فالفيضان الذى يحمى معظم أسوار الحصن قد أوشك على الانحسار كما أن هزيمة هليوبولس قد أوقعت الرعب فى قلوبهم من العرب علاوة على أنه لم يكن من المنتظر أن تأتيهم أى إمدادات من الإسكندرية قبل مضى أشهر طويلة لذلك استقر رأيهم على التفاوض مع العرب للوصول إلى حل.

وقد خرج المقوقس وأصحابه من الحصن سراً عن طريق إحدى السفن حيث توجهوا إلى جزيرة الروضة ومن هناك بدأوا فى التفاوض مع عمرو بن العاص. وكان خروج المقوقس وأصحابه سراً حتى لا يؤثروا على معنويات الحامية والجنود.

وسارت المفاوضات بين الطرفين على نفس منوال المفاوضات فى المعارك السابقة بين الفرس والعرب وبين الروم والعرب فى الشام وأخيراً بين الروم والعرب فى مصر، وتتلخص فى عرض العرب لشروطهم وهى الإسلام أو الجزية أو الحرب بينما عرض الروم شروطهم وهى إعطاء منح مالية للقادة وللجنود حتى يرجعوا.

ولكن من خلال هذه المفاوضات تأكد «المقوقس» من صدق العرب فيما جاءوا فيه وهو نشر الإسلام ووصف رسل «المقوقس» له حال العرب وما هم عليه من بساطة وإيمان وقالوا: «رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة وليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة. إنما جلوسهم على التراب وأكلهم على ركبهم وأميرهم كواحد منهم. ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد من العبد وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد».

فوقع هذا القول فى نفس المقوقس وقعاً عظيماً. وعندما تأكد المقوقس «زعيم المصريين» من تفوق العرب وصدق إيمانهم وحسن نواياهم اتصل بعمرو بن العاص وعرض عليه الدخول فى عهد المسلمين باسم أهل مصر. فقبل عمرو ذلك. وكتب «المقوقس» إلى هرقل يبلغه بما حدث وينصح بالتسليم فرفض هرقل ذلك وأرسل يوبخ «المقوقس».

واستمر حصار حصن بابليون أشهراً لا يسلم فلما أبطأ الفتح قيل أن الزبير بن العوام وهب نفسه لله وأقبل مع جماعة يقودهم لفتح الحصن بعد أن أعد لذلك الأمر عدته ولم يعق دفاع أهل الحصن العرب عن استمرار الهجوم. وعندما حانت الساعة المحددة للاقتحام أقبل العرب ليلاً تحت جنح الظلام ووضع الزبير سلماً على السور ولم يفطن إليه أحد وفوجئ الروم بالبطل العربى على رأس الحصن يكبر وسيفه فى يده. واستطاع أصحاب الزبير بعد ذلك أن يصلوا إليه فوق السلم، وعندئذ اجتمع كبار الروم على عجل فى أول الصباح الباكر. وعرض «چورچ» قائد الجند فى الحصن الاستسلام على أن يأمن كل من هناك من الجند على أنفسهم فقبل منهم عمرو ذلك. وتم عقد الصلح رغم معارضة الزبير الشديدة لأنه قد أوشك على فتح الحصن عنوة.

وتم الاتفاق على أن يخرج الجند من الحصن فى ثلاثة أيام عن طريق النهر. أما الحصن وما فيه من الذخائر وآلات الحرب فيأخذ العرب كل ذلك ويدفع أهل المدينة الجزية للمسلمين، وقد سقط الحصن فى أيدى العرب بعد حصار استمر سبعة أشهر فى يوم ٦ إبريل سنة ٦٤١م – حوالى ربيع الآخر سنة ٢٠هـ.

هذا وكان الروم قد سجنوا فى أول الحصار عدداً كبيراً من القبط داخل الحصن

وذلك لأنهم أبوا أن يتركوا دينهم أو لأنهم رابهم الأمر. فلما جاء يوم خروج الروم من الحصن سحبوا السجناء التعساء من سجونهم وضربوهم بالسياط[1] وقطع الجند أيديهم ولذلك نجد أن الأسقف المصرى يسب الروم علناً ويسميهم أعداء المسيح الذين دنسوا الدين وفتنوا الناس عن إيمانهم فتنة شديدة، وعصوا المسيح وأذلوا أتباعه.

وأخيراً يقول الأسقف المصرى أن فتح الحصن للمسلمين لم يكن إلا عقاب الله على ما فعله الروم من الأفاعيل فى القبط.

هذا ويلاحظ أن الاتفاق الذى تم عند حصن بابليون لم يكن إلا اتفاقاً حربياً ولم يكن اتفاقاً سياسياً بحال، وقد عقد عمرو هذا الاتفاق الحربى حتى يستولى على الحصن وينتهى الحصار الذى طال شهوراً طويلة حتى يستطيع أن يتفرغ للزحف إلى الإسكندرية عاصمة البلاد. وكان من نتيجته أيضاً دخول عدد كبير من القبط فى الدين الإسلامى بل وعدد من الروم أيضا لما وجدوه فيه من مزايا ومساواة وعدل.

السير إلى الإسكندرية

بعد أن اطمأن عمرو إلى عون المصريين قرر المسير إلى العاصمة فى الإسكندرية فأقام معسكراً جنوبى بابليون سمى الفسطاط أى الخيمة الكبيرة وترك بها حامية مناسبة وسار إلى الإسكندرية محاذيا فرع رشيد الذى كان يسمى الفرع البوليتينى نسبة إلى رشيد التى كانت تسمى Paulatina. وفتح عمرو فى طريقه طرنوطة أو الطرانة ثم نقيوس[2] وكانت على الشاطئ الشرقى للنهر وكانت حصناً منيعاً ولا يستطيع عمرو أن يتركها على جانبه ويستمر فى تقدمه، لذلك عبر النهر إليها حتى إذا ما فتحها عاد إلى الغرب وواصل السير. وقد حدث اشتباك آخر بين العرب والروم عندكوم شريك فهزم الروم مرة أخرى ثم واصل عمرو تقدمه حتى سنطيس أو سلطيس (كما جاء فى المقريزى) وهى قرية على ستة أميال جنوبى دمنهور فوقعت هناك وقعة شديدة انهزم فيها الروم وتقهقروا أمام العرب ولم يحاولوا الوقوف عند دمنهور بل استمر تقهقرهم حتى وصلوا إلى حصن (كريون) حيث تحصن فيها «تيودور» القائد العام لقوات الروم. وكانت الكريون آخر حصن فى سلسلة الحصون بين بابليون والإسكندرية. وقد عزم «تيودور» أن يقف فيها وقفته الأخيرة دفاعاً عن الإسكندرية خاصة وقد وصلته إمدادات كثيرة من وراء البحر «قسطنطينية» بل ومن حصون أخرى بالدلتا مثل سنطيس وشما وغيرها. وقد استمر القتال عنيفاً بين الطرفين لمدة عشرة أيام انتصر المسلمون فى نهايته واستطاعوا

(١) الترجمة العربية لكتاب فتح العرب لمصر، تأليف دكتور بتلر - طبعة مكتبة مدبولى ص ٣٢١.
(٢) تقع فى مكانها الآن قرية شبشير.

أن يفتحوا كريون وحصنها. وارتد الروم بقيادة «تيودور» نحو الإسكندرية ولم يتوقف عمرو عند «كريون» إلا ريثما استراح جنوده من القتال ثم استأنف السير حثيثا حتى وصل إلى مشارف الإسكندرية حيث تحصن بها «تيودور» انتظاراً للمعركة المقبلة.

وصف الإسكندرية

لقد كانت الإسكندرية من أعظم المدن فى عصرها وقد رأى فيها العرب الحدائق وحوائط الكروم والأديرة الكثيرة بأرضها. وقد كانت الإسكندرية حتى فى القرن السابع الميلادى أجمل مدائن العالم وأبهاها. وكانت تحيط بها أسوار وحصون لا نظير لها. وكانت تبدو وراء هذه الأسوار والحصون القباب البديعة فوق قواعدها وقصور تتلألأ وتتألق. ولابد أن هذا الجلال الفائق والجمال البارع وما يبدو من عظمته وقوته قد ترك أثراً بالغاً فى قلوب رجال الصحراء الذين جاءوا يفتحونها.

وكانت حامية المدينة فى هذا الوقت تبلغ حوالى خمسين ألفاً من الجنود. وكانت الأسوار منيعة تحميها الآلات القوية بينما لم يكن لدى العرب شيء من معدات الحصار كما لم تكن لهم خبرة فى فنون الحصار وحربه فقد كانوا جميعاً من الفرسان. هذا بالإضافة إلى أن البحر كان يحمى المدينة من الشمال وكانت الترعة وبحيرة مريوط تحميها من الجنوب وكان إلى غربها ترعة (الثعبان) فلم يبق معرضاً للحصار سوى شرقها وجنوبها الشرقى، ومع ذلك فقد وقف العرب للروم بالمرصاد وضيقوا عليهم الحصار من جميع المنافذ.

استسلام الإسكندرية

استمر حصار العرب للإسكندرية أربعة أشهر حتى ضعف الأمل فى فتحها. وقد أحس الخليفة عمر بن الخطاب بذلك فكتب إلى عمرو بن العاص كتابا شديداً يلومه فيه ويلوم المسلمين على ترددهم، ولما تسلم عمرو الكتاب قرأه على المسلمين فعقدوا العزم على العمل بإصرار وعزيمة. وقرر عمرو اقتحام أسوار المدينة بأى شكل وعهد إلى عبادة بن الصامت بذلك فنجح فيه واقتحم الإسكندرية بجنده وتسللوا داخل الأسوار وأعملوا القتل والذعر فى نفوس الجنود فهرب هؤلاء إلى سفنهم بالبحر وأسر منهم عدد كبير.

وتقدم المقوقس مرة أخرى فأجرى الصلح العام مع المسلمين سنة ٢١هـ على شروط أهمها:

١- أن يدفع الجزية كل من دخل فى العقد.

٢- أن تعقد هدنة حوالى أحد عشر شهراً.
٣- أن يبقى العرب فى مواضعهم فى مدة هذه الهدنة لا يسعون أى سعى لقتال الإسكندرية وأن يكف الروم عن القتال.
٤- حرية العبادة.
٥- أن يرحل جنود الروم فى الإسكندرية بالبحر ويحملوا معهم متاعهم وأموالهم جميعا.
٦- ألا يعود جيش من الروم إلى مصر أو يسعى لاستردادها.
٧- أن يبعث الروم رهائن من قبلهم مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من غير الجند ضمانا لنفاذ العقد.

ولما انتهى الصلح أوفد عمرو بن العاص معاوية بن حديج الكندى إلى المدينة المنورة ليخبر عمر بن الخطاب بما حدث. فلما جاءه سأله عن الأنباء فقال خير يا أمير المؤمنين، فتح الله علينا الإسكندرية!! وقد اعتمد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شروط الصلح مع الروم. كما اعتمدها إمبراطور الروم أيضاً. وبذلك تم فتح مصر سنة ٢٠هـ/٦٤١م. وعاد عمرو بن العاص إلى بابليون فدخل الحصن بعد جلاء الروم عنه ونقل عاصمة البلاد من الإسكندرية إلى موقع الفسطاط عند رأس الدلتا حسب تعليمات الخليفة عمر بن الخطاب.

عزل عمرو بن العاص وتعيين عبد الله بن سعد

كان عمر بن الخطاب شديدا فى معاملته لخير ولاته ويضيق عليهم. وكان آخر ما أتاه عمر فى حياته أن قلل من سلطان عمرو بن العاص وذلك بأن ولىّ عبد الله بن سعد بن أبى سرح حكم الصعيد والفيوم وجعل إليه جباية الخراج. وقد قتل الخليفة عمر بن الخطاب لبضعة أيام بقيت من ذى الحجة سنة ٢٣هـ ودفن فى غرة محرم سنة ٢٣هـ الموافق ٧ نوفمبر ٦٤٤م. وقد اختير عثمان بن عفان خليفة له.

وأتم عثمان ما شرع فيه عمر بأن عزل بن العاص عن ولاية مصر. وجمع ولاياتها جميعا لعبد الله بن سعد بن أبى سرح سنة ٢٥هـ.

وقد اختلفت الآراء حول عبد الله إلا أن الأغلب أنه كان حاكما ظالما. وقد ولاه الخليفة قصدا لكى يزيد فى جباية الجزية وخاصة من أهل الإسكندرية. لذلك أرسل جماعة منهم كتاباً إلى الإمبراطور قسطانز (بعد وفاة هرقل) يسألونه أن يخلصهم من ظلم المسلمين - فأمر بإعداد قوة عظيمة وكتم أمرها كتمانا شديدا - وكان الروم حتى ذلك الحين لديهم السيادة البحرية الكاملة فى البحر بينما لم تكن للعرب فى ذلك

الوقت سفينة واحدة تأتيهم بأنباء أسطول الروم الذى بعث به الإمبراطور بقيادة قائد أرمنى يدعى «منويل» للاستيلاء على الإسكندرية واستعادتها لدولة الروم.

حملة «منويل» ومصيرها

فاجأ «منويل» العرب بدخوله بأسطوله الكبير ميناء الإسكندرية (حوالى ٣٠٠ سفينة) ونزلت قواته بسهولة إذ لم يكن فيها سوى ألف من العرب للدفاع عنها فغلبهم الروم وقتلوهم جميعاً إلا نفر قليل منهم استطاع النجاة. وبذا عادت الإسكندرية مرة أخرى إلى ملك الروم. وهناك شبه إجماع من مؤرخى العرب على أن استرجاع الروم للمدينة قد وقع فى أوائل السنة الخامسة والعشرين هجرية أى حوالى آخر ٦٤٥م.

لم يقف جيش «منويل» عند الإسكندرية بل سار إلى ما يليها من بلاد مصر السفلى ينهب فيها القمح والخمر والأموال من أهل القرى لا يدافعه مدافع. وقد كان القبط على وجه الإجمال لا يرجون خيرا من وراء رجوع سلطان الروم بعد ما ذاقوه على أيديهم من ظلم وعذاب ولهذا انضم القبط للعرب فى هذه المحنة وساعدوهم وحافظوا بذلك على عهدهم الذى تعاهدوا عليه فى صلح الإسكندرية.

وبينما كان الروم يتمتعون بما فى مصر من ملاذ أمر الخليفة عثمان بن عفان عمرو بن العاص بالعودة إلى قيادة جيش العرب فى بابليون. وقد أعاده عثمان لأنه لا يدانيه مدان فى مكيدة الحرب ولخبرته الكبيرة فى سياسة أمور مصر. وقد سار الروم على مهل حتى وصلوا إلى «نقيوس» حيث لقيتهم طلائع العرب ونشب قتال عنيف بين الطرفين وقاتل الروم فى تلك الموقعة قتالا عظيماً ولكن العرب استماتوا فى القتال حتى انتهى الأمر بهزيمة جيش منويل وفر الروم إلى الإسكندرية لا يلوون على شىء حتى بلغت فلولهم إلى هناك فأقفل الروم أبواب أسوارها واستعدوا للحصار. فلما بلغ جيش العرب أسوار الإسكندرية ورأى عمرو ابن العاص ما هى عليه من منعه اشتد به الألم لأنه أخطأ فى تركها قائمة عند فتحها لأول مرة، ولذلك حلف لئن أظفره الله بها ليهدمن أسوارها. وأخيراً استطاع العرب أن يأخذوا المدينة عنوة وقتلوا عدداً كبيراً من جند الروم. ومع ذلك فقد لاذت طائفة منهم بسفنهم وهربوا بها إلى البحر. وكان «منويل» من بين القتلى وأخذ العرب النساء والذرارى فجعلوهم فيئا ونفذ عمرو قسمه بهدم أسوارها.

وكان هذا الفتح الثانى فى صيف ٦٤٦م وكان عنوة وبالسيف.

ولم يبق عمرو فى مصر بعد استقرار الأمر إلا شهراً واحداً ثم خرج عنها لعبد الله بن سعد.

وهكذا فإن القضاء على ثورة «منويل» واستعادة الإسكندرية مكنا المسلمين من ملك وادى النيل بصفة نهائية. وبذلك أسرع الانحلال إلى الحضارة الرومانية الإغريقية التى كانت بالبلاد وحلت محلها حضارة عربية جديدة تسير بخطى حثيثة نحو التقدم.

والواقع أن التاريخ لم ير أعجب من العرب وفتحهم إذ جاءوا إلى مصر فئة قليلة من الصحراء فانتصروا عليها ثم أقاموا لأنفسهم بنيانا على أنقاض ما وجدوه فيها من ديانة مسيحية ومدنية بيزنطية امتزجت بها أكبر المدنيات القديمة الثلاث وهى المدنية المصرية الفرعونية والمدنية اليونانية والمدنية الرومانية فى جمال وروعة ورقة.

عمرو بن العاص ومصر مرة أخرى

يجدر بنا أن نذكر لمحة سريعة عن عمرو بن العاص وارتباطه بتاريخ مصر مرة أخرى، فنجد أنه لعب دوراً كبيرا فى النزاع بين أحزاب الإسلام بعد عزله عن مصر. ثم دوره فى وقت مقتل عثمان وما نشب بعد ذلك من نضال بين على ومعاوية ثم سيره إلى مصر وانتصاره فيها وعودته إلى حكمها. وقد كانت عودة عمرو لمصر فى ولايته الثانية فى شهر ربيع الأول سنة ٣٨هـ الموافق أغسطس وسبتمبر سنة ٦٥٨م. ولم يمض عليه وقت طويل حتى ذللها وأقر الأمور فيها. ثم خرج منها حينا قصيرا لأمر التحكيم العجيب بين المتنافسين على الخلافة وهما على ومعاوية ثم عاد إليها وبقى بها حتى مات.

وأخيراً وليس آخراً نذكر كيف نجا من القتل فقد اتفق جماعة من الخوارج على قتل أكبر زعماء الإسلام الثلاثة فى ذلك الوقت وهم على ومعاوية وعمرو بن العاص. وقد قام الذى أخذ على نفسه مهمة قتل عمرو بن العاص بالترصد له وهو يؤم المصلين يوم الجمعة فى المسجد. ولكن فى اليوم الذى عزم القاتل فيه على إتمام جريمته أصابت عمرو وعكة منعته من الخروج للصلاة فصلى بدلا عنه القائد والصحابى المعروف «خارجة ابن حذافة» ولم يفطن القاتل لهذا التغيير فضرب خارجة بخنجره حتى قتله. وهنا قال القاتل «أردت عمرا وأراد الله خارجة».

وعاش عمرو بن العاص بعد ذلك حوالى سنتين ثم مرض مرضه الأخير فمات يوم الفطر من عام ٤٣هـ الموافق ٦ يناير سنة ٦٦٤م وكان عمره فوق السبعين.

ودفن عمرو فى سفح المقطم ولكن موضع قبره قد نسى وأغفل فإن المسلمين لم يحتفظوا بأثر من فاتح مصر ولا بمقره الذى دفن فيه.

تعليقات

(١) يجدر بنا أن نوضح موضوعا ثار حوله جدل تاريخى كبير يتعلق بفتح مصر،

وهو مصير مكتبة الإسكندرية وهل أحرقها العرب فعلا عند فتحهم للمدينة؟

لقد أثبت التاريخ وبشكل لا يقبل الشك أن العرب لم يحرقوا مكتبة الإسكندرية لأنه لم تكن هناك مكتبة فى الإسكندرية عندما فتحها العرب.

فقد أتلفت المكتبة أو ضاعت فى وقت لايقل عن أربعمائة عام قبل فتح العرب لمصر. ولو كانت المكتبة موجودة عندما عقد المقوقس صلحه مع العرب على تسليم الإسكندرية لكان من المؤكد أن تنقل كتبها وقد أبيح ذلك فى شرط الصلح الذى يسمح بنقل المتاع والأموال فى مدة الهدنة التى امتدت لأحد عشر شهراً كاملة.

فتح بنطابوليس (برقة)

إن الجهاد فى سبيل الله والعمل على نشر الدعوة الإسلامية أساس من الأسس الراسخة التى بنيت عليها الدولة الإسلامية. وكان عمرو بن العاص يميل إلى التوسع فى الفتح بطبعه فنراه يحصل على إذن الخليفة عمر بن الخطاب بفتح مصر رغم تردده - أى الخليفة. وما أن استقرت الأمور لعمرو فى مصر وحتى قبل إتمام القضاء على المقاومات المتناثرة التى بقيت هنا وهناك بعد فتح الإسكندرية نراه يسارع فى أوائل سنة ٦٤٢م - ٢٢هـ بإرسال قوة إلى بنطابوليس - وهو الإقليم الغربى الذى يلى مصر غربا من بلاد الدولة الرومانية - بعد أن وصلته إمدادات متعددة.

ولم يلق العرب فى سيرهم مشقة كبيرة حتى وصلوا إلى برقة والظاهر أنها سلمت لهم صلحاً. ثم سار عمرو بعد فتح برقة إلى طرابلس وكانت أمنع حصونا وأقوى جيشاً من برقة فقد كانت بها قوة كبيرة من الروم.

فأقفلت أبوابها وصمدت لحصار العرب لها عدة أسابيع. ورغم أن البحر كان مفتوحاً بالنسبة لهم إلا أنه لم تأت لهم أى إمدادات عن طريقه. وأخيراً استطاع العرب الدخول إلى المدينة بين أسوارها والبحر وصاحوا صيحتهم المدوية «الله أكبر» فذعر المدافعون عن المدينة وأسرعوا إلى سفنهم للفرار. وفى أثناء ذلك ترك الحراس الأبواب ودخل عمرو بجيشه إلى المدينة منتصراً. ثم عاد عمرو بجيشه إلى مصر ومعه عدد عظيم من الأسرى ومقدار كبير من الغنائم.

حملة النوبة

أرسل عمرو بن العاص جيشاً إلى بلاد النوبة ليغزوها بقيادة عقبة بن نافع ولكنه لم يستطع أن يهزم أهلها لشدة مقاومتهم إلا أنه نجح فى الحد من خطرهم لبعض

الوقت، فقد كان القتال ينشب بينهم وبين الدولة فى مصر بين حين وآخر حتى تم فتح النوبة فى ٦٥٢هـ.

إعادة البطريق بنيامين

بعد احتلال العرب لمصر أصبح القبط فى مأمن من الخوف الذى كان يلجئهم إلى إنكار عقيدتهم أو إخفائها تقية ومداراة.

فعادت الحياة إلى مذهب القبط فى هذا الجو الجديد جو الحرية الدينية. وقد كتب عمرو ابن العاص كتاب أمان للبطريق بنيامين الذى كان متخفيا من ظلم الرومان أجار فيه «أينما كان بطريق القبط بنيامين نعده الحماية والأمان وعهد الله فليأت البطريق إلى هاهنا فى أمان واطمئنان ليلى أمر ديانته ويرعى أهل ملته».

ولم يلبث عهد الأمان أن بلغ بنيامين فعاد من مخبئه ودخل إلى الإسكندرية وفرح الناس برجوعه فرحاً عظيماً بعد أن بلغت مدة غيابه ثلاثة عشر عاما منذ هجر مقره وهرب إلى الصحراء الغربية. وقد أمر عمرو بن العاص بإحضاره إليه وأمر بأن يقابل بما يليق من الترحاب والتكريم. وقد خطب بنيامين عندئذ خطبة جليلة لاشك أن عمراً لم يفهم منها شيئا ولكن عندما ترجمت له وفهم ما فيها أحسن قبولها وجعله أميراً على قومه ويتولى أمر دينهم.

دخول الأقباط فى الإسلام

رغم أن المسلمين أطلقوا الحرية الدينية للأقباط ومع ذلك فقد دخل عدد كبير منهم فى الإسلام لما كان يطمعون فيه من مساواتهم بالمسلمين الفاتحين حتى يكون لهم مالهم وينجوا من دفع الجزية. والواقع أن كثيرا من أهل الرأى والحصافة من الأقباط قد كرهوا المسيحية لما كان فيها من حروب وثورات بين شيعها وأحزابها ودخلوا فى الإسلام[١] فاعتصموا بأمنه واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته. كما كان هناك إجماع بين الناس على أن «ماخرج الروم من الأرض وانتصر عليهم المسلمون إلا لما ارتكبه هرقل من الكبائر وما أنزله بالقبط وملتهم على يد حكامه فقد كان هذا سبب ضياع أمر الروم وفتح المسلمين لمصر».

خاتمة

إن خير ما نختم به هذا الفصل الخاص بفتح مصر هو ذكر وصايا الرسول سيدنا

(١) كتاب فتح العرب لمصر للدكتور بتلر – طبعة مدبولى.

محمد (صلعم) بمصر وأهلها، ففى الفترة ما بين صلح الحديبية وعمرة القضاء عاد حاطب بن أبى بلتعة اللخمى من الإسكندرية حاملاً رد المقوقس عظيم القبط على كتاب النبى محمد (صلعم) وكان معه هدية للرسول (صلعم) وهما مارية بنت شمعون القبطية وأختها سيرين حيث أسلمتا على يد النبى (صلعم) فاختار مارية لنفسه حيث أصبحت أما لولده إبراهيم ولد المصطفى (صلعم) وأختار لأختها سيرين صاحبه الشاعر حسان بن ثابت.

وقد قال الرسول (صلعم) فى تلك الفترة متنبئا بهذا الفتح الكبير «إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم رحماً وصهراً» أو قال «نسبا[1] وصهرا». كما قال عمرو ابن العاص «حدثنى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أنه سمع رسول الله (صلعم) يقول «إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض» فقال أبو بكر رضى الله عنه: «ولم يا رسول الله» قال (صلعم): «لأنهم وأزواجهم فى رباط إلى يوم القيامة».

صدق رسول الله (صلعم)

(١) النسب من قبل هاجر القبطية أم سيدنا إسماعيل بن ابراهيم الخليل عليه السلام والصهر من جهة مارية القبطية أم ابراهيم بن سيدنا محمد (صلعم).

الباب الثانى

فتوحات الدولة الأموية

الفصل السابع

عقبة بن نافع الفهرى القرشى
«وحملته الكبرى فى شمال أفريقيا»

٦٢ هـ - ٦٨٤م

نشأته

ولد «عقبه بن نافع» قبل الهجرة النبوية بسنة ونشأ فى بيئة إسلامية خالصة. وترعرع فى عهد «الرسول صلوات الله وسلامه عليه».

وكان عقبة قرشيا ويتصل «بعمرو بن العاص» بصلة قربى من ناحية أمه. وعرف فيه عمرو المقدرة والشهامة ووثق به ثقة كبرى.

وقد شهد عقبة وهو فى الحادية والعشرين من عمره فتح مصر تحت راية عمرو بن العاص فكان أن تفتحت مواهبه العسكرية وهو فى هذه السن المبكرة مما أهله لأن يخوض أعظم المعارك ويحقق أروع الإنجازات فى الفتوحات الإسلامية سيظل يذكرها له التاريخ أبد الدهر.

عقبة فى برقه وزويلة

كان «عمرو بن العاص» هو الذى فطن إلى مواهب عقبة العسكرية فبعث به سنة ٢١هـ وهو فى الثانية والعشرين من عمره على رأس جيش إلى «زويله» [فى قلب الصحراء الليبية اليوم] فافتتحها عقبة صلحاً. وفى ذلك كتب «عمرو بن العاص» إلى أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» يعلمه أنه قد ولى «عقبة بن نافع» المغرب (يعنى غربى مصر مما كان فى أيدى العرب) فبلغ زويله وأن الناس ما بين زويلة وبرقه قد حسنت طاعتهم. وقد لبث عقبة ببرقة حتى خلفه «عبد الله بن أبى سرح» سنة ٢٧هـ.

ثم ما لبث أن بعثه ابن العاص إلى بلاد النوبة فى جنوب مصر فكان لعقبة فضل كبير فى تأمين الحدود الجنوبية والغربية لمصر.

واستمر عقبة أثناء ذلك فى العمل على نشر الإسلام بين أهالى برقة وتثبيت أقدام العرب ونشر الدين الإسلامى فى هذه الصحارى الشاسعة.

وقد ظل «عقبة بن نافع» على رأس حامية إقليم برقة بعد أن عزل الخليفة عثمان بن عفان - عمرو بن العاص عن ولاية مصر عام ٢٥هـ. وعين خلفا له «عبد الله بن سعد بن أبى سرح» الذى أقر عقبة حيث هو.

عقبة يغزو طرابلس

من المهم هنا أن نوضح أن حملات المسلمين على شمال أفريقيا صادفت مصاعب كبيرة ومقاومة عنيدة استمرت حوالى ستين سنة (من سنة ٢٧هـ إلى سنة ٩٢هـ) حتى تم القضاء على الروم ومن ساعدهم من البربر نهائيا وخاصة نظراً للمساحات الشاسعة لهذه البلاد.

وعندما ولى «عمرو بن العاص» مصر للمرة الثانية فى زمن معاوية بعث «عقبة ابن نافع» فى عام ٤١هـ على رأس جيش لغزو «لواته» احدى قبائل البربر فى نواحى طرابلس فهزمهم أكثر من مرة وفرض عليهم شروطا قاسية. كما قام بعد ذلك بحملة كبيرة فى الصحارى الجنوبية فى (فزان) وما وراءها من الواحات ليخضع قبائلها ويعمل على ادخالها فى حظيرة الإسلام نهائيا.

مناقب عقبة

وفى هذه الحملات المتعاقبة تجلت مناقب عقبة القيادية فكان لا يحاصر المدن المنيعة وقتا طويلا بل كان يرى أن الأجدر هو متابعة مسيرته المظفرة إلى ما يلى الحصن من الأعداء. وكان يعتمد دائما على المباغتة كلما اقتضى الأمر ذلك. وكان يستدرج أعداءه ليخرجهم خارج أسوارهم وحصونهم حيث يستطيع أن يهزمهم. وكان لا يلين فى أمور العقيده مهما حدث.

معاوية يعينه واليا على أفريقيا

بلغت أخبار الانتصارات التى حققها «عقبة بن نافع» مسامع الخليفة «معاوية بن ابى سفيان» وحسن بلائه فى افريقيا فى سبيل العروبة والإسلام فجعله واليا على افريقيا خاصة أن البيزنطيين بدأوا يجددون حصونهم فى الساحل كما بدأوا بإرسال الجيوش لحصونهم فيها لإيقاف زحف المسلمين. وكان ذلك فى عام ٥٠ من الهجرة (٦٧٠م). وبعث معاوية إليه من دمشق عشرة آلاف فارس منهم خمسة وعشرون من الصحابة وسائرهم من التابعين ووضعهم تحت قيادته.

إنشاء القيروان[1]

وقد أمر «معاويه بن أبى سفيان» عقبه أن يختار مكانا مناسبا ينشئ فيه مدينة إسلامية فرأى عقبة بثاقب نظره وبعظيم خبرته فى هذه المناطق ضرورة إنشاء هذه المدينة فيما دان له من أرض الجريد جنوب تونس تكون قاعدة أمامية للفتح العربى المتوقع ورمزا لنشر العروبة والإسلام مثل الكوفة والبصرة فى العراق. لأنه وجد من خبرته أن افريقيا إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام فإذا خرج منها رجعوا إلى الكفر، ولذلك لابد من أن يتخذ منها أصحابه مدينة تكون عزا للإسلام ويكون أهلها مرابطين فيها. فقال أصحابه: [نقرب مدينتنا من البحر ليتم لنا الجهاد والرباط] فاعترض عقبه قائلاً : [إنى أخاف أن يطرقها الروم بغتة فيملكونها ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها صاحب البحر إلا وقد علمنا به].

والواقع فإن اعجاب عقبة بموضع القيروان يرجع إلى أنه كان بعيداً عن الساحل مما يجعله بمأمن من غارات البيزنطيين المفاجئة من البحر كما أنه يقع بالقرب من أرض ترعى فيها الماشية فى مأمن من هجمات البربر النصارى من حلفاء البيزنطيين. ويستطيع من يتحكم فى هذا الموقع أن يدير عملياته بسهولة ويسر، فهو يستطيع أن يرى العدو من بعيد كما يتمكن من مطاردة البربر وتعقبهم فى أعالى الهضبة لأن الموقع يتحكم ويسيطر على سائر الوديان الهامة التى تخترق الهضبة.

فأقام مدينة القيروان جنوب تونس عام ٥٠هـ والتى ما تزال قائمة حتى اليوم. وأسس فيها المسجد الكبير وأخذ يرسل السرايا حولها لتوطيد سلطة العرب ونشر الإسلام بين البربر. فدخل الإسلام كثير من البربر واتسعت مدينة القيروان واشتد ساعد المسلمين وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام بها.. وفى نفس الوقت أخذ عقبة يعد نفسه ويعد العدة لحملة كبرى فى اتجاه الغرب.

نتائج إنشائها

لقد كان تأسيس القيروان هو الخطوة الأولى العملية فى القضاء على نفوذ البيزنطيين بشمال افريقيا حيث دعمت ووطدت أقدام المسلمين فى ولاية افريقيا البيزنطية التى تجمعت بها معظم حصون البيزنطيين ومعاقلهم.

وكان من نتائج إنشاء القيروان وإنشاء مسجد جامع ودار للإمارة بها أن أصبحت هذه المنطقة كلها جزءا من الديار الإسلامية وجعل من أفريقيا ولاية إسلامية جديدة

(١) القيروان: لفظ فارسى ومعناه قافلة أو مراح القوافل. وكان العرب يستخدمون هذه الكلمة فى الجاهلية

ولا يجوز للمسلمين أن يتخلوا عنها. وبالفعل فقد كان من الممكن للعرب قبل ذلك أن ينسحبوا من افريقية إلى برقة أو إلى مصر كما كانوا يفعلون من قبل - أما الآن فلابد لهم أن يثبتوا فى هذه الناحية. إن فقدوها لسبب ما فيجب عليهم أن يستعيدوها مرة أخرى. ومن هنا يتبين لنا أهمية هذا العمل الذى قام به عقبة بن نافع الذى يعتبر بحق من أعظم فاتحى المغرب وواحدا من أكبر بناة الدولة الإسلامية. ولا يقارن به فى هذا المجال إلا قتيبة بن مسلم الباهلى الذى كان معاصرا له والذى تولى مهمة مماثلة فى الجناح الشرقى لدولة الإسلام ووصل بحدودها إلى أقصى الشرق بينما وصل عقبه بحدودها إلى أقصى الغرب. ولم يبد البيزنطيون أى نشاط لعرقلة جهود عقبة فى الاستمرار فى بناء هذه المدينة إذ قضى أربع سنوات فى تخطيطها دون أن يحرك البيزنطيون فى قرطاجة - التى تبعد عن القيروان مسيرة ثلاثة أيام - ساكنا، كأنما لم يدركوا خطورة ظهور هذا المعقل الإسلامى بالقرب منهم ولكن يعزى السبب فى هذا التقاعس إلى أن الدولة البيزنطية كانت عاجزة عن مساعدة قواتها فى شمال افريقيا لانشغالها بالدفاع عن عاصمتها. فقد عاصرت أعمال عقبة فى شمال أفريقيا وتأسيسه للقيروان الحصار الثانى الذى ضربه معاوية حول القسطنطينية وهو المعروف بحرب السنوات السبع.

عزل عقبة

وفى عام ٥٥هـ - ٦٧٥م استعمل معاويه بن أبى سفيان واليا جديدا على مصر وأفريقيا معا هو «مسلمة بن مخلد الأنصارى» (حيث كان من كبار أنصار معاوية خلال الفتنة الكبرى) فعمد الوالى الجديد إلى عزل عقبة بن نافع وولى مكانه مولى له هو أبو المهاجر دينار فخابت بذلك آمال عقبة بن نافع فى الفتح المنشود نحو الغرب. بل إن أبا المهاجر أساء عزل عقبة وأوقره حديدا أى اعتقله.

ويبدو أن ذلك لأن أبا المهاجر خشى أن يصول عقبة صولة فينقلب عليه وعلى سادته فى مصر والشام خاصة أن للقائد المعزول منزلة فى قلب العرب والمسلمين من البربر تنامت على مر السنين وهو فيهم القائد العادل الشجاع الأمين. سار عقبة بن نافع إلى دمشق حيث قابل معاوية فعاتبه على عزله، ولكن معاوية داراه بالقول المعسول دون أن يفعل شيئا حتى توفى معاوية سنة ٦٠هـ وآلت الخلافة إلى يزيد بن معاوية الذى استجاب لشكوى عقبه بن نافع وأعاده مرة أخرى واليا على افريقيا والمغرب قائلا [أدركوها قبل أن يخربها] أى أدركوا أفريقيا قبل أن يخربها أبو المهاجر دينار.

عودته لأفريقية وموقفه من أبى المهاجر وكسيلة

خرج عقبة بن نافع من دمشق فى عام ٦٢هـ إلى أفريقيا ومر بمصر فخرج إليه

مسلمة بن مخلد معتذرا عما فعله أبو المهاجر معه فقبل اعتذاره ثم مضى حتى وصل إلى أفريقيا حيث تولى الإمارة مرة أخرى ومعه قوة تقدر بحوالى ٤٠٠٠٠ فارس، على أن الإنصاف يقتضينا أن نقول أن أبا المهاجر دينار إذا كان قد أساء فى عزل عقبة بن نافع حين حبسه وأهانه إلا أنه من ناحية أخرى فقد أحسن صنعا فى حكمه لأفريقيا خلال ولايته التى دامت سبع سنوات من سنة ٥٥-٦٢هـ وقد كان هو وعقبة بن نافع سلفه وخلفه فى نفس الوقت على طرفى نقيض - فبقدر ما كان عقبه شديدا على أعدائه بحكم طبعه النضالى الذى يرفض اللين والمهادنة فإن أبا المهاجر قد أحسن حين استمال قلوب الأتباع وعدد غير قليل من البربر على حد سواء. واستطاع القيام بعدة حملات ضد البيزنطيين والبربر حتى وصل إلى ناحية تلمسان - وهى الحد الفاصل بين المغرب الأوسط والأقصى. وفى تلمسان كانت منازل قبيلة أوربه وهى من أكبر قبائل البربر البرانس (أى الحضر) وكانت تسيطر على المغرب الأوسط كله ويتزعمها زعيم بربرى يسمى كسيلة بن حزم. وقد استطاع أبو المهاجر هزيمتهم وأسر كسيلة زعيم قبائل أوربه فأحسن إليه وقربه وعامله معاملة الملوك فأظهر كسيلة الإسلام واستبقاه أبو المهاجر معه. وبذلك دخل كسيلة إلى الإسلام على يد أبى المهاجر الأمر الذى يعتبر حدثا هاما فى تاريخ الإسلام لأن معظم من دخل فى الإسلام من البربر قبل ذلك كانوا من البربر (البتر) أى البدو من قبائل لواته وهواره ونفوسه وغيرها. وعندما وصل عقبة إلى افريقيا قبض على أبى المهاجر وعلى صاحبه كسيلة وتلك كانت من أخطاء عقبة الجسيمة لأن كسيلة كان رجلا مسلما وليس ذنبه أن كان صاحبا لأبى المهاجر. على أى حال نجد أن عقبة رغم ما اتصف به من إيثار وايمان وشجاعه وبعد عن شئون الدنيا إلا أنه كان قصير النظر فى شئون السياسة ومعاملة الناس فأخذ كسيلة معه - مصفدا بالحديد كما يقال - وأساء معاملته رغم أن أبى المهاجر كان ينصحه بإحسان معاملة ذلك الرجل تأسيا بما كان يفعله الرسول (صلعم) فى استئلاف حديثى العهد بالإسلام وهم المؤلفة قلوبهم ولكن عقبة فى حماسه الشديد للفتح وتفانيه فيه لم يلتفت إلى النصح.

وكان أول ما فعله عقبة عند وصوله إلى القيروان هو الدعاء لها بأن يملأها الله علما وفقها ويجعلها عزا لدينه وذلا على من كفر به. وأمر بتجديد ما تخرب من عمارتها وأخذ يعد العدة لأكبر حملة إسلامية فى التاريخ الإسلامى ستظل ذكراها مدى الدهر.

حملته الكبرى

لم يلبث عقبة فى القيروان إلا قليلا ثم ما لبث أن جمع الناس وأحضر أولاده وأخذ يخطب فيهم ويوصيهم باتباع القرآن ومكارم الأخلاق ثم ودعهم وداعاً مؤثراً وقال

[سلام الله عليكم وأراكم لا ترونني بعد يومكم هذا] ثم قال [اللهم تقبل نفسي في رضاك واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك] وكأنه بذلك يودع القيروان وأهلها إلى الأبد لأنه لم يرجع إليها أبداً.

خرج عقبة في عام (٦٢هـ - ٦٨٢م) على رأس عشرة آلاف فارس وترك القيروان نحو ستة آلاف رجل على رأسهم زهير بن قيس البلوى للدفاع عن العاصمة الجديدة ضد أى هجوم غادر يقوم به البيزنطيون فجأة. وأخذ معه أبا المهاجر دينار مما يدل على عظمة الرجلين واتحادهما والتقائهما على الجهاد في سبيل الله. كما ضم جيش عقبة الأمير البربرى كسيلة ومن معه من قبيلته أوربه.

انتصارات متوالية لعقبة

كانت أول ما صادف عقبه هى مدينة بجاية أو باغاية في سفوح جبال أوراس (وهى في الجزائر اليوم) وكان حولها حامية بيزنطية فهزمهم عقبة وغنم منها مغانم كثيرة واعتصم الروم المنهزمون بأسوار المدينة فضرب حولهم الحصار. ثم رأى ألا يبرد حماس جنوده المتعطشين للجهاد فمضى عن أسوار المدينة ثم زحف غربا حتى بلغ تلمسان (قرب حدود الجزائر الغربية حاليا)، وهى من أعظم مدائنهم - وانضم إليها من حولها من البربر والروم والبيزنطيين فخرجوا لملاقاة عقبة وجنده في جيش ضخم، فدارت بين الطرفين معارك طاحنة ظن المسلمون أنها الفناء حتى أتاهم نصر الله فهزموهم وطاردوهم إلى أبواب حصونهم وغنموا منهم مغانم كثيرة.

ثم استمر عقبة في تقدمه حتى وصل إلى مدينة تاهرت فوجد نفسه أمام تحالف كبير من الروم والبربر لم يعرف العرب من قبل له مثيلاً فأعد العدة لخوض المعركة.

دعا رجاله وخطب فيهم خطبة بليغة حثهم فيها على الجهاد والثبات عند اللقاء إلى أن قال [وأنتم اليوم في دار غربة وإنما بايعتم رب العالمين وقد نظر اليكم في مكانكم هذا ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلبا لرضاه وإعزازا لدينه فأبشروا] وهذا يؤكد أن المسلمين في جميع فتوحاتهم انما كانوا يقاتلون طلبا لرضاء الله وإعزازا لدينه وليس لطمع في مغنم أو دنيا زائفة. ثم التحم الجيشان واستمر القتال واشتد الأمر على العرب لكثرة العدو ولكنهم انتصروا أخيراً وهزم الروم والبربر وكثر فيهم القتل وغنم العرب مغانم كبيرة.

فرار كسيلة

يبدو أن كسيلة زعيم البربر والذى كان في جيش عقبة - يبدو أنه لم يكن مرتاحا

لشدة عقبة معه ففر كسيلة ومعه بربر قبيلته أوربه إلى جبال أوراس حيث جمع جيشاً من البربر غير المسلمين ولم يشأ أن يشتبك مع العرب إلا فى طريق عودتهم من الغزو حتى يكون التعب قد نال منهم وعندئذ ينقض عليهم فيفتك بعقبة وبمن معه.

عقبة يخوض المحيط

بعد أن قضى عقبة على كل مقاومة للبربر والروم البيزنطيين فى المغرب الأوسط (الذى يقابل بلاد الجزائر اليوم) توغل إلى المغرب الأقصى (المملكة المغربية اليوم) وسار على الساحل حتى انتهى إلى طنجة فصالحها. أى[1] أن هذا الرجل قد قطع فى شهور قليلة وخلال جبال وعرة تسكنها قبائل ضخمة مسافة تقدر بأربعة آلاف كيلو متر حتى وصل إلى طنجة وهى مفتاح المدخل الغربى للبحر الأبيض المتوسط.

بعد ذلك انحدر عقبة إلى الجنوب حيث مواطن البربر الحقيقيين وبنفس البسالة التى عرفناها فيه نجده يخترق مواطن البربر الصامدة من شمال المغرب الأقصى إلى جنوبه مخترقاً جبال أطلس وفى طريقه يهزم القبائل وينشئ المساجد ويقبل عليه الناس رغبا أو رهبا ليعلنوا إسلامهم. ثم استمر يفتح المدن فى هذه المنطقة مدينة تلو أخرى حتى وصل المحيط بالقرب من رأس «ايغيران يطوف» جنوب المدينة الحالية المعروفة باسم أغادير على مصب وادى السوس فدخل فيه بفرسه حتى بلغ الماء بطن فرسه ثم قال مقولته المشهورة والباقية مدى الدهر: [يارب لولا هذا البحر لمضيت مجاهدا فى سبيلك أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك] وفى قول آخر [لو أعلم أن وراء هذا البحر أرضاً لخضته مجاهدا فى سبيلك..الخ].

بعد أن وصل عقبة إلى هذه النتيجة التى[2] لا تصدق نجده يعود أدراجه مرة أخرى، وعندما وصل إلى نهر تانسيفت وهو النهر الذى تقع مدينة مراكش الحالية على أحد فروعه وعند بلده تسمى نفيس نراه ينشئ مسجدا وهو الذى عرف فيما بعد باسم مسجد «أغمات أوريكه» ولا يزال هذا المسجد باقيا حتى اليوم. وعندما وصل عقبة إلى وادى أبى الرقراق الذى تقع على مصبه الآن مدينة الرباط ينشئ رباطا أى معسكرا للمرابطين الذين يرابطون على ثغور بلاد الإسلام ليحرسوها ويصدوا عنها الأعداء بسم الله تعالى. ويسمى هذا الرباط برباط شاكر — وهو أحد قواده. وهناك ترك عقبة شاكرا ليعلم الناس مبادئ الإسلام، ثم يبدأ فى طريق عودته إلى القيروان. ومازال رباط شاكر باقيا حتى اليوم.

---

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس.
(٢) معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس.

عودته

فى طريق عودته بدأت المتاعب تصادف هذا القائد العظيم ورجاله البواسل لأن المنهزمين بدأوا يتربصون به وخاصة أن جنده قد تناقص عددهم بعد المعارك العنيفة المتتالية التى خاضوها. فتجمع البربر فى طريق عودته فى بلاد دكاله وخاض معركة عنيفة ضدهم واستطاع هزيمتهم ولكن بعد أن قتل كثير من أصحابه حتى سمى موضع المعركة مقبرة الشهداء.

وسلك عقبة بن نافع فى طريق عودته الأطلس الصحراوى (جنوبا) بدلا من طريق تلال الأطلس الشمالى الذى اجتازه فى ذهابه وذلك حتى ينجو مما يكون قد أعد له من الكمائن المبيته فيما لو عاد من نفس الطريق الأول وكان الجيش العربى قد نال منه التعب والإعياء بعد هذه الحملة الطويلة التى بلغ طولها حوالى أربعة آلاف كيلو متر والتى استغرقت عامين والتى خاض خلالها عشرات المعارك.

حقيقة كانت حملته مظفرة إلا أنها كلفته كثيرا من الأرواح والشهداء هذا إلى أن العائدين كانوا مثقلين بالغنائم والأحمال مملوئين بالشوق إلى الأهل والأحباب. لذلك كله كان عقبة يسرع فى طريق عودته للقيروان دون قتال على قدر الإمكان.

استشهاده

عندما بلغ الجيش مسيرة ثمانية أيام من القيروان واطمأن عقبة إلى الوصول أذن لرجاله بالإسراع إلى أهليهم وذراريهم وذلك بأن يتقدموا فوجا فوجا ويبقى هو فى المؤخرة كأى قائد شجاع لتأمين عودة جنوده. وهنا نرى كسيلة يتربص لعقبة فى جيش كبير بعد أن اتصل بالروم - أصدقائه السابقين - لمعاونته ونفسه مملوءة غيظاً وحقداً على عقبة بن نافع شخصيا - فتصدى له عند تهوذه وكان على رأس ثلاثمائه فقط من فرسانه وهم آخر سراياه العائدة إلى القيروان - وفجأة وجد عقبة نفسه أمام جموع كسيلة الكبيرة التى أطبقت عليه من كل جانب وأيقن عقبه بن نافع بقرب النهاية فقال يوصى أبا المهاجر دينار الذى صحبه فى كل هذه الغزوات - الحق يا أخى بالمسلمين فى القيروان وقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة هنا ولكن أبا المهاجر قال وأنا أيضا أريد الشهادة. فنزل عقبة وأصحابه عن ظهور خيولهم وواجهوا العدو بالبسالة والشجاعة الفائقة. ولكن كانت النهاية محتومة فقد استشهد عقبة بن نافع وأبو المهاجر دينار وأصحابهما ومعظمهم من الصحابة والتابعين ولم ينج سوى محمد بن أوس الأنصارى ونفر قليل من اصحابه.

كان استشهاد عقبة بن نافع فى موقعة تهوذة عام ٦٤هـ - ٦٨٤م وعمره

خمس وستون سنة وسيفه في يده ضاربا أروع الأمثلة في البطولة والاستشهاد في سبيل الله. والعمل على نشر الإسلام ورفع رايته عالية ولو كره الكافرون.

وقد دفن عقبة في هذا المكان وأنشئ به مسجد يسميه الجزائريون الآن مسجد «سيدى عقبة» ويتخذونه مزاراً حتى اليوم. وكانت هذه النهاية لعقبة على الرغم من أنها كانت هزيمة عسكرية إلا أنها في واقع الأمر كانت بعيدة الأثر في إسلام المغرب وافريقيا...

وقد كان ما ابداه عقبة ورجاله من البسالة في ذلك الاستشهاد له أعظم الأثر في نفوس البربر وهم قوم ذوو بأس وإعجاب بالأبطال وكانت نتيجة هذا الاستشهاد المجيد أن دخل البربر جماعات في الإسلام.

تعليقات

(١) تعتبر حملة عقبة بن نافع الفهرى أكبر وأجرأ حملة قام بها قائد عربى في المغرب كما تعتبر حدا فاصلا بين عهد الإغارات الإسلامية السريعة على شمال افريقية وعهد الفتح المنظم المستقر لهذه البلاد. إذ قام بعدة أعمال في ذلك الميدان تعد الحجر الأول في بناء افريقيا الإسلامية رغم أن حملته بدت كسابقاتها من الحملات الإسلامية كإغارة سريعة طويلة المدى بلغت شاطئ المحيط الأطلنطى ثم عادت ادراجها إلى قواعدها الأولى. إلا أنها تركت وراءها آثارا جعلت قلوب المسلمين تتعلق بشمال افريقية وتعتبره قطرا من دولة الإسلام يجب طرد البيزنطيين منه تماما وضمه إلى أرضهم.

ويعزى نجاح عقبة في وضع الأسس الأولى لبناء دولة المسلمين بشمال افريقيا إلى خبرته الواسعة بشئون هذا الإقليم منذ أن عرف حاله منذ ولاية (عمرو بن العاص) الأولى على مصر.

(٢) - انقلاب في سياسة بيزنطة في افريقيا

استطاعت الدولة البزنطية في الفترة التى عزل فيها عقبة أن تستعيد نشاطها بعد انتهاء الحصار الثانى الأموى لعاصمتها في القسطنطينية وكان الإمبراطور البيزنطى إذ ذاك هو قنسطنطين الرابع. وقد تبين له أن علة الفساد في دولته وسبب ضعفها هو العداء المذهبى والسياسة الدينية الأضطهادية التى اتبعتها السلطات البزنطية إزاء أهالى ولاياتها المخالفين لها في العقيدة الدينية إذ كان البربر المسيحيون يضمرون الكراهية والبغضاء للدولة البيزنطية في افريقيا ويتمنون زوال سيادتها عنهم.

وقد بادر قنسطنطين باتخاذ خطوة هامة ليتقرب إلى أولئك البربر ليضمهم إلى جانب قواته في نضالهم ضد المسلمين فجمع مجلسا دينيا سنة ٦٠هـ - ٦٨٠م نجح في وضع حد للخصومات المذهبية التى فرقت بين ما بقى لها من رعايا فى إيطاليا وشمال افريقيا، وجنى الإمبراطور قنسطنطين ثمار هذا المجلس الدينى إذ زال ما عند البربر المسيحيين من عوامل الكراهية نحو الدولة البيزنطية وبدأوا يشدون أزرها فى حربها ضد المسلمين. وقام بذلك تحالف بين البربر المسيحيين والبزنطيين فى شمال افريقيا، ولكن يلاحظ أن هذا التحالف لم يشمل البربر البدو الذين ظلوا بمعزل عنهم.

(٣) موقف عقبة من كسيلة

لقد غاب عن عقبة أن أحوال افريقيا قد تبدلت تبدلا جوهريا منذ حملته الأولى ولم يدرك شيئا عن التحالف الذى نشأ بين البربر والبيزنطيين بعد أن غير قنسطنطين من سياسته الدينية. كما أنه لم يحاول الاستفادة من أبى المهاجر دينار لاسيما من ناحية استرضائه للبربر وعلى رأسهم «كسيلة»، ولذا سار عقبة على سياسته القديمة فى محاولة التوغل داخل بلاد البربر دون أن يستميلهم إليه وتجلت هذه السياسة فى علاقته مع «كسيلة» زعيم البربر - الذى أعتنق الإسلام على عهد أبى المهاجر - فقد أخذ عقبة كسيلة معه في حملاته دون أن يظهر له العطف والتقدير على نحو ما فعل سلفه ومن ثم فقد تغير قلب كسيلة ففر من جيش عقبة ولعب دورا كبيرا فى القضاء على مجهودات عقبة حتى واتته الفرصة المناسبة اثناء الحملة للانتقام منه.

(٤) المصاعب فى طريق عودة عقبه

لقد تصدى التحالف البيزنطى البربرى لعقبة عند المدن الهامة واخذوا يطمرون آبار المياه في طريقه. وزاد فى مقاومة البربر مراسلة «كسيلة» لهم سراً وحثهم على تنظيم صفوفهم. وأخيراً استطاع «كسيلة» الفرار من جيش عقبة وأعد البربر للغدر به. وأحس عقبة بما كان يدبر له حتى وصل إلى مدينة طنجة وهناك أمر معظم جيشه بالذهاب رأسا إلى القيروان إذ أحس فساد المياه فى الآبار التى مر عليها وبقى مع جزء يسير من قواته لحماية مؤخرته.

نتائج الحملة

إن أهم النتائج هى نشر الإسلام على نطاق واسع، واختلاط البربر بالمسلمين فى ميادين القتال ادى إلى تعرف البربر على حقيقة الإسلام وعظمة هذا الدين فمالت قلوبهم اليه. وحتى فى المعركة التى استشهد فيها عقبة واصحابه ظهرت نتائج كان لها

ابعد الأثر على مجريات الفتوح الإسلامية فيما بعد إذ افتدى بعض كبار الشخصيات من رجال البربر نفرا من الأسرى المسلمين مما دل على أن الإسلام كان قد دخل قلوب بعض البربر من القبائل البدوية البعيدة عن الحضارة «البيزنطية» وبذلك شعر المسلمون أن هذه البلاد هي من بلاد الإسلام وبها مساجد وجماعات تعتنق الدين الإسلامي.

وهكذا انبتت دماء «عقبة» وأصحابه بذور دوحة المسلمين في شمال افريقيا. وقد ترتب على هزيمة تهوذه ارتداد الجيوش الإسلامية إلى برقه للاستعداد لجولة أخرى من القتال ضد «البيزنطيين» في الساحل وحلفائهم من البربر في الداخل.

الفصل الثامن

«قتيبة بن مسلم الباهلى»
بطل من أعظم أبطال العرب والمسلمين
فاتح بلاد ما وراء النهر

فى عام ٨٦هـ وفى عصر الوليد بن عبد الملك حدث تحول أساسى فى تاريخ العلاقات الإسلامية الآسيوية إذ بدأ فى هذا العام الفتح الحقيقى لبلاد ما وراء النهر وهى بلاد سيحون وجيحون فى اواسط آسيا حاليا. لأن عهد الوليد كان هو العهد الذى تخلصت فيه الدولة الأموية من متاعبها الداخلية وكان عصر الوليد هو عصر استئناف الفتوحات فى أرجاء العالم.

ولم يكن إقليم ما وراء النهر إقليما تركيا خالصا. وإنما كان سكانه خليطا من العناصر الايرانية والاتراك الذين ضمتهم الحضارة الايرانية فى رحابها.

كما انه لم يكن خاضعا لسلطة سياسية موحدة وإنما كان مقسما على أسس إقليمية.

وكان هذا التحول الأساسى يتمثل فى تعيين قتيبه بن مسلم الباهلى عام ٨٦هـ - ٧٠٥م عاملا على خراسان وبلاد الشرق من قبل الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق. فظل واليا عليها حتى عام ٩٩هـ - ٧١٧م وهو صاحب الفضل الكبير فى فتوح ما وراء النهر.

شخصية قتيبة

كان قتيبة من أعظم القادة العرب فقد كان قائداً ممتازا أوغل فى بلاد نائية وغريبة وعرف كيف يحافظ على سيطرته على هذه البلاد رغم كثرة المخاطر والتحديات ورغم بعده الكبير عن مركز الخلافة فى دمشق.

وقد كتب إليه الخليفة الوليد بن عبد الملك يقول: [فقد عرف أمير المؤمنين بلاءك وجدك واجتهادك فى جهاد اعداء المسلمين. وأمير المؤمنين رافعك وصانع بك الذى يجب لك. فأتم مغازيك وانتظر ثواب الله. ولا تغيب عن أمير المؤمنين كتبك

حتى كأنى انظر إلى بلائك والثغر الذى انت فيه]. ولم تكن حروب قتيبة بن مسلم غارات كتلك الغارات التى كانت طابع الحملات التى سبقت قتيبة بل كانت فتحا منظما ثابتاً ولذلك فقد بقى الإسلام فى أرجائها حتى وقتنا هذا.

استعدادات قتيبة

أخذ قتيبة يستعد لغزو إقليم ما وراء النهر وبدأ يحشد قواته فى إقليم خراسان الذى جعل منه قاعدة عسكرية أمامية لهذا الغزو. وقد استطاعت الدولة الأموية حشد حوالى سبعين ألف جندى من المقاتلين منهم ٤٧ ألفا من عرب البصرة والكوفة. كما انضم إلى جيش قتيبة ايضا كثير من أهل البلاد رغم أن بعضهم لم يكونوا مسلمين حيث أخذت الدولة الأموية فى اتباع هذا المبدأ. فاشترك عدد كبير من المتطوعين فى جيش قتيبة من بخارى وكش وخوارزم. ويذكر البلاذرى فى كتابه «فتوح البلدان» ان الدولة الأموية قد جندت حوالى عشرين ألفا منهم وبذلك ضمنت مددا بشريا ضخما كما ضمنت ان يتطرق الإسلام إلى قلوب هؤلاء المتطوعين بعد اختلاطهم بالمسلمين. وكانت الاغارات التى قام بها المسلمون من خراسان خلال حرب الثغور فى الفترة من عام ٥٩هـ - إلى ٨٥هـ تقريبا قد اوجدت صداقات بين العرب والدهاقين ونشأ ود متبادل أساسه اعجاب هؤلاء القوم بالعرب وشجاعتهم وسماحتهم ودينهم.

بعد ذلك اخذ قتيبة يوحد بين الجنود ويستثيرهم للجهاد والاستشهاد وخطب فيهم خطابا كان له ابلغ الأثر فى اثارة حماس جنوده للقتال والجهاد فى سبيل الله لنشر دين الإسلام.

الخطاب

وقد جاء فى خطاب قتيبة

[ان الله قد احلكم هذا المحل ليعز دينه ويدافع بكم عن الحرمات ويزيد بكم المال استفاضة والعدو وقما (اذلالا وقهرا) ووعد نبيه النصر بحديث صادق وكتاب ناطق فقال: ﴿هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾.

(٣٣سورة التوبة)

ووعد المجاهدين فى سبيله احسن الثواب وأعظم الأجر عنده فقال: ﴿ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ولا

ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ان الله لا يضيع اجر المحسنين. ولا ينفقون نفقه صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾

(١٢٠، ١٢١ سورة التوبة)

ثم أخبر عمن قتل فى سبيل الله انه حى مرزوق فقال: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾.

فتنجزوا موعد ربكم ووطنوا انفسكم على أقصى أثر واياكم والهوينا].

فتوحات قتيبة

بدأ قتيبه بن مسلم المرحلة الأولى من فتوحاته عام ٨٦هـ- ٧٠٥م (انظر الخريطة) حيث بدأ باستعادة منطقة طخارستان جنوبى شرقى خراسان، واخمد الثورات التى قامت فيها كما استطاع فتح بلخ العاصمة، بعد ذلك قام قتيبة بحملته الكبرى حيث عبر بجيشه نهر جيحون وكان إلى ذلك العهد هو الحد الفاصل بين الشعوب الناطقة بالفارسية والشعوب الناطقة بالتركية - وأخذ يغزو إقليم بخارى فأغار على قبائل الصغد وقاتلهم قتالا شديدا حتى هزمهم. ثم سار إلى بخارى فلقى مقاومة شديدة أمامها. فكتب إليه الحجاج بن يوسف يأمره بأن يصورها له ففعل. فرد عليه بمعاودة الهجوم من أماكن حددها له فاستطاع قتيبة أن يستولى عليها. وقد أبدت نساء العرب شجاعة فائقة فى هذه الحرب فى الهاب حماس الرجال إذ كن يضربن وجوه الخيل ويبكين حتى يكر الناس راجعين إلى الحرب.

كان لسقوط بخارى أثر كبير فى البلاد كلها إذ أبرز قوة العرب فى هذه المرحلة الجديدة خاصة أن العرب سبق أن اغاروا عليها عدة مرات من قبل ولكنها استعصت عليهم. وقد تم له فتح بخارى وإقليمها نهائيا سنة ٩٠هـ - ٧٠٨م.

وفى المرحلة الثالثة من الفتوحات اتجه قتيبة إلى مدينة خوارزم ففتحها (خيوه اليوم) ثم فتح سمرقند بعد قتال عنيف فى عام ٩٣هـ - ٧١٢م وضمها إلى دولة الإسلام نهائيا. ثم أخذ بعد ذلك يعزز قواته ويدعم مركزه فى هذه المناطق وفى حوض نهر جيحون كله ويعمل على نشر دين الإسلام.

الوصول لحدود الصين

وفى عام ٩٤هـ - ٧١٣م فى المرحلة الأخيرة من فتوحاته - عبر نهر سيحون

واحتل فرغانه وبذلك وصل العرب لأول مرة إلى القبائل المغولية والبوذية فى هذه المناطق. بعد ذلك أوغل قتيبة فى فتوحاته فى مقاطعة سنكيانج الصينية حتى وصل إلى كشغر على حدود الصين الغربية ففتحها عام ٩٧هـ - ٧١٩م. وكانت كشغر بذلك آخر ما وصلت إليه فتوحات العرب نحو الشرق. ويذكر ابن الاثير أن ملك الصين كتب إلى قتيبه يسأله أن يبعث إليه رجلا من أشراف قومه يخبره عن العرب ودينهم فسير إليه قتيبه عشرة رجال انتقاهم ممن تتوفر فيهم البلاغة والعقل والصلاح والوسامة وامر لهم بارتداء الخز والموشى وأوصاهم إذا جاءوا لحضور الملك أن يعلموه ان قتيبة اقسم الا ينصرف من بلادهم حتى يطأها ويجبى خراجها. وقد نجح هؤلاء السفراء (الرجال) فى سفارتهم وارسل معهم ملك الصين بهديه إلى قتيبة.

قتيبة ينشر الإسلام

لقد كانت معارك قتيبة وفتوحاته تمثل اندفاعا عربيا رائعاً في الجهاد فى سبيل الله لا يقل عن فتوحات عهد الخلفاء الراشدين. وقد ظل قتيبة بن مسلم فى هذه الفتوحات عشر سنوات متتالية استطاع خلالها نشر دين الإسلام فى هذه المناطق حيث بقى حتى الوقت الحاضر رغم كل الجهود التى يبذلها اعداء الدين لطمس معالمه. وقد بنى مسجداً كبيراً فى بخارى يسمى جامع قتيبة ومازال موجودا حتى اليوم. وقد وجد قتيبة فى بخارى وبلخ وسمرقند العديد من الأصنام وكان كهنتها وعبادها يعتقدون أن كل من يعتدى عليهم يموت لساعته ولكن قتيبة لم يأبه لهذه الخرافات وما أثارته من مخاوف بل أحرق بنفسه عدة أصنام وتماثيل بوذية، فكان أن أسلم منهم خلق كثير. وقد امر قتيبه ببناء المساجد فى كل البلاد التى فتحها وولى عليها عمالا من العرب ليتولوا نشر الدين الإسلامى. ولقد أصبحت هذه البلاد فيما بعد مركزا عظيما للحضارة الإسلامية ساهمت فى تقدم الإنسانية جمعاء. وقد مدحه أحد الشعراء قائلاً:

باهلى قد ألبس التاج حتى ... شاب منه مفارق كن سودا
دوخ الصغد بالكتائب حتى ... ترك الصغد بالعراء قعــودا

مقتل قتيبة

فى عام ٩٦هـ مات الوليد بن عبد الملك وخلفه أخوه سليمان وخشى قتيبة أن ينتقم[1] سليمان منه فهم بخلعه وهو بخراسان، فكره جنده من بنى تميم ذلك وأجمعوا

(١) كان «سليمان بن عبد الملك» يكره «الحجاج» وينقم عليه وكذا «محمد بن القاسم» لأن كليهما أيد «الوليد بن عبد الملك» حين عزم على جعل ولاية العهد لابنه بدلاً من أخيه «سليمان» ولم منع موت «الوليد» قبل أن يتم هذا الأمر - لم يمنع «سليمان» من أن ينزل غضبه ونقمته بعنف على كل من كان يتصل «بالحجاج» بسبب وأيضا «بمحمد بن القاسم» وهو ابن أخ «الحجاج» وصهره.

على خلع قتيبة وقتلوه عام ٩٦هـ. فكان مقتله خسارة عظيمة للمسلمين فهو يعد من أعظم قواد الفتح الإسلامى ولا يقل فى جهوده عن خالد بن الوليد. فهو الذى دفع الفتح الإسلامى إلى خراسان وما وراء النهر. وكان ميمون النقيبة ويلقب عند اهل خراسان بملك العرب. ولو قدر له أن يعيش أكثر لأمكن للمسلمين أن يتوغلوا فى الصين بدليل أن بعد مقتله توقفت نهائيا فتوحات المسلمين إلى الحد الذى وصل إليه قتيبة. وقد امتاز قتيبه بأنه كان يضع لكل حملة خطة ثابتة يحدد لها جهة معينة ويجتهد فى الوصول إلى غرضه غير عابئ بالمصاعب ومعتمدا على بسالته النادرة وروح القيادة التى أمتاز بها.

وقد رثاه عبد الرحمن ابن جمانه الباهلى بقوله:

كأن أبا حفص قتيبة لم يـــسر ... بجيش إلى جيش ولم يعل منبرا

ولم تخفق الرايات والجيش حوله ... وقوف ولم يشهد الناس عســكرا

دعته المنايا فأستجاب لربــــــه ... وراح إلى الجنات عفا مطهـــرا

فما رزئ الإسلام بعد محمــــد ... بمثل أبى حفص فأبكيه عبهـــرا

(وعبهرا هى أم ولد لقتيبة)

وقد هاب الأتراك قتيبة مهابة شديدة. وفى أواخر أيامه كان مجرد ذكر اسمه يوقع الهلع فى نفوس أعدائه. رحمه الله رحمه واسعة وادخله فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا.

الفصل التاسع

«محمد بن القاسم»
(فاتح السند)

مقدمه

بعد أن فتح المسلمون بلاد «فارس» تطلعوا إلى ما وراءها فامتدت فتوحاتهم إلى «خراسان» ومن خراسان تطلعوا إلى بلاد «السند». وقد بدأت حملات المسلمين على بلاد السند مبكرة فى عهد الخليفة «عمر بن الخطاب»، ثم فى عهد «على» توجه «الحارث بن مرة» العبدى متطوعا إلى بلاد السند ومعه جيش من المتطوعين. وقد أذن لهم على بذلك وانتصرت الحملة وغنمت مغانم كثيرة. ثم غزا «معاوية بن أبى سفيان» هذه البلاد بواسطة قائده الشهير «المهلب بن أبى صفره».

وفى عهد الوليد بن عبد الملك بدأ عهد الفتوحات الكبرى لبلاد ما وراء النهر وأيضا لبلاد السند وكانت «العراق» و«فارس» و«خراسان» كلها تحت ولاية «الحجاج بن يوسف الثقفى» الذى أدار هذه الفتوحات وأرسل لها القادة العظام الذين حققوا انتصارات باهرة فى هذه المناطق وأدخلوها إلى حظيرة الإسلام حتى يومنا هذا.

دور الحجاج وتعيين محمد بن القاسم لقيادة الحملة

أعد «الحجاج بن يوسف» حملة كبيرة لغزو بلاد السند على أثر اعتداء لصوص البحر على سفن المسلمين ومن فيها من بنات وأرامل التجار المسلمين وتقاعس«داهر» ملك السند البرهمى عن إنقاذهن.

وقد عين الحجاج لقيادة هذه الحملة الكبرى القائد الشاب «محمد بن القاسم الثقفى» وكان صهره وابن أخيه. وكان واليا على فارس، فأمره الحجاج بالمسير إلى شيراز والانتظار بها حتى يتم استعداداته.

ولقد أعطى «الحجاج بن يوسف» ابن أخيه من المساندة والتأييد الأدبى والمادى والعسكرى مما ساعد على نجاح هذه الفتوحات العظيمة.

فأخذ يعد العدة لغزو السند طوال ستة شهور. وقد عنى الحجاج بنفسه بالإشراف على تزويد الجند بكل ما قد يحتاجون إليه من الذخائر والمؤن حتى أمدهم بالخيول والمال.

وبدأ «محمد بن القاسم» – وكان دون العشرين من عمره – يغزو بلادا مترامية الأطراف متسعة الأرجاء اشتهر أهلها بأنهم رجال حرب أقوياء وأصحاب مدنية وحضارة عريضة وهو فى قلة من الجند إلى جانب كثافة جندهم وضآلة من الموارد بالنسبة لهم.

بدء تقدم محمد بن القاسم

أخذ محمد بن القاسم يحشد قواته ويعد لغزو بلاد السند وكانت قاعدته الأمامية فى ذلك هى بلاد «مكران» كما كانت خراسان هى القاعدة الأمامية لفتوحات بلاد ما وراء النهر .

وقد سار «محمد بن القاسم» من بلاد «مكران» فى اثنى عشر ألفا من جند الشام والعراق وثلاثة آلاف بعير تحمل متاعهم وتتقدم فى اتجاه الديبل (كراتشى اليوم)، أما عتادهم الحربى فقد قام على تجهيزه لهم «محمد بن هارون» حاكم مكران وأرسله بحرا. فالتقى الجيش بسفنه فى ظاهر المدينة فى ربيع الأول عام ٩٨هـ – ٧٠٧م. وكان «محمد بن القاسم » قد استولى على «أرمائيل» فى طريقه إلى «الديبل».

وكما استعان «قتيبة بن مسلم» فى فتوحاته بغير المسلمين فكذلك استعان «محمد بن القاسم» بأعداد كبيرة من رجال «الميد» و«الجات» وهم ما يسميهم العرب «بالزط» وهما قبيلتان سنديتان هاجر كثير من رجالهما إلى خارج بلادهم لفرط ما كانوا يعانونه من سوء معاملة الحكومة البرهمية، إذ كانوا فى عداد المنبوذين الذين يحرم عليهم امتطاء الدواب وارتداء غالى الثياب ولم يكن يباح لهم من الحرف والمهن إلا أدناها.

وقد أفاد الغزاة المسلمون من رجال «الزط» فكانوا إلى جانب شجاعتهم فى الحرب وشدة جلدهم – على معرفة تامة بمسالك السند ودروبها وأحوال أهلها وطريقتهم فى النزال.

الاستيلاء على الديبل

وقد رابطت قوات «محمد بن القاسم» بخنادقها بظاهر المدينة خلف أسوارها وأخذوا يقطعون الأقوات والمدد عن سكانها الذين لبثوا على مقاومتهم. حتى إذا نصب «محمد بن القاسم» منجانيقه الكبير «العروس» وحوله خمسمائة من الرجال الاشداء

يعملون عليه ودق معبد الهنادكه الأكبر (البد)[1] بقذائفه فهدمه - استولى الرعب والفزع على أهلها وشاعت الفوضى فاقتحم المسلمون أسوار المدينة واستمر القتال العنيف الضارى بين الطرفين الذى انتهى بانتصار المسلمين وانسحاب «داهر» أمير السند وفلوله إلى الداخل لإعادة تنظيم قواته.

وقد بنى «محمد بن القاسم» مسجدا فى المدينة وعمر المسلمون أحد أحيائها وترك بجانبهم حامية قوامها أربعة آلاف من الجند ثم واصل زحفه نحو الداخل فبلغ مدينة نيرون (حيدر أباد السند حاليا) على الضفة الغربية للسند، وكان أهلها بوذيين يدينون بعدم العنف فطلبوا الأمان فأعطاه لهم. وقد بدأت قطاعات من السكان تؤيد العرب وتستجيب لهم وتوفر لهم المؤن وهذا يشابه اعتماد العرب على الدهاقين فى فتوحات ما وراء النهر.

الاستيلاء على حصن راور

استمر «محمد بن القاسم» فى تقدمه على الضفة اليمنى لنهر السند بحثا عن قوات العدو الرئيسية ولكن تبين له أن «داهر» اختار مكانا يقع شرق مصب السند مباشرة معتقداً أن النهر قد يعوق العرب عن العبور، وذلك يؤخر زحفهم إلا أن «محمد بن القاسم» عبر النهر على جسر من الزوارق ليلا وفوجئ «داهر» فى مكانه فارتد إلى حصن «راور» حيث كان أول لقاء بين العرب ومقاتلى الهندوس الذين تمرسوا على استخدام الفيلة والرمى بالنبال واستخدام النفط، ونشبت معركة من المعارك الفاصلة، ويقول البلاذرى [ولقيه محمد (أى لقى داهر) والمسلمون وهو على فيل وحوله الفيلة ومعه التكاكره فاقتتلوا قتالا شديداً لم يسمع بمثله وترجل «داهر» وقاتل فقتل عند المساء، وانهزم المشركون فقتلهم المسلمون كيف شاءوا].

ولا يقل هذا النصر ضخامة عن النصر الذى أحرزه «محمد بن القاسم» وجنده عند «الدبيل». وقد استولى محمد بن القاسم فى «راور» على الكثير من أموال «داهر» وكنوزه، ووقع فى أسره خلق كثير كان بينهم نفر من الأميرات بعث بهم وبهن جميعا إلى عاصمة الخلافة.

الإستيلاء على برهمنا أباد

بعد هذا الانتصار الكبير بالاستيلاء على «راور» استمر «محمد بن القاسم» فى زحفه شمالا بشرق حتى بلغ مدينة «برهمنا باد» وكان قد فر إليها ابن لداهر يدعى

(١) البد : هو كل تمثال أو معبد لبوذا.

«جاى سنك» بعد سقوط راور فأحكم من تحصينها وسد منافذها، ولكن المسلمين اقتحموا المدينة بغتة وعنوة ففر ابن داهر شمالا، وأقام القائد العربى بهذه المدينة فترة من الزمن دبر فيها شئون المناطق المفتوحة ونظم إدارتها، ومما يؤثر عنه أنه أكرم رؤساء الهنادكة من رجال الدين وأطلق لهم حرية العبادة على أن يوالوا المسلمين ويدفعوا لهم الجزية، واستمر «محمد بن القاسم» فى تقدمه حتى بلغ مدينة «الرور» عاصمة داهر أمير السند وكان ابنه قد تحصن فيها من جديد. واستماتت الهنادكة فى الدفاع عنها ولكنهم استسلموا فى النهاية بعد ما عانوا طويلا من انقطاع المياه عنهم وطول الحصار حولهم.

الاستيلاء على الملتان

استمر محمد بن القاسم فى زحفه فعبر نهر «بياس» وحاصر مدينة «الملتان» أعظم مدن السند الأعلى (جنوب البنجاب)، فصمدت للحصار ستة أشهر حتى دلهم رجل على مدخل الماء الذى يشرب منه السكان فقطعوه عنهم فنزلوا إلى القتال فى معركة شديدة استمرت سبعة أيام اقتحم المسلمون الأسوار من بعدها واستولوا على المدينة كلها.

وكانت هذه المدينة أشبه بعاصمة دينية كبيرة يحج إليها الناس وتركزت فيها المعابد الشهيرة. ودل أحد البراهمة محمد بن القاسم تقربا منه على مكان خفى بأحد المعابد كان ملوكهم يودعون فيه أموالهم وكنوزهم فوجد به من المال الكثير مما مكنه من أن يرد إلى بيت مال المسلمين ضعف نفقات حملة[1] السند وكانت مغانمها تقرب مما أصابوا فى مدائن كسرى. ويتحدث البلاذرى عن الذهب الذى أصابوه والذى قدمه للحجاج بنحو مائة وعشرين ألف ألف درهم.

وفى «الملتان» آخر حصون السند الكبرى أقبل الأعيان والتجار وأصحاب الحرف على «محمد ابن القاسم» فى أعداد كبيرة من سكان الأقاليم المجاورة من رجال الميد والجات الذين كانوا يعانون من ظلم البراهمة فأعلنوا جميعا ولاءهم له لما بلغهم عنه من تسامحه وكف أيدى رجاله عن السلب والنهب فآمنهم على أنفسهم وأموالهم.

وهكذا كان لحميد مسلك «ابن القاسم» مع الأهالى فى حسن معاملته لهم وتأمينهم على أموالهم وأنفسهم وإطلاق حرية العبادة لهم أبعد الأثر فى نفوس القوم مما ساعد كثيرا على توطيد مركز المسلمين فى السند.

نهاية محمد بن القاسم ومصرعه

بعد ذلك كتب «محمد بن القاسم» يستأذن «الحجاج» فى فتح مملكة «قنوج»

(١) كانت نفقات حملة السند ستين ألف ألف درهم.

أعظم إمارات «الهند» وكانت تمتد من «السند» إلى «البنغال» فأجابه «الحجاج» إلى طلبه وشجعه فأخذ «محمد بن القاسم» يعد العدة لغزوها وجند جيشا فيه عشرة آلاف من الفرسان ولكن وافته الرسل تنبئه بوفاة «الحجاج» ثم وفاة «الوليد بن عبد الملك» وانتقال الخلافة إلى «سليمان بن عبد الملك» الذى أرسل فور توليه الخلافة يستدعى فاتح السند للقدوم إليه. وكان «سليمان بن عبد الملك» يكره «الحجاج» وينقم عليه كما كان ينقم على «محمد بن القاسم » أيضا.

وكان بوسع «محمد بن القاسم» أن يعتذر عن عدم تلبية دعوة الخليفة بل ويرفض المسير إليه وهو الذى استطاع أن يخضع السند لراية الخلافة فى مدة لا تتجاوز ثلاث سنوات، لكنه آثر ألا يشق عصا الطاعة رغم توجسه الشر منه فحمل مقيداً بالأغلال حتى بلغ «واسط» حيث لقى بها العذاب على أيدى أعوان «سليمان» حتى لقى حتفه فبعثوا برأسه إلى الخليفة فى «دمشق».

وهكذا كانت نهاية واحد من أشجع أبطال العرب وشبابهم ومن عظماء الفاتحين الذين فتحوا أبواب «السند» و«الهند» للدين الإسلامى وللمسلمين حتى يومنا هذا.

الفصل العاشر

موسى بن نصير
«فاتح الأندلس»(١)

من هو موسى بن نصير

من التابعين لصحابة رسول الله محمد (صلعم)

ولد موسى بن نصير عام ١٩هـ في عهد الخليفة عمر بن الخطاب بوادى القرى فى شمال الحجاز.

وتقول الروايات أنه ينتسب إلى بكر بن وائل وأن أباه نصير كان ممن سباهم خالد بن الوليد فى موقعة عين التمر. وفى صباه وجد فى المدينة المنورة عاصمة الدولة العربية على عهد الخلفاء الراشدين دراسات علمية قيمة كان لها أكبر الأثر فى ثقافته وتربيته الإسلامية، وأتاحت هذه الدراسات لموسى أن يقف على كثير من سير الرسول الكريم (صلعم) وخاصة نشاطه وخططه الحربية فى المغازى التى قام بها فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية.

وكانت التربية الدينية التى تلقاها موسى بن نصير منذ نعومة أظافره سبباً فى أن يشب ويكبر على حب التقوى والورع والمخافة من الله سبحانه وتعالى والفزع إليه فى كل ما يواجهه من أمور. وقد سجلت إحدى الروايات هذه الصفات الحميدة التى تحلى بها موسى بن نصير حيث قال بعض العلماء «إن موسى بن نصير كان عاقلاً شجاعاً كريماً تقياً إلى الله تعالى».

وقد شب موسى بن نصير فى المدينة المنورة فى هذا الوسط العربى الخالص فنمت فيه ملكات العربى الأصيل من حيث حلاوة اللسان والقدرة على البيان فأصبح عربياً فصيحاً.

(١) يطلق العرب لفظ الأندلس Al-Andalus على ما دان لهم من بلاد شبه الجزيرة الأيبرية كبيراً أم صغيرا. ومازال اسم الأندلس باقيا حتى الآن ويطلق على مجموعة من ثمانى ولايات فى جنوب شبه الجزيرة، هى قرطبة وأشبيلية وقادش ومالقة وغرناطة والمرية وجيان وولبة.

وإذا كان موسى بن نصير قد استمد مقومات دراساته الدينية والأدبية من أرض الحجاز فإنه مدين بتربيته السياسية والعسكرية إلى بلاد الشام حيث عهد معاوية إلى نصير والد موسى برئاسة حرسه وهو منصب لا يتولاه إلا كل من نال الثقة الكاملة ، وبذلك أتيح لموسى بن نصير أن ينتقل إلى بيت معاوية بن أبى سفيان وأن يتدرب هناك فى أعظم مدرسة للسياسة شهدتها الدولة العربية الإسلامية فى صدر حياتها.

وفى شبابه تقلب فى بعض المناصب العسكرية والإدارية الهامة وقاد بعض الحملات البحرية فى عهد معاوية بن أبى سفيان وغزا قبرص وغيرها من الجزر القريبة.

وقد شارك موسى بن نصير فى نشاط هذه المرحلة الهامة من عصر انطلاق البحرية العربية وأصبح أحد أمراء البحر الذين أسهموا فى الهجوم على قواعد الروم فى شرق البحر المتوسط. وكان ميدان النشاط البحرى الذى صال فيه موسى وجال هو جزيرة قبرص وما جاورها من الجزر التى هددت دائماً أمن الشام وسلامته. وقد استطاع موسى بن نصير أن يغزو عدداً من الجزر القريبة من قبرص وأثبت جدارة فائقة فى تنفيذ السياسات البحرية العربية وهى فى أيامها الأولى.

وبانتهاء خلافة معاوية بن أبى سفيان بدأ موسى بن نصير يدخل معركة السياسة مرة أخرى. وانغمس فى المشاكل السياسية الكبرى التى أعقبت وفاة يزيد بن معاوية إلى أن استقرت الأمور لمروان بن الحكم سنة ٦٥هـ - ٦٨٤م فعاد موسى بن نصير مرة أخرى إلى خدمة البيت الأموى.

موسى بن نصير يذهب إلى مصر

كان عبد العزيز بن مروان الإبن الأكبر للخليفة مروان هو صاحب الفضل فى احتضان موسى ابن نصير إذ آمن عبد العزيز بن مروان بمواهب موسى بن نصير وهيأ له كل الفرص لوضع هذه المواهب فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام.

وعندما ولى عبد العزيز بن مروان شئون مصر اصطحب معه موسى بن نصير الذى تولى مركز المستشار الأول لوالى مصر حيث بدأ يطل من مصر على «الميدان الأفريقى» الذى سجل فيه سيرة جهاده بمداد من الفخر والجلال.

كانت عودة موسى بن نصير سنة ٥٧هـ-٦٩٥م إلى مصر نقطة تحول هامة فى حياته وحياة العروبة والإسلام كذلك وقضى موسى بن نصير - قبل أن ينتقل إلى شمال أفريقية - عشر سنوات بمصر كانت من أهم السنوات التى بني عليها مجده الحربى والإدارى.

وفى تلك الفترة شاهدت الديار المصرية استعدادات حربية واسعة النطاق لإرسال حملة كبيرة بقيادة حسان بن النعمان لاسترداد المواقع التى ضاعت بسبب استشهاد سلفه القائد زهير بن قيس البلوى سنة ٧٠هـ-٦٩٠م فى برقة إذ أطاحت كارثة هذا القائد بكل الجهود الحربية الإسلامية فى شمال أفريقيا حتى ذلك الحين.

ولم تستطع حملة حسان بن النعمان التى خرجت من مصر فعلاً سنة ٧٦هـ-٦٩٦م أن تخلق الاستقرار المنشود فى الميدان الأفريقى. وقد تولى عبد العزيز بن مروان والى مصر دراسة هذا الموقف الأفريقى بنفسه ووضع نظر عبد العزيز بن مروان على محل ثقته المطلقة موسى بن نصير وأخذ يؤهله لتولى القيادة العامة فى هذا الميدان الأفريقى حيث أثبت موسى بن نصير أنه أهل لهذه الثقة المطلقة عن جدارة واستحقاق.

وأخذ موسى بن نصير يدرس الميدان الأفريقى عن قرب وخاصة أن مصر فى تلك الفترة كانت القاعدة الأساسية لكل حملات شمال أفريقية بما قدمه ولاة مصر من دخل ونفقات لتزويد الجيوش المتجهة إليها بكل ما تحتاج إليه من عدد وعتاد فضلاً عن إمداد قادة الجيوش بالخبرات والمعلومات الحربية الهامة. وصارت مصر أيضا هى القاعدة التى تحمى الجيوش العربية إذا حل بها مكروه والحصن الذى يحفظ لها قوتها. كما ازدادت خبرة موسى بن نصير بدور مصر فى حركة الفتوح العربية فى شمال افريقيا عن طريق التقائه أيضاً بنفر كثير من رجالات مصر ممن سبق أن اشتركوا فى الحملات الحربية فى الميدان الأفريقى أو أسهموا فى تدبير شئونها، وهكذا أتاحت المقادير لموسى بن نصير أن يسطر للعروبة والإسلام صفحات رائعة فى شمال أفريقيا بل وفى بلاد غرب أوروبا نفسها.

أمير القيروان

تولى موسى بن نصير منصب القائد العام للميدان الأفريقى سنة ٨٥هـ-٧٠٥م بعد عزل حسان بن النعمان عن ولاية أفريقية. وقد استمرت ولايته سبع سنوات حتى عام ٩٢هـ-٧١٢م.

وسار النصر فى ركاب موسى بن نصير منذ ذلك الوقت دون أن يتخلى عنه لحظة واحدة ذلك أن هذا القائد العام الجديد كشف فى جرأة عما تحلى به من مواهب عالية قوامها الصراحة مع الحزم والإيمان العميق برسالته مع القدرة على التخطيط السليم.

وكان أول تخطيط وضعه موسى بن نصير هو الربط بين طبيعة البيئة الجغرافية

لشمال أفريقيا وبين أعماله الحربية لأن كل من سبقه من القادة لم يراعوا هذا المبدأ السليم من مبادئ الحرب، فكانت كل حملاتهم السابقة لا تخرج عن كونها حملات كر وفر يبذل فيها الجهد العظيم والعناء الكبير ولكن دون تحقيق نتائج ثابتة راسخة. لذلك رأى موسى بن نصير أن يعمد أولاً إلى تأمين المنطقة التى تقع فيها القيروان قاعدة الفتوح خاصة لأن هذه المنطقة هى التى ركز فيها الروم نشاطهم لإفساد كل تقدم للمسلمين. وكان الروم يطلقون عليها اسم «أفريقية». وكان هذا القسم الإدارى يشتمل على البلاد التونسية الحالية مع الأجزاء الغربية من طرابلس ثم يمتد غرباً إلى ولاية بجاية بالجزائر الحالية. أى أن «أفريقية» هى الحلقة التى تربط بين برقة وطرابلس شرقاً والمغربين الأوسط والأقصى غرباً.

وقد نظم موسى بن نصير قواته تنظيماً حربيا رائعاً مستهدفاً إشعار أهل أفريقية جميعا بحزم الإدارة العربية الجديدة وخاصة أنه ما كاد يلى الحكم حتى نزع البربر إلى الثورة شأنهم عند كل تغيير. ولذلك عمد موسى بن نصير إلى تقسيم قواته إلى فرق قوية بقيادة قادة أكفاء على أن تتم ضرباتهم فى وقت واحد لتنزل الرهبة فى قلوب الأعداء. وقد عين موسى بن نصير لقيادة هذه الفرق أبناءه الأربعة وهم عبد الله ومروان وعبد الملك وعبد العزيز وكذلك مجموعة من خيرة المحاربين العرب من بينهم أبناء عقبة بن نافع الفهرى هذا بالإضافة إلى مجموعة من أهل البلاد الأصليين الذين حسن إسلامهم وأشهرهم طارق بن زياد. وقد أثمرت هذه السياسة الحربية ثمارها وشعرت أرجاء أفريقية لأول مرة بقوة الجيوش العربية واستقر الأمن بين ربوعها. وغدت القيروان هذه القاعدة الهامة تنعم لأول مرة بالهدوء والطمأنينة وابتعد أهلها تماماً عن الروم ودسائسهم.

جهوده فى بلاد المغرب(١) الأوسط والأقصى

ركز موسى بن نصير حملاته بعد استقرار الأمور فى القيروان نحو المغرب الأوسط فأرسل أحد قادته وهو عياش بن أخيل إلى قبائل المغرب الأوسط ومعه تعليمات من موسى بن نصير بمعاملة القبائل الراغبة فى الصلح معاملة كريمة وترك أمورها بيد أناس من أهلها. وقد أستطاع عياش أن يدخلها فى طاعة المسلمين. وقد ترتبت على هذه السياسة نتائج هامة فى تاريخ الفتوحات العربية إذ أتاحت لنفر من أهل تلك القبائل الإقامة فى وسط الجنود العرب والتعرف على أهدافهم الحقيقية من وراء الفتح وهى نشر الإسلام وإخراج البلاد من ظلمات وظلم الروم إلى النور والمساواة على عكس ما كانت تصوره دعايات الروم.

---

(١) المغرب الأوسط هو الجزائر حاليا. والمغرب الأقصى هو مراكش حاليا.

ومن هنا بدأت أعداد الداخلين فى الإسلام من أهل المغرب الأوسط تتزايد وصاروا يكونون قوات جديدة تؤازر جيوش العرب.

وفى نفس الوقت عمد موسى بن نصير إلى تطهير المناطق التى مازالت موضع نشاط الروم وعملائهم، فقصد منطقة «سجوما» التى شاهدت من قبل استشهاد عقبة بن نافع وقاد القوات بنفسه وجعل على رأس المقدمة عياض بن عقبة بن نافع وزحف بجنده حتى وصل إلى نهر «ملوية» الفاصل بين المغرب الأوسط والمغرب الأقصى. وأخضع القبائل التى اشتركت مع الروم فى التصدى لعقبة بن نافع ثم عاد بعد ذلك إلى القيروان مرة أخرى ليعد العدة لفتح المغرب الأقصى.

واتبع موسى بن نصير فى فتح المغرب الأقصى نفس السياسة التى اتبعها فى جميع حملاته الحربية وهى توزيع نشاطه الحربى فى شتى الجهات فى وقت واحد ليرهب أعداءه وليمنع اتصال بعضهم ببعض فى المناطق المختلفة. كما أن هذه السياسة جاءت متفقة تماماً مع طبيعة هذه البلاد الجغرافية، فالمغرب الأقصى له وجهان أحدهما يطل على البحر المتوسط وهو معروف ببلاد غمارة (أى بلاد الريف حاليا) والوجه الآخر يطل على المحيط الأطلنطى وتكتنفه جبال أطلس الحديثة (أى منطقة السوس).

وبعث موسى إلى تلك الجهات بابنه مروان على رأس قوة كبيرة اتجهت إلى السوس الأقصى فى الجنوب الغربى لجبال أطلس على حين سير قائده زرعة بن مدرك إلى القبائل المقيمة فى جبال أطلس العليا. وقد نجحت الحملتان نجاحاً باهراً نظراً لإقبال السكان (من قبائل مصمودة) على الدخول فى الدين الإسلامى ذلك أن انتصارات موسى بن نصير الباهرة فى (أفريقية) والمغرب الأوسط جعلت سكان المغرب الأقصى يؤمنون بالدين الجديد والقيادة البارعة فدخلوا طواعية فى رحابه.

الاستيلاء على طنجة

وهكذا أصبحت بلاد المغرب جميعاً تدين بالطاعة لموسى بن نصير وبذلك انفتح الطريق أمامه إلى طنجة وسبتة على شاطئ المحيط الأطلسى فاتجه موسى بن نصير إليها واستولى أولاً على طنجة والجهات المجاورة لها، ذلك أن طنجة لم تكن مدينة فحسب وإنما كانت عبارة عن ولاية كبيرة تشمل السوس الأدنى وكان أهلها معروفين بميلهم نحو الحضارات القديمة التى وصلتهم من بلاد اليونان والرومان. وقد اختار حاكماً لها رجلاً من خيرة رجال البربر المسلمين وهو طارق بن زياد. وكان هذا العمل من جانب موسى بن نصير دليلاً على ما تحلى به من كفاءة إدارية عالية وسياسة بعيدة المدى.

وترك موسى بن نصير حامية كبيرة فى طنجة وكذا نفرا من فقهاء العرب لتعليم السكان قواعد الإسلام. ونجحت سياسة موسى بن نصير نجاحاً كبيراً وسريعاً فقد أقبل سكان طنجة والسوس الأدنى على اعتناق الإسلام والانضمام إلى الحامية الموجودة هناك حتى بلغ عدد الجند اثنى عشر ألفاً كلهم مثال للطاعة والنظام.

وبعد أن اطمأن موسى بن نصير على ولاية طنجة عاد مرة أخرى إلى القيروان ليكمل خططه فى تأمين أرجاء تلك الولاية الشاسعة التى آلت إليه.

وفى نفس الوقت استمال إليه وجوه القبائل وأعيانها وحشد فى جيشه آلافا من البربر والمسلمين وسوى بينهم وبين الجنود العرب فى كل الحقوق والامتيازات وعمل على نشر الإسلام واللغة العربية فى ربوع هذه البلاد مما أدى فى النهاية إلى استقرارها تحت مظلة الإسلام حتى وقتنا الحاضر.

وهكذا توج موسى بن نصير جهود القادة العرب السابقين جميعاً بالنجاح والنصر المبين.

مجهودات موسى بن نصير فى البحر

ولعل من أبرز الأسباب التى دفعت موسى بن نصير إلى الاهتمام بالبحر هو نشأته الأولى التى عاشها صدر شبابه أيام أن كان يعمل مع والده فى خدمة معاوية بن أبى سفيان إذ شاهد اهتمام البيت الأموى بإنشاء الأساطيل وحرص معاوية على مهاجمة الجزر القريبة من الشام والتى اتخذها الروم قواعد لهم يهددون منها سلامة الشواطئ الشامية والمصرية.

وزاد من قناعة موسى بن نصير بضرورة بناء بحرية قوية عربية لبلاد المغرب. ما شاهده من محاولات الروم المتكررة للإغارة على شواطئ شمال أفريقية وقطع خطوط الإمداد والتموين وخاصة أيام قادة الفتوح الذين سبقوه فى الميدان الأفريقى.

ولذلك فلم يغفل موسى بن نصير عن البحر لأن الروم بعد أن هزموا فى الحرب البرية فى شمال أفريقية وطردوا منها نهائياً أخذوا يستخدمون أساطيلهم فى الإغارة على شمال أفريقية ونهبها كلما سنحت لهم الفرصة. لذلك بنى داراً عظيمة للصناعة قرب أطلال قرطاجة بتونس كما أنشأ أسطولاً ضخماً لحماية الثغور. وقد بدأ موسى بن نصير يخطو بنشاطه البحرى من نصر إلى نصر فقد استطاعت أساطيله من قرطاجة بتونس صد عدوان الروم على شواطئ أفريقية. كما أرسل حملة بحرية بقيادة عبد الملك بن قطن الفهرى سنة ٨٨هـ — ٧٠٧م للاستيلاء على جزيرة «قوصرة» (بنتلاريا حاليا) جنوب

جزيرة صقلية فاستطاع الاستيلاء عليها وضمها إلى ولاية أفريقية. كما أرسل ولده عبد الله فى حملة بحرية ضخمة إلى الجزر الواقعة شرق أسبانيا فى البحر المتوسط وهى جزر البليار فاستولت عليها وكانت يومئذ من أملاك ملك أسبانيا القوطى وبصفة خاصة جزيرتى ميورقة ومينورقة. كما أرسل حملات أخرى إلى صقلية وسردينية فاستولت على ثغورها فى غارات مفاجئة ثم انسحبت منها بعد الفوز بالغنائم. وهكذا بسط موسى بن نصير سلطانه على شمال أفريقية كله فى البر والبحر وأدى ذلك إلى أن يتطلع ببصره إلى ما وراء الشمال الأفريقى كله أى إلى أوروبا والأندلس بصفة خاصة.

ولم يبق من ثغور البحر المتوسط بعد افتتاح طنجة سوى ثغر ميناء سبتة وكانت يومئذ من أملاك أسبانيا ويحكمها أمير من القوط يدعى الكونت «جوليان» أو «يوليان». وقد استطاعت سبتة بفضل مناعتها الطبيعية ويقظة حاكمها أن ترد هجمات العرب.

وفى هذه الفترة توفى عبد العزيز بن مروان سنة ٨٥هـ - ٧٠٥م ولم يمتد به العمر ليشاهد حسن اختياره لموسى بن نصير لتولى القيادة العليا فى الميدان الأفريقى. وفى العام التالى توفى أيضا الخليفة عبد الملك بن مروان فى دمشق. ولكن مركز موسى بن نصير لم يتأثر لأن الخليفة الجديد الوليد بن عبد الملك سار على نهج عمه عبد العزيز بن مروان فى تقديم كل المساعدات لموسى بن نصير لإتمام رسالته فى الميدان الأفريقى.

مقدمة الاهتمام بالأندلس

كانت مملكة القوط فى الضفة الأخرى من البحر (المضيق) وهى أقرب الممالك إليه ولكنها كانت قد هرمت وأصابها الوهن فى تلك الفترة كما كانت فريسة للاضطرابات وتمزقها الفوضى والخلافات الداخلية والصراع على العرش.

وكان على عرش القوط يومئذ ملك شديد البأس والعزم وهو «رودريك» أو لذريق كما تسميه الرواية العربية ولم يكن «رودريك» ملكاً شرعياً ولكنه استطاع أن ينتزع العرش من صاحبه الشرعى الملك «وتيزا» أو «غيطشه» عقب ثورة دبرها بمؤازرة رجال الدين والأشراف الناقمين.

موقف الكونت «يوليان»

كان يوليان من أنصار الحكم القديم فى أسبانيا ومن خصوم الحكم الجديد (أى حكم رودريك» ويخشى على نفسه وسلطانه منه ولكنه كان فى نفس الوقت غنياً شديد البأس وافر الأتباع والجند بعيداً عن سلطة العرش ويقبض على مفتاح أسبانياً فى الجنوب

بسيطرته على سبته والمضيق لذلك كله تفاهم مع أبناء الملك السابق «ويتزا» وباقى الزعماء والخوارج واستقر الرأى على الاستعانة بالعرب - جيران الكونت «يوليان» - وهذا هو التعليل التاريخى للتحالف الذى عقد بين «يوليان» وبين «موسى بن نصير» وانتهى بفتح العرب لأسبانيا.

ولكن هناك تعليلاً آخر تقدمه لنا الرواية الإسلامية بنوع خاص إذ تقول أن «يوليان» كان يعمل بدافع الانتقام الشخصى من الملك رودريك. إذ أن يوليان كانت له ابنة رائعة الجمال تدعى «فلورندا» فأرسلها إلى بلاط طليطلة جرياً على تقاليد العصر لتتلقى ما يليق بها من التربية بين كرائم العقائل والفرسان. فاستهوى جمالها قلب «رودريك» فاغتصبها، وعلم الكونت «يوليان» بذلك فاستقدم ابنته وأقسم على الانتقام من «رودريك».

الرواية النصرانية تتردد فى قبول هذه الرواية الإسلامية بينما تنفيها الرواية الأسبانية تماماً وتعتبرها أسطورة خيالية ولعل ذلك راجع إلى رفض الاعتراف بخيانة نفر من زعماء أسبانيا لوطنهم.

وعلى أية حال فقد اتصل الكونت يوليان بموسى بن نصير ودعاه إلى فتح أسبانيا وحدثت مفاوضات بينهما حول هذا المشروع الخطير.

والظاهر أن يوليان وحلفاءه لم يقصدوا بهذه الدعوة أن يفتح العرب أسبانيا لأنفسهم ويستأثروا بملكيتها بل كان غرضهم على الأرجح أن يستعينوا بالعرب فى محاربة «رودريك» المغتصب وإسقاطه واستخلاص الملك لأنفسهم. والظاهر أيضاً أن موسى وعدهم من جانبه أنه لا يقصد سوى مجد الفتح والحصول على الغنائم وأنه لا ينوى إنشاء دولة مسلمة وراء البحر، وهذا الاتجاه يؤيده منطق الحوادث وتشير إليه الرواية العربية.

موسى يستأذن الخليفة

وقف موسى بن نصير من «يوليان» وحلفائه على ما تعانيه أسبانيا من أسباب التفرق والضعف وأيقن أنه يستطيع الاعتماد عليهم كما سبق أن وقف على أحوال أسبانيا وخصبها وغنائها واستطاع أن يقدر أهمية فتحها وعظيم مزاياها. وعندئذ كتب إلى الخليفة «الوليد بن عبد الملك» يخبره بالأمر ويستأذنه فى الفتح فكتب إليه الوليد أن يختبره بالسرايا أولاً، فنزل موسى على نصيحة الخليفة وقام بإرسال «سرية طريف».

فقد جهز موسى خمسمائة مقاتل بينهم مائة فارس بقيادة ضابط من البربر يدعى

«طريف بن مالك بن زرعة» فعبروا البحر من سبتة فى أربع سفن قدمها «يوليان» إلى البقعة المقابلة التى سميت «جزيرة طريف» باسم قائد الحملة وكان ذلك فى رمضان ٩١هـ - يوليو ٧١٠م.

تقدمت الحملة خلال الجزيرة الخضراء بإرشاد يوليان وأصابت كثيراً من الغنائم واستقبلت بالإكرام والترحيب وشاهدت الحملة كثيراً من مظاهر خصب الجزيرة وغناها ثم عادت سالمة. وسر موسى بنتائج الحملة واستبشر بالفوز وجد فى الاستعداد للفتح الكبير.

موسى يرسل طارق إلى الأندلس

فى شهر رجب سنة ٩٢هـ - ابريل ٧١١م (أى بعد عشرة شهور من مهمة طريف) جهز موسى جيشاً تعداده سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثى حاكم طنجة. وقد اختلف فى أصل طارق بن زياد ونسبته فقيل هو فارسى من همذان وأنه كان مولى لموسى بن نصير وقيل أنه ينتمى إلى بطن من بطون البربر وهو الأرجح. وكان طارق جندياً عظيماً أظهر فى غزواته فى المغرب شجاعة فائقة وبراعة كبيرة مما جعل موسى يعينه حاكماً لطنجة وما حولها ثم يعينه بعد ذلك قائداً لفتح الأندلس.

عبر طارق البحر بجيشه فى سفن «يوليان» ونزل فى البقعة التى مازالت تحمل اسمه إلى اليوم (جبل طارق) وذلك فى يوم الاثنين الخامس من رجب لسنة ٩٢هـ - ٢٧ ابريل ٧١١م واخترق الجزيرة الخضراء بإرشاد من «يوليان» ثم زحف على ولاية الجزيرة واحتل قلاعها بعد أن هزم جموعا من القوط تصدت لوقفه.

بادر حكام الولايات المجاورة بإخطار بلاط طليطلة بالخطر الداهم وكان لذريق «رودريك» يشتغل يومئذ بمحاربة بعض الخارجين عليه فى الولايات الشمالية.

لذريق يستعد لملاقاة طارق

عاد لذريق مسرعاً إلى طليطلة شاعراً بفداحة الخطر الذى يهدد عرشه وبلاده وبعث قائده «أديكو» على وجه السرعة لإيقاف العدو حتى يستكمل أهبته ولكن طارق هزمه وتابع سيره شمالاً. وكانت ريح الخلاف تعصف بالشعب القوطى كله كما سبق القول كما كان أبناء الملك السابق «ويتيزا» يتربصون «برودريك» ويعملون على اسقاطه، ومع ذلك فقد استطاع رودريك أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة وحشد هؤلاء أتباعهم ورجالهم واجتمع للقوط يومئذ جيش ضخم تقدره بعض الروايات بمائة ألف واتجه «رودريك» جنوباً لملاقاة المسلمين. علم طارق بنبأ هذا الحشد الكبير

للقوط فأرسل إلى موسى يستنجد فأرسل موسى خمسة آلاف مقاتل وبذلك أصبح عدد المسلمين اثنى عشر ألف مقاتل كما انضم إليهم «يوليان» فى قوة من صحبه وأتباعه.

معركة «شذونة»[1] ونتائجها

التقى الجيشان فى الثامن والعشرين من رمضان سنة ٩٢هـ - ١٩ يوليو سنة ٧١١م فى سهل شريش على مقربة من قادس شمالى مدينة «شذونة» على ضفاف نهر «لكّه» وفرق النهر بين الجيشين لمدة ثلاثة أيام حدثت خلالها مناوشات قوية بين الطرفين، وفى اليوم الرابع التحم الجيشان ونشبت بينهما معركة حامية واستمر القتال على أشده أربعة أيام وكان الجيش القوطى رغم ضخامته مفكك العرى منحل العزائم وكانت الخيانة تفتك بصفوفه وقيادته، ولذلك فما أتى اليوم الرابع حتى كتب النصر للمسلمين وهزم القوط شر هزيمة وفر ملكهم «رودريك» إلى الشمال وبذلك كانت معركة «شذونة» من المعارك الفاصلة فى التاريخ، فقد زالت فيها دولة القوط وسادهم الرعب وسارعوا للاعتصام بالحصون والجبال وتفرقوا فى السهل. وما أن ذاعت أنباء النصر حتى عبر إلى الجيش الفاتح سيل من المجاهدين والمغامرين من العرب والبربر وزحف طارق بجيشه شمالاً نحو «طليطلة» العاصمة كما سارت حملات متفرقة إلى قرطبة بقيادة مغيث الرومى[2] وغرناطة والبيرة ومالقة ومرسية فافتتحت كلها تباعاً واستولى طارق على «طليطلة» ثم تابع الزحف شمالاً لمطاردة الفلول الهاربة منها.

ثم عاد إلى طليطلة حيث تلقى أوامر موسى بوقف الفتح وكان ذلك بعد عام واحد فقط من عبوره لأسبانيا.

موسى يأمر طارق بوقف الفتح

اختلف المؤرخون فى تعليل الأسباب والبواعث التى حملت موسى بن نصير على أن يصدر أوامره إلى طارق بوقف الفتح فقيل أن موسى لم يكن يتوقع كل هذا الفوز لمولاه طارق. فلما وقف على مبلغ فوزه وتقدمه تحول إعجابه به إلى حسد وغيرة وخشى أن ينسب ذلك الفتح العظيم إليه دونه فكتب إليه ألا يتقدم حتى يلحق به ولكن البعض يعلل غضب موسى على طارق ولحاقه به بأن طارق خالف الأوامر الصادرة إليه بألا يتجاوز قرطبة أو حيث تقع هزيمة القوط، وهذا تعليل حسن يتفق مع ما عرف عن

(١) يطلق عليها بعض المؤرخين اسم معركة وادى لكّه.

(٢) مغيث الرومى هو مولى الخليفة الوليد بن عبد الملك وقد اشترك فى فتح الأندلس وقرطبة وغيرها (نفح الطيب للمقرى). وكان يعتبر مندوب الخلافة الحربى وحلقة الاتصال بين دمشق ومقر القيادة الإسلامية فى القيروان.

موسى من الحيطة والحذر فقد خشى أن ينكب المسلمون إذا توغلوا فى مسالك مجهولة.

موسى يعبر إلى أسبانيا

وعلى كل حال فقد عبر موسى البحر إلى أسبانيا فى عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر فى سفن صنعها خصيصاً لذلك ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت «يوليان» وذلك فى رمضان سنة ٩٣هـ - يونيه ٧١٢م.

وكان جيش موسى بن نصير يتألف معظم جنده من العرب وفيهم عدد كبير من الشامية القيسية واليمنية الكلبية وأتباعهم ومواليهم. وكان فيهم عدد عظيم من التابعين وكبار العرب جعلهم موسى فى فرقة واحدة. وكان هؤلاء العرب الذين ذهبوا مع موسى هم الجماعة الكبيرة الأولى من مهاجرى العرب إلى الأندلس ويعرفون عند المؤرخين «بطالعة موسى» وستكون لهم الصدارة بين العرب والمسلمين بالأندلس زمنا طويلا وسيكون لهم أثر عظيم فى تعريب أسبانيا[١].

وفى تلك الأثناء أسرع «يوليان» إلى لقاء موسى بن نصير للتشاور فى الموقف الحربى حيث استقر الرأى على ضرورة السيطرة أولاً على المعاقل التى تركها طارق والتى باتت خطراً يهدد المسلمين. وعندئذ أرسل موسى لطارق فى طليطلة يأمره بالانتظار لحين وصول تعليمات أخرى له. كما أخذ موسى بن نصير يعد العدة للتقدم نحو أشبيلية التى كانت أكبر مدن القوط بعد العاصمة.

وبدأ موسى زحفه بالاستيلاء على مدينة «شذونة» ثم سار إلى «قرمونة» وهى يومئذ من أمنع معاقل الأندلس فاستولى عليها بمعاونة «يوليان» وأصحابه (انظر الخريطة ص ٣٠٣).

واتجه بعد ذلك إلى «أشبيلية» والتى تعتبر نقطة التقاء للطرق الهامة فى جنوب الأندلس ففتحها بعد أن حاصرها بضعة أشهر ثم سار إلى «ماردة» وكانت من كبريات بلاد أسبانيا القوطية ولجأ إليها جانب كبير من جيش لذريق المنهزم كما كانت أشد منعة من أشبيلية وحاصرها مدة طويلة وقتل تحت أسوارها الحصينة عدد كبير من المسلمين ولكنها سلمت فى أول شوال ٩٤هـ - يونيه ٧١٣م على أن تكون أموال الغائبين والكنائس غنيمة ودية لمن قتل واستشهد من المسلمين وغنم المسلمون منها غنائم كثيرة.

---

(١) حسين مؤنس - فجر الإسلام.

بعد القتال العنيف الذى خاضه موسى بن نصير حول «ماردة» رأى أن يريح جنده حوالى شهر تقريباً قبل أن يستأنف سيره نحو طليطلة لمقابلة طارق. وما كاد موسى بن نصير يغادر ماردة حتى وصلته الأنباء بأن «لذريق» ملك القوط الذى فر بعد معركة وادى لكّه بدأ ينظم فلول جيشه ويجمع أتباعه استعداداً للهجوم على المسلمين مرة أخرى. وقد اختار لذريق أن يهاجم قوات موسى بن نصير ليهدم بذلك خطط الفتوح الإسلامية فى الأندلس بضربة واحدة. وعند ناحية اسمها السواقى شن لذريق هجومه على موسى بن نصير وقواته الذين صمدوا لهذا الهجوم وأنزلوا بالقوط خسائر فادحة وقتل لذريق نفسه والذى قتله مروان بن موسى بن نصير وبذلك أصبح الطريق إلى طليطلة مفتوحاً أمام موسى بن نصير. وكان القوط قد انتهزوا فرصة تحرك طارق بن زياد لمعاونة موسى بن نصير فى صد هجوم لذريق فاستعادوا طليطلة مرة أخرى. ولكن بعد هزيمة لذريق تقدم موسى بن نصير نحو طليطلة.

موسى يتجه إلى طليطلة

تقدم موسى نحو طليطلة حيث التقى بطارق على مقربة منها عند طلبيرة على نهر تاجة وكان قد سار إلى استقباله فأنبه موسى وغضب عليه وتسلم منه القيادة وحاسبه على اندفاعه فى الفتوحات الذى كاد ينزل بالمسلمين كارثة محققة تاركاً وراءه مقاومات عنيفة وقواعد حصينة بالقوط ولكنه ما لبث أن عفا عنه ورده إلى منصبه ووضع الاثنان خطة مشتركة لفتح ما بقى من أسبانيا فزحفا سويا من طليطلة نحو الشمال الشرقى واخترقا أراضى أراجون. وفى أثناء ذلك انتفضت أشبيلية على المسلمين فسارع موسى بإرسال ابنه عبد العزيز بن موسى فأخمد الثورة واستولى على «لبله» و«باجه» و«أكشونية» وكانت أكبر مدائن الجنوب الغربى لشبه الجزيرة ومنها يتكون النصف الجنوبى للبرتغال اليوم وبذلك تكون الجيوش الإسلامية قد وصلت إلى المحيط الأطلسى من ناحية الغرب.

بعد ذلك سار طارق بقواته من طليطلة فى اتجاه سرقسطة وتمكن من الاستيلاء عليها وكانت تعتبر مفتاح منطقة وادى نهر إبرو كلها. كما سار موسى بعد ذلك إلى لارده حيث استولى عليها.

ولكن الظروف لم تمهل موسى للاسترسال فى فتوحاته إذ وصل مغيث[١] الرومى عائدا من دمشق بأمر من الخليفة الوليد بن عبد الملك بأن يذهب موسى وطارق معاً إلى

(١) يبدو أن مغيثا لم يكن بارا بموسى بما نقله إلى الوليد من أخبار عندما أرسله موسى إلى دمشق يحمل نبأ الفتوحات فى الأندلس.

دمشق ليقدما بنفسيهما بيانا عن الفتوح إلى الخليفة. ولم يرفض موسى الاستجابة لهذا الطلب ولكنه طلب إمهاله حتى يستكمل فتح الشمال الشرقى لشبه الجزيرة ثم يتجه بعد ذلك لفتح الشمال الغربى .. فسار موسى شمالا إلى مدينة «اشترقة» Astarga حيث التقى طارق وجيشه وسار الاثنان لفتح شمال غرب الأندلس فأما موسى فقد دخل مدينة «أبيط» Oviedo بعد أن عبر الجبال الكنتبرية ووصل إلى ساحل بسكاية عند خيخون.

وأما طارق فقد توجه إلى الشمال الشرقى حيث وصل إلى جبال البرتّ ولكنهما (موسى وطارق) تركا المنطقة الجبلية الواقعة فى الشمال الغربى وهى منطقة «جليقية» تلك المنطقة التى أوى إليها القوط الفارون من الزحف العربى وكان لذلك أسوأ الأثر على مستقبل الأندلس إذ استطاع القوط الزحف منها مرة أخرى نحو الأندلس المرة تلو المرة حتى استطاعوا فى النهاية استعادة الأندلس جميعه وطرد المسلمين من ربوعه نهائياً بعد صراع طويل استمر ثمانية قرون.

استراتيجية رائعة

وقد فكر القائد الجرئ بعد أن فرغ من فتح الأندلس فى أن يعبر جبال البرت (البرانس) ويخترق بجيشه جميع أوروبا غازيا حتى يصل إلى الشام عن طريق «القسطنطينية» وأن يفتح فى طريقه أمم النصرانية والفرنجية كلها وهو ما يجمله ابن خلدون فيما يأتى:—

«وجمع أن يأتى المشرق على القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام دروب الأندلس ويخوض ما بينهما من بلاد الأعاجم وأمم النصرانيه مجاهدا فيهم مستلحما لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة». وروى المؤرخ المقرى[1] «أن موسى كان يؤهل أن يخترق ما بقى عليه من بلد الفرنجة ويقتحم الأندلس فى سيرهم ومجيئهم من الشرق وإليه على البر لا يركبون بحراً».

ولم يكن ثمة ما يحول دون تنفيذ هذا المشروع الضخم آنذاك فقد كان الإسلام يومئذ فى ذروة القوة والبأس وكانت جيوشه تقتحم أرجاء العالم القديم ظاهرة منتصرة أينما حلت بينما كانت أمم الغرب يسودها انحلال شامل. وكانت مملكه الفرنجة وهى أقواها وأضخمها يمزقها الخلاف والتمزق ولم يتح للنصرانية بعد أن توحد جهودها لإيقاف جيوش المسلمين. ولم تكن أوروبا حينئذ سوى مزيج مضطرب من الأمم والقبائل المتنافرة تمزقها المطامع والأهواء ولم يكن حلماً وإغراقاً ما تصوره موسى بن

(١) جزء (١) ص ١٧٤.

نصير واعتزامه ولكن سياسه التردد والإحجام التى اتبعتها الخلافة فى دمشق نحو الفتوح الغربية والتى كادت أن تحول دون فتح أسبانيا أودت بذلك المشروع البديع. وبعث الوليد بن عبد الملك إلى موسى يحذره من التوغل بالمسلمين فى دروب مجهولة ويأمره بالعودة فارتد موسى مرغما آسفاً. ولو تم هذا المشروع الرائع لتغير وجه التاريخ تماما ولكنها مشيئه الله سبحانه وتعالى[1].

تمهل موسى فى طريق عودته حتى يتم له إخضاع معاقل «جليقية» التى اعتصمت بها فلول القوط فاخترق «جليقيه» ومعه طارق واستولى على معظم قلاعها ومعاقلها ومزق كل قوة تصدت لمقاومته ولم يبق من النصارى سوى شراذم يسيرة التفت حول زعيم يدعى «باجيوس» أو «بلايو» ولجأت إلى اقاصى جليقية حيث تركهم موسى. وبينما كان موسى يتأهب للحاق بها وسحقها إذ وصله كتاب آخر من دمشق يستدعيه هو وطارق ويأمرهما بتعجيل العودة إلى دمشق.

استدعاء موسى وطارق إلى دمشق

لعل أقوى الدوافع التى حملت الخليفة الوليد بن عبد الملك على هذا الاستدعاء ما بلغه من خلاف موسى وطارق وخشيته من أن ينتهى هذا الخلاف بتمزق كلمة المسلمين ثم نكستهم فى تلك الأقطار الجديدة التى فتحاها أو لعله خوف الوليد من أن يفكر موسى بما عرف من طمعه ودهائه فى الاستقلال بذلك الملك الجديد النائى وربما كان من البواعث أيضا ما بلغه من كثرة الأموال التى جمعت من الأندلس والخوف من أن تمتد إليها يد التبديد وربما كان من الدوافع أيضا أن فتح الأندلس أضاف اتساعا كبيراً للدولة الإسلامية التى امتدت إلى بيئات جغرافية وعناصر بشرية جديدة، الأمر الذى تطلب من الخلافة تنظيماً خاصاً وتدبيراً محكماً وخاصة أن تلك الفترة شهدت أيضا فتوحات واسعة فى الشرق فى بلاد السند وما وراء النهر على أيدى محمد بن القاسم وقتيبه بن مسلم. وفى ذلك الحين كان عبد العزيز بن موسى بن نصير قد فتح المنطقة الواقعة بين مالقه وبلنسية وأخمد الثورة في أشبيليه وفتح باجه وفتح لبله وغيرها من المعاقل والحصون وأبدى فى معاملة البلاد المفتوحة كثيرا من الرفق والتسامح.

(١) بعض المؤرخين مثل الدكتور حسين مؤنس يستبعد أن يكون موسى قد فكر فى أمر خيالى عسير كهذا بينما يرى البعض مثل الدكتور العبادى أن موسى بن نصير قد فكر فى هذا المشروع الكبير.

سياسة موسى بن نصير والاستعداد للعودة

أخذ موسى يستعد للعودة إلى دمشق نزولاً على أوامر الخليفة فنظم حكومة الأندلس وجعل عاصمتها أشبيلية لإتصالها بالبحر (كانت حاضرتها أيام الرومان) واختار لولايتها ولده عبد العزيز واستخلف على المغرب الأقصى ولده عبد الملك وعلى أفريقية (تونس والجزائر) ولده الأكبر عبد الله. ولقد اتبع موسى بن نصير سياسة حكيمة فى أسبانيا مما جعل هذه البلاد تدخل عهداً جديداً تماماً حمل لها الكثير من التطورات الاجتماعية والسياسية والثقافية. فالمعروف أن أسبانيا قبل الفتح الإسلامى كانت تعانى من جور القوط وظلمهم والضرائب الفادحة المفروضة على الناس فضلاً عن الذل والعبودية. أما الإسلام فقد حمل إليهم العدل والحرية والمساواة وخاصة فى الضرائب هذا إلى احترام حرية العقيدة وإزالة الاضطهاد الدينى وتحطمت سلطة الأشراف والطبقات الممتازة. وفى أقل من أربعة عشر شهراً قضى على مملكة القوط قضاء تاماً.

وفى عامين فقط توطدت سلطة المسلمين فيما بين البحر المتوسط وجبال ألبرت.

هذا وقد امتاز موسى بن نصير على أقرانه من قادة الفتوح العربية فى الجهات الأخرى بأنه استطاع تثبيت أقدام هذا الدين الجديد فى بيئة جديدة تماماً هى بيئة غرب أوروبا التى لم يكن العرب يعرفون عنها شيئا حين نزلت الدعوة الإسلامية. كما استطاع موسى بن نصير أن يجعل امتداد الإسلام إلى أسبانيا جزءا من حركة الامتداد الدينى الفكرى التى بعثها الإسلام فى العالم القديم. كما حرص موسى بن نصير أن يوضح للشعب الأسبانى أن المعركة منذ أيامها الأولى كانت ضد القوط وليست ضد الشعب الآمن، كما عمد موسى إلى تنظيم الأحوال المالية للبلاد فطبق عليها القواعد التى اتبعها العرب الفاتحون فى شتى البلاد التى استولوا عليها.

وبذلك ساد الاستقرار سريعاً فى بلاد أسبانيا حيثما سار موسى بن نصير وبدأ العرب والبربر ينتشرون فى بلاد أسبانيا فى شتى الجهات فى أمن وسلام. واستطاع كل من العرب والبربر الامتزاج بأهالى البلاد الأصليين وارتبطوا معهم برباط الزواج. وكان للبربر أثر عظيم فى انتشار الإسلام بالأندلس بسبب قرب مزاجهم وطباعهم من أولئك السكان. وحرص موسى بن نصير على ترك حاميات من جيشه فى المدن التى فتحها الأمر الذى ساعد على سرعة ويسر اعتناق الدين الإسلامى الحنيف.

مواكب النصر

أفاضت الرواية الإسلامية فى وصف ما أصابه المسلمون فى الأندلس من الغنائم

الضخمة وتقول أن موسى حمل إلى دمشق من التحف والذخائر من الذهب والدر والياقوت والزبرجد ما لا يقدر بمال أما السبايا فيقال أنه حمل منهم ثلاثين ألفا بينهم مئات من أشراف القوم ومن أجمل شبابهم ذكورا[1] وإناثا.

لقد أعادت فتوحات موسى بن نصير فى الأندلس وما حصل عليه من مغانم هناك ذكرى تلك الأيام الأولى للفتوح الإسلامية فى بلاد فارس إذ وجد الفاتحون المسلمون فى كل مدن الأندلس من مظاهر الغنى والترف ما أدهش العقول وغطت روعتها أنباء المغانم المعاصرة لها فى المشرق. وترجع كثرة المغانم إلى وفرة الثراء الذى تجمع لمدن القوط وخاصة فى العاصمة طليطلة فمن ذلك مائة وسبعون تاجاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر وأصناف الحجارة الكريمة ووجدوا فيها من الدر والياقوت أكيالاً ومن أوانى الذهب والفضة ما لا يحيط به وصف. هذا بالإضافة إلى «مائدة سليمان» المصنوعة من الذهب الخالص ومرصعة بفاخر الدر والياقوت والزبرجد والتى كانت كنزا فاقت كل الكنوز التى وجدها الفاتحون فى الأندلس.

وأخذ موسى بن نصير يعد موكب النصر وهو فى طريق العودة إلى الشام فى أواخر سنة ٩٥هـ - منتصف صيف ٧١٤م بعد أن انتهى هو وطارق بن زياد من السيطرة على الجهات الجبلية الشمالية من أسبانيا.

وحرص موسى ابن نصير على أن يجعل موكبه أفخم وأبهى موكب عرفه التاريخ الإسلامى فضم إليه أبناء الملوك من الإفرنج بالتيجان والمائدة الذهبية والآنية من الذهب والفضة وما لا يحصى من الجواهر والطرائف. وسار موسى بن نصير فى هذا الموكب الرائع عائداً من شمال أسبانيا فمر بطليطلة دون أن يبقى فيها طويلاً ثم دخل قرطبة ولقى فيها كبار رجال القوات الإسلامية ونظم أحوالها. ثم سار منها إلى أشبيلية. وهناك جعل ابنه عبد العزيز والياً على البلاد قبل أن يبحر من هذا الميناء إمعاناً منه فى ضبط إدارة أسبانيا.

وأخيراً أبحر موسى بن نصير من أشبيلية فى ذى الحجة سنة ٩٥هـ مكللاً بأكاليل المجد والفخار بعد جهد متصل دام أربع سنوات تقريباً لتحقيق أكبر الفتوحات الإسلامية فى أوروبا والغرب. وعبر البحر إلى أفريقية ومعه طارق بن زياد.

---

(١) نفح الطيب للمقرى جـ ١ ص ١٣٠، ١٣٥، ١٣٦ ولو أن بعض المؤرخين يقولون أنه من المستحيل أن يصحب معه كل هذا العدد ولعلهم كانوا ثلاثين فقط من كبار الأمراء والحكام إلى جانب نفر من أشراف البلاد التى دخلها فى المغرب.

ولم ينس موسى بن نصير وهو فى وسط زهو النصر تنظيم شئون المغرب كذلك فعين ابنه «عبد الله» على أفريقية وطنجة والسوس حتى تكون الإدارة فيها وفى الأندلس على قدر كبير من التفاهم والتعاون.

وفى القيروان ضم موسى بن نصير إليه مائة رجل من أشرف الناس من قريش والأنصار وسائر العرب الذين أسهموا فى فتح المغرب منهم عياض بن عقبه بن نافع وعبد الجبار بن أبى سلمة بن عبد الرحمن بن عوف. كما اصطحب أيضا نفراً من كبار رجال الدولة منهم بنو كسيله وملك السوس وملك قلعة أرسوف فضلاً عن هدايا من خيرات كل بلد من البلاد التى فتحها.

وعندما اقترب موكب النصر من دمشق وصل إلى موسى بن نصير رسالتان كان لهما أكبر الأثر فى ختام حياته فيما بعد. الرسالة الأولى كانت من ولى العهد سليمان بن عبد الملك يطلب فيها من موسى بن نصير أن يبطئ فى الحضور إلى دمشق لأن الخليفة الوليد بن عبد الله الملك كان مريضاً مرض الموت وبذلك يحظى سليمان عندما يعتلى العرش باستقبال أعظم موكب للنصر عرفه الإسلام ولكن موسى رفض الاستجابة لهذا الطلب. أما الرسالة الثانية فكانت من عند الخليفة الوليد بن عبد الملك يأمره بالإسراع بالحضور إلى دمشق حتى يشاهد موكب النصر قبل أن يلحق بربه.

دخل موكب النصر دمشق فى ١٦ يناير سنة ٧١٥م أى قبل وفاة الخليفة بأربعين يوماً. وتحدد يوم الجمعة لاستقبال الخليفة لهذا الموكب فى المسجد. وهنا جعل موسى بن نصير يعد العدة لأضخم وأعظم وأجمل استعراض فى تاريخ الإسلام. فقد ألبس رجال القوط التيجان كما جعلهم يلبسون ثياب الملك كما جعل رجال البربر يلبسون ملابسهم الوطنية الجميلة كما أمر أبناء ملوك ميورقة ومينورقة بأن يلبسوا التيجان وأبهى الثياب وارتدى أشراف العرب ثيابهم العربية الجميلة.

ولما رأى الخليفة هذا الموكب استولت عليه الدهشة والعجب الشديد وأقبل موسى حتى سلم على الخليفة والناس يصيحون (موسى - موسى).

وبانتهاء يوم الاستقبال اختتم موسى بن نصير حياته العامة ذلك أن الوليد بن عبد الملك توفى بعد ذلك بأربعين يوماً وخلفه سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦هـ - ٧١٥م. وأول ما فعله الخليفة الجديد هو إعفاء موسى بن نصير من العودة إلى الأندلس مرة أخرى وكان عمره حينئذ يناهز الثمانين عاماً.

مصير موسى بن نصير

اختلفت الرواية العربية فى مصير موسى بن نصير وفى أمر لقائه بالخليفة إلا أنها تكاد تجمع على أن سليمان بن عبد الملك سخط على موسى بن نصير ونكبة، ذلك أن موسى وصل إلى الشام والوليد فى مرض موته فكتب إليه سليمان ولى العهد يومئذ أن يتمهل فى السير حتى يموت الوليد فيقدم عليه فى صدر خلافته بما يحمل من جليل التحف والغنائم فأبى موسى وجدٍّ فى السير ولكن الوليد توفى بعد ذلك بقليل مستخلفاً سليمان على كرسى الخلافة فغضب سليمان على موسى كما زاد فى غضبه ما قدمه طارق بن زياد ومغيث الرومى فى حقه من مختلف التهم.

وفى الحال أمر بعزله واتهمه وأبناءه بإختلاس أموال عظيمة وقضى عليه بردها وبالغ فى إهانته وتعذيبه ثم ألقاه فى السجن. ولكن سليمان بن عبد الملك عفا عن موسى بعد ذلك وأقاله من محنته وتوفى موسى بعد ذلك بقليل فى سنة ٩٧هـ وقيل فى سنة ٩٩هـ وهو فى نحو الثمانين من عمره. ومهما كان من الأمر فإن فاتح الأندلس لم يلق ما كان يليق به من تكريم كفاتح عظيم بل غمط حقه وعومل أسوأ معاملة ولم يقدر الخليفة سليمان بن عبد الملك ورجاله موسى بن نصير كأعظم رجال الحرب والإدارة للمسلمين فى القرن الأول للهجرة كما لم يقدر عظمة الفتح الباهر الذى غنمته الدولة الإسلامية على يد رجلها وقائدها العظيم. وإلى موسى بن نصير يرجع الفضل فى تثبيت دعائم الإسلام بين البربر نهائيا وإخضاع الشمال الأفريقى جميعه ونشر الإسلام فى ربوعه حتى اليوم وإقبال البربر على الجهاد فى سبيل نشر الدين الإسلامى وتطوعهم للعبور إلى الأندلس تحت رايته. كما يرجع إليه الفضل فى عبور الإسلام إلى أوروبا من الغرب وقيام دولة إسلامية عظمى لمدة سبعة قرون فيها بعد أن أخفق المسلمون فى العبور إلى أوروبا من القسطنطينية فى المشرق.

عبد العزيز بن موسى بن نصير

بدأ عبد العزيز بن موسى يكمل فتوح أبيه فبدأ فى عهده بإخضاع جنوب شرق الجزيرة ففتح مالقة وغرناطة وإقليم مرسيه. كما اهتم عبد العزيز بتنظيم الحكومة العربية الإسلامية فى أسبانيا حتى يرتاح الجميع إليها. وألف مجلسا خاصا لاستنباط الأحكام الشرعية التى تتفق وحالة السكان كما اهتم بالزراعة والطرق ورفع عن الأسبان مظالم القوط وخفف الضرائب وساوى فيها بين طبقات الأمة من غير تمييز فى الدين والجنس

كذلك أمّن جميع الأهالى على دينهم وأموالهم وأنفسهم وحريتهم. وقد أنفق عبد العزيز ابن موسى معظم أيام ولايته فى استكمال فتح شبه الجزيرة، لأن الفاتحين الكبيرين قضيا على دولة القوط ووصلا إلى الحدود فى كل ناحية، غير أنه بقيت بعد ذلك أجزاء كاملة من شبه الجزيرة فى شرقها وغربها دون فتح وكان لابد من استكمال فتحها وقد قام بهذه المهمة عبد العزيز بن موسى، لذلك فهو يعتبر ثالث فاتحى الأندلس. وكان قد استولى على إقليم قطالونيا ودخل المسلمون برشلونة وطركونة وجرندة المعروفة باسم خيرونا، وبذلك كان شبه الجزيرة كلها فى قبضة المسلمين عند نهاية إمارة عبد العزيز ابن موسى سنة ٩٧هـ - ٧١٦م.

خاتمة

هكذا رأينا هذين الفاتحين العظيمين موسى بن نصير وطارق بن زياد يأخذان فى طريق العودة إلى الشرق فى ذى القعدة سنة ٩٥هـ - سبتمبر عام ٧١٤م بعد أن قاما بما يمكن اعتباره معجزة من معجزات الفتوح العربية ففى فترة ثلاث سنوات من الجهد المتصل والحركة الدائمة استطاع هذان الرجلان مع حفنة من المسلمين ما بين عرب وبربر لا تزيد على ٣٠٫٠٠٠ مقاتل أن يفتحوا قطراً أوروبيا واسعا يعتبر من أصعب الأقطار الأوروبية من الناحية الجغرافية والطبيعية، وقد قام المسلمون بهذا الفتح بشجاعة تعتبر مضرب الأمثال وساروا على خطة عسكرية وسياسية واضحة تدل على خبره جيده بمسائل الحروب وفتوح البلدان. وقاد موسى وطارق رجالهما بحزم ونظام وبعد نظر تذكرنا بقيادة خالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص وأبى عبيدة بن الجراح أبطال الفتوحات الإسلامية الأوائل.

جزاهما الله خير الجزاء على ما قاما به من جهاد فى سبيل الله وفى سبيل الإسلام والمسلمين.

الفصل الحادى عشر

عبد الرحمن الغافقى
وفتوح المسلمين فى غالة (فرنسا)

مثوى عبد الرحمن

فى جنوب مدينة «تور» الفرنسية من نهر اللوار الجميل قرب شمال فرنسا الذى تنساب مياهه وسط المروج الخضراء ثم تتدفق في المحيط الأطلسى – يرقد فى قبر صغير متواضع أمير عربى مسلم من أعظم أمراء الأندلس وبطل من أشجع أبطال العرب وقائد من أمهر قوادهم هو «عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى» ويقع هذا القبر الصغير المتواضع فى سهل مشهور قرب شمال فرنسا كان يسمى (بلاط الشهداء) لكثرة من استشهد فيه من أبطال العرب.

أما الآن فتكثر فيه حقول القمح وحدائق الكروم الجميلة.

وعبد الرحمن الغافقى عربى يمنى ينتسب إلى قبيلة عدنان.

فتح الأندلس وأثره

بعد أن تم فتح الأندلس فى عام ٩٨هـ على يد القائدين الكبيرين «طارق بن زياد» و«موسى بن نصير» فى أيام خلافة الوليد بن عبد الملك من خلفاء الدولة الأموية – هاجر إليها الكثير من القبائل العربية والبربرية كى يعيشوا فيها. فقد كانت جنة فيحاء كثيرة الأنهار والأشجار والزروع والثمار، لذلك أقبلت هذه القبائل إليها وطابت لها الحياة فيها وصفت أحوالها.

ثم لم تمض فترة قصيرة حتى بدأ العرب يعمرون هذه البلاد ويشيدون فيها المساجد والمدارس والمدن العظيمة وينشرون الإسلام والعلوم العربية فى ربوعها.

ولكن بقيت فرنسا تغرى القادة العرب في الأندلس الذين جاءوا بعد موسى بن نصير بالزحف إليها وخاصة أن الأحوال فى فرنسا نفسها كانت تشجع على ذلك، فكانت تعيش فيها أجناس مختلفة ليس بينهم اتفاق فى أى ناحية من النواحى فانتشرت

الاضطرابات وانعدم الإصلاح وحدث صراع كبير بين الفرنج والجرمان كل منهما يريد أن يكون صاحب السلطة العليا فى البلاد.

الأحوال فى غالة (فرنسا)

كانت بلاد غالة (فرنسا) مقسمة فى هذا الوقت إلى أربع وحدات سياسية هى:-

١- مملكة الفرنجة الميروفنجيين وتشمل معظم البلاد فى الشمال وعاصمتها باريس.

٢- ودوقية: أقطانيا (أكوتين Aquitania) وعاصمتها «بردو» أو بردال Bordeau وتشمل حوض نهر الجارون فى الغرب وما يليه جنوبا من بلاد غسقونية Gascogne وكانت مستقلة عن سلطان الميروفنجيين من الشمال وكان يحكمها دوق يدعى «أودون».

٣- مملكة برغاندية La Burgogne وتشمل حوض نهر الرون وعاصمتها لودون (ليون).

٤- إقليم سبتمانيا فى الجنوب وكان هذا الإقليم تابعاً لملوك القوط فى أسبانيا وعاصمته أربونه Narbonne.

وكان عبد العزيز بن موسى بن نصير قبل نهاية ولايته قد استولى على إقليم قطالونيا فى الأندلس الشمالى ودخل المسلمون برشلونة وطركونة وجرندة المعروفة باسم خيرونا، وبذلك كان شبه الجزيرة كله تحت سلطان المسلمين عند نهاية إمارة عبد العزيز بن موسى فى سنة ٩٧هـ - ٧١٥م.

ولما تولى أمر الأندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفى خلفا لعبد العزيز بن موسى تقدم فدخل أربونة عاصمة سبتمانيا وقام بعديد من الغارات القصيرة التى فتحت أبواب جنوب فرنسا للمسلمين.

السمح بن مالك

كان السمح بن مالك أول من قاد حركة الفتح الإسلامى فى غالة بصورة جدية. وقد ولاه عمر بن عبد العزيز على الأندلس سنة ١٠٠هـ - ٧١٩م.

وكان رجلا عظيم الإيمان والحماس للجهاد فى سبيل نشر الدعوة الإسلامية، وقد شجعه على ذلك ما قام به الحر بن عبد الرحمن من احتلال بعض المدن الهامة مثل «أربونة» فى ولاية سبتمانيا فى جنوب فرنسا بعد عبور جبال البرت.

تقدم جند السمح بن مالك من «أربونة» إلى «طولوشة» (تولوز) وحاصرها بقوات كبيرة وكانت أولى المدن الكبيرة فى دوقية أكيتانيا (أقطانية) فأسرع الدوق «أودون» وجمع جيشاً كبيرا وتقدم نحو المسلمين فدارت معركة عنيفة بين الجانبين وقد صبر المسلمون فيها صبرا كريما واستشهد منهم عدد كبير وعلى رأسهم السمح بن مالك نفسه وكان[1] ذلك فى يوم عرفة سنة ١٠٢هـ ٢١ يونيه سنة ٧٢٠م. وقد استطاع مساعده عبد الرحمن الغافقى العودة بفلول الجيش إلى أربونه.

عبد الرحمن الغافقى يتولى القيادة للمرة الأولى

لقد أظهر القائد الجديد البطل شجاعة نادرة فى التراجع بجنود المسلمين والمحافظة على أرواحهم بعد أن تبين له أن البقاء فى المعركة هو بمثابة انتحار لجنود المسلمين. وبعد أن أعاد تنظيم قواته فى جنوب فرنسا عاد هو إلى الأندلس ليستقبله المسلمون استقبال الظافرين ثم تتفق كلمتهم على اختياره واليا على البلاد بعد السمح بن مالك. وأخذ عبد الرحمن الغافقى يصرف شئون البلاد ويقضى حوائج المسلمين وكان محبوباً لعدله وتمسكه بالمساواة بين جميع القبائل سواء عربية أم بربرية.

عنبسة بن سحيم

وفى سنة ١٠٥هـ - ٧٢٣م ولى عنبسة بن سحيم أمور الأندلس. وكان عنبسة من طراز كبار الفاتحين. وقد نهض للفتح من عام ١٠٦هـ بعد أن قضى الفترة الأولى من ولايته فى تنظيم أمور الأندلس وإنشاء جيش قوى قادر على مواصلة الفتوح فى غالة. فبدأ بترتيب أمر حاميتى برشلونة وأربونة ثم سار إلى قرقشونة Carcasonne[2] وعقد حلفا مع أهل الناحية ثم اتجه إلى نهر الرون (رودانة) فى الشرق وسار على ضفته شمالا حتى وصل إلى مدينة أوتان Autun فاحتلها وكانت إذ ذاك أعظم مدن «برغندية» وعقد مع أهلها حلفا. ثم واصل تقدمه شمالا حتى وصل إلى مدينة ليون «لودون» فاحتلها ثم استمر فى تقدمه شمالا حتى وصل إلى «شالون وماكون» فاحتلهما.

وهناك قسم قواته إلى فرقتين أحدهما احتلت ديجون والأخرى صعدت مع نهر الساؤن شمالاً - أحد نهيرات اللوار الذى يلتقى بنهر الرون (رودانة) عند مدينة ليون (لودون) - حتى وصلت إلى مدينة «صانص» على بعد ٧٠ كيلو مترا[3] فقط من

---

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس.
(٢) انظر الصورة المرفقة لمدينة قرقشونه فى الوقت الحاضر وحصونها وأسوارها القديمة.
(٣) معالم تاريخ المغرب والأندلس للدكتور حسين مؤنس.

باريس فاحتلها وكانت هذه أبعد نقطة وصل إليها المسلمون شمالاً. وهى تبعد حوالى ٨٠٠ كيلو متر شمال جبال ألبرت.

وإن وصول العرب فاتحين إلى ذلك المدى البعيد لدليل قاطع على ما امتازوا به من شجاعة وقوة إيمان تصنع المستحيلات. ولا يقلل من هذا الفضل أنهم لم يستطيعوا البقاء عند ذلك الحد لأن عنبسة كان يوغل فى قلب أوروبا الغربية نفسها وكان الفرنجة أصحاب هذه المنطقة يمرون بفترة نهوض سياسى تولاه آل «كارل - شارل مارتل» الذين عرفوا بالكارولنجيين[1].

لذلك أخذ عنبسة مع رجاله طريق العودة إلى الأندلس سنة ١٠٧هـ - ٧٢٦م محملين بالغنائم بعد أن اجتاحوا حوض نهر الرون كله وتخطوا اللوار ووصلوا إلى السين. ولا نستطيع القول بأن عنبسة فتح جنوبى غالة أو حوض الرون لأنه فى الواقع لم يفعل شيئاً لتثبيت أقدام المسلمين فيما وصلوا إليه من البلاد. ولكن على كل حال كان الفاتح المسلم الوحيد الذى وصل إلى هذا المدى فى فتوحاته فى فرنسا. وربما جاز تشبيه حملة عنبسة بحملة عقبة بن نافع الكبرى مع اختلاف الظروف طبعا.

ولقد أثارت حملة عنبسة مخاوف أوروبا الغربية كلها فقد اقتحمها العرب أقتحاماً وأوغلوا فى بلادها دون أن يستطيع أحد مقاومتهم لذلك أخذ شارل مارتل أو كارل القائم بأمر مملكة الفرنجة يستعد للقاء حاسم ضد المسلمين وأخذ يجمع القوات والسلاح وصالح أمراء برغندية واتفق مع رجال سبتمانية ومع الدوق «أوذو» ليقوموا بالعمل معا ضد المسلمين.

وقد استشهد عنبسة فى طريق عودته عندما دهمتهم قوات نصرانية كبيرة فى خوانق جبال ألبرت فى شعبان سنة ١٠٧هـ ديسمبر ٧٢٥م - وتولى قيادة الجند وولاية الأندلس من بعده عذرة بن عبد الله الفهرى الذى حكم حتى ربيع الأول سنة ١١٠هـ/يونيو-يوليو ٧٢٨م.

عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى يتولى الحكم

تولى عبد الرحمن الغافقى حكم الأندلس للمرة الثانية بعد بضع سنوات فى عام ١١٢هـ- ٧٣٠م. وقد وافق الخليفة هشام بن عبد الملك على تعيينه بعد أن تبين له أنه قائد بارع ويحسن تصريف الأمور. وكان عبد الرحمن الغافقى يتمتع بثقة القبائل

(١) كانت الدولة الميروفنجية ملكية فى نظامها وكان يحكمها ملوك ضعاف. أما السلطة الحقيقية فكانت فى يد رئيس القصر وهو شارل مارتل.

وحب الجنود له فبدأ فى اصلاح الأحوال فى البلاد وإزالة أسباب الخلاف بين القبائل كما عنى بتنظيم الحكم واسند الوظائف إلى الأكفاء من الرجال المعروفين بالاستقامة والنزاهة والعدل فأخذت البلاد تتمتع بالاستقرار والازدهار والأمن. عند ذلك بدأ عبد الرحمن في إعداد الجيش واختار أمهر القواد لقيادة الفرق المختلفة استعداداً للعودة إلى فرنسا مرة أخرى لاستعادة أملاك المسلمين فيها والتوسع فى احتلالها حتى ترتفع فى أرجائها راية التوحيد.

عبد الرحمن يتخلص من زعماء الفتنة والخيانة

قبل أن يقوم عبد الرحمن الغافقى بغزو فرنسا رأى أن يخلص الأندلس من كل من يفكر في إحداث الاضطرابات وتفريق وحدة المسلمين وكان أحد زعماء البربر - عثمان بن أبى نسعة قد اتخذه البربر زعيما لهم وكانوا يعملون سراً على توليته لأنهم كانوا يعتقدون أنهم أصحاب الفضل الأول فى فتح بلاد الأندلس ونشر الإسلام فيها ولذلك اشتد حقدهم على العرب الذين جاءوا إلى الأندلس وأقاموا فيها وأصبح منهم الحكام والقواد. ولذلك فإن عثمان بن نسعة انشق على المسلمين واتصل بأحد حكام الفرنجة في فرنسا سراً وتحالف معه وتزوج ابنته وهو دوق (ادون) حاكم إمارة اكوتين ليستعين به على العرب. لذلك سارع عبد الرحمن الغافقى بإرسال جيش قوى لتأديب هذا الزعيم البربرى والتقت قوات الطرفين عند «الباب» وهى على منحدرات جبال البرت بمقاطعة سبتمانيا فهزم عثمان وقواته وقبض عليه وقتل.

عبد الرحمن الغافقى يغزو جنوب فرنسا

خرج عبد الرحمن بحملته الكبيرة فى أوائل سنة ١١٤هـ ربيع سنة ٧٣٢م وكان معه سبعون ألف جندى تقريباً أغلبهم من البربر. وتقدم نحو ممرات رونشفالة فى جبال البرت ولم يسلك الطريق القديم التقليدى الذى يمر بسبتمانية وحوض الرون. وعبرها عبد الرحمن الغافقى دون أن يكسب صداقة الدوق أو حتى يعمل على إيقافه على الحياد بل هاجم بلاده بكل قوة واستولى على طولوشة مرة أخرى فاضطر «أدولن» إلى طلب العون من رجال الفرنجة.

اتجه عبد الرحمن بعد ذلك نحو الشرق إلى حوض الرون فقضى على ثورة قامت فى مدينة «أرل» وعاد بعد ذلك مرة أخرى نحو الغرب قاصداً بردو - بردال[1] عاصمة مقاطعة (اكوتين) فتصدى له الدوق فهزمه عبد الرحمن هزيمة ساحقة ثم دخل «بردو»

(١) مدينة بردو كان العرب يطلقون عليها اسم «بردال» وكانت مشهورة بصنع نوع من السيوف الجيدة تسمى بالبردليات.

بردال واحتلها. وأسرع الدوق أودون نحو شارل مارتل ليستنجد به واستمر عبد الرحمن فى تقدمه شمالا حتى وصل إلى «بواتييه» فاحتلها بعد صراع عنيف ثم شرع يستعد للسير شمالا نحو باريس، عند ذلك وجد شارل مارتل أو «كارلة» كما تسميه بعض المراجع العربية أن تقدم عبد الرحمن الغافقى أصبح يهدد كيان الفرنجة فى الشمال تهديداً خطيراً. كما دب الرعب والفزع فى نفوسهم لأن التقدم نحو هذه المنطقة سيفتح الباب أمام المسلمين على مصراعيه نحو بلاد الشمال، ولذلك أخذ الفرنجة ينبذون خلافاتهم ويتحدون مع بعضهم البعض للوقوف فى وجه المسلمين. كما قام رجال الدين المسيحى بحث الجنود على الوقوف فى وجه المسلمين واتفق الفرنجة على أن يتولى «شارل مارتل» قيادة التحالف المسيحى الفرنجى للوقوف فى وجه المسلمين. وكان «شارل مارتل» من أشد أعداء المسلمين وأكثرهم تعصباً ضدهم. وتولى بذلك قيادة قوات القوط والفرنجة والجرمان الذين نبذوا خلافاتهم واقتتالهم لكى يصدوا الزحف الإسلامى.

معركة بلاط الشهداء

كان عبد الرحمن الغافقى يعلم كثيراً عن الاستعدادات التى يقوم بها «شارل مارتل» لذلك سارع بتحقيق بعض الانتصارات فى سهل نهر اللوار قبل أن يتم استعداد اعدائه. وبعد ذلك بدأت طلائع الفرنجة بقيادة «شارل مارتل» تقترب من مدينة بواتييه التى كان المسلمون يحتلونها، وكانت قوات عبد الرحمن الغافقى مكونة من العرب والبربر وعددها أقل بكثير من عدد جيش شارل مارتل. كان الجيش الإسلامى كبيراً ولكن ليس بالضخامة التى يصفه بها المؤرخون النصارى وينبغى قبل أن ندخل فى تفاصيل المعركة أن نذكر بعض العوامل التى كانت تحيط بالجيش الإسلامى.

فأولا: وقبل كل شئ كان الجيش قد بعد جداً عن بلاد الإسلام رغم شجاعته وارتفاع روحه المعنوية وأصبح على بعد حوالى ٤٠٠كم من جبال البرت، وجبال البرت تبعد حوالى ٩٠٠ كم عن العاصمة فى «قرطبة» وهذه مسافات طويلة جداً تجعل امداد الجيش بالرجال والمؤن والأسلحة أمراً عسيراً. ولو أرسل عبد الرحمن الغافقى رسالة استنجاد إلى «قرطبة» فإن حاملها لا يصل فى أقل من شهر ونصف أو شهرين فى حين كان «كارل» يحارب فى بلاده بين أهله وعشيرته.

ثانيا: كانت الغالبية العظمى من جنود المسلمين من البربر ولم تكن العلاقات بينهم وبين العرب - أهل القيادة - على ما ينبغى فى هذه الظروف كما أن عبد الرحمن الغافقى لم يكن لديه من السياسة وبعد النظر والحنكة ما يمكنه من إزالة أسباب الخلاف فى الجيش ليتمكن من السيطرة الكاملة على قواته.

ثالثا: كان الوقت خريفا وهو موسم الأمطار الثقيلة فى هذه النواحى والمسلمون لا يستريحون للبرد والمطر. وكانت تلك المناطق كلها غابات والفارس العربى لم يكن يحسن القتال فى الغابات كما أن خيول العرب الضامرة تأثرت دون شك بالبرد والمطر ولم تكن تستطيع الحركة بنفس الخفة والقدرة التى تعمل بها فى الجو الدافئ الجاف.

رابعا: رغم أن عبد الرحمن الغافقى كان جنديا عظيما بلاشك إلا أنه كانت تنقصه القدرة على وضع خطة محكمة للقتال كما رأينا مثلا عند الحسان بن النعمان وطارق بن زياد.

وأخيراً كانت هناك مشكلة الغنائم الكثيرة التى كان يحملها الجيش الإسلامى وراءه وكان خوف المسلمين على ضياعها من أكبر أسباب الهزيمة كما يقول بعض المؤرخين.

ولكن عبد الرحمن الغافقى وجنوده رغم كل تلك العوامل لم يرهبوا جنود الفرنجة وكانوا جميعا متحمسين لقتالهم. وكانت جموع الفرنجة أكثرهم من الجنود العراة يسترون عوراتهم بجلود الذئاب ويرسلون شعورهم الكثيفة وراء ظهورهم ويحملون حرابهم بأيديهم فبدا منظرهم غريباً على المسلمين. ولم يطل انتظار الجيشين فقد بدأت المعركة التاريخية فى السهل الواقع بين مدينتى «تور وبواتييه» على بعد ٢٠ كيلو مترا شمال بواتييه فى الطريق إلى «تور» وجنوبى مجرى نهر اللوار فى موضع قريب من طريق رومانى قديم كان يسمى «البلاط». وفى هذا الموقع توجد قرية الآن تسمى «مواسيه لاباتاى» Moissais la Bataille .

أما تاريخ المعركة فالرأى السائد أنها بدأت فى ١٢ أو ١٣ أكتوبر عام ٧٣٢م أواخر شعبان سنة ١١٤هـ. وقد بدأ الجيش الإسلامى بالهجوم بقيادة عبد الرحمن الغافقى على جيش الفرنجة وقتل عدد كبير من الجنود العراة واستمر القتال عنيفا حوالى ثمانية أيام اقترب فيها النصر من المسلمين وبدأت عزيمة الفرنجة تضعف ولكن فى اليوم التاسع حاول الفرنجة الهجوم والالتفاف حول مؤخرة العرب حيث الغنائم مما أثار الارتباك فى مؤخرة المسلمين.

وبينما كان «عبد الرحمن» يمر بين صفوف جنوده لمحاولة إعادة تنظيم جيوشه كما كانت عادته ولحث جنوده على الثبات أصابه سهم طائش فسقط البطل شهيداً فى الميدان.

وعندما علم الجنود بذلك فت فى عضدهم ولكنهم استمروا فى القتال حتى

نهاية اليوم وفى نهايته انسحب جيش المسلمين جنوبا إلى «سبتمانيا». وفى صباح اليوم التالى دهش الفرنجة لأن معسكر المسلمين كان خاليا ولكنهم وجدوا ذخائر عظيمة فاستولوا عليها. ولم يجرؤ شارل مارتل على مطاردة جيوش المسلمين المنسحبين خوفا من أن يكون ذلك الانسحاب مكيدة مدبرة للإيقاع به. وكان ذلك فى أوائل رمضان سنة ١١٤هـ - ٢١ أكتوبر ٧٣٢م وانسحب المسلمون نحو «أربونا».

وعندما بلغ الخبر «عبد الرحمن السلمى» عامل أفريقيا ولى «عبد الملك بن قطن الفهرى» من قبله على الأندلس فأسرع هذا إلى أربونا. وفى الطريق أعاد الهدوء إلى أملاك المسلمين فى جبال البرت وجنوب فرنسا وثبت سلطان المسلمين فى سبتمانيا وعقد معاهدات مع نفر من الرؤساء فى مقاطعة أكوتيه «أقطانيا» وتمكن فى وقت قصير من تلافى الكثير من الآثار السيئة التى حدثت نتيجة لهزيمة البلاط.

بعد استشهاد البطل عبد الرحمن الغافقى لم يحاول المسلمون من بعده التوغل شمالا فى أرض فرنسا «غالة» وغيرها من البلاد الأوروبية وإن كان بعض القواد المسلمين الذين جاءوا بعده قد قاموا بغزوات متعددة فى جنوب فرنسا ولكنها كانت محدودة وليست على نطاق واسع وبالقرب من حدود الأندلس. ويرجع السبب الأساسى فى ذلك ليس إلى هذه الهزيمة بالذات فكثير من المعارك خسرها العرب ثم كانت لهم بعدها كرات وكرات أعقبها الفتح والنصر ولكن السبب يرجع إلى الفتن والاضطرابات الداخلية التى نشبت فى المغرب والأندلس بين العرب وبعضهم البعض وبين العرب والبربر والتى حالت دون استمرار هذه الغزوات. بل شجعت هذه الاضطرابات «شارل مارتل» على معاودة الكره واستردا ما أخذه العرب من بلاد ما وراء البرنات. ثم جاء حفيده بعد ذلك وتابع هذا الزحف جنوبا عبر البرنات حيث استولى على منطقة قطالونيا فى شمال الأندلس وأنشأ بها ثغراً حربياً لتأمين حدوده الجنوبية عرف باسم الثغر الأسبانى La Marca Hispanica.

معركة بواتييه فى ميزان التاريخ

كانت معركة بواتييه - بلاط الشهداء - فى نظر المصادر التاريخية الإسلامية القديمة عبارة عن إغارة لا تختلف عن سائر الإغارات العربية فى فرنسا. وإن إجماع المؤرخين المسلمين القدامى على عدم الاهتمام بهذه الموقعة يؤكد أنها لم تؤثر على تطورات الأحداث تطورا كبيراً.

أما بالنسبة للمؤرخين الأوروبيين فيعلقون عليها أهمية كبيرة ويعتبرونها من المواقع العالمية الحاسمة فى التاريخ وأسرفوا فى تقدير أهمية المعركة.

فيذكر المؤرخ جيبون[1] مثلا «أنه لو تحقق النصر للعرب فى تلك المعركة لانتشرت المساجد فى باريس ولندن بدلا من الكنائس القائمة الآن ولكان القرآن يتلى ويفسر فى أوكسفورد وغيرها من المراكز العلمية».

كما علق المؤرخ جون دوا نبورت فى كتابه «العرب عنصر السيادة فى العصور الوسطى» علي موقعة بواتييه فقال: «المرجح أن معركة بواتييه التى نشبت بين عبد الرحمن الغافقى وشارل مارتل بأواسط فرنسا وانتهت بتقهقر العرب كانت أعظم عامل على تقلص ظل الحضارة العربية على الغرب ولو انتصر العرب فى هذه الموقعة الكبرى لكانت أوروبا اليوم عبارة عن مقاطعة عربية إسلامية بلا ريب».

والواقع أن هذه التعليقات عبارة عن مبالغات لا يقبلها الحكم التاريخى الصحيح.

فلم يكن الفرنجة الذين تصدوا لرد المسلمين عن فرنسا بأصحاب البلاد بل كانوا غزاة أغاروا عليها وتملكوها بحد السيف فإذا كان العرب أغراباً عن فرنسا فقد كان الفرنجة أغراباً أيضاً وكانوا يحكمون البلاد بالعنف والقسوة وكانوا يترفعون عن أهل غالة الأصليين.

كما أن الفرنجة الذين حاربهم المسلمون لم يكونوا أنصارا للثقافة اللاتينية كما زعم مؤرخو الغرب إذ لم يكن هؤلاء الفرنجة يعرفون عن اللاتينية شيئا وبالتالى لم تكن موقعة بواتييه إنقاذا للحضارة اللاتينية كما يزعمون[2].

بل إننا نجد أن الأديب الفرنسى جوستاف لوبون - من كتاب القرن الماضى يسخر فى كتابه «حضارة العرب» من هذا القول قائلاً : أنه ينبغى النظر إلى العرب فى ذلك الوقت نظرة تختلف عن نظرتنا لهم فى الوقت الحاضر كشعب متخلف نسبيا عن الشعوب الأوروبية لأن الوضع فى العصور الوسطى كان على العكس تماماً فالعرب كانوا هم المتحضرين والأوروبيون كانوا هم المتأخرين. ثم يضيف بأنه كان يتمنى لو أن العرب استولوا على فرنسا إذن لصارت باريس مثل قرطبة فى أسبانيا مركزاً للعلم والحضارة وحيث كان رجل الشارع يكتب ويقرأ فى الوقت الذى كان فيه ملوك أوروبا لا يعرفون كتابة أسمائهم ويبصمون بأختامهم.

كما أن جوستاف لوبون كان يرى أن انتصار شارل مارتل فى «بواتييه» لم تكن له أهمية كبرى كما ذهب بعض المؤرخين لأنه أخفق تماماً فى إجلاء العرب عن المدن التى فتحوها فى جنوب فرنسا بل تقهقر أمامهم تاركاً لهم ما فتحوه.

---

(١) الإسلام فى حوض البحر المتوسط للدكتور على حسن الخربوطلى.

(٢) فجر الأندلس للدكتور حسين مؤنس.

هذا وقد استطاع الفرنجة فى هذه الموقعة أسر حوالى ثلاثة آلاف من جنود المسلمين كان أكثرهم من الخبراء فى صنع الأسلحة والبارود والطب والصيدلة والتمريض والبناء وصنع المواد الثقيلة وبناء الجسور وغيرهم من أرباب الفنون والصناعات، كما كان من بينهم المستشارون من أهل العلم والأدب والشرائع إذ كان من عادة العرب والجيوش الإسلامية فى زحفها أن يرافقها رجال من أرباب كل حرفة لاسيما الحرف التى لها صلة بالحرب وأيضا التى لها صلة بالتشريع وكذلك جماعات الوعظ والإرشاد لأن أغراض العرب من هذه الحملات كانت ترمى إلى أهداف حضارية سامية هى نشر لواء الإسلام وتبليغ رسالته ونشر النور والإيمان والعدل والسلام بين الناس لا البطش والإرهاب والسيطرة. وقد سارع الفرنجة إلى الاستفادة من هؤلاء الأسرى العرب واستغلال مواهبهم لأن الفرنجة كانوا غارقين فى بحور الضلال والجهل والفوضى.

وأخيرا يمكن القول أن فتوح العرب فى فرنسا كانت تهدف إلى استقرارهم فيها ولم تكن غزواتهم كما تصورها بعض المصادر الأوروبية عبارة عن غارات سريعة بقصد الحصول على الأسلاب والغنائم إنما كانت تهدف فى النهاية إلى تحقيق فتح منظم غايته إدخال فرنسا فى رحاب الدول العربية الإسلامية ونشر الدين الإسلامى فى ربوعها.

رحم الله عبد الرحمن الغافقى وأدخله فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا.

الباب الثالث

فتوحات متنوعة

الفصل الثانى عشر

«أسد بن الفرات»

«وفتح صقلية»

نشأته

كان أسد بن الفرات إذا تحدث عن نفسه قال: سمانى أبى وأمى أسد لأن الأسد سيد الوحوش ومن أقوى الحيوانات وأنا ابن الفرات لأن ماء الفرات من أحسن المياه وأعذبها وأما جدى فهو سنان والسنان طرف الرمح وهو من أجود الأسلحة.

ولد «أسد بن الفرات» فى سنة خمس وأربعين ومائة (١٤٥) بعد الهجرة بمدينة حران بديار بكر وتقع فى شمال بلاد العراق. ولم تطب له الحياة مع أسرته طويلاً فى مدينة «حران» فانتقل مع اسرته إلى شمال أفريقيا واستقر مع أسرته فى مدينة «تونس».

استيعابه للعلم

اشتهرت تونس بجامعتها الكبيرة جامعة «الزيتونة» حيث تعلم أسد العلوم الإسلامية متتلمذا على يد العالم المالكى المشهور (على بن زياد) وكان أسد ذكيا قوى الحافظة فتعلم أصول المذهب المالكى فى وقت قصير كما تعلم العلوم المختلفة واستطاع بقدرته الكبيرة على الحفظ أن يستوعب قدراً عظيما من هذه العلوم وأن يصل فى شبابه إلى منزلة العلماء. ولذلك كان يلتف الدارسون حوله فيفيض عليهم بالكثير من علمه ويشرح لهم المسائل الدينية المختلفة. وكان يقوم بذلك فى مدينة «تونس» أحياناً وفى مدينة القيروان أحياناً أخرى.

السفر فى طلب العلم

أدرك أسد بن الفرات أنه مازال بحاجة إلى استكمال علمه بأصول المذهب المالكى فلم يجد وسيلة إلا السفر إلى المدينة المنورة حيث التقى بالإمام العظيم مالك رضى الله عنه، فدرس عليه كتابه المشهور «الموطأ» ولم يكتف أسد بن الفرات بذلك بل رأى أن يدرس أيضا مذهب الإمام الأعظم «أبى حنيفة» حتى يستطيع الموازنة بين

المذهبين ويعرف أوجه الخلاف بينهما فرحل إلى بغداد حيث التقى بتلميذى الإمام «أبو حنيفة» وهما أبو يوسف ومحمد بن الحسن وسمع منهما أصول مذهب أبى حنيفة ودارت بينهم مناقشات فقهية دلت على سعة علم أسد بن الفرات وعلو قدره.

عودته للقيروان

رجع أسد إلى مدينة القيروان بعد ذلك وكانت وقتئذ عاصمة دولة الأغالبة فعين قاضياً للقيروان. ومنذ ذلك الحين بدأ أسد بن الفرات فى دراسة قضايا المسلمين فى هذه المدينة ويضع القواعد المستمدة من أصول الدين كى يسير عليها الناس واستمر فى القيروان قاضياً عادلاً يقيم موازين العدالة بين الناس ويقضى بينهم بما فتح الله عليه من علم سنين طويلة.

الموقف فى جزر البحر المتوسط فى عهده

وفى هذه الأثناء كانت الأساطيل الإسلامية قد بدأت منذ أوائل عصر الفتوحات تجوس خلال البحر المتوسط وتفتح جزره المتعددة. وكان المسلمون قد استولوا فعلاً على قبرص وردوس واقريطش «كريت» فى شرق البحر وعلى الجزائر الشرقية «البليار» فى غربه فلم تبق أمامهم سوى الجزر الثلاث الكبرى وهى صقلية وسردينية وكورسيكا وكانت هذه الجزر الغنية الضخمة تجذب أنظار المسلمين فتقصدها الحملات البحرية من وقت لآخر من ثغور أفريقيا والأندلس وهى حملات كان ينقصها الطابع الرسمى فى أغلب الأحيان وتتألف من جماعة المجاهدين أو البحارة المغامرين الذين يجوسون خلال البحر فى طلب الغنائم والكسب.

وكانت صقلية تقع فى هذا العصر تحت سيادة الدولة البيزنطية «الدولة الرومانية الشرقية» أما سردينية وكورسيكا فكانتا تقعان تحت سيادتها الاسمية وكان الفرنج قد استولوا على كورسيكا وانضمت سردينية تحت لوائهم تطلب حمايتهم من الغزاة.

قوة الأساطيل الإسلامية فى أوائل القرن ٣هـ

وفى أوائل القرن الثالث الهجرى «التاسع الميلادى» بلغت الأساطيل الإسلامية فى افريقية والأندلس مبلغاً من القوة والاستعداد لم تبلغه من قبل، وقد حملت غزوات النورما لشواطئ الأندلس حملت حكومة قرطبة على الاهتمام بإنشاء أسطول قوى يستطيع حماية الثغور ورد العدوان بمثله. وكذلك عنيت حكومة الأغالبة فى أفريقية «تونس» بالأسطول عناية كبيرة لحماية شواطئها من عدوان البيزنطيين والفرنج، وكان الأغالبة فى الواقع يسيطرون من تونس على المياه الوسطى للبحر المتوسط.

وفى هذه الأثناء قويت دولة الأغالبة فى شمال أفريقيا وكانت أساطيلهم البحرية القوية تمخر عباب البحر المتوسط تنقل التجارة وتقابل القوات البيزنطية لتوطيد نفوذ المسلمين وفى عام ١٩٧هـ (٨١٣م) جدد الأمير الأغلبى إبراهيم بن أبى العرب صلحاً مع «جرايجوار» بطريق صقلية لمدة عشر سنوات واتفق معه على ضمان أمن المسلمين فى صقلية من التجار وغيرهم مقابل ضمان أمن الروم فى شمال أفريقية إذ كانت هناك فى هذه الفترة علاقات وثيقة بين الأغالبة وصقلية وكان كثير من التجار العرب يمارسون التجارة فى الجزيرة.

الخلافات فى صقلية

ولفتح المسلمين لجزيرة صقلية قصة طريفة فحسب الرواية البيزنطية تقول خلاصتها أن سيداً من أشراف صقلية يدعى «يوفيميوس» ويسميه العرب «فيمس» هام بحب راهبة حسناء واختطفها من ديرها فقضى الإمبراطور «ميخائيل الثانى» بجدع أنفه عقاباً له على جرمه ففر إلى بلدة سرقوسة «سيراكيوز» وثار فى عصبته وأنصاره على حاكم الجزيرة البيزنطى وانتزع «سرقوسة» وبسط حكمه عليها ولكنه لم يستطع أن يحتفظ بها طويلاً إذ هاجمته جنود الإمبراطور واستردت المدينة منه. ففر إلى أفريقية «تونس»، واستغاث بأميرها وهو يومئذ زيادة الله بن الأغلب ودعاه إلى فتح صقلية ووصف له غناها وسهولة الاستيلاء عليها.

زيادة بن الأغلب يستعد لفتح صقلية

وجد زيادة بن الأغلب أن هذه فرصة سانحة لغزو الجزيرة ونشر الإسلام بين ربوعها وإقامة حضارة إسلامية فى أرجائها تضارع الحضارة الإسلامية فى الأندلس، فأخذ يعد العدة لهذه الحملة ويحشد الأساطيل والرجال والأسلحة، بينما كان أسد بن الفرات يجلس فى دار القضاء جاء اليه الخبر بإعداد الحملة لغزو جزيرة صقلية، وكان ابن الفرات آنذاك شيخاً جاوز السبعين من عمره ولكنه مع ذلك انتفض انتفاضه الأسد وامتلأت نفسه بالحماس وسيطرت عليه الرغبة فى المشاركة فى غزو الجزيرة والجهاد فى سبيل الله فهو أفضل الأعمال عند الله.

ابن الفرات يتطوع لقيادة الحملة

سارع أسد بن الفرات إلى قصر الملك «زيادة بن الأغلب» وطلب الإذن بمقابلته فأذن له وكان الملك يظن أن للقاضى أسد بن الفرات حاجة يقضيها له ولكنه فوجئ بطلبه بأن يكون من المجاهدين الذاهبين لفتح صقلية. وقد حاول الملك أن يثنيه عن

عزمه احتراماً لشيخوخته وتقديراً لعلمه الغزير ونفعه الكبير للناس فى جلوسه للفصل فى قضاياهم وفى افتائهم فى أمور دينهم وأن هذا العمل لا يقل أجره عن أجر المجاهدين فى سبيل الله. ولكن الشيخ أصر على طلبه قائلاً للأمير «إننى أريد أن أختم حياتى بنوع آخر من الجهاد حتى تطمئن نفسى وأكون بذلك قد أديت ما على من حقوق الله سبحانه وتعالى وجاهدت فى سبيله حق جهاده، عند ذلك عينه الملك قائداً للحملة فكان بذلك مقاتلاً ومجاهداً فى الله بنفسه وبعلمه وبماله.

تجمعت سفن الأسطول فى ميناء «سوسه» واحتشد الجنود بأسلحتهم فوق السفن، وكانت العادة أن تدق طبول الفرح قبل أن يتحرك الأسطول إلى غايته، فأصدر الملك أوامره لإقامة مهرجان على الشاطئ لبث الحماس فى المجاهدين وإعلاناً للناس ببدء تحرك السفن بالمجاهدين لنشر دين الله وإعلاء كلمة الحق.

كلمة أسد فى حث جنوده على القتال

وقد وقف أسد بن الفرات على ظهر سفينة القيادة وألقى على الجموع المحتشدة لتوديع أسطوله وعلى جنوده كلمة قال فيها:

«أيها الناس ... والله ماحكم لى أب ولا جد ولاية قط وما رأى أحد من أهلى الذين سبقونى مثلما رأيت ولا بلغ مثلما بلغت، وكل الذى أعدنى وجعلنى أهلاً لهذه القيادة هو قلمى وعلمى فاجهدوا أنفسكم وأتبعوا أبدانكم فى طلب الحق وتدوين العلم، وجالدوا عدوكم واصبروا على الشدائد فإنكم بذلك تنالون فخر الدنيا وسعادة الآخرة».

بدء تحرك الأسطول الإسلامى من سوسة فى ٢١٢هـ

عند ذلك علا صياح الناس بالفرح واشتدت حماسة الجند. وفى شهر ربيع الأول سنة ٢١٢هـ - ٨٢٨م تحرك أسطول الأغالبة بقيادة فقيه القيروان وقاضيها أسد بن الفرات من ميناء سوسة قاصداً جزيرة صقلية.

والجنود فى كل ذلك يكبرون ويهللون والأمل فى النصر يملأ قلوبهم فهم قد فارقوا أرضهم وديارهم وأهلهم جهاداً فى سبيل الله واقتداء بسنة نبيه الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وإمام المجاهدين لإعلاء كلمة الحق ونشر الدين الإسلامى الحنيف.

أعظم حملة عربية يوجهها المسلمون لصقلية

ولم تكن هذه الحملة من السرايا الصغيرة بل كانت أعظم حملة بحرية إسلامية

توجهت إلى صقلية فقد كانت تضم تسعمائة فارس وعشرة آلاف رجل خلاف النواتية، وكان معظم هؤلاء الجند من المجاهدين في سبيل الله.

أبحر الأسطول العربي بقيادة أسد بن الفرات لعدة أيام حتى ظهرت أمامهم بقعة سوداء في وسط البحر أخذت معالمها تتضح شيئا فشيئاً فأبصروا أرضاً عامرة بالناس والمدن والقرى. وبعد ساعات رست السفن الإسلامية في ثغر مازر «مازارا» في طرف الجزيرة الغربي وهو أقرب ثغورها إلى أفريقية فاستولت عليه، ثم اتجه أسد بن الفرات على رأس جنده إلى شرق الجزيرة لمقاتلة الروم الذين اجتمعوا حول زعيمهم «بلاطه» واجتمع إليه«فيمى» وأنصاره ليقاتلوا مع أسد بن الفرات ولكنه أبى وطلب إليهم أن يعتزلوه «إذ لا حاجة به للانتصار بالكفار». ونشبت بين الفريقين معركة شديدة هزم فيها الروم وغنم المسلمون كل ما معهم ودوابهم وفر «بلاطه» إلى فلوريه وقتل هناك بيد بعض خصومه.

أسد يواصل تقدمه فى الجزيرة

استولى أسد بن الفرات على عدة حصون داخل الجزيرة ووصل في سيره إلى قلعة الكرات المنيعة «كلتا جيروني» وقد احتشدت فيها قوة كبيرة من الروم فخادعوه بطلب المهادنة وأداء الجزية - وشجعهم «فيمى» سراً - وكان قد بدأ يخشى عاقبة توغل المسلمين في الجزيرة فاستمع أسد إلى توسلاتهم وتركهم أياماً ولكنهم كانوا قد استعدوا للمقاومة خلالها وامتنعوا عليه فضرب عليها الحصار وبث السرايا في نواحي الجزيرة وافتتح ما حول سرقوسه وحاصرها براً كما حاصرتها سفن المسلمين من البحر. ووصلته الإمدادات من أفريقية فبعث إلى «بلرم» بالجند والسفن لحصارها. ولكن في هذه الأثناء وصل إلى سرقوسه أسطول بيزنطي بعثه الإمبراطور لنجدة الجزيرة فاشتدت المقاومة ضد المسلمين ونشبت بينهم وبين الروم في البر والبحر معارك عنيفة وامتد خط القتال من سرقوسة في شرق الجزيرة إلى بلرم في شمالها الغربي.

وقوع الوباء فى معسكر المسلمين ووفاة أسد فى قصريانه

وهنا وقع الوباء في معسكر المسلمين سنة ٢١٣هـ - ٨٢٨م فهلك فيه كثير منهم ومن بينهم أميرهم أسد بن الفرات والظاهر أنه توفى في قصريانه «كاسترو جوفانى» أو على مقربة منها وكانت يومئذ في قبضة المسلمين ذلك أن الفقيه والقائد وأمير البحر الشيخ أسد بن الفرات دفن فيها حسبما تقول الرواية الإسلامية. ومن يدرى فلعل رفاته مازالت موجودة إلى اليوم في قبر مجهول.

محمد بن الجوارى يتولى القيادة بعد أسد

تولى القيادة بعد أسد بن الفرات محمد بن أبو الجوارى فلما رأى شدة الأمر على المسلمين حاول الانسحاب في السفن فمنعته السفن البيزنطية من ذلك فأمر عندئذ بحرق السفن وامتنع المسلمون داخل الجزيرة وتفرقوا فيها سرايا يغزون وديانها ويحاصرون قلاعها حتى جاءتهم الإمدادات من أفريقية، كما وصل لمعاونتهم فى نفس الوقت أسطول أندلسى من السرايا المجاهدة فى عام ١٢٤هـ -٨٢٩م. فاشتد ساعدهم ومضوا فى فتح مدن الجزيرة وثغورها تباعاً وكان تقدمهم بطيئاً لوعورة الجزيرة فاستقروا فيما افتتحوه منها، وفى سنة ٢٦٤هـ -٨٧٨م استولوا على سرقوسه آخر معاقلها فتم بذلك افتتاحها وأسسوا بها إمارة كانت تابعة فى البداية لحكومة أفريقية ثم استقلت بعد ذلك عنها حينما سقطت دولة الأغالبة. هذا وقد استمرت جهود المسلمين لفتح الجزيرة سنين طويلة بسبب شدة وعورتها.

صقلية قاعدة إسلامية ودولة لمائتى عام

قامت فى صقلية دولة إسلامية لبثت زهاء قرنين من الزمان ازدهرت فيها الجزيرة وأصبحت حديقة إسلامية يانعة تزهو بعلومها وفنونها وتجارتها وصناعتها وأصبحت فى نفس الوقت قاعدة إسلامية تخرج منها السرايا والحملات البحرية فتجوس خلال المياه الإيطالية وتفتح ثغورها وتصل إلى روما ملكة العالم .

وأخيراً دب الوهن فى تلك الدولة الإسلامية الصغيرة وتوالت حملات الفرنج على الجزيرة حتى استعادها الدوق روجر «رجار» الرومانى سنة ٤٦٤هـ - ١٠٧٢م، وانتهت بذلك دولة الإسلام فيها.

لقد بلغت الدولة الإسلامية فى صقلية أوجاً كبيراً من الحضارة والرقى وكانت معبراً رئيسياً عبرت عليه الحضارة الإسلامية إلى أوروبا التى كانت غارقة فى الجهل والتأخر فى هذه الأيام وكل ذلك بفضل هذا الفاتح العظيم أمير البحر أسد بن الفرات فقيه القيروان وقاضيها والذى تقدم الصفوف للجهاد فى سبيل الله رغم كبر سنه وشيخوخته، وركب البحر مع ما فى ذلك من رهبة وخوف ومصاعب ولم يركن إلى الراحة والدعة فى دار القضاء بالقيروان بل كان فى طليعة المجاهدين ومثلاً فى الشجاعة والإقدام وكان فعلاً اسماً على مسمى فسمى أسداً وحارب أسداً حتى استشهد فى سبيل الله.

أسد مثل فريد فى التاريخ الإسلامى

كانت هذه الدولة الإسلامية فى صقلية ثمرة لجهاد ذلك الشيخ المجاهد العالم القائد البار أمير البحر أسد بن الفرات الذي قدم أروع الأمثلة على الجهاد فى سبيل الله رغم سنه وشيخوخته، ورغم علمه وفضله فقد تقدم الصفوف وركب البحر رغم أهواله فى ذلك الزمان ضارباً المثل على مدى التاريخ بقوة الإيمان وشدة العزيمة والاستهانة بكل شئ حتى بالحياة نفسها فى سبيل الدعوة لدين الله والجهاد فى سبيله.

سلام عليه وعلى مثواه الطاهر إلى يوم الدين.

الفصل الثالث عشر

معركة ملاذ كرد - مانز كرت Manzikert

٤٦٣ هـ - ١٠٧١ م

مقدمة عامة

الأتراك والإسلام

أطلقت كلمة ترك منذ أواسط القرن السادس الميلادى على بعض الأقوام البدوية التى انتشرت فى أواسط «آسيا» ما بين منغوليا والبحر الأسود، وشكلت دويلات تعيش على المرعى والغابات وتنتقل على ظهور الخيل كما ينتقل العرب على ظهور الجمال.

وقد بدأ اتصال العرب المسلمين بهذه الجماعات التركية أيام الفتوح. ثم توطدت الصلات بهم بعد حملات «قتيبة بن مسلم» فى بلاد ما وراء النهر ٨٦هـ/٧٠٥-٧١٥م/٩٧هـ فى عهد الخليفة الأموى «الوليد بن عبد الملك». وكان من نتيجة هذه الاتصالات أن نشطت العلاقات التجارية والإسلامية مع الترك ونشطت فى الوقت نفسه حركة تجنيدهم فى الجيش لحماية الحدود وفتح ما وراءها من بلاد حيث شكلت الشعوب التركية امبراطورية هامة تهدد الحدود الإسلامية.

وبين هذا وذاك انتشر الدين الإسلامى بين الاتراك. وكانت الغارات على غير المسلمين منهم تشكل موردا هاماً لأسواق النخاسة والرقيق فى العالم الإسلامى.

وقد استطاعت قوة العباسيين الأوائل أن توطد النفوذ الإسلامى فى «تركستان» وكثرت العلاقات التجارية. كما كثر الرقيق الذى وصل زمن الخليفة «المعتصم العباسى» إلى قصور الخلافة والحكام. ثم ما لبث أن دخل الجيش ففرض نفسه على الخلفاء العباسيين. وبدأ العنصر التركى من المماليك يظهر كعنصر ثالث بين القوى العربية والفارسية التى تتنازع الحكم العباسى بعد أن تبنى هؤلاء الترك الحضارة الإسلامية واللغة العربية واصبحوا حرس الخليفة.

وقد لعب القواد الترك دورهم فى تاريخ الخلافة العباسية وفى ضعفها وشكلوا على

حسابها بعض الامارات كالدولة الطولونية فى مصر[1] والدولة السامانية فى فارس[2] والدولة الغزنوية فى أفغانستان والبنجاب[3].

وإذا كانت الدولة البويهية[4] قد استطاعت أن تبعدهم عن مراكز السلطة والحكم بعد أن صار فى ايديهم تولية الخلفاء أو عزلهم ونفيهم أو قتلهم وبعد أن صارت لهم «امرة الامراء» فإن النفوذ التركى ما لبث أن عاد إلى العالم الإسلامى ممثلا فى «السلاجقة» فى القرن الخامس الهجرى.

ولم يعد نفوذ الاتراك هذه المرة متسللا إلى قصر الخلافة ولكن عاد غازيا فاتحاً. كما لم يعد بأعداد محدودة يجندها الخلفاء والحكام وانما بأعداد ضخمة كونت هجرة بشرية كاملة. وأخيراً وليس آخراً فلم يعودوا بشكل مماليك أرقاء يتسلقون على الحكم وإنما عادوا على شكل ملوك وسلاطين يدخلون لأول مرة العالم الإسلامى يحكمونه ويملكون مقدراته.

ولذلك فعندما عبر السلطان السلجوقى «الب ارسلان» الفرات عام ٤٦٣هـ - ١٠٧١م فى طريقة إلى الشام قال له أحد مرافقيه [يا مولانا أحمد الله تعالى على ما أنعم به عليك] فقال [وما هذه النعمة؟] فقال [هذا النهر لم يقطعه تركى من قبل الا مملوكا وانتم اليوم قطعتموه ملوكا].

---

(١) الدولة الطولونية (٢٥٤-٢٩٢هـ - ٨٦٨-٩٠٥م)، أسسها فى مصر «أحمد بن طولون»، وهو تركى وكان ابوه أحد الأتراك الذين كان يرسلهم ولاة الولايات إلى الخلفاء العباسيين كهدايا، تربى فى بغداد ونال حظاً من الثقافة الدينية وحين تولى مصر نمت ثروتها نموا كبيرا بما قام به من اصلاحات كما كان متواضعا وعادلا ويقرب العلماء.

(٢) الدولة السامانية (٢٦١-٣٨٩هـ - ٨٧٤-٩٩٨م)، دولة بنى سامان الفارسية وأسسها «نصر بن أحمد الساماني» وقد دخل السامانيون فى خدمة الخلفاء العباسيين وقدر الخلفاء اخلاصهم واشتهر من بينهم «نصر بن احمد الساماني» الذى ولاه الخليفة العباسى حكم بلاد ما وراء النهر سنة ٢٦٢هـ - ٨٧٤م. واتخذ سمرقند مركزا له، واستمرت هذه الدولة حوالى ١٤٥ عاماً حتى ضعفت وانهارت على ايدى الاتراك.

(٣) الدولة الغزنوية (٣٥١هـ - ٩٦٢م)، أنشأها زعيم يسمى «ألبى تكين» مع اخوانه الاتراك سنة ٣٥١هـ - ٨٦٢م فى مدينة غزنة فى اقصى بلاد الاسلام (قرب كابول) شرقا وامتد سلطانها حتى شمل كل افغانستان واقليم البنجاب فى الهند. وقد امتد عمرها مائتى عام وأقوى سلاطينها «سبكتكين ومحمود الغزنوى ابن سبكتكين» الذى توفى عام ٤٢١هـ - ١٠٣٠م ويعد من أعظم المسلمين الفاتحين.

(٤) الدولة البويهية (٣٣٤-٤٤٧هـ - ٩٤٥-١٠٥٥م)، فى عام ٣٣٤هـ دخل «أحمد بن بويه» (من الجنود الفرس المغامرين) مدينة بغداد واسند إليه الخليفة المستكفى منصب امير الامراء ولقبه بلقب «معز الدولة»، وأخيراً أصبح الخلفاء العباسيون العوبة فى ايدى البويهيين، بلغت أوج عظمتها فى عهد عضد الدولة ثم ضعفت وانتهت على يد السلاجقة.

العالم الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى

يجب أن نذكر نبذة عنه حتى تتضح صورة اوضاع المسلمين فى القرن الخامس الهجرى. كان الشرق الإسلامى فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى (١١ ميلادى) مقسما ما بين الخلافة العباسية فى بغداد والخلافة الفاطمية فى القاهرة – كما كان يجاور الخلافتين فى الشمال أى فى مناطق الاناضول والبلقان – الإمبراطورية البيزنطية (الروم).

وكانت هذه القوى الثلاث فى حالة ضعف شديد ازداد زيادة كبيرة فى أواسط القرن الخامس. فالخليفة العباسى لا سلطة له فى بغداد لأن الملك البويهى يحكم بدلا منه، والخليفة الفاطمى (المنتصر بالله) ضائع بين القواد المتخاصمين والمناطق الثائرة والمجاعات المتوالية والتبدل الدائم فى الوزراء والقضاة.

بدء ظهور السلاجقة، ومن هم السلاجقة؟

(٤٤٢–٥٩٠هـ – ١٠٥٥–١١٩٧م) يرجع أصل السلاجقة إلى الترك الذين كانوا يقيمون فى الصحراء الواسعة التى تمتد من حدود «الصين شرقا» حتى «شواطئ بحر قزوين» غربا، وكانت قوة جديدة من هذه الشعوب البدوية التركية تتكون فى مناطق السهوب التركستانية وكثرت هجراتهم إلى شواطئ نهر «جيحون» حيث المراعى الوفيرة واقتربوا بذلك من حدود الدولة الغزنوية. وقد تكاثرت أعدادهم وأصبحت تنذر بأفواج من الهجرة وقد ازدادت قوة الاتراك وتزعمتهم قبيلة منهم برز من رجالها «سلجوق بن دقاق» والذى اعتنق الإسلام مع قبيلته عندما نزح إلى نهر سيحون واصبحوا مصدر خطر على الغزنويين فيما بعد. وتولى أبناء سلجوق زعامة هؤلاء السلاجقة الرعاة الذين هاجروا إلى هذه الجهات.

الاستقرار فى خراسان

أذن السلطان «محمود الغزنوى» للسلاجقة بعبور نهر «جيحون» والاستقرار فى اقليم خراسان التابع لدولته. ولم يشكل السلاجقة خطرا على الدولة الغزنوية فى عهد السلطان «محمود» لأنهم كانوا يخشون بأسه. وكانت الدولة تضم فى هذا الوقت بالإضافة إلى بلاد ما وراء النهر – بلاد خراسان والبنجاب فى السند – فلما توفى وخلفه ابنه مسعود الغزنوى لم يأبه للسلاجقة لأنه كان يختلف عن أبيه فى صفاته واخلاقه فتمرد السلاجقة عليه وحاولوا الاستقلال بالبلاد التى نزلوا فيها.

عندئذ رأى السلطان «مسعود» ضرورة التخلص من السلاجقة وطردهم من إقليم

«خراسان»، فأرسل اليهم جيشا ولكن الجيش هزم هزيمة ساحقة ودخل السلاجقة بقيادة «طغرلبك» نيسابور.

احتلال نيسابور

دخل السلاجقة نيسابور عاصمة إقليم «خراسان» سنة ٤٣٠هـ - ١٠٣٨م وأعلنوا استقلالهم واختاروا «طغرلبك» سلطانا عليهم ثم هزموا السلطان «مسعود» هزيمة ساحقة سنة ٤٣٢هـ - ١٠٤٠م فى «داندكان» وبذلك استطاع السلاجقة انتزاع إقليم «خراسان» من الدولة الغزنوية وتكوين دولة جديدة لهم.

طغرلبك أول سلطان لهم

كانت الدولة الجديدة تشمل إقليم خراسان واعترف الخليفة العباسى بطغرلبك سلطانا على الدولة السلجوقية الجديدة التى اصبحت عاصمتها أصفهان. واخذ طغرلبك يدير شئون البلاد مراعيا قواعد الإسلام وعمل على نشر العدل ومكارم الاخلاق إذ اعتنق السلاجقة الإسلام على المذهب السنى.

اتساع الدولة السلجوقية ودخول بغداد

اتسعت الدولة السلجوقية فى عهد أول سلاطينها طغرلبك حتى ضمت بلاد «جرجان وطبرستان وخوارزم والرى وهمذان واصفهان» واستنجد به الخليفة العباسى لتخليصه من العناصر الثائرة ضده من البويهيين وعلى رأسهم «البساسيرى» - فدخل بغداد سنة ٤٤٧هـ - ١٠٥٥م حيث تغلب على أعداء الخليفة العباسى وقبض على البساسيرى وقتله كما قبض على ملك البويهيين الملك «الرحيم» وسجنه وبذا قضى طغرلبك على الحكم البويهى. وقد أمر الخليفة العباسى بالخطبة لطغرلبك على المنابر واعطاه لقب سلطان الشرق والغرب، وقد توفى طغرلبك عام ٤٥٥هـ - ١٠٦٣م.

ألب ارسلان يتولى السلطة خلفا لطغرلبك

خلف طغرلبك بن اخيه «ألب ارسلان» وزاد اتساع الدولة فى عهده بما ضمه اليها من البلاد، على أن أهم أعماله الحربية التى خلدت اسمه على مر التاريخ هى معركة ملاذكرد - مانزكرت عام ٤٦٣هـ - ١٠٧١م والتى انتصر فيها انتصارا ساحقاً على الإمبراطور «البيزنطى رومانوس الرابع».

المميزات العامة للحكم السلجوقى

- يعتبر السلاجقة بمثابة حركة تجديد لدماء العالم الإسلامى ولم تبدأ نهضتهم

إلا بعد أن توحدوا تحت راية الإسلام (السلاجقة الاتراك). ولم يحققوا ما حققوا فى وقت قصير إلا بعد أن جاشت صدورهم باعتناق الإسلام وأخذوا ينشرون كلمته. وقد تمكن السلاجقة بروحهم القوية المؤمنة من انقاذ الدولة العباسية من عبث البويهيين وبذا تم على أيديهم توحيد الدولة الإسلامية مرة ثانية. وقد برز ذلك فى عهد «ملكشاة» الذى امتدت دولته من الصين شرقا إلى البحر المتوسط غرباً ومن بحر قزوين شمالا إلى البحر العربى جنوباً.

– وقد استطاع السلاجقة إعادة مجد الإسلام العسكرى الذى بلغ قمته فى معركة «ملاذكرد» التى قهروا فيها البيزنطيين واحتلوا اسيا الصغرى وجعلوها مقرا اسلامياً لأول مرة وإلى الآن – وإلى الأجيال المتأخرة من السلاجقة يعود فضل قيادة المقاومة ضد الصليبيين.

– وقد استطاع السلاجقة نشر المذهب السنى الذى أصبح مذهب الدولة الرسمى. بل لقد تحول السلاجقة الذى كانوا أعداء هذا الدين قبل دخولهم فيه إلى مخلصين له حيث أسلموا أنفسهم كليا للإسلام بل انه لم يعد من هم للسلاطين السلاجقة إلا أن يخدموا الخلافة العباسية والإسلام – يشملهم شعور اخلاقى بمسئوليتهم فى ذلك أمام (الله تعالى) وكانوا دائما من المتمسكين بالدين الإسلامى وبالسنة المطهرة.

– ومن مميزات حكم السلاجقة أيضا هو استعادة الخلفاء لهيبتهم الدينية لأن السلاجقة كانوا سنيين فلم تحدث بينهم وبين الخلفاء مشاكل حادة كالتى حدثت فى العصرين السابقين (التركى والبويهى) بل لقد عاد إلى الخلافة الشئ الكثير من جلالها وانتهت أيام الهوان الماضية.

– كثرة هجرة الاتراك إلى أقطار الدولة الإسلامية وكثرة دخولهم فى الإسلام (بعد أن كانوا رقيقا) وكانت هجرتهم بصفة خاصة إلى فارس والعراق وسوريا.

– إنشاء المدارس النظامية المنفصلة عن المساجد.

– ازدهار الحركة العلمية لأنهم كانوا يشجعون العلم والعلماء الأمر الذى أدى إلى ظهور عديد من المؤلفات مثل مقامات الحريرى وعلم البيان ومؤلفات «عمر الخيام» الذى اشتهر أيضا بالرياضيات والجبر ورباعياته....الخ.

– وبصفة عامة فقد كان عهد الدولة السلجوقية عهدا مجيداً للإسلام والمسلمين عاد بالخير واليمن والبركات على المسلمين وعزز من هيبة الخلافة

الإسلامية وانتصر على أعداء الأمة الإسلامية وهى «الإمبراطورية البيزنطية» ونشر العدل والأمن والأمان فى ربوع البلاد الإسلامية قاطبة كما شجع على العلم وأكرم العلماء وبنى المدارس النظامية المنفصلة - ويمكن القول أنه كان من أحسن العهود التى مرت على الأمة الإسلامية فى العصور الوسطى.

استمرار التوسع السلجوقى

بالإضافة إلى توسع طغرلبك فى خراسان وغيرها كانت جماعات من السلاجقة (الغزاة الترك) تتوغل فى ايران الشمالية الغربية وفى «أذربيجان» وفى «أرمينيا» بشكل غير نظامى يتزعمهم أحياناً أمراء من البيت السلجوقى نفسه ولكنهم يعملون لحسابهم الخاص دون تنسيق مع طغرلبك أو بأوامره.

وقد استطاعت الموجة البدوية التركية أن تنتقل فى كتلتها الرئيسية تدريجيا إلى منطقة أذربيجان وإن تعدت مناطق أرمينيا خاصة وغيرها من المناطق على تخوم الروم الشرقى فى آسيا الصغرى.

وبهذا أصبح النشاط السلجوقى يهدد المناطق الشرقية من آسيا الصغرى والاناضول معقل الدولة البيزنطية. لذلك صمم الإمبراطور البيزنطى «روما نوس» (ديوجينسى الرابع) على حشد كل قواه للخلاص من هذا الخطر السلجوقى الذى دمر الجزء الآسيوى من الأراضى البيزنطية فى أرمينيا والاناضول إذ كان البيزنطيون يضعون أيديهم على بلاد الأرمن وما جاورها ويتخذونها قنطرة توصلهم إلى البلاد الإسلامية.

الفصل الرابع عشر

«ألب أرسلان»

ومعركة ملاذكرد - مانزكرت Manzikert

رمضان سنة ٤٦٣هـ - ١٩ أغسطس سنة ١٠٧١م

مقدمة

- أعظم معركة فى القرون الوسطى بين الأتراك السلاجقة بقيادة السلطان «ألب ارسلان» وبين الإمبراطورية البيزنطية العتيدة وجيوشها الجرارة بقيادة «رومانوس الرابع» إمبراطور بيزنطة.

- المعركة التى انتصر فيها السلطان «ألب ارسلان» بالقلة المؤمنة من جنده على الإمبراطور «رومانوس» وجحافله انتصارا ساحقاً ووقع فيها الإمبراطور نفسه أسيرا ذليلاً بيدى السلطان «ألب ارسلان» وقصة الحديث بين السلطان وبين أسيره الإمبراطور.

- المعركة التى فتحت أبواب الأناضول أمام قوات المسلمين من الأتراك السلاجقة ثم بعدهم للعثمانيين حيث استقروا فيها ونشروا فيها الدين الإسلامى إلى اليوم.

- المعركة التى أثارت الحقد والغضب فى القسطنطينية ضد الإمبراطور الأسير وضد المسلمين والسلاجقة ولم ينته هذا الحقد إلا بقيام الحروب الصليبية واندفاع جيوش أوروبا الصليبية للاستيلاء على بلاد المسلمين فى الشرق.

- المعركة التى تعادل فى أثرها إن لم تفق آثار معركة «اليرموك» فى أوائل الفتوحات الإسلامية وفى الصراع بين الإمبراطورية البيزنطية والمسلمين فقد ترتب على «اليرموك» ضياع بلاد «الشام» نهائيا وإلى اليوم من البيزنطيين ودخول الإسلام فى ربوعها - وترتب على الثانية ضياع «الأناضول» نهائيا ودخول الإسلام فيه إلى اليوم.

- المعركة التى مهدت الطريق للأتراك العثمانيين فى احتلال كامل «الأناضول» والاتجاه منه غربا حيث فتحوا القسطنطينية وزالت على أيديهم الإمبراطورية البيزنطية نفسها من التاريخ.

– واحدة من انتصارات رمضان العظيمة التى نصر الله فيها جنده من المسلمين على أعدائهم فى شهر رمضان المبارك انتصارات حاسمة ظلت آثارها باقية حتى اليوم.

مصداقا لقوله تعالي:

﴿وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم﴾
[الانفال ١٠]

﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾
[محمد ٧]

﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾
[الروم ٤٧]

﴿صدق الله العظيم﴾

– صفحات مطوية من الفخار والعزة تظل دائما على مدى التاريخ تذكرنا بأروع صفحات التاريخ الإسلامى وأكثرها إشراقاً. وتدعونا إلى التطلع إلى مستقبل مزدهر بإذن الله فى بداية القرن الخامس عشر من هجرة سيد المرسلين النبى الأمى محمد صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

معركة ملاذكرد – مانزكرت Manzikert
٤٦٣هـ – ١٠٧١م

موقف البيزنطيين قبل المعركة

كانت الدولة البيزنطية فى تلك الفترة تمر بفترة ضعف وعدم استقرار تخللتها ثورات داخلية متصلة وتبديل فى الأباطرة بعد أن انقضى عهد الأمجاد العسكرية للدولة. ومع ذلك وبالرغم من ذلك فقد كانت هى الإمبراطورية الأقدم والأقوى والأكثر خبرة ومدنية وحضارة عن السلاجقة الذين كانوا فى بداية عهدهم بالقوة والتقدم.

وفى تلك الفترة توفى الإمبراطور «قسطنطين العاشر» سنة ١٠٦٧م بعد أن أصبحت الحدود البيزنطية مهددة بواسطة كثير من القوى المعادية فقد استقر «النورمان» فى «جنوب إيطاليا» وهاجمت القبائل التركية من «البشناج» و«الغز» الدانوب هذا بالإضافة إلى الهجمات المتكررة للسلاجقة فى الأناضول – وأصبح الأمر يتطلب أن

يتولى زمام الأمور فى القسطنطينية من يستطيع إنقاذ الموقف المنهار فاختير «رومانوس ديوجينس Romanus Diogenes» – وهو قائد عسكرى سابق – إمبراطورا وتزوج من «ايدوكيا» أرملة سلفة الراحل وتوج الإمبراطور الجديد باسم «رومانوس الرابع» فى يناير ١٠٦٨م.

الحملات ضد السلاجقة

كانت أولى المهام العاجلة للإمبراطور الجديد هي إيقاف هجمات السلاجقة – فقاد من أجل ذلك ثلاث حملات عسكرية كانت الأولى عقب توليه العرش بفترة قصيرة فعبر «رومانوس الرابع» الأناضول عام ٤٦٠هـ – ١٠٦٨م حتى وصل إلى منبج «شمال حلب» واحتلها ووضع فيها حامية بيزنطية. وقد عاد «رومانوس» من حملته هذه فى يناير سنة ١٠٦٨م ثم ما لبث أن خرج فى حملة ثانية فى ربيع نفس العام إلى «قيصرية» فى الأناضول «قيسارية» التى هاجمها «السلاجقة». وعلى الرغم من أن الإمبراطور نجح فى هزيمة «السلاجقة» إلا أن النصر لم يكتمل فقد استطاعت جماعات أخرى منهم نهب مدينة «ايقونية» وعادت عن طريق «طرسوس» إلى «قليقية».

أهمية الأناضول بالنسبة للدولة البيزنطية

والآن أصبح من الضرورى أن نلقى نظرة على مدى أهمية الأناضول بالنسبة للدولة البيزنطية فى تلك الفترة، فقد كان الأناضول بمثابة القلب من الإمبراطورية البيزنطية بل لقد كان درة تاجها وأهم أملاكها، فالأناضول كان يمثل الجزء الأعظم من أملاك الإمبراطورية بعد أن فقدت فى القرن السابع الهجرى بلاد «الشام» وبلاد «شمال افريقيا» وبعض جزر البحر المتوسط على أيدى العرب والمسلمين. وبعد أن فقدت أملاكها فى «جنوب إيطاليا» على يد «النورمان» وبالتالى لم يبق لها من أملاك يعتد بها سوى الأناضول.

ومن جهة أخرى فقد كان الأناضول بجباله وهضابه وقلاعه وحصونه هو الدرع الواقى للإمبراطورية من تهديد المسلمين للقسطنطينية منذ أيام «معاوية بن أبى سفيان» وحتى ظهور «السلاجقة» فى القرن الخامس الهجرى.

بالإضافة إلى ذلك فقد كانت الأناضول هى أهم مورد لجنود الإمبراطورية حيث كان «الأباطرة» يجندون ما بين ١٢٠٫٠٠٠ إلى ١٥٠٫٠٠٠ جندى من الأناضول. وكان هؤلاء الجنود يمثلون قوة ضاربة كبيرة على دراية كبيرة ببلادها وهضابها وحصونها ولذا كانوا أعظم قوة يعتمد عليها «الأباطرة» فى صد المسلمين عن القسطنطينية.

وعلاوة على ذلك فقد كانت «الأناضول» أهم مورد للقمح والحبوب والغذاء للإمبراطورية البيزنطية بعد أن تقلصت رقعتها كما سبق القول فى القرون السابقة وبالتالى كانت «الأناضول» أيضا مركز الثروة وجباية الضرائب لبيزنطة للإعداد للحرب وللقيام بأعباء ومهام الإمبراطورية.

ومن هنا نقدر مدى الأهمية التى يعلقها أباطرة بيزنطة على «الأناضول» ومدى قلقهم إزاء أى تهديد أو خطر يقترب منه.

مانزكرت لماذا؟

لم تكن نتائج الحملات السابقة ضد «السلاجقة» حاسمة لذلك كان لابد من القيام بحملة ثالثة تحسم الموقف بين الإمبراطور «رومانوس» و«السلاجقة»، فقد كان الإمبراطور يطمع فى الحصول علي نصر عسكري كبير يدعم به مركزه فى القسطنطينية ضد خصومه فى البلاط وضد رجال الحزب المدني الذي كان يتدخل فى توجيه سياسة الدولة وخاصة أن الإمبراطور تعرض بعد عودته من الحملة الثانية إلى مؤامرة بقصد منعه من الخروج للحرب مرة ثالثة. ومما عزز موقف الإمبراطور فى الخروج للحملة الثالثة هو قيام السلطان«ألب ارسلان» بالخروج إلى «أرمينيا» فى أواخر سنة ٤٦٢هـ – سنة ١٠٧٠م واستيلائه على «مانزكرت» و«أخلاط» ثم الاتجاه إلى «الرها» حيث فرض عليها الحصار ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها، فرفع الحصار واتجه إلى «حلب» حيث استولى عليها، وكان «رومانوس» قد عرض دفع الجزية «لألب ارسلان» مقابل التخلي عن بعض المدن الهامة وإيقاف الغارات على «الأناضول»، غير أن تطورات الاحداث اثبتت أن «رومانوس» كان يهدف إلى كسب الوقت ريثما يتم استعداده العسكرى للقيام بحملته الثالثة.

تقدم رومانوس واستعادة مانزكرت

فى أوائل ربيع سنة ١٠٧١م – ٤٦٣هـ زحف «رومانوس» شرقاً إلي «أرضروم» (ثيود سيوبوليس THEODASIOPOLIS) فى «أرمينيا» بجيش جرار قوامه ٣٠٠,٠٠٠ جندى. ولكن كان خليطا من المتطوعين من جنسيات مختلفة من «البيزنطيين» و«الروس» و«الخزر» و«الغز» و«الفرنج» و«الأرمن». وعندما وصل «أرضروم» قسم قواته إلى قسمين ودفع القسم الأول منها نحو «أخلاط» للاستيلاء عليها (وهى قلعة حصينة تقع عند بحيرة «فان (وان)» شرق «مانزكرت» وسبق أن استولى عليها السلطان «ألب ارسلان» فى العام السابق سنة ١٠٧٠م مع «مانزكرت») مع الإغارة على المناطق حولها لستر تقدم الإمبراطور نحو «مانزكرت» ثم زحف الإمبراطور بالقسم الثانى

من قواته نحو «مانزكرت» حيث حاصرها واستولى عليها. بعد ذلك استأنف الإمبراطور تقدمه نحو «أخلاط» حيث فشل القسم الأول من قواته فى استعادة المدينة وظل بالقرب منها.

بدء تحرك السلطان ألب ارسلان وطلب الصلح

عندما كان «ألب ارسلان» فى «حلب» علم بخروج الإمبراطور «رومانوس الرابع» على رأس جيشه لمهاجمته فى «أرمينيا» فألغى السلطان كل خططه على الفور وعاد مسرعاً إلى «أذربيجان» للإعداد لملاقاة خصمه.

وقد وصل السلطان «ألب ارسلان» إلى«أرمينيا» قادما من «حلب» فى عدد يسير من جنوده اذ لم يكن لديه الوقت الكافى لجمع باقى قواته لبعدها وقرب العدو. وتجمع المصادر العربية والبيزنطية على أن السلطان «ألب ارسلان» كان مثالا للقائد المعتدل فى سلوكه قبل وبعد المعركة فأرسل إلى «رومانوس الرابع» قبل المعركة وفداً يطلب المفاوضة من أجل الصلح وحقن الدماء ولكن الغرور والتهور سيطرا على الإمبراطور فرد فى كبرياء أنه لاحد له إلا فى «الرى» عاصمة «السلاجقة» وأساء معاملة وفد السلطان. فلم يجد السلطان مفراً من القتال. وكانت قوات السلطان تقدر بحوالى ١٥٫٠٠٠ (خمسة عشر ألفا) كما جاء فى تقرير المؤرخين المسلمين بينما تقدرها المصادر البيزنطية بحوالى ٥٠٫٠٠٠ (خمسين ألفا) من الجنود.

رومانوس الرابع يستعد للمعركة

ولكن فى منتصف أغسطس ١٠٧١م فوجئ الإمبراطور بظهور قوات السلطان «ألب ارسلان» امامه بعد أن نجحت فى محاصرة وإبادة قوات «رومانوس» حول «أخلاط» بعد أن أوقعتها فى كمين فتراجع «رومانوس» مسرعاً نحو «مانزكرت» حيث قرر التوقف ومقاتلة السلطان عندها.

وقد صف «رومانوس الرابع» قواته على الطريقة البيزنطية التقليدية فى الحروب على نسقين أو خطين فى أرض متعرجة مفتوحة وتولى «رومانوس» قيادة النسق الأول بنفسه بينما تولى مساعده «أندرونيكاس لوكاس» قيادة النسق الثانى وكانت فرسان السلطان الخفيفة فى تلك الفترة تناوش أجنحة قوات «رومانوس» بينما كانت قوات السلطان تتجمع وتحتشد فى تشكيل المعركة.

السلطان ألب ارسلان يستعد للمعركة

كانت قوات السلطان «ألب ارسلان» أقل بكثير من قوات الإمبراطور «رومانوس»

ولكن السلطان صف قواته فى ميدان القتال على الطريقة الهلالية التى ابتكرها «السلاجقة» فى الحروب وبرعوا فى تطبيقها براعة كبيرة.

فقد قسم جيشه إلى قلب من المشاه والرماه الأشداء ووضع على الجناحين قوات من الفرسان الثقيلة مقسمة إلى فرق كل فرقة منها مائة فارس يقودها فرسان أشداء بينما وضع على الجانبين فرقا من الفرسان الخفيفة لمناوشة العدو واستطلاع أوضاع قواته وإرباك خططه.

ورغم قلة عدد قوات السلطان إلا أن الإيمان بالله تعالى كان يملأ قلوبهم وحب الجهاد فى سبيل الله وفى سبيل الدعوة الإسلامية كان يسيطر على مشاعرهم. وكان السلطان يقول لمن معه [إننى أقاتل صابرا محتسبا فى سبيل الله. فإن سلمت فنعمة من الله تعالى وإن كانت الشهادة فإن ابنى «ملكشاه» من بعدى].

ولما كان يوم الجمعة من رمضان سنة ٤٦٣هـ - ١٩ أغسطس سنة ١٠٧١م وقد تجمع المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها للصلاة فى مساجدهم والخطباء يدعون للسلطان ولجنود المسلمين بالنصر والملايين تؤمن على هذا الدعاء - فى هذه اللحظة المباركة قاد السلطان «ألب ارسلان» جنده بعد أن مرغ خدة فى التراب تضرعاً إلى الله تعالى وتذللا وطالبا النصر وألقى القوس والنشاب وأخذ السيف والدبوس ولبس البياض وتحنط وقال [إن قتلت فهذا كفنى] - منتهى الإيمان بالله.

ثم اندفع هو وجنوده نحو «رومانوس» وعسكره بحماس هائل وإيمان عظيم بالله سبحانه وتعالى وبنصره.

معركة ملاذكرد - مانزكرت MANZIKERT (انظر الخريطة ص ٣٠٤)

وأخيرا وقع الصدام المباشر بين الجانبين الإسلامى والبيزنطى فى يوم الجمعة ١٩ أغسطس سنة ١٠٧١م - رمضان ٤٦٣هـ - على ضفاف بحيرة «فان (وان)» بالقرب من «مانزكرت» فاندفع «رومانوس الرابع» بقواته يهاجم قوات السلطان «ألب ارسلان» بكل عنف وقوة وهؤلاء (أى الإمبراطور) الأكثر عددا وعدة.

أما السلطان «ألب ارسلان» فقد نفذ خطة ذكية تعتمد أولاً على أسلوب القتال والاصطفاف على الطريقة الهلالية وتعتمد ثانيا على استدراج الإمبراطور بعيدا عن معسكره وقاعدته التى يرتكز إليها والصف الثانى من قواته - وفعلا أخذ قلب قوات السلطان يتقهقر شيئا فشيئا والإمبراطور مندفع فى تقدمه وراءهم. وفى نفس الوقت أخذت فرسان السلطان الخفيفة تناوش فرسان الإمبراطور وأجنابه ومنعت تقدمها للأمام

مع قلب قوات الإمبراطور. واستمر الإمبراطور يقاتل ويتقدم بقوات الصف الأول أو النسق الأول حتى بدأ يحل الظلام ووجد نفسه قد اندفع بقواته بعيداً عن معسكره وقاعدته وقوات الصف الثانى فحاول العودة لمعسكره قبل شدة الظلام. وهنا وجد السلطان «ألب ارسلان» فرصته السانحة وأتت الطريقة الهلالية ثمارها فهاجم قوات الإمبراطور بمشاته ورماته فى القلب كما دفع فرسانه الثقيلة للالتفاف حول قوات الإمبراطور متعاونة فى ذلك مع فرسان السلطان الخفيفة التى نجحت فى إعاقة تقدم فرسان الإمبراطور وأجنابه. واطبقت قوات السلطان وفرسانه على قوات «رومانوس» من كل اتجاه وأصبح الهلال دائرة واكتسحت أجناب قواته فارتبكت قواته وتفككت وتفرقت وولت الادبار خاصة وقد اشاعت قوات الصف الثانى للإمبراطور والتى كان يقودها أندرونيكاس لوكاس أن الإمبراطور قد هزم. ولم تفلح محاولات «رومانوس» فى الصمود أمام الهجمات الإسلامية واحاطت به قوات السلطان من كل جانب وقتل أو أسر جميع جنود الإمبراطور بما فيهم الإمبراطور «رومانوس» نفسه الذى وقع أسيراً وكان قد اصيب فى يده. بينما استطاع الصف الثانى بقيادة «أندرونيكاس لوكاس» الانسحاب نحو الغرب مع من تبقى من قوات حراسة الأجناب فرارا من الهزيمة وامتلأت الأرض بجثث القتلى.

يقول ابن الاثير[1] [وقع الإمبراطور المتكبر نفسه فى الأسر فكان بذلك أول وآخر امبراطور يقع فى أسر المسلمين[2]]

ويروى ابن العبرى[3] أن ألب ارسلان عندما حمل له الإمبراطور ذليلا أسيراً وبخه وقال له [ألم ارسل اليك اطلب المهادنة فأبيت؟]- فقال الإمبراطور [دعنى من التوبيخ وافعل ما شئت] - فقال له السلطان [ما تظنه اننى افعل بك؟] فأجاب الإمبراطور (إما أن تقتلنى أو أن تشهر بى فى بلادك والأخرى بعيدة وهى العفو وقبول الأموال لاصطناعى]. فقال ألب [ما عزمت على غير هذا ...] وفعلا قابله «ألب ارسلان» بكرم عظيم - وقبل منه الفدية وابدى استعداداً ليرد له جزءا من أملاكه.

نتائج معركة مانزكرت - ملاذكرد

أولاً: بالنسبة للسلاجقة

رغم أهمية الانتصار الكبير الذى أحرزه السلطان ألب ارسلان على «رومانوس

(١) الكامل فى التارخى لابن الأثير حوادث سنة ٤٦٣ هـ.
(٢) وقع بعد ذلك لويس التاسع ملك فرنسا أسيرا فى المنصورة خلال الحرب الصليبية بعد رومانوس بحوالى ١٨٠ عاماً.
(٣) ابن العبرى - تاريخ مختصر الدول ص ١٨٥.

الرابع» إلا أنه لم يتابع هذا الانتصار بالتقدم داخل «الاناضول» رغم سهولته لاحتلال مواقع جديدة لأن ذلك لم يكن هدفه فى ذلك الوقت، فانتصار السلطان فى «ملاذكرد» لم يكن له هدف سوى احتلال «أرمينيا» و«الرها» و«أنطاكية» وتثبيت أقدامه فيها وقبول الإمبراطور رومانوس بهذا الوضع. لذلك فقد اكتفى السلطان بعقد معاهدة صداقة وتحالف مع أسيره لأن السلطان كان يأمل فى مساعدة الإمبراطور له فى تحقيق مشروعاته الخاصة بتوحيد العالم الإسلامى.

وفى هذا المجال وجد السلطان «ألب ارسلان» أن محالفة أو على الأقل حياد القسطنطينية أكثر فائدة له من عدائها ولذلك فقد أسرع بإطلاق سراح الإمبراطور قبل حدوث انقلاب عليه فى القسطنطينية يبطل الاتفاق الذى تم بينهما والذى أملى السلطان شروطه – بل لقد جهز «ألب ارسلان» الإمبراطور رومانوس الرابع لرحلة العودة بأن منحه ١٠٫٠٠٠ دينار وزوده بفرقة من جنوده لحراسته.

وقد تلخصت شروط المعاهدة فى الآتى:–

١– إعادة «أنطاكية» و«منبج» و«الرها» و«مانزكرت» إلى السيادة الإسلامية.

٢– الإفراج عن الاسرى المسلمين.

٣– دفع فدية قدرها ألف وخمسمائة ألف دينار وعن الهدنة ثلثمائة ألف دينار.

٤– أن يساعد الإمبراطور رومانوس السلطان عسكريا عند الحاجة.

٥– معاهدة عدم اعتداء لمدة خمسين سنة.

ومهما يكن من شئ فبالرغم من أن السلطان «ألب ارسلان» عامل الإمبراطور معاملة كريمة – وبالرغم من أنه انصرف عن غزو الأراضى البيزنطية بعد انتصاره الكبير فى ملاذكرد – إلا أن هذا الانتصار على ضفاف البحيرة قد خلق وضعاً جديداً غير مجرى التاريخ. فقد أصبحت الغلبة للمسلمين فى اسيا الصغرى والاناضول وأصبح مفتوحاً أمامهم نحو الغرب بعد أن استمرت مقاومة البيزنطيين لذلك قرونا طويلة الأمر الذى أدى فى النهاية إلى استقرار المسلمين رويدا رويدا... فى الأناضول حتى أصبح كله إسلاميا على عهد الأتراك العثمانيين فمهد بذلك الطريق إلى فتح القسطنطينية على ايدى المسلمين وانهيار الإمبراطورية البيزنطية وزوالها نهائياً من الوجود.

كما أن هذا الانتصار شجع العناصر التركمانية والسلجوقية الأخرى التى كانت تعمل لحسابها الخاص – شجعها على تكثيف غاراتها داخل الأناضول نظراً لعدم وجود جيش قوى فى منطقة الحدود. بل لقد استطاعوا بعد انتصار مانزكرت الإقامة والاستقرار

فى الأراضى البيزنطية فى الأناضول رويدا رويدا... حتى تحول إلى بلاد إسلامية حتى يومنا هذا. وأسسوا فيها دولة سلاجقة الروم.

ولذلك فقد اعتبرت معركة «ملاذكرد» ذات أهمية قصوى ومن معارك التاريخ الفاصلة فى العصور الوسطى بل لقد اعتبرها بعض المؤرخين أنها تعادل - إن لم تفق - معركة اليرموك فى الأهمية والأثر بالنسبة لنتائجها وآثارها على الدولة البيزنطية والعلاقات الإسلامية البيزنطية ومن نتائجها أيضا أن نفوذ دولة السلاجقة أصبح يمتد من «حلب» غرباً إلى «كشغر» على حدود الصين شرقا.

ثانيا: بالنسبة للبيزنطيين

ما أن وصلت أخبار كارثة مانزكرت إلى القسطنطينية وما جرى للإمبراطور من أسر ومهانة حتى انتهز أعداؤه الفرصة وخلعوا رومانوس عن العرش وأعلنوا تعيين ميخائيل السابع امبراطوراً (وهو ابن قسطنطين العاشر الذى خلعه رومانوس عن العرش) حتى يتخلصوا من آثار الهزيمة ومن شروط الاتفاق المهين بين الإمبراطور والسلطان ودفع الفدية ودفع الجزية ومعاهدة عدم الاعتداء لمدة خمسين سنة.

فلما علم الإمبراطور بالقرار الذى اتخذ ضده فى القسطنطينية ذهب إلى قيليقيا بمساعدة حاكم أنطاكيا. وصمم على المقاومة، بل وطلب مساعدة السلطان ألب ارسلان فى ذلك ولكن محاولاته ذهبت سدى وهزمت قواته على يد مساعده السابق «أندرونيكاس لوكاس» وقبض عليه واعتبر مفرطا فى حقوق البلاد وحكم عليه بأن تسمل عيناه ثم دسوا له السم فمات فى أوائل ٤٦٤هـ - ١٠٧٢م وبوفاة رومانوس سقطت المعاهدة المعقودة بينه وبين السلطان.

وبالرغم من ذلك ومن تعيين امبراطور جديد فقد أصبح واضحاً أن الإمبراطورية البيزنطية قد فقدت جيشها فى هذه الموقعة وأنها أصبحت عاجزة عن صد تقدم المسلمين نحو الغرب وأصبحت غير قادرة على حماية المسيحيين من ضغط المسلمين وأنها عاجزة عن حراسة الباب الشرقى لأوروبا من النفوذ الإسلامى - فاستنجد الإمبراطور «ميخائيل السابع» بأعدى أعداء الإمبراطورية لمقاومة المسلمين فاستنجد بالنورمان (وهم الذين اقتطعوا من الإمبراطورية البيزنطية جنوب ايطاليا) كما استنجد أيضا بالبابا «جريجورى السابع» (١٠٧٣-١٠٨٥م) وألح عليه فى إرسال نجدات سريعة لإنقاذ الإمبراطورية من هجمات السلاجقة على أن يقوم ميخائيل من جانبه بالعمل على إزالة الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية. ولكن هذه الجهود لم تسفر عن شئ مفيد

للإمبراطورية إلا أنها مهدت فيما بعد خلال خمسة وعشرين عاماً فقط أو أقل إلى قيام الحروب الصليبية بزعامة أوروبا الغربية ضد المسلمين فى الشرق.

الدروس المستفادة من المعركة

من الجانب السلجوقى

١- القيادة الحكيمة للسلطان «ألب ارسلان»[1].
٢- اتباع الطريقة الهلالية واستدراج الخصم بعيدا عن قاعدته.
٣- انتهاز الفرصة المناسبة والهجوم بعنف على العدو.
٤- تطوير الطريقة الهلالية إلى عملية احاطة كاملة بالعدو لإبادته.
٥- رفع معنويات المقاتلين.
٦- التمسك بالدين وطلب النصر من الله سبحانه وتعالى والاستعداد للشهادة أو النصر.
٧- مفاجأة مقدمة رومانوس فى كمين عند أخلاط وإبادتها.
٨- مفاجأة رومانوس نفسه والظهور أمامه بطريقة غير متوقعة بالقرب من مانزكرت حيث اضطر للقتال.
٩- التفاوض قبل القتال لتجنب المعركة إن امكن نظرا للتفوق الكبير للعدو فى العدد والعدة.

من الجانب البيزنطى

أخطاء رومانوس كثيرة فمنها:-

١- لم يعمل حسابا لحماية مؤخرة جيشه.
٢- تقسيم قواته قسما بعد قسم - الأول عند أرضروم والثانى عند مانزكرت.
٣- توزيع قواته توزيعا خاطئا فلم يحمل العبء فى المعركة سوى أقل من نصف القوة، فى حين أحاطت باقى الفرق بشخصه أو تبعثرت فى الأماكن القريبة.
٤- عند المعركة لم يسارع بحشد باقى قواته المبعثرة.
٥- لم يقدر حقيقة قوات خصمه ومقدراتها القتالية ومهاراتها.
٦- اغتر بقواته ورفض التفاوض.

---

(١) استشهد السلطان «ألب ارسلان» فى قتاله فى بلاد ما وراء النهر عام ٤٦٥هـ - ١٠٧٣م ضد الخانيين فى وسط آسيا وتولى بعده ابنه ملكشاه وكان من أعظم سلاطين السلاجقة.

٧- فوجئ مرتين الأولى بضياع قواته عند أخلاط لوقوعها فى كمين والثانية عند ظهور قوات السلطان أمامه فجأة قرب «مانزكرت» مما يدل على عدم وجود قوات استطلاع نشيطه».

٨- وقوعه فى شراك خطة السلطان ألب ارسلان الذكية باستدراجه بعيداً عن معسكره وعن قوات خطه الثانى وعن قاعدته حيث استطاع بعد ذلك الانفراد به والإحاطة به وهزيمته شر هزيمة.

وأخيرا وليس آخراً فإننا ندعو الله تعالى أن ينصر المسلمين على أعدائهم ويثبت أقدامهم وأن ينصرهم نصراً عزيزاً.

الفصل الخامس عشر

(بداية المرابطين فى الأندلس)

يوسف بن تاشفين ومعركة الزلاقة

١٢ رجب ٤٧٩هـ ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ م

من هو يوسف بن تاشفين

بطل هذه المعركة هو الأمير التقى وليد الصحراء وزعيم العالم الإسلامى فى وقت عز فيه الزعيم والقائد «يوسف بن تاشفين» الذى أنقذ مسلمى الأندلس من الفناء.

يوسف بن تاشفين رجل صحراوى من المرابطين يتصف بعادات الصحراء وتقاليدها كان بطلا شجاعاً حاذقا جواداً كريما زاهدا فى زينه الدنيا، عادلاً متورعا متقشفا، لباسه الصوف وطعامه خبز الشعير ولحوم الإبل والبانها يأكل من عمل يديه، عزيز النفس، كثير الخوف من الله.

بدأت تظهر مواهبه فى القيادة عندما عمل تحت إمرة بن عمه الأمير «أبو بكر بن عمر» الذى عينه قائداً لمقدمة جيش المرابطين فى فتح «سجلماسة» ثم بعد ذلك تنازل له ابن عمه عن الإمارة سنة ٤٥٤هـ - ١٠٦٢م وأصبح أمير المرابطين بلا منازع واتجهت جهوده بعد ذلك إلى المغرب فاستطاع توحيده لأول مرة فى تاريخه بعد جهود كبيرة مستمرة. ونعم المغرب لأول مرة بوحدته السياسية وانتشر الأمن فى ربوعه وكان ذلك فى عام ٤٧٥هـ - ١٠٨١م.

وقد استمرت دولة المرابطين حتى سنة ٥٣٩هـ - ١١٤٤م حين توفى تاشفين بن على ثالث أمراء المرابطين حيث أخذت فى الانحلال.

حالة المسلمين فى الأندلس

أما الحالة فى الأندلس فكانت مختلفة تماما فبعد سقوط الدولة الأموية فى منتصف القرن الرابع الهجرى ٤٥٠هـ - ١٠٥٠م والتى كانت تنشر الوحدة الشرعية وتؤلف بين الأحزاب المتنافرة والتى كانت الخلافة رمزا لوحدة البلاد وتسير الجيوش باسمها إلى ميادين الجهاد نقول بعد سقوطها انتهى وجود السلطان الشرعى الذى يجمع

بين القوى المتنافرة من عرب وبربر ومولدين ومستعربين فانفصمت عرى الوحدة وانفرط عقدها وقامت فى كل مدينة دويلة حتى وصل عددها إلى ٢٣ دويلة سميت بدول الطوائف ومنها دولة بنى هود فى سرقسطة ودولة بلنسية ودولة طليطلة وقرطاجة وإشبيلية ومالقة وغرناطة وبطليوس..الخ.

وعرف حكامها باسم ملوك الطوائف وتلقبوا بالألقاب الخلافية كالمأمون والمعتمد والمستعين والمعتصم والمتوكل الخ.

ومما سهل لهؤلاء الملوك السيطرة على هذه المدن أنها كانت إبان الخلافة الأموية محكومة حكما إقطاعياً ناجما عن طبيعة البلاد الجغرافية وتنوع بيئاتها فلما سقطت الخلافة الأموية انقطع ذلك الوصل الشرعى الذى يربط البلاد ببعضها. وبلغت المأساة قمتها عندما انغمس ملوك الطوائف فى الترف والنعيم فبلغ بهم الضعف والتخاذل أقصاه وانهارت السيادة الإسلامية فى البحر المتوسط.

لقد كان عصراً أليما حزينا تصرف فيه أولو الأمر فى الأندلس تصرفاً لا يتفق بحال على ما عرف من عزة الأندلس أيام بنى أمية. وكان تسلط أولئك الأمراء على رعاياهم وإلحاحهم عليهم بالمظالم والمغارم من أسباب فقر البلاد ونزوح الناس عن المزارع وتحصنهم داخل أسوار المدن.

النصارى فى الأندلس

بانهيار الخلافة الإسلامية بالأندلس انهارت المقاومة الإسلامية على غير انتظار فسارعت حركة المقاومة النصرانية بانتهاز الفرصة ودخلت فى طور جديد من أطوار نضالها ضد المسلمين وهو طور الاسترداد ورد المسلمين على أعقابهم بعد أن كانت قاصرة على مضايقة المسلمين والإغارة عليهم ثم العودة لقواعدهم.

تطورت حركة الاسترداد على يد الملك (فردناند الأول) الذى أضفى عليها روحا صليبية وبدا المسيحيون فى كافة جهات أوروبا ينظرون إليها على أنها حركة جهاد مقدس وباركت الكنيسة الرومانية هذه الحركة وخلعت على فردناند لقب إمبراطور لتؤكد سيادته على أسبانيا المسيحية.

وهكذا بدا فردناند – وهو إمبراطور أسبانيا – بدا يطالب بإخضاع المسلمين بل طالب بإجلائهم عن البلاد. فقد روى ابن عذارى إنه قال (إنما نطلب بلادنا التى غلبتمونا عليها قديما فى أول أمركم وقد سكنتموها ما قدر لكم وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم فارحلوا إلى عدوتكم). وقد اتبع فردناند ضد المسلمين خطة ذات شقين:

الأول إرهاب المسلمين وبث الذعر فى نفوسهم فلا يجعلهم يذوقون الراحة أو الطمأنينة ويغير عليهم بصفة مستمرة تستنفد طاقتهم وأموالهم عندئذ يضطرون لدفع الجزية وتقديم الأموال لدفع خطره. وقد نجح فى ذلك إلى درجة كبيرة حيث سارع كل من صاحب طليطلة وأشبيليه وبطليوس وسرقسطه إلى دفع الجزية إليه فجنى من وراء ذلك أموالاً طائلة كان يزيد بها من قواته واستعداداته ضد المسلمين. ومن ثم فقد أخذ يوسع رقعة ممتلكاته على حساب الدويلات الإسلامية شيئاً فشيئاً فى جميع الاتجاهات.

تولى بعد فردناند ابنه (الفونس السادس) الذى عمل على الاستمرار فى حركة الاسترداد أشد من ابيه، فأمعن فى التقرب إلى كنيسة روما التى اعتبرت حركة الاسترداد حربا صليبية مثلها فى ذلك كمثل الحروب الصليبية فى المشرق وأخذت تجند المسيحيين من أجل المشاركة فيها.

سقوط طليطلة ونتائجه

وقد بدأ الفونس أعماله الحربية بمدينة «طليطلة» فحاصرها لمدة سبع سنوات حتى سقطت بيده فى٢٥ أغسطس سنة ١٠٨٥م أول صفر ٤٧٨هـ. وقد أحدث سقوطها دويا هائلاً فى العالم الإسلامى الغربى وأصبح المسلمون فى حالة ضياع تام لا يعرفون كيف يتصرفون وبدأوا فى مغادرة المناطق المتاخمة لألفونس وأقفرت مملكة طليطلة من السكان الذين هجروها جماعات إلى مملكة بطليوس فى الجنوب الغربى هربا من الاضطهاد وحفاظاً على دينهم مع أنها كانت العاصمة القديمة.

عند ذلك شعر الفونس بأنه أصبح قادرا على تحدى دول الطوائف جميعاً والقضاء عليها، فقد رأى أن زمام الأندلس أصبح بين يديه فشن الغارات على جميع البلاد ونجح فى الاستيلاء على مدن وقرى عديدة. ولاح له حينئذ أن نهاية ملوك الطوائف قد دنت وأنه سوف يتبع نصرا بنصر. بدأ الفونس بالضغط على الدول الكبرى المجاورة له أى مملكتى بطليوس وأشبيليه. فأرسل إلى المتوكل ابن الأفطس صاحب بطليوس يطلب إليه تسليم بعض الحصون والقلاع المتاخمة لحدوده مع تأدية الجزية ولكن المتوكل رفض. وعندئذ كتب المتوكل إلى الأمير «يوسف بن تاشفين» يصور له محنة الأندلس ويستنصره – وكان ذلك الاتصال الأول بالأمير يوسف بن تاشفين من الأندلس.

بعد ذلك أخذ الفونس يوجه اهتمامه إلى المعتمد بن عباد صاحب أشبيليه وقرطبه فقد كان أقوى ملوك الطوائف وكان منتظراً منه أن يقوم بحماية الأندلس ولكنه لم يفعل بل قضى معظم أيامه فى صراعات داخلية أضعفت المسلمين. وقد طلب الفونس من المعتمد امورا مستحيلة التنفيذ فطلب منه أن يتخلى له عن معاقل وحصون

على الحدود، كان الموت أولى من اعطائها، كما ارسل له بعثه فى ٥٠٠ فارس برئاسة اليهودى ابن شالب لأخذ الجزية. وتجرأ السفير وخرج عن حدود اللياقة وأغلظ فى القول لابن عباد فأمر بقتل البعثة وصلب اليهودى مما أثار ثائرة الفونس ضد المعتمد واقسم على غزو المعتمد بأشبيليه.

كما أرسل خطابا إلى الأمير يوسف بن تاشفين يتحداه فيه بعد أن سمى نفسه (أمير الملتين) وطلب منه إما الحضور لنصرة المسلمين فى الأندلس أو يرسل إليه السفن ليعبر هو إليه.

الاستنجاد بالأمير يوسف بن تاشفين

أمام تلك الحالة السيئة التى وصلت إليها الأندلس المسلمة اجتمع مشايخ قرطبة وزعماؤها للمشاورة فيما يجب عمله لإنقاذ مدينتهم - وكانت بلا حامية - وسائر بلاد الأندلس - وكان ذلك بمثابة إجماع شعبى للخروج بالأندلس من محنته. واستقر الرأى على استدعاء الأمير يوسف بن تاشفين لإنقاذهم. كما استقر رأى المعتمد بن عباد أيضا على الاستعانة بالأمير يوسف لإنقاذ الموقف رغم تحذيرات البعض (أى بعض ملوك الطوائف) من ذلك خشية أن يسلبهم يوسف ملكهم. ولما عزم المعتمد على الاستنجاد بالمرابطين اتصل المعتمد بالمتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس وعبد الله بن بلقين الصنهاجى صاحب غرناطة وطلب منهما أن يرسل كل منهما قاضى حضرته لتشكيل بعثة تذهب إلى المغرب لمقابلة الأمير يوسف بن تاشفين وقد تم تشكيل البعثة التى حملت معها رسالة مكتوبة من المعتمد إلى الأمير يوسف مؤرخة فى ٤٧٩هـ - ١٠٨٦م.

وجاء فى ختامها (نستعين بالله وملائكته وبكم على الكافرين كما قال الله تعالى وهو أكرم القائلين ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ صدق الله العظيم، والإسلام والله يجمعنا على كلمة التوحيد ننصرها ونعمة الإسلام نشكرها ورحمة الله نتحدث بها وننشرها والسلام الجزيل على أمير المسلمين).

وفى هذه الفترة أيضا كانت وفود عديدة من الأندلس تقصد بلاط الأمير يوسف مستغيثة مستعطفة فيصغى الأمير وترق نفسه لهم ويعدهم خيراً.

وقد وافق الأمير يوسف على نجدة ملوك الأندلس إلا أنه طلب أن يتسلم الجزيرة الخضراء لكى يؤمن عبور جيشه ويحمى خطوات تموينه ويجعلها قاعدة وطيدة له. وقد وافق صاحبها المعتمد على ذلك كتابة.

العبور

أخذ الأمير يوسف يستنفر قواته للجهاد فأقبلت جنوده من مراكش ومن الصحراء وبلاد الزاب ومختلف نواحي المغرب وحشد السفن لعبور هذه القوات وكانت طليعة العابرين فوج من الفرسان بقيادة ابنه داود بن عائشة إلى الجزيرة الخضراء فتمركز بها وتوالى عبور بقية الجيش تباعا وأمر الأمير بعبور الجمال بأعداد كبيرة مما أثار دهشة الأندلسيين لأنهم لم يكونوا رأوها من قبل.

ولما تكامل عبور الجيش المرابطي عبر يوسف في أثره بموكب من قادة المرابطين وأنجادهم وصلحائهم. ولما استوى على ظهر السفينة رفع يديه للسماء مناجياً: «اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا إصلاحا للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره وإن كان غير ذلك فصعبه علينا حتى لا نجوزه» وسهل الله عليهم العبور في أسرع وقت وكان ذلك في يوم الخميس منتصف ربيع الأول سنة ٤٧٩هـ - ١٠٨٦م، ونزل بالجزيرة الخضراء فصلى بها الظهر واستقبله سكانها بالترحاب وخرجوا إليه بما عندهم من الأقوات والضيافات وامتلأت المساجد والرحبات بالمتطوعين.

وشرع يوسف في تحصين الجزيرة وترميم أسوارها وما تصدع من أبراجها وشحنها بالأسلحة والأطعمة وأوكل حراستها إلى نخبة من رجاله. وبعد أن استراح قليلاً ونظم أمور الجزيرة سار يوسف نحو أشبيليه عاصمة المعتمد.

سارع المعتمد لملاقاة الأمير يوسف في مائة من فرسانه ووجوه أصحابه والتقى بهم على بعد مرحلة من الجزيرة الخضراء فبرز إليه الأمير يوسف وتعانقا طويلاً وأظهر أمام الجيش المودة والإخلاص. واستعرض الجيش المرابطي فرأى (عسكرا نقيا ومنظرا بهيا) وتابع الأمير سيره نحو أشبيليه حيث كان يقابل بالترحاب مع جيشه على امتداد الطريق.

وفي أشبيليه استراح ثلاثة أيام ثم قال للمعتمد (إنما جئت ناويا جهاد العدو فحيثما كان توجهت إليه) ثم أرسل الأمير يوسف إلى باقي ملوك الأندلس يستنفرهم للجهاد فوصل عدد منهم بقواتهم وعلى رأسهم صاحب بطليوس. وسار الأمير يوسف بجيشه المرابطي وجيش الأندلس نحو بطليوس على ضفاف نهر يانة ومنها تابع سيره حتى وصل إلى سهل الزلاقة وهو سهل حرجي فسيح على بعد ثمانية أميال تقريباً من بطليوس على ضفاف نهر يانة. (انظر الخريطة ص ٣٠٥)

وهناك نظم يوسف جيشه فجعل الأندلسيين جيشاً قائماً بذاته اسند قيادته إلى

المعتمد بن عباد الذى تولى فى نفس الوقت قيادة المقدمة وعين المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس على الميمنة وأهل الشرق فى الميسرة وحشد سائر أهل الأندلس فى الساق. أما الجيش المرابطى فقد تولى قيادة فرسانه داود بن عائشة وقيادة مشاته ابن أبى بكر وبقية المرابطين مع الحرس الخاص بقيادة يوسف بن تاشفين علاوة على القيادة العامة للجيش الإسلامى.

وعسكر المرابطون خلف الأندلسيين تفصل بينهم ربوة بقصد التمويه، ويقدر عدد القوات الإسلامية بحوالى ٤٨ ألفا نصفهم من الأندلسيين والنصف الآخر من المرابطين بينما يقدر قوات النصارى بثمانين ألفا وذلك حسب رواية ابن الخطيب صاحب كتاب الحلل الذى يعتبر روايته أكثر الروايات اعتدالا وبعدا عن المبالغة واقرب إلى الحقيقة.

الفونس يحشد قواته

وصلت أنباء عبور المرابطين إلى الفونس وهو يحاصر سرقسطة فرحل عنها مسرعاً إلى طليطلة وبعث إلى أمراء أسبانيا النصرانية يستدعيهم لنجدته واستنفر الكبير والصغير لحمل السلاح. بل لقد طلب النجدة من وراء جبال البرنات (فرنسا حاليا) من سبتمانيا وبرجونية وبروفانس فأتته من تلك البلاد أفواج عديدة من المتطوعين. وقسم الفونس قواته إلى جيشين كبيرين الأول بقيادة رودريك وخصصه لمهاجمة المعتمد واحتفظ بقيادة الجيش الثانى لنفسه فتولى قيادة القلب كما عين قوات للجناحين.

وكان الفرسان يشكلون العمود الفقرى لجيشه الذى اعتمد على الفارس كفرد وليس كمجموعة متماسكة إذ كان الفارس تغطيه الدروع من رأسه إلى القدم كأنه حصن حديدى يتحرك. استعرض الفونس جيشه فأعجبه كثرته واخذه الغرور فقال «بهذا الجيش ألقى محمدا وآله والإنس والجن والملائكة».

وتقدم الرهبان والقسس امامه يرفعون الأناجيل والصلبان لإذكاء الحماس الدينى فى الجنود الذين بلغ عددهم حوالى ٨٠ ألفا، خرج الفونس بجيشه نحو بطليوس حيث وصل إلى بطحاء الزلاقة وعسكر على بعد ٤ أميال من الجيش الإسلامى يفصل بينهما نهر بطليوس يشرب منه المتحاربون.

كانت الأحوال تنذر بأن المعركة ستكون حاسمة بالنسبة للأندلس فقد بلغت القوى النصرانية ذروتها تذكيها نزعة صليبية تهدف إلى طرد العرب من أسبانيا. وبالمقابل فقد علم المسلمون أنهم لو هزموا فلا بقاء لهم فى أسبانيا بعد ذلك إلا تحت

حكم النصارى أذلاء خاضعين. أما بالنسبة للأمير يوسف فلو هزم أمام الأسبان كان ذلك يعنى أن المغرب ستعمه الفوضى على يد أعدائهم المتربصين بهم أما إذا انتصر فإن ذلك سيقوى دعائم ملكه ويرهب أعداءه.

سير القتال

أرسل الأمير يوسف كتابا إلى الفونس يعرض عليه حسب الشريعة الإسلامية الدخول فى الإسلام أو الجزية أو الحرب فثار غضبه وصمم على القتال فانقض جيش رودريك على معسكر الأندلسيين بقيادة المعتمد فاصطدم بفرسان المرابطين الذين يقودهم داود بن عائشة والذين ارسلهم الأمير يوسف على عجل لدعم الأندلسيين. وصمد داود للهجوم وارغم النصارى على الارتداد إلى خط دفاعهم الثانى ولكن ذلك كلفه خسائر فادحة. وفى الوقت نفسه زحف الفونس بقواته نحو المسلمين بصياح هائل أثار الذعر فى قلوب الأندلسيين. ودارت معركة رهيبة صمد فيها المعتمد وابن عائشة بفرسانه واستمر القتال بلا هوادة حتى أيقن الفونس ببلوغ النصر.

الهجوم الساحق

فى تلك اللحظة الحاسمة وثب الجيش المرابطى إلى المعركة فى وقت أخذت فيه القوى النصرانية بالهبوط نتيجة للهجوم الأول - وزحف الأمير بقواته وقام بعملية التفاف سريعة باغت فيها معسكر العدو من الخلف ووصل إلى خيامه فأحرقها وأباد حراسها وكانت طبول المرابطين تدق بعنف ترتج منها الأرض ودخلت الجمال المعركة ورغاؤها يتصاعد للسماء فبثت الذعر فى نفوس الأعداء وكانت خيول الأعداء تجفل من الإبل.

فى هذه الأثناء كان الفونس يدفع بجيشه إلى الأمام لانتزاع النصر النهائى فذهل عندما أتت الأخبار من داخل المعسكر باستيلاء المرابطين عليه وأنه خسر حوالى عشرة آلاف قتيل. ووجد الفونس نفسه محاصراً بين المسلمين فاضطر للقتال متقهقراً نحو معسكره المحترق ولكن يوسف لم يترك له فرصة لالتقاط الأنفاس فانقض عليه كالسيل ولكن الفونس قاتل قتال المستميت. وفى هذا الجو الرهيب الذى دام بضع ساعات أطلق الأمير يوسف بمفاجأته الثانية ضد الفونس فدفع بحرسه الخاص من السودان إلى القتال فترجل منهم أربعة آلاف كانوا مسلحين بدروق اللمط وسيوف الهند ومرازيق الزان فاندفعوا اندفاع الصاعقة لتحطيم المقاومة النصرانية وانقض جندى أسود شجاع من الحرس على الفونس شخصيا فطعنه بخنجره فهتك درعه ونفذ فى فخذه. وقبل دخول

الظلام بدت تباشير النصر للأمير يوسف واشتدت الهزيمة على الفونس الذى لجأ مع خمسمائة من فرسانه إلى تل قريب فى انتظار الظلام للنجاة.

وقد حاول المسلمون اللحاق به ولكن الأمير يوسف منعهم. وبذلك نجا الفونس من الموت وتابع سيره إلى طليطله ودخلها بمائة فارس فقط بعد أن مات الباقون فى الطريق. وفقد الفونس القسم الأعظم من جيشه، وأقام الجيش الإسلامى أربعة أيام يجمع الأسلاب والغنائم وآثر الأمير يوسف بها ملوك الأندلس لأن هدفه كان الجهاد فى سبيل الله ونصره الإسلام، وكان هذا النصر العظيم والفتح المبين فى يوم الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩هـ ٢٣ أكتوبر ١٠٨٦م.

وأرسل الأمير يوسف الرسائل بالنصر إلى المغرب وإلى أشبيليه ومختلف الأنحاء وعمت الأفراح أرجاء الأندلس والعالم الإسلامى كله ومكنت للإسلام والمسلمين فى الأندلس لمدة أربعة قرون تالية.

نتائج المعركة

جعل الأندلسيون يوم الزلاقة نظير القادسية واليرموك «يوم لم يسمع بمثله من القادسية واليرموك» فياله من فتح ما كان أعظمه وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها. وكان لمعركة الزلاقة نتائج مهمة بالنسبة للأندلسيين والمرابطين والأسبان.

فالأندلسيون

وقد جاءهم النصر بعد أن سارت بلادهم فى الطريق للانهيار أشواطاً إثر هزائم متتالية جعلوا يوم الزلاقة قرين أيام الإسلام الكبرى وتغنى به شعراؤهم فانشدوا فيه القصائد حتى ظهر ما يسمى بأدب الزلاقة.

كما رفع هذا النصر من روحهم المعنوية – فقد أنقذت سرقسطة من سقوط محتم وأزاح عن ملوك الطوائف وأمرائها كابوس النصارى ومتطلباتهم التى لا تنتهى من الجزية وغيرها. وتنفسوا الصعداء بعد الكبت والتضييق عليهم، ولكن ذلك النصر أسقط من هيبة هؤلاء الملوك أمام رعاياهم خاصة أنهم قد هزموا فى بدء المعركة ولولا تدارك يوسف لهم لضاعت الأندلس، وتعلق الرعايا بالمرابطين الأمر الذى مهد إلى إسقاط دول الطوائف فيما بعد على أيدى المرابطين.

أما المرابطون

فقد انفردوا بإحراز النصر (صمود المعتمد لم يغير من نتيجة المعركة). وأدرك

الأمير يوسف منذ تلك اللحظة أنه إذا أريد لحركة الجهاد النجاح والاستمرار فلابد من أن يضطلع بالعبء وحده إذ أن ملوك الطوائف لا جدوى منهم ولا يمكن الاعتماد عليهم بسبب الفرقة التى تمزق صفوفهم والأنانية التى لم يتخلوا عنها حتى فى الساعات الحرجة التى يتوقف عليها مصير البلاد.

وفى المغرب أطاعت القبائل التى ظلت مترددة فى ولائها أطاعت الأمير يوسف وخاصة القبائل الزناتية قد أعلنت ولاءها التام للأمير وبذلك ساعدته على حل مشاكله الداخلية دون إراقة نقطة دم واحدة.

جهاد المرابطين فى الأندلس

منذ انتصار المرابطين فى معركة الزلاقة عام ٤٧٩هـ - ١٠٨٧م إلى بدء زوال دولتهم فى عام ٥٣٩هـ ١١٤٤م ظل المرابطون قائمين بالدفاع عن الإسلام فى بلاد الاندلس. وعلى الرغم من مسئولياتهم الجسيمة فى المغرب الأقصى والأوسط - فإن الدفاع عن الإسلام فى الأندلس كان عملهم الرئيسى فقد أتفقوا معظم أموالهم وفيه جاهد واستشهد خير رجالهم من أمثال أبى عبد الله محمد بن يوسف بن تاشفين أخى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذى يعرف بابن عائشة وأبو محمد عبد الله بن فاطمة وهو الذى استنقذ بلنسية من يد النصارى بمعاونة قائد المرابطين مزولى بن سلنكان سنة ٤٩٥هـ ثم غزا طليطلة وطلبيره وتولى بلنسية وشرق الأندلس وختم حياته عاملا على أشبيليه حيث توفى سنة ٥١١هـ. وخلفه فى الجهاد ابنه محمد بن مزولى بن سلنكان الذى تولى الجهاد فى الأندلس زمنا طويلاً وفيه استشهد وكذلك تميم بن يوسف بن تاشفين أخو أمير المسلمين على بن يوسف وغيرهم كثيرون ممن دفعوا حياتهم دفاعا عن الإسلام الأندلسى.

وقد استطاع هؤلاء المرابطون أن يثبتوا لملوك النصارى ويوقفوا التقدم النصرانى رغم استعانتهم بالبابوية وببلاد غرب أوروبا المسيحى ولولا المرابطون لضاع الأندلس قبل نهاية القرن الحادى عشر الميلادى.

بل لقد استطاع المرابطون فى سنة ٥٠٩هـ - ١١١٦م استعادة الجزائر الشرقية وهى مايورقه ومانورقه ويابسه وهى المعروفه بالبليار - من رجال الجمهوريات الإيطالية.

وكان الذى تولى استرجاع هذه الجزر هو أمير البحر المرابطى أبو عبد الله محمد بن ميمون الذى يعتبر من أبطال المجاهدين المسلمين فى البحر فى عصرى المرابطين والموحدين. وكان استرجاع هذه الجزر ذا أثر بعيد فى مستقبل الأندلس كلها لأنها لو بقيت فى أيدى النصارى لأصبحت خطراً يهدد شرق الأندلس كله.

نهاية المرابطين فى الأندلس

بينما كان المرابطون ماضين فى جهادهم للنصارى فى الأندلس وعاملين على بناء المغرب الإسلامى قامت ضدهم ثورة المصامدة تحت قيادة محمد بن تومرت منشئ دولة الموحدين. لقد قاد محمد بن تومرت ضد المرابطين ثورة ظالمة وحال بينهم وبين إكمال رسالتهم - لأن المرابطين لم يكونوا يستحقوا هذا الانقلاب العنيف الذى قاده ضدهم محمد بن تومرت فقصف عمر دولتهم وهى فى عنفوان عملها وجهادها مما ترتب عليه توقف جهادها فى الأندلس بصفة خاصة. وبعد أن كان المرابطون يكسبون النصر تلو النصر ويستعيدون ما ضاع من بلاد المسلمين مثل بلنسية بدأت الهزائم تتوالى عليهم لأنهم اضطروا إلى سحب قواتهم من الأندلس فسقطت سرقسطه فى أيدى الفونس المحارب ملك أرجون سنة ٥١٢هـ ١١١٨م. ثم سقطت المريه وبيشه سنه ٥٤٢هـ وفى شوال سنة ٥٤٣ سقطت طرطوسه.

وبعد وفاة تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين ثالث أمراء المرابطين فى ٢٧ رمضان سنة ٥٣٧هـ ١١٤٥م - توالى سقوط العواصم الأندلسية فى يد النصارى بسبب انشغال المرابطين بالدفاع عن أنفسهم وزاد مركز المرابطين حرجا فى الأندلس قيام نفر من رؤساء النواحى بالثورة عليهم منتهزين فرصة انشغال المرابطين بحرب الموحدين.

وهكذا لقى المرابطون من أهل الأندلس شر الجزاء على ما فعلوه فى سبيل إنقاذ الإسلام فى الأندلس.

وإن الانسان ليعجب من أمر أولئك الأندلسيين الذين لم يحسنوا الانتفاع بالفرص التى أتيحت لهم من تكريس المرابطين أنفسهم للدفاع عن الأندلس بل أخذوا يتندرون بهم ويتعالون عليهم حاسبين أنفسهم أعلى حضارة وأرقى جنساً من أولئك الأفارقة ذوى المعيشة الخشنة فكانت النتيجة أن أضاعوا أنفسهم وبلادهم لأن الموحدين لم يسدوا مسد المرابطين قط فى الدفاع عن الإسلام فى الأندلس فانهارت خطوط دفاع المسلمين ولم يبق لهم فى الأندلس فى نهاية عصر الموحدين سوى مملكة غرناطة.

الباب الرابع

الحروب الصليبية

الفصل السادس عشر

الحروب الصليبية

وبدء المقاومة الإسلامية

مقدمة

كانت الحروب الصليبية من أحداث التاريخ الكبرى بين الشرق والغرب ويمكن النظر إليها على أنها هجرة بشرية مسلحة متخلفة الحضارة ظلت تغزو الشرق الأدنى قادمة من أوروبا خلال قرنين من الزمان بغية استعمار هذا الشرق والاستحواذ على خيراته وحضارته الراقية. وقد شكلت هذه الهجرة فى وقائعها الحربية المستمرة حلقة هامة فى الصراع بين الشرق والغرب فى حوض البحر المتوسط ما بين أواخر القرن الخامس الهجرى - الحادى عشر الميلادى حتى أواخر القرن السابع الهجرى - الثالث عشر الميلادى.

وقد حملت الحركة الطابع الدينى (الصليبى) ضد الإسلام وكانت جزءا من حركة الهجوم الواسعة التى شنتها أوروبا على البقاع الإسلامية فى أسبانيا وفى صقلية منذ أواسط القرن الحادى عشر الميلادى. لكن هذا الطابع الدينى كان ظاهريا إلى حد كبير، فالحركة فى أعماقها كانت لها بواعث اجتماعية وسياسية واقتصادية وكان الدين هو الستار الخارجى لها، وهى عبارة عن حركة غربية خالصة نجمت عن يقظة المجتمع الأوروبى دينيا وفكرياً وتجارياً نتيجة للغزوات الإسلامية العربية لمناطق مختلفة من بلاده وسواحله والاحتكاك بالحضارة الإسلامية والعربية الزاهرة ورغبة هذا المجتمع فى الخروج من مجتمع القرون الوسطى إلى مجتمع أفضل وأرقى.

وقد ترتب على هذه الحروب احتكاك عنيف بين الشرق الإسلامى بمختلف أفكاره وأرجائه وبين الغرب الطامع فى خيرات الشرق وثروته. وقد تولى عدد من الأبطال المسلمين قيادة الكفاح المسلح ضد جيوش الغرب جيلاً بعد جيل على مدى قرنين من الزمان تقريباً برز من بينهم أبطال عظام سجلوا أسماءهم فى سجل الفخار والعزة ودافعوا عن بلادهم وأوطانهم ودينهم دفاعا بطولياً وحملوا الراية جيلاً بعد جيل حتى

استطاعوا فى النهاية هزيمة هذه الموجة الغربية العاتية وردوها إلى أوروبا مهزومة مدحورة.

ولعل من أبرز هؤلاء الأبطال عماد الدين زنكى ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبى والظاهر بيبرس والأشرف خليل وغيرهم. أما البطل الأعظم والمجاهد الأكبر الذى انتصر فى كل هذه المعارك فهو هذا الرجل المسلم الذى خرج لمقاتلة الصليبيين بكل ما يملك جهادا فى سبيل الله واعزازا لدينه دون أجر لا يرجو إلا الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى ضاربا أروع المثل فى التضحية والفداء فى سبيل العقيدة.

وفى المرحلة الأولى لهذه الحروب كان موقف الإسلام دفاعيا فى كل مكان فى الشرق والغرب. وقد استعان المسلمون على مقاومة هذا الخطر الداهم بالدين الواحد والمصلحة المشتركة والتراث العربى العريق وتوحيد القوى المبعثرة. وقد وقعت مصائب هذه الغزوات الصليبية على الشرق الإسلامى فى اسيا الصغرى والشام ومصر بصفة خاصة. وقد أمكن دفعها بالرجال الأبطال والأموال بل وبالمآسى والدماء والتخريب المستمر.

نداء البابا «أوربان»

فى نوفمبر سنة ١٠٩٥م كان البابا «أوربان» الثانى يحضر موتمرا دينيا فى «كلير مونت» بفرنسا فوقف فيه يدعو المسيحيين جميعاً للاتحاد وتخليص «القبر المقدس» من أيدى المسلمين لما يلاقيه الحجاج هناك من اضطهاد وأعلن أن «هذه هى إرادة الله».

وقد استجابت لهذا النداء جماهير أوروبية غفيرة، وممن ساهم فى تحريضهم وبث الحماسة فى نفوسهم «بطرس الناسك» الذى قاد جموعاً هائلة فى الحملة المعروفة بحملة «الرعاع» ورحف بها نحو الشرق الإسلامى، إلا أن أتباعه قتلوا على أيدى أبناء أوروبا المسيحيين نتيجة لأعمال النهب والسلب التى اقترفوها فى هذه البلاد، أما الباقى قد هلك فى اسيا الصغرى على أيدى السلاجقة.

الحملة الصليبية الأولى

بعد ذلك جاءت الحملة الصليبية الأولى وكانت بشكل منظم ومخطط وتكونت من ثلاثة جيوش عددها حوالى ١٠٠ ألف فارس ومئات الألوف من المشاه والنساء والأطفال ويقودها عدد من أمراء الفرنجة والنورمنديين هم جودفرى دى بويون Godfrey De Bouillon دوق اللورين السفلى وريموند Raymond دوق تولوز من جنوب فرنسا

وبوهمند Bohemand ابن روبرت النورمندى ملك جنوب إيطاليا. وقد اجتمعوا عند القسطنطينية فى ربيع ١٠٩٧م فلما تصدى لهم السلاجقة فى آسيا الصغرى انتصر الفرنجة نصراً كبيراً فى معركة «دوريليوم» فى يوليو ١٠٩٧م واضطر قلج ارسلان السلجوقى إلى الإنسحاب إلى عاصمة ملكة فى قونية بينما واصل الصليبيون الزحف إلى الشام دون مقاومة تذكر فقد كانت القوى الإسلامية فى الشام متفرقة ويعادى بعضها البعض فلم يتفقوا للوقوف فى وجه العدوان. وهكذا كان النصر للصليبيين محتوماً لأنهم كانوا يواجهون قوى صغيرة متفرقة لا تلبث أن تهزم رغم ما تبديه من بسالة وثبات.

الموقف بعد وصول الحملة الصليبية الأولى

اقترن وصول الحملة الصليبية الأولى بحالة من الفوضى السياسية الضاربة أطنابها فى المشرق الإسلامى فبعد وفاة السلطان ملك شاه سنة ١٠٩٢م وهو آخر السلاطين العظام فى الدولة السلجوقية – انقسمت الإمبراطورية السلجوقية إلى عدة دويلات وإمارات نشبت بينها وبين بعضها البعض حروب استمرت حوالى عشر سنوات حتى قدمت الجيوش الصليبية إلى المنطقة. ولم تكن أى دولة من هذه الدويلات تستطيع الوقوف فى وجه الصليبيين . هذا بالإضافة إلى أن الفاطميين فى مصر – وهم أعداء السلاجقة – لم يفهموا الغرض الذى من أجله جاءت تلك الحملة الصليبية الأولى لدرجة أنهم ظنوا أنهم يستطيعون الاتفاق معهم على مشروع خلاصته أن يقتنع الصليبيون بما يفتحونه من البلاد السورية وأن يتركوا فلسطين لتستولى عليها الخلافة الفاطمية فى مصر من أيدى السلاجقة. ودارت من أجل ذلك مفاوضات بالقرب من مدينة أنطاكية قبل سقوطها فى أيدى الصليبيين ببضعة أشهر فى يونية سنة ١٠٩٨.

ولكن بعد سقوط أنطاكية انتهز الفاطميون فترة الذعر والاضطراب التى أحدثها زحف الصليبيين جنوباً وانتزعوا مدينة بيت المقدس من أيدى السلاجقة فى أغسطس سنة ١٠٩٨. غير أنه لم يمض عام على ذلك حتى كان الصليبيون قد وصلوا إليها وحاصروها.

وكانت أول إمارة أسسها الصليبيون فى الشرق الإسلامى هى إمارة «الرها»[١] عام ١٠٨٩م بين الدجلة والفرات وكان سكانها من الأرمن المسيحيين فاستنجدوا بالصليبيين وتعاونوا معهم.

واستولى الصليبيون بعد ذلك على أنطاكية بعد مقاومة عنيفة وحصار استمر عدة شهور وأسسوا بها الإمارة الصليبية الثانية فى بلاد الشام فى نفس العام ثم انتخبوا بوهمند

(١) Edessa.

أميراً عليهم. ثم توجه الصليبيون بعد ذلك من أنطاكية جنوباً إلى «معرة النعمان» وذبحوا من أهلها العدد الكبير فدب الرعب فى القوات الشامية فلم تتعرض للصليبيين الذين واصلوا زحفهم جنوباً، وفى الطريق اتصل الصليبيون «بالموارنة» فأسدى هؤلاء لهم خدمات جليلة فى تقدمهم.

سقوط بيت المقدس

وبعد فترة راحة وصل الصليبيون إلى بيت المقدس دون مقاومة فى ٦ يونية سنة ١٠٩٩م وقد استولوا عليها من الفاطميين فى مصر بعد حصار دام شهراً فى ١٥ يوليو ١٠٩٩م. وبعد سقوطها حولوا شوارع المدينة وساحات مساجدها إلى برك من الدماء بطريقة وحشية قل أن شاهد لها التاريخ مثيلا بعد أن ذبحوا الرجال والنساء والأطفال من المسلمين. وقد استشهد فى هذه المعركة حوالى ٧٠ ألف شهيد[1] وبعث الصليبيون إلى البابا يهنئونه بأنهم يخوضون فى دماء المسلمين بخيولهم إلى الركب فى المسجد الأقصى. ويقول ابن خلدون (استباح الفرنجة بيت المقدس وأقاموا فى المدينة اسبوعاً ينهبون ويدمرون) واحصى القتلى بالمسجد فقط من الأئمة والعباد والزهاد فكانوا سبعين ألفا أو يزيدون، وتأسست بذلك الإمارة الصليبية الثالثة التى امتدت فشملت فلسطين وقسما من شرق الأردن والأراضى ما بين خليج العقبة وبيروت. وتم اختيار «جودفرى» حاكما لها فى يوليو سنة ١٠٩٩ بعد ذلك فتح الصليبيون عكا وطرابلس وصور وأنشأوا إمارة طرابلس واختاروا ريموند دون تولوز حاكما لها. (انظر الخريطة ص ٣٠٦).

بدء المقاومة الإسلامية

بدأت المقاومة الإسلامية منذ اليوم الأول لدخول الفرنجة إلى الشام ولم تتوقف بعد ذلك أبداً إلا أنها كانت فى بادئ الأمر مقاومة فردية دفاعية يقوم بها بعض الأمراء كل منهم بمفرده دفاعا عن دينه وبلاده وشعبه. وقد شهدت هذه الفترة أبطالا استبسلوا فى جهاد الصليبيين ولكن البسالة وحدها لم تكن تكفى لطردهم، وقد استمر الحال على ذلك من المقاومة الفردية والمتفرقة حوالى ربع قرن قبل أن يظهر زعيم قوى يتمتع بصفات القيادة السياسية والعسكرية وتتوحد على يديه القوى الإسلامية فى جبهة واحدة يقودها فى الطريق الصحيح للجهاد، كان هذا القائد هو عماد الدين زنكى ومن بعده ابنه نور الدين محمود.

---

(١) يصف «جوستاف لوبون» هذه المجزرة فى كتابه حضارة العرب ص ٢٨٧ بقوله (لم يكتف قومنا الصليبيون الاتقياء بضروب العسف والتنكيل التى اتبعوها بل عقدوا مؤتمراً اجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى الذى كان عددهم ٦٠ ألفا، فأفنوهم عن آخرهم فى ثمانية أيام ولم يستثنوا منهم امرأة ولا طفلا ولا شيخا).

جهود عماد الدين زنكى واستعادة «الرها»

كان عماد الدين[1] زنكى فى الأصل ابن قائد من مماليك السلاجقة وأخذ يعمل على توحيد الجبهة الإسلامية وجمع شمل المسلمين لمدة عشرين سنة. وكان قد برز فى العراق كإدارى وقائد ثم تولى ولاية الموصل عام ١١٢٧م، وبعد ذلك سنحت له الفرصة حين استنجدت به بعض مدن الشام مثل حلب وحماه ودمشق ودعته لإنقاذها من الصليبيين فسار إلى الشام واستولى على حلب وغيرها. ثم وجه قواه نحو الإمارة الصليبية فى الشام وأخطرها بعد بيت المقدس - وضرب حولها الحصار من كل جانب حتى صار الطائر لا يكاد يقترب منها خوفا من سهام المضيقين عليها، وهكذا تم استعادة عاصمة الإمارة الصليبية الأولى فى عام ١١٤٤م[2] وقد كانت «الرها» قاعدة صليبية ذات أهمية استراتيجية كبيرة إذ كانت تتحكم فى طرق المواصلات بين جنوبى آسيا الصغرى وسوريا وشمال العراق وتحول دون الاتصال المباشر بين الموصل وحلب فكانت تقع بين نهرى دجله والفرات وقد أدى سقوط الرها فى أيدى المسلمين خدمة هائلة لقضية الوحدة الإسلامية لا تقاس إلا بما حققه نور الدين ثم صلاح الدين فيما بعد.

كما كان سقوط «الرها» ايذانا بالتقاء القوى الإسلامية فى تلك المنطقة فى كفاح الاحتلال الصليبى كله، وقد كان لسقوطها رنة فرح فى شتى أقطار العالم الإسلامى لا يعادله إلا جزع الصليبيين وحزنهم على ضياع إمارتهم الأولى إذ أن سقوطها كان أول مسمار يدق لنسف البناء الصليبى كله، بالإضافة إلى أنها كانت الانتصار الأول الكبير فى سلسلة الانتصارات الإسلامية التالية على الصليبيين. ولكن القدر لم يمهل عماد الدين زنكى ليكمل رسالته فقد قتل عام ١١٤٦م تاركا لابنه «نور الدين محمود» حمل شعلة المقاومة ضد الصليبيين وقيادة الجبهة الإسلامية واتمام توحيدها وقد اتخذ حلب مقراً له وسار على نهج ابيه فى مكافحة الصليبيين. بينما ترك ابنه الأكبر «سيف الدين» حاكما على الموصل، وقد كان عماد الدين زنكى من خير أمراء المسلمين سيرة وعدلا وإصلاحاً للبلاد والتماساً لوسائل الخير للناس هذا بالإضافة إلى تعضيده للعلم والأدب.

---

(١) كان عماد الدين زنكى كبير الأمراء وفى نفس الوقت اتابكا - أى مربيا وراعيا لاثنين من أبناء السلطان محمود بن ملك شاه السلجوقى. وكلمة أتابك عند السلاجقة تعنى كبير الأمراء.

(٢) أى بعد ٤٦ عاما من إنشائها بواسطة الصليبيين.

الحملة الصليبية الثانية

قام البابا والرهبان يدعون لحملة صليبية جديدة تنقذ «الرها» من أيدى المسلمين فقد هز سقوطها عواصم غرب أوروبا هزاً شديداً. وأخذ ملوك أوروبا يعدون العدة للزحف على الشرق بحملة كبيرة عرفها التاريخ باسم «الحملة الصليبية الثانية».

وقد بدأت هذه الحملة فى الزحف نحو الشرق فى صيف سنة ١١٤٧م. بزعامة الراهب الفرنسى «سان برنار» الذى استطاع أن يضم اليه الملوك والأمراء، وكانت مكونة من قوات فرنسية بقيادة الملك لويس السابع ملك فرنسا وقوات المانية بقيادة كونراد الثالث إمبراطور المانيا وكان الألمان أسبق من الفرنسيين فى التحرك فعبروا الدانوب إلى القسطنطينية حيث قابلوا الإمبراطور «مانويل كومينين» البيزنطى والذى كان شديد الحرص على سرعة التخلص منهم وما أن وصل الألمان إلى آسيا الصغرى حتى قابلهم المسلمون عند «دير يليوم» (أسكى شهر) فقضوا على الأغلبية العظمى منهم.

وجاء بعدهم الفرنسيون فلاقوا نفس المصير. وهكذا فنى أكثر الجيشين قتلا وجوعاً قبل أن يصلا إلى سوريا.

واتجهت بقايا الجيشين إلى دمشق فحاصرتها ولكن «نور الدين محمود» سارع بجيشه تجاه دمشق فأسرعت القوات الصليبية بفك الحصار وسارت نحو القدس ثم عاد الملكان بما بقى من قواتهما إلى بلديهما وفشلت الحملة فى تحقيق أهدافها.

نور الدين محمود وجهوده

كان نور الدين محمود ثانى أبناء «عماد الدين زنكى»، وقد ولد فى شوال سنة ٥١١هـ فبراير سنة ١١١٨م. وكان أحب أبنائه إليه وأكثرهم تأثراً بإيمانه بضرورة توحيد البلاد وضم الصفوف لهزيمة المعتدين.

وقد ظهر نور الدين فى الميدان وقد بلغ الصراع بين الإسلام والنصرانية فى حوض البحر المتوسط مداه، فقدكانت المعارك دائرة على أرض الأندلس بين مملكتى «ليون» و«قشتاله» وإمارة قطالونية من ناحية والأندلسيين والمرابطين فالموحدين من ناحية أخرى[1].

(١) بعد أن قام «المرابطون» بدورهم المجيد وأوقفوا تقدم الأسبان فى معركة الزلاقة سنة ٤٧٨هـ – ١٠٨٦م تسلم الموحدون منهم الراية من منتصف القرن الثانى عشر الميلادى تقريبا – وهو نفس الوقت الذى ظهر فيه نور الدين – وأخذوا يدافعون عن الإسلام فى قوة وحمية وبسالة – وظهر من سلاطينهم مجاهدون عظام أدوا للعروبة والإسلام أجل الخدمات. منهم يعقوب بن يوسف المعروف بالمنصور وهو صاحب النصر المدوى على قوات قشتالة وليون عند «الأرك» فى شعبان سنة ٥٩١هـ – ١١٩٥م أى بعد نصر حطين بثمانى سنوات، ولو أن قوات يعقوب المنصور اتحدت مع قوات صلاح الدين ونازلت أوروبا صفا واحدا لنجت الأندلس إلى الأبد.

بعد فشل الحملة الصليبية الثانية عام ١١٤٨م انطلق نور الدين يغير على ما جاوره من أملاك الصليبيين ويسترد ما سبق أن خسره المسلمون فاستولى على حمص ثم احتل دمشق عام ١١٥٤م بعد أن رضى أهلها بالانضمام إلى دولته لما لمسه فيه من غيرة على الإسلام ودفاعه ضد الصليبيين فدخلها بغير حرب سنة ١١٥٤م وأعطاه الخليفة لقب «الملك العادل» عقب ذلك. وتشكلت بذلك جبهة إسلامية موحدة متماسكة بين «الرها» و«حلب» و«دمشق» تقف من ورائها أيضا مدينة «الموصل» وجيوشها.

ولعل أعظم عمل قام به نور الدين فى ميدان الجهاد وتوحيد جبهة المسلمين هو استرداد مصر وتخليصها من الخطر الصليبى الذى هددها بعد.

منتصف القرن الثانى عشر الميلادى بقليل، ذلك أن أحوال الخلافة الفاطمية فى مصر كانت قد تدهورت تدهوراً خطيراً وأصبح الخليفة فى القاهرة ألعوبة فى أيدى قوات الجيش والوزراء والطامعين الذين يتخاصمون على تولى الوزارة. وقد بلغ من خصومتهم أن أحدهم «شاور» لجأ إلى «نور الدين» يطلب العون على خصمه بينما لجأ الآخر وهو «ضرغام» إلى الصليبيين، وخاف نور الدين أن تسقط مصر فى أيدى الصليبيين إذ أن الاستيلاء عليها من شأنه أن يحسم المصير، فمصر هى حجز الزاوية فى جبهة الإسلام وذات موقع متوسط بين قارات ثلاث تصل جناحى الإسلام فى المشرق والمغرب وتشكل مركز الثقل فيه ولو استولى عليها نور الدين لاستطاع أن يضع الصليبيين بين فكى الكماشة أو بين المطرقة والسندان، وهكذا قام السباق بين الطرفين بين نور الدين والصليبيين للسيطرة على مصر.

نور الدين ينقذ مصر من الصليبيين

أتاحت فوضى الوزارة فى مصر أواخر حكم الخليفة الفاطمى العاضد - الفرصة لنور الدين أن يتدخل فى شئونها ويرسل قواته إليها لينقذها من الصليبيين الذين كانوا يحاولون جاهدين الاستيلاء على مصر، فأرسل نور الدين ثلاث حملات على مصر كانت كلها بقيادة «أسد الدين شيركوه» ومعه ابن أخيه «صلاح الدين» وكانت تبلغ سنه سبعة وعشرين عاماً عندما حضر لمصر لأول مرة.

وكانت الحملة الأولى سنة ٥٥٩هـ - أبريل ١١٦٤م استجابة لطلب شاور وزير الخليفة العاضد الذى هرب إلى الشام من وجه «ضرغام» الوزير الثانى للخليفة العاضد واستنجد بنور الدين وتعهد بأن يدفع تكاليف الحملة وأن يسير وفق سياسة نور الدين، فأرسل نور الدين حملته التى استطاعت هزيمة جيش ضرغام عند بلبيس وتقدمت

للقاهرة. وكانت نهاية ضرغام على يد شعب القاهرة الذى ثار ضده واحتز رأسه وبذا خلا الميدان لشاور.

وقد حاول شاور بعد أن استتب له الأمر - أن يتخلص من حلفائه (جيش نور الدين) فقرر الاستنجاد بعمورى الأول ملك بيت المقدس الصليبى لمساعدته، فانتهز عمورى الفرصة وزحف إلى مصر على رأس جيش كبير وحاصر شيركوه وصلاح الدين فى بلبيس يساعدهم (أى الصليبيين) عسكر شاور من العربان والسودان. وبعد ثلاثة شهور من القتال بين الجيشين، تم الاتفاق على أن يخرج الجيشان من مصر - جيش شيركوه وجيش الصليبيين. وقد تم ذلك فى أكتوبر سنة ١١٦٤م - ٥٥٩هـ).

أما بالنسبة للحملة الثانية فقد أرسلها نور الدين بعد أكثر من عامين كان خلالهما شاور سيد الدولة بمصر، وكان شيركوه فى تلك الفترة يحرض نور الدين بكل وسائل التحريض على فتح مصر لمساعدته فى جهاده ضد الفرنجة ولثروتها الكبيرة وأيضاً لأن الخليفة العباسى كان يتمنى دائماً زوال الحكم الفاطمى الشيعى من مصر وعودتها إلى السنة المطهرة.

ولذلك فما أن علم نور الدين أن الصليبيين ينوون إرسال حملة للاستيلاء على مصر حتى سارع بإرسال حملته الثانية فى أوائل سنة ١١٦٧م - ٥٦٢هـ وقد التقى الطرفان عند الفسطاط بعد فترة حيث كان جيش مصر وحلفائه من الفرنجة فى البر الشرقى بينما كان جيش شيركوه عند الجيزة بالبر الغربى وكان شيركوه أقل عدداً بكثير من المصريين والصليبيين بعد ذلك عبر جيش الفرنجة والمصريون إلى الغرب على غرة من شيركوه الذى اضطر إلى التقهقر جنوباً حتى بلغ البابين بالقرب من المنيا. وقد وضع شيركوه خطة محكمة لمقابلة الهجوم المنتظر، وقد تمت المعركة حسب الخطة التى وضعها شيركوه وانتهت بهزيمة المصريين والصليبيين هزيمة كبيرة، ولم يتابع شيركوه القوات المنهزمة وآثر أن يذهب إلى الإسكندرية.

وبعد ذلك سار شيركوه إلى الأسكندرية حيث قابله أهلها بالترحاب لسخطهم على شاور الذى تحالف مع الصليبيين وعين صلاح الدين حاكما على الإسكندرية الذى قام بصد هجمات الصليبيين البرية والبحرية عليها، ثم عاد شيركوه مرة أخرى إلى الصعيد حيث استمر القتال بين الطرفين دون أن يستطيع أحد الطرفين أن يهزم الآخر هزيمة حاسمة. وهنا عقد الطرفان صلحاً اتفقا فيه على رفع حصار الفرنجة عن الإسكندرية وتبادل الأسرى وانسحاب شيركوه وعمورى من مصر للمرة الثانية.

ولكن عمورى سرعان ما عاد بجيشه إلى مصر مرة أخرى فى عام ٥٦٣هـ -

نوفمبر سنة ١١٦٨م رأى بعد عام واحد من عقد معاهدة الصلح لما لمسه من ضعف مصر ومدى هوان خليفتها الفاطمى - فاستولت قواته على بلبيس وارتكبوا فيها فظائع مروعة ضد الأهالى ثم أخذوا فى الزحف على القاهرة دون اتفاق مسبق مع شاور. وهنا عمد شاور إلى حرق مدينة الفسطاط[1] لكى لا يحتلها عمورى كما سارع الخليفة العاضد الفاطمى بنفسه بالاستنجاد بنور الدين للدفاع عن مصر إزاء هذا الغزو الصليبى بعد أن وعد نور الدين بثلث أرض مصر وإبقاء جيش شيركوه فيها.

وقد سارع نور الدين بإرسال حملته الثالثة إلى مصر بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه أيضا ابن اخيه صلاح الدين فى سنة ٥٦٤هـ - ١١٦٩م لأن سقوط مصر فى أيدى الصليبيين كان معناه انهيار أكبر ركن من أركان الجهاد ضد الصليبيين ودعم نفوذهم فى الشرق إلى درجة خطيرة تهدد الإسلام والمسلمين.

وصل شيركوه على رأس جيش كبير مخترقاً الصحراء حتى القاهرة فى أوائل يناير سنة ١١٦٩م - ٥٦٤هـ فاستقبله أهلها استقبال المنقذ وتم توحيد جيش مصر مع جيش شيركوه لأول مرة ضد الصليبيين.

عندئذ وجد عمورى نفسه بين شقى الرحى بين جيش شاور من جهة وجيش شيركوه من جهة أخرى فانسحب مسرعاً بجيشه إلى بيت المقدس فى عام ٥٦٤هـ - يناير ١١٦٩م. وقد حاول شاور بعد ذلك أن يتخلص من جيش شيركوه فى مصر ولكن انتهت مؤامرته بالقبض عليه حيث أمر الخليفة الفاطمى بإعدامه، فأعدم. ثم أمر بتعيين شيركوه وزيراً بعد مقتل شاور وبالغ فى إكرامه وخلع عليه، فتولى شيركوه الوزارة ولكنه لم يلبث بها إلا شهرين فقط حيث توفى بعدها فسارع الخليفة العاضد الفاطمى بتعيين صلاح الدين وزيراً خلفاً له، وقد أصبح صلاح الدين يعترف بالخليفة الفاطمى الشيعى ولكنه فى نفس الوقت كان تابعا لنور الدين محمود السنى فى دمشق وقائداً من قواده.

وقد اعتبر كثير من المؤرخين أن انتصارهما (أى شيركوه وصلاح الدين) هو بمثابة الفتح الثانى لمصر بعد عمرو بن العاص، ويقول ابن واصل مؤلف كتاب «مفرج الكروب فى سيرة بنى أيوب» يقول: «فإنها - أى فتح مصر - كانت من أجل الفتوح وأعظمها ولو استولى العدو - لعنه الله - على الديار المصرية لاستولى على سائر المنطقة الإسلامية».

وبذلك استطاع نور الدين أن يوحد مصر مع بلاد الشام والجزيرة والعراق، وقامت فى مصر حياة جديدة ويقظة متفتحة نتيجة للاستقرار الذى تحقق لها بعد التفكك الذى

(١) ظلت النار مشتعلة فيها لمدة ٥٤ يوما ومازالت آثارها باقية حتى اليوم.

كان متفشيا فى أواخر حكم الفاطميين لمصر. وبدأت مصر تستعد للإسهام فى أعمال تحرير المشرق من الصليبيين.

وأخذ نور الدين محمود بعد ذلك يعد قواته من أجل خوض المعركة الفاصلة ضد الصليبيين وكان موقنا من النصر حتى أنه أمر بصنع منبر ليخطب عليه خطبة الجمعة الأولى بعد تحرير بيت المقدس (أحرق هذا المنبر عند احراق المسجد الأقصى بعد حرب عام ١٩٦٧) وبذلك مهد نور الدين الطريق إلى الوحدة بهدف تحقيق النصر الكامل على الصليبيين.

وهكذا طوق نور الدين الصليبيين وزعزع حياتهم، وقد استمر نور الدين فى الاستعداد لخوض المعركة الفاصلة ضد الصليبيين مع الاستعانة بصلاح الدين فى مصر - إلا أنه توفى فجأة فى سنة ٥٦٩هـ - ١١٧٤م. وعندئذ اعتبر صلاح الدين الوارث الوحيد للمشروع الكبير فى إنهاء الاحتلال المسيحى للشرق الإسلامى.

وهنا يأتى دور صلاح الدين التاريخى فى نضاله وكفاحه ضد الصليبيين وهذا سيكون موضع بحث آخر يمثل مرحلة هامة من مراحل الصراع ضد الصليبيين وهزيمتهم.

ظهور فرسان المعبد والإسبتاريه

بعد إنشاء الإمارات الصليبية الأربع لم تنقطع البعوث الصليبية عن المجئ إلى الشام لإمداد الجيش المحارب ضد المسلمين.

ولكن بعد نحو ثلث قرن من إنشاء تلك الإمارات ذهب الجيل الأول من أبطال الحرب الأولى وشعر المسيحيون بالنقص الذى طرأ على صفوفهم، وكان فى أوروبا منذ القرن العاشر حركة إصلاح فى الدين كانت ترمى إلى إعادة الفضيلة المسيحية بإنشاء الأديرة والطوائف الدينية (النساك والرهبان) على مبادئ الزهد والفضيلة. فلما اتجهت الجهود إلى الحروب الصليبية كان من الطبيعى لأوروبا أن يفكر قادتها من المتحمسين - وأكثرهم من رجال الدين - فى إنشاء فرق من رهبان محاربين يجمعون بين فضائل الزهد والنسك وبين فضائل الانتصار للدين، وكان من نتيجة تلك الحركة ظهور طوائف أكبرها طائفة التمبلارز Templars أو فرسان المعبد ويسميهم العرب الداوية وينسبون إلى المعبد أو التمبل وهو معبد سيدنا سليمان حيث أقامت طائفتهم، ثم طائفة من الهوسبتاليين Hospitallers أو فرقة القديس يوحنا ويسميهم العرب الإسبتارية وينسبون إلى مستشفى بناه تجار إيطاليون ونسبوه إلى القديس يوحنا تبركا به.

وكان رهبان الطائفتين من أكبر العاملين على الدفاع عن المسيحيين بالشام مدة قرن تقريباً إذ كانوا هم العمود الفقرى لجيش الصليبيين ويعرفون بالفضل والاستقامة والزهد والشجاعة وقد أقر المسلمون أنفسهم بذلك رغم العداوة التى كانت بين الجانبين، وسوف نلمس الدور الذى قاموا به فى الحملات الصليبية التالية وخاصة ضد صلاح الدين وقواته.

الفصل السابع عشر

صلاح الدين الأيوبى
«بطل حطين والقدس»

نشأته

تنحدر أسرة صلاح الدين من أصل كردى. وكان شادى (جد صلاح الدين) يعيش فى بلدة «دوين» من بلاد أذربيجان قريباً من الكرخ. وكان شادى من خيرة الرجال وذوى الهمة.

وقد عين شادى حاكماً لتكريت وكان معه ولدان «نجم الدين أيوب» (أبو صلاح الدين) وشيركوه ويقال أن صلاح الدين[١] ولد فى تكريت. وبعد فترة مات شادى فتولى ابنه الأكبر نجم الدين مكانه.

وقد خرج «نجم الدين» وأهله من تكريت سنة ٥٣٢هـ متجهاً إلى الموصل للاستعانة «بعماد الدين زنكى» بعد أن اضطرتهم الظروف لذلك.

وفى رحاب «عماد الدين زنكى» تطورت الأسرة الأيوبية فقد أصبح نجم الدين وأخوه شيركوه من خيرة القواد. وفى هذا الجو نشأ صلاح الدين وترعرع.

وبعد وفاة «عماد الدين زنكى» تولى ابنه «نور الدين» واستأنف مسيرة أبيه «عماد الدين» فى العمل على توحيد صفوف المسلمين لرد الهجمة الصليبية العاتية.

وقد استطاع السيطرة على «حلب» ثم «دمشق» ثم رأى أن سيطرته على «مصر» أمر ضرورى ليكمل إحاطته بالصليبيين حتى يستطيع القضاء عليهم. فأرسل ثلاث حملات[٢] على «مصر» كانت كلها بقيادة «أسد الدين شيركوه» ومعه «صلاح الدين» (ابن أخيه نجم الدين).

---

(١) كان اسمه الحقيقى يوسف ولكن أضيفت له العدد من الألقاب وأكثروا له عقب فتوحاته وانتصاراته وأشهرها صلاح الدن التى غلبت عليه فاشتهر بها حتى كادت تطغى على اسمه الحقيقى.
(٢) انظر مقدمة الحروب الصليبية.

ومن خلال هذه الحملات ظهرت عبقرية «صلاح الدين» وقدراته العسكرية والتنظيمية حتى استطاع فى النهاية أن يتولى الوزارة فى مصر. ثم أخذ يعد العدة شيئاً فشيئاً لطرد الصليبيين وهزيمتهم.

صلاح الدين يحضر لمصر ويتولى الحكم

بدأت سلطة «صلاح الدين» بمصر سنة ٥٦٤هـ - ١١٦٩م مع الحملة الثالثة التى أرسلها «نور الدين محمود» بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين عندما تولى صلاح الدين الوزارة فى مصر خلفاً لعمه أسد الدين شيركوه. وكان سبب الحملة أن خلافاً وقع بين شاور - وزير الخليفة العاضد الفاطمى - والصليبيين لأنه لم يوف لهم بما تعهد به إليهم من أموال نظير حضورهم لمصر فى الحملة الثانية سنة ٥٦٢هـ - ١١٦٧م بناء على طلبه لتثبيت سلطته التى كانت تهتز - فهاجم الصليبيون مصر واحتلوا «بلبيس» وأعملوا فى سكانها القتل والنهب والسلب، وعندئذ اتصل الخليفة العاضد سراً «بنور الدين زنكى» وطلب معاونته ضد شاور وضد الصليبيين، فحضر «شيركوه» لثالث مرة إلى مصر ومعه ابن أخيه «صلاح الدين» الذى تردد فى الحضور أول الأمر.

تظاهر شاور بالترحيب بهذه الحملة وذهب لاستقبال شيركوه ولكن «صلاح الدين» قبض عليه وصدرت أوامر الخليفة بقتله. وأسند الخليفة الوزارة إلى شيركوه. ولكن شيركوه مات بعد شهرين فقط فتولى «صلاح الدين» الوزارة بعده. وكما سبق القول كان «صلاح الدين» يعترف بالخليفة الفاطمى «العاضد» ولكنه فى نفس الوقت كان تابعاً لنور الدين زنكى وقائداً من قواده مع العلم بأن صلاح الدين كان سنياً مثل عماد الدين زنكى بينما كان الخليفة الفاطمى شيعياً هو وحكومته.

صلاح الدين يوطد نفوذه

ما أن تولى صلاح الدين الوزارة حتى أخذ يعمل على توطيد نفوذه وسلطته فى مصر - فأخذ يتقرب إلى الشعب الذى كان فى مجموعه سنياً وأظهر العدل بين الناس وعاملهم معاملة كريمة كما أظهر التسامح مع أتباع المذهب الشيعى كما أتاح للأقباط حرية التدين إلى أقصى حد. وكان من نتائج ذلك أن أحبه الأقباط محبة شديدة. وفى نفس الوقت قضى على حرس الخليفة من الأرمن وأيضاً من السودان بعد أن ثاروا ضده ثورة كبيرة.

وقد اتجه صلاح الدين بجهوده نحو المصريين جميعاً فرفع عنهم المظالم وخفف الضرائب والمكوس التى كانت ترهقهم واستمال بذلك قلوب الناس.

وفى هذه الأثناء كان صلاح الدين يقف من الصليبيين موقفاً حازماً فقد رد عدوانهم على دمياط بعنف وقوة. ولم يقف إزاءهم موقف المدافع وإنما راح يهاجمهم فى معاقلهم، فالتف المصريون حوله واتخذوه زعيماً وقائداً فاستقرت له الأمور بمصر.

عزل الخليفة العاضد

بعد أن أحس «صلاح الدين» باستقرار سلطته بمصر أخذ يفكر فى عزل الخليفة «العاضد» الفاطمى الشيعى وخاصة أن «نور الدين زنكى» كان يحثه دائماً على اتخاذ هذه الخطوة، وكان العاضد آنذاك مريضاً ومنزوياً فى بيته ولم يكن له أى سلطة سوى ذكر اسمه فى خطبة الجمعة وبجواره اسم نور الدين السنى الذى يخطب فى بلاده لخلفاء العباسيين.

وفى سنة ٥٦٧هـ ١١٧٢م أى بعد ثلاث سنوات من وصوله لمصر آخر مرة – أمر جميع خطباء المساجد بإعلان عزل الخليفة العاضد وإنهاء الخلافة الفاطمية على مصر.

وكان العاضد حينئذ قد اشتد به المرض فلم يخبروه بشئ وقالوا إن سلم من المرض فسوف يعلم وإن توفى فلا داعى لإيذاء مشاعره فى هذه الأيام الباقية له فى الحياة.

وقد توفى فى عاشوراء ولم يعلم بشئ. وجلس «صلاح الدين» للعزاء ثلاثة أيام واستولى على قصره فوزع بعض ما فيه على أتباعه وقومه.

وقد أخذ «صلاح الدين» بعد ذلك يستكمل إلحاق مصر بالخلافة العباسية فخطب للخليفة «المستضئ بالله» العباسى وعزل القضاة الشيعة وعين بدلا منهم قضاة شافعيين فى جميع البلدان فاختفى بذلك مذهب الشيعة فى مصر كلها.

العلاقة بين صلاح الدين ونور الدين

بعد أن تخلص صلاح الدين من الفاطميين واستتبت له الأمور فى مصر أخذ يفكر فى كيفية التخلص من سيادة «نور الدين زنكى» وكان نور الدين يشعر أن صلاح الدين أخذ يعمل لحساب نفسه أكثر مما يعمل لحسابه أى نور الدين صاحب السلطة العليا عليه.

وقد كان موقف صلاح الدين دقيقاً وحساساً إلا أنه أخذ يتصرف بكياسة فهو من جهه يدعم سلطانه، ويقوى نفسه من جهة أخرى لا يقطع حبل الود مع نور الدين

زنكى بل يذكر اسمه فى الخطبة (خطبة الجمعة) وينقشه على السكة ويسترضيه بالهدايا والتحف النفيسة[١].

ولعل أولى الخطوات التى أثارت الشكوك فى نفس نور الدين كانت طلب صلاح الدين من نور الدين أن يرسل إليه والده ثم إيفاد إخوته وذويه. وقد أحس نور الدين من هذه الطلبات أن صلاح الدين يريد تثبيت سلطانه واستقراره بمصر ومع ذلك فإن «نور الدين» لم يمانع فى ذلك.

ويبدو أن صلاح الدين فى علاقته مع نور الدين أخذ يعد نفسه لأسوأ الاحتمالات ألا وهو وقوع مشكلات حربية بينهما ولذلك نراه يبنى القلعة على قمة المقطم لينقل اليها مسكنه ودواوينه عند الخطر، كما أخذ يعين أهله وذويه وصفوة أتباعه فى المناصب الرئيسية فى الجيش والإدارة حتى يضمن ولاءهم له فى جميع الظروف. وقد حاول نور الدين الالتقاء بصلاح الدين خارج مصر ولكن صلاح الدين كان يتهرب من هذا اللقاء كما يقول بعض المؤرخين فقد خرج صلاح الدين سنة ١١٧١م - ٥٦٧هـ بعد القضاء على الدولة الفاطمية فى مصر لمهاجمة الصليبيين فى قلعة الشوبك بفلسطين على مسيرة يوم من الكرك حتى يفتح الطريق التجارى بين مصر والشام فعلم نور الدين بتلك الحرب فسار من دمشق نحوه لمساعدته فى الاستيلاء على الحصن من الفرنج فلما علم صلاح الدين بمسيرة نور الدين إليه ترك الحصن ورجع إلى مصر مما أغضب نور الدين عليه فكتب إليه صلاح الدين يعتذر إليه ويعده بالاشتراك معه فى خطة واحدة للهجوم على بيت المقدس. وقد رضيت نفس نور الدين بهذا المسلك من صلاح الدين. والواقع أن رجوع صلاح الدين عن الشوبك سنة ١١٧١م كان أمراً طبيعياً لأنه رأى أن الحصن لن يسلم له إلا بعد أمد قد يطول وأن نور الدين قد يشترك فى الحرب فيوسع دائرتها بينما كان صلاح الدين خارجاً من أحداث انقلاب بمصر وإزالة الدولة الفاطمية التى كان لها أتباع وأنصار يفكرون فى الدفاع عنها وإرجاع الأمور إلى ما كانت عليه كما كان أيضا حديث عهد بثورة السودانيين لذلك كله آثر صلاح الدين العودة حتى لا يترك مصر أمدا طويلاً قد يحدث خلاله مالا تحمد عقباه.

وقد انتهز «نور الدين» فرصة خروج اموری[٢] إلى قليقية لحرب الأرمن واستعد للخروج من دمشق وأرسل إلى صلاح الدين يطلب منه الخروج فخرج فى (شوال سنة

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ص ٥٠.
(٢) أمورى ملك بيت المقدس أو عمورى أو إمرى.

٥٦٩هـ - مايو ١١٧٣م) ووصل إلى الكرك وأسرع نور الدين للقائه ولم يبق على لقائهما سوى يوم واحد.

وهنا تغير الموقف، ذلك أن جماعة من قواد صلاح الدين خافوا لقاء نور الدين وقد كانت بدرت منهم عبارات فى حقه تدل على خسة ونكران للجميل فخافوا لقاءه بل ذهب بعضهم إلى حد تحريض صلاح الدين على الخروج على نور الدين ولذلك فقد سارعوا بالعودة إلى مصر قبل لقاء نور الدين تجنبا لهذا اللقاء ووجد صلاح الدين نفسه فى حرج شديد. وبينما هو كذلك اذ بلغه نبأ مرض أبيه فتعلل به وبعث يقول أن أباه نائبه فى القاهرة وأنه يخاف «أن يحدث حادث الموت فتخرج البلاد عن أيديهم «وأرسل إلى نور الدين» من التحف والهدايا ما يجل عن الوصف» وما كان نور الدين صاحب تحف أو هدايا - فتأثر لما حدث ولكنه لم يظهر تأثراً، والأغلب أنه قد عذر صلاح الدين وقال لرسوله: «حفظ مصر أهم عندنا من غيرها».

والواقع أن صلاح الدين فى سنة ١١٧٣م كان يشم خطرا فى الجو فلما دعاه نور الدين إلى حصار الكرك لم يستطع أن يتمنع حتى لا يسئ سيده الظن به فذهب إلى هناك فى شوال وكان هو السابق إلى الحصار وظل على الحصار وحده لمدة شهرين ثم أقبل نور الدين بعد ذلك متأخراً فى ذى الحجة. ورأى صلاح الدين فى خلال تلك الفترة امتناع الحصن عليه ولعل نور الدين لو كان قد اشترك معه فى الحصار فى أول الأمر لكان الحصن قد سلم ولكن تأخر نور الدين بهذا الشكل كان معناه زيادة تأخير صلاح الدين إلى مدة أطول وخاصة أن نور الدين لو كان بدأ الحرب فلن ينتهى منها إلا بعد أن يبلى فيها بلاء حسنا ولن يستطيع صلاح الدين حينئذ أن يترك نور الدين يحارب وحده ويعود بقواته لذلك آثر أن يعود منذ أول الأمر وقبل أن يصل نور الدين حتى يتجنب تطور الأمور إلى ما هو أسوأ. فأرسل رسولاً إلى نور الدين يعتذر فى أدب ومعه من الهدايا الشئ الكثير.

ولاشك أن كان هناك حول نور الدين جماعة من الحاقدين على صلاح الدين كانوا يحاولون الإيقاع بين نور الدين وصلاح الدين حتى يحقد عليه ويخلعه ويعين بذلك واحدا منهم مما أوجد هذه الجفوة بين البطلين وجعل نور الدين يتغير على صلاح الدين ويسئ الظن به وصلاح الدين صابر لا ينوى مقاومة ولا يظهر إلا الخضوع والإخلاص.

وبذلك ضاعت فرصة ثمينة كان يرجو من ورائها خيراً كثيراً للإسلام بالاستيلاء على بيت المقدس وطرد الصليبيين منها. ولم يطل الخلاف بين صلاح الدين ونور

الدين فقد توفى نور الدين فى دمشق فى يوم الأربعاء ١١ شوال سنة ٥٦٩هـ - ١٥مايو ١١٧٤م.

الموقف بعد وفاة نور الدين

بوفاة نور الدين توطدت وتأكدت سلطة صلاح الدين على مصر ولكن فى نفس الوقت كان لموت نور الدين رجة عنيفة فى عالم الإسلام كله فوجم أهل الشام والجزيرة ومصر جميعاً وجوم الذاهلين وخرج الرجال والنساء فى دمشق يشيعون جثمان البطل العظيم الذى جمع رفق الأب الحانى ومهارة الإدارى القادر وإقدام البطل الذى لا يهاب الموت وإيمان الأتقياء الصالحين.

ولقد تركت وفاة نور الدين فراغا كبيراً فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ الإسلام فقد أرهق الصليبيين وأنزل بهم هزائم متوالية ألجأتهم إلى الدفاع عن أنفسهم بعد أن كانوا مهاجمين دائماً. ولم يكن هناك من يملأ هذا الفراغ بسهولة سوى صلاح الدين - كبير رجال نور الدين بمصر. ولكن الرؤساء والقادة والولاة - وكلهم صنائع نور الدين - سارعوا إلى انتهاب الغنيمة بعد وفاته بدلاً من أن يجتمعوا يداً واحدة أمام العدو الصليبى الذى يتربص بهم الدوائر - وخاصة أن ابن نور الدين محمود والذى نودى به سلطاناً من بعده باسم «الملك الصالح» كان فى الحادية عشرة من عمره وجعل مقره فى دمشق.

كان من نتيجة هذه الخلافات والنزاعات بين قادة نور الدين فى الشام أن تفرقت الدولة الإسلامية القوية التى أسسها نور الدين فى الشام والتى كانت - بالإضافة إلى مصر - السند الحقيقى لأى حرب مقبلة لهزيمة الصليبيين وإجلائهم عن الشرق.

وقد تركزت الخلافات بين العواصم الثلاث - دمشق وحلب والموصل - واستمرت سنين طويلة اضطر خلالها صلاح الدين إلى التدخل أكثر من مرة لإنقاذ الشام من الصراعات بل ولإنقاذه من محاولات الصليبيين استعادة دمشق نتيجة لاستعانة بعض الأمراء بهم ضد أعدائهم من المسلمين !!. بل لقد وصل الأمر بالملك الصالح نفسه إلى الإستعانة بالفرنج وبالإسماعيلية[١] ضد صلاح الدين. فاضطر صلاح الدين إلى قطع علاقاته بالملك الصالح وإعلان استقلاله فى عام ٥٧٠هـ - ١١٧٥م، وقد أيده فى ذلك الخليفة العباسى.

---

(١) الإسماعيلية هم طائفة الباطنية وكانوا يستخدمون مجموعة من القتلة والسفاحين للتخلص من أعدائهم.

وقد استمر الصراع بين صلاح الدين وبين حكام حلب والموصل عدة سنوات مات في خلالها الملك الصالح وعمره لم يتجاوز العشرين سنة ٥٧٦هـ - ١١٨١م، واستطاع صلاح الدين في نهاية الأمر الاستيلاء على حلب في منتصف عام ٥٧٨هـ - ١١٨٣م كما استطاع في عام ٥٨٠هـ - ١١٨٥م إخضاع الموصل. وبذلك تمت لصلاح الدين السيطرة على كل بلاد الشام استعداداً لبدء مرحلة جديدة من مراحل الجهاد ضد الصليبيين.

صلاح الدين يستعد لتخليص الأراضي المقدسة

كانت تسيطر على صلاح الدين فكرة معينة نذر نفسه لها ألا وهي تخليص الأراضي المقدسة من أيدي الصليبيين. وكانت جميع جهوده وتحركاته من أجل تجميع القوى الإسلامية ودفعها في اتجاه الوحدة لإنقاذ بيت المقدس والقضاء على العدو الصليبي. ويقول ابن شداد صاحب كتاب النوادر السلطانية:

[سمعت صلاح الدين يقول: لما يسر الله تعالى لي الديار المصرية علمت أنه أراد فتح الساحل (الأراضي المقدسة) لأنه أوقع ذلك في نفسي. ويقول المستشرق الإنجليزي جيب Gibb أن صلاح الدين أخذ يحس أنه صاحب رسالة وأنه يجب أن يؤدي هذه الرسالة ويبلغ الأمانة الموكلة إليه].

ولهذا نجده خلال فترة حكمه بمصر يرسل أخاه طوران شاه إلى شواطئ شمال أفريقية فاستولى على سواحل طرابلس وتونس حتى مدينة قابس من النورمانديين سنة ٥٦٨هـ. ثم أرسله إلى بلاد النوبة والسودان فاستولى عليها. ثم بعث به إلى اليمن فاحتلها وضمها إلى سلطانه سنة ٥٦٩هـ. ودانت له الحجاز كذلك والتي كانت تابعة لمن يستولي على السلطة في مصر منذ العهد الأخشيدي.

وبذلك ظهرت أول دولة إسلامية موحدة لم يعرفها الشرق منذ قرنين من الزمان ومنذ العهد الذهبي للفاطميين ما بين شمال الشام والجزيرة وأقاصي اليمن جنوباً، ومن بلاد النوبة إلى برقة غرباً.

وأصبح صلاح الدين بذلك بعد ستة عشر عاماً[1] من الكفاح والحروب المستمرة في وضع مكنه من حشد موارد هذه الإمبراطورية الضخمة ضد العدو الذي يتمركز في قلبها - في القدس والإمارات الصليبية.

(١) منذ توليه الوزارة في مصر عام ٥٦٤هـ - ١١٦٩م إلى عام ٥٨٠ هـ - ١١٨٥م عام إخضاع الموصل.

الصليبيون يستمرون فى قتالهم ضد صلاح الدين

ومع ذلك وفى خلال تلك الفترة الطويلة من الاستعداد كانت المناوشات مستمرة بينه وبين الفرنجة. ففى مطلع عهد «صلاح الدين» اتجه إلى مهادنة الصليبيين حتى يثبت أقدامه ويقوى سلطانه. ولكن الفرنجة قابلوا هذه السياسة بالتحدى والتعصب فنشبت المعارك بينهم وبين صلاح الدين، وقد حاول الصليبيون الاستيلاء على بعلبك وغزو دمشق، وقد حققوا بعض الانتصارات فى هذه الجولة رغم إسراع صلاح الدين من مصر لمعاونة جيشه فى فلسطين ولكن ملك بيت المقدس قابله عند «الرملة» حيث دارت معركة عنيفة سنة ١١٨٧م هزم فيها جيش صلاح الدين. وعاد صلاح الدين إلى مصر ليستعد لجولة أخرى فكون جيشاً كبيراً حشد له المؤن والذخيرة، كما كون جيوشاً إضافية عين لها كبار القادة والأبطال وسارت هذه الجيوش تهاجم الصليبيين فى كل مكان تقريباً. وقد سار أحد جيوشه بقيادة فروخ شاه ابن أخيه لمقابلة بولدوين الرابع الذى حاول دخول دمشق فأنزل فروخ شاه بجيش الفرنجه هزيمة ساحقة سقط فيها بولدوين جريحاً.

كما أرسل صلاح الدين جيوشاً أخرى تهاجم الصليبيين فى بيروت وصيدا، ونتيجة لذلك راح الصليبيون يطلبون الهدنة من جديد فوافق صلاح الدين على مهادنة بعضهم وظل فى صراع مع البعض الآخر حتى يفرق بين جموعهم.

وقد عاد صلاح الدين إلى النضال ضد الصليبيين بعد أن استطاع تحقيق أهدافه فى توحيد العالم الإسلامى. وقد ساعده على ذلك أن أمير الكرك الصليبى «رجينالد - أرناط»[1] نقض المعاهدة التى كانت بينه وبين صلاح الدين وقام بعدة أعمال أثارت غضب صلاح الدين الشديد - فقد أرسل أسطولاً إلى شواطئ الحجاز لمهاجمة الحجاج المسلمين وتهديد المقدسات الإسلامية فى مكة والمدينة كما دأب على مهاجمة القوافل الإسلامية وسلب متاعها وأسر أفرادها. وفى سنة ١١٨٧م هاجم أرناط قافلة مسلمة كانت قادمة من القاهرة إلى دمشق رغم وجود هدنة بين الطرفين كان أهم بنودها أن يدع أرناط قوافل المسلمين تمر بسلام، فكانت بذلك الشرارة التى أشعلت الموقف وأدت إلى معركة «حطين» الشهيرة. وقد أرسل صلاح الدين وفداً إلى أرناط

---

(١) كان أرناط من أعدى أعداء المسلمين وقد اشتهر بالقسوة ونقض العهود، وهو فرنسى الأصل، وقد أصبح (رجنالد أو أرنولد دى شاتوين) أميراً على حصن الكرك والشوبك اعتباراً من ١١٧٧م نتيجة زواجه من ستيفانى ابنة صاحب الأردن. وكانت سيطرة أرناط على هاتين القلعتين تهدد طريق قوافل حجاج المسلمين تهديداً خطيرا مما استدعى إرسال حاميات من فرسان المسلمين مع كل قافلة.

يطلب إطلاق الأسرى ورد (المنهوبات) فأجاب أرناط رافضاً بتحد ووقاحة، فأرسل صلاح الدين رسالة إلى ملك القدس فلم يستطع فعل شئ، وهنا استنفر صلاح الدين قواته وأعلن الجهاد فى ربيع سنة ٥٨٣هـ - ١١٨٧م واستنفر قوى المسلمين فى الجزيرة والشام وغيرها ونذر صلاح الدين أن يقتل أرناط إذا ظفر به، وأخذت القوات تتدفق على دمشق لتنطلق منها إلى الصليبيين وعلى رأسها جنود مصر البواسل. واتخذ من دمشق مركزاً للقيادة العليا لقواته وانتقلت الحكومة معه من مصر إلى دمشق وأقام أخاه العادل بمصر نائبا عنه فيها.

الاستعداد لمعركة «حطين»

تعتبر موقعة حطين من أشهر المعارك الحربية فى تاريخ العالم الغربى بصفة خاصة. وقد دارت رحى هذه المعركة فى يومى ٢٤و٢٥ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ الموافق الثالث والرابع من يوليو ١١٨٦م، وحطين سهل جبلى بالقرب من بحيرة طبرية المجاورة لبيت المقدس.

وقد أخذت قوات صلاح الدين من دولته ودولة الموصل وغيرها تصل إلى دمشق كما وصل عدد كبير من المتطوعين للجهاد، وقد تجمع لدى صلاح الدين أكثر من عشرين ألفاً من المقاتلين، وقامت قيادة القوات بوضع خطة لإستدراج قوات الصليبيين إلى المنطقة المرتفعة حول طبرية لإيقاع ضربة قاصمة بهم، وقد شرع صلاح الدين فى حملته الكبرى ضد الصليبيين عندما غادر دمشق فى مارس ١١٨٦م متجهاً للجنوب حيث دارت معركة كبيرة بينه وبين فرسان الصليبيين عند صفورية بين عكا والناصرة. فى مايو ١١٨٧م انتهت بهزيمة الصليبيين هزيمة كبرى.

وهنا شعر الصليبيون بالخطر المقبل نحوهم فأزالوا خلافاتهم وحشدوا قواتهم كلها ولعلها قاربت الخمسين[1] ألفاً - وهو عدد لم يجتمع للصليبيين مرة واحدة فى الشام كلها لا من قبل ولا من بعد، وعسكرت قوات الصليبيين فى صفورية تراقب الأحوال وتنتظر تطور الأمور.

وكما هو واضح فقد فاقت هذه القوات تعداد قوات صلاح الدين وكان فيها خيرة رجال الفرنجة فى المشرق مع تفوق كبير فى التسليح. ومع ذلك كله فقد عوض صلاح الدين كل ذلك بالتكتيك البارع فى المعركة فقد كانت غالبية قواته من الفرسان وكان سلاحهم الأساسى هو القسى والنشاب مع السيوف والدبابيس. وتفوقت قسى جيش صلاح الدين على ما كان يوجد لدى الفرنجة إذ كانت أكثر مرونة وأخف

(١) تقدرها بعض المراجع بثلاثة وستين ألفاً.

وزنا وأسهل استعمالاً. وفى مواسم الحر كانت فرسان الصليبيين (المدرعة) تعانى من العطش ويصاب فرسانها بالإنهاك نتيجة لإنحباس العرق تحت الدروع. كما أن قوات صلاح الدين عندما تتقدم للمعركة فإنها كانت تغطى سماء المعركة بالسهام التى كانت تستهدف خيول الفرنجة عادة مما اضطرهم إلى تغطية أنفسهم وخيولهم بالدروع الواقية ولكن هذه الدروع كانت تعوقهم عن خفة الحركة بالنسبة لفرسان المسلمين. وفى نفس الوقت ألجأت هذه الدروع الصليبيين إلى الاستعانة بقوات كبيرة من المشاة تتقدم الفرسان لحمايتهم من مشاة المسلمين ومن فرسانهم. ولذلك كانت تكتيكات صلاح الدين تهدف أيضا إلى إخراج الصليبيين من قلاعهم وحصونهم واستدراجهم لميادين القتال المكشوفة حيث يمكن هزيمتهم.

وقد استطاع صلاح الدين استدراج الصليبيين قبل معركة حطين مباشرة بأن هاجم «طبرية» وأخذ المدينة[1] عنوة فى ليلة ولجأ من بالمدينة إلى القلعة فامتنعوا بها فنهب المدينة وأحرقها وكان ذلك يوم خميس ٢٣ ربيع الآخر ٥٨٣هـ الموافق ٢ يوليو ١١٨٧م.

فلما سمع الصليبيون بمهاجمة صلاح الدين للمدينة واستيلائه عليها وإحراقها اجتمعوا للمشاورة فقوى[2] عزمهم على التقدم إلى المسلمين وقتالهم، فرحلوا عن معسكرهم واقتربوا من عساكر المسلمين، فلما سمع صلاح الدين بذلك عاد عن طبرية إلى عسكره - وكان قريباً منه - وإنما كان قصده بمحاصرة طبرية أن يفارق الفرنج مكانهم ليتمكن من قتالهم فى المكان الذى أحسن اختياره للمعركة. وكان المسلمون قد نزلوا على الماء والزمان قيظ شديد الحر، فوجد الفرنج العطش ولم يتمكنوا من الوصول إلى ذلك الماء من المسلمين. ولم يتمكنوا من الرجوع إلى معسكرهم خوفا من المسلمين فبقوا على حالهم إلى الغد وهو يوم السبت وقد أخذ العطش منهم. أما المسلمون فإنهم طمعوا فيهم وكانوا من قبل يخافون فباتوا يحرض بعضهم بعضاً وقد وجدوا ريح النصر والظفر وأخذوا يرددون فى قوة هتافهم «الله أكبر الله أكبر» بصوت كدوى الرعد حتى سرى الذعر فى قلوب الصليبيين.

---

(١) عن «الكامل فى التاريخ» لابن الأثير، الجزء الحادى عشر، وهنا يلاحظ أن زوجة «ريموند» أمير طرابلس والذى انضم إلى الصليبيين ناقضا الهدنة التى كانت بينه وبين صلاح الدين - كانت زوجته فى طبرية ولجأت إلى القلعة مع اللاجئين.

(٢) كان «ريموند» يرى أن يقفوا حيث هم عند صفورية فيضطر صلاح الدين لمهاجمتهم وحينئذ تواجهه صعاب العطش والأرض الوعرة وانعدام المياه مع شدة الحر ولكن «أرناط» كان يرى التقدم نحو صلاح الدين لمهاجمته.

معركة «حطين»

في يوم السبت ٢٥ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ - ٤ يوليو ١١٨٧م التقى الناصر صلاح الدين بجيوش الصليبيين غربي بحيرة طبرية وحال بجيشه دون وصول الصليبيين إلى ماء بحيرة طبرية وطاف على جيوش الإسلام يحرضهم على القتال. وكلما توجه فريق من الصليبيين نحو البحيرة كان مصيره القتل أو الأسر.

وكانت جيوش الصليبيين بقيادة «جي دى لوسنيان» ملك بيت المقدس «ورجنالد-أرناط» أمير قلعة الكرك و«ريموند» أمير طرابلس. وقد اشتد القتال وحمل الصليبيون على المسلمين حملات يائسة للوصول إلى الماء ولكنهم كانوا لا يحملون حملة إلا صدهم المسلمون فيرجعون وقد قتل منهم من قتل فوهنوا لذلك وهناً عظيماً فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها، ولما اشتد القتال والفناء بصفوف الصليبيين لجأ من استطاع منهم الفرار إلى جبل حطين[1] رجاء أن يعصمهم من المسلمين ومن شدة القتال ولكن هيهات.

وقد أرادوا نصب خيامهم فوق التل ويحموا أنفسهم به ولكن المسلمين منعوهم مما أرادوا ولم يتمكنوا من نصب أى خيمة سوى خيمة ملكهم، واستولى المسلمون على صليبهم الأعظم الذى يسمونه «صليب الصلبوت»[2] ويقولون أن فيه قطعة من الخشب التى صلب عليها (المسيح عليه السلام) بزعمهم، فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك.

ويصف الأفضل على ابن صلاح الدين - والذى كان معه فى معركة حطين - يصف المعركة فيقول:

[كنت إلى جانب أبى فى ذلك المصاف. وهو أول مصاف شاهدته فلما صار ملك الفرنج على التل فى تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى الحقوهم بوالدى، فنظرت إليه وقد علته كآبة وتغير لونه وأمسك بلحيته وتقدم وهو يصيح «كذب الشيطان» فعاد المسلمون على الفرنج فعادوا وصعدوا إلى التل، فلما رأيت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحى «هزمناهم»!! فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى حتى الحقوا المسلمين بوالدى وفعل مثلما فعل أولا. وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل، فصحت أنا أيضا «هزمناهم»!! فالتفت

(١) هو عبارة عن هضبة صغيرة ارتفاعها حوالى ٣٠٠ متر عن سطح البحر.
(٢) كان يحمله مطران عكا لتقوية حماس الصليبيين ولكنه قتل فى المعركة واستولى المسلمون على الصليب.

والدى إلىّ وقال اسكت – ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة – أى خيمة الملك – فهو يقول ذلك وإذا الخيمة قد سقطت. فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى وبكى من شدة فرحه].

وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ازدادوا عطشاً وقد كانوا يرجون الخلاص فى بعض تلك الحملات مما هم فيه. فلما لم يجدوا إلى الخلاص طريقاً نزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض فصعد المسلمون إليهم فألقوا خيمة الملك وأسروهم عن بكرة أبيهم وفيهم الملك وأخوه والبرنس أرناط صاحب الكرك ولم يكن من الفرنج أشد عداوة منه للمسلمين. واسروا أيضا صاحب جبيل وابن هنفرى ومقدم الداوية[1] وجماعة من الاسبتاريه[2] وكثر القتل والأسر فيهم. فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا أحداً ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قد قتلوا أحداً، وما أصيب الفرنج بمثل هذه الوقعة منذ جاءوا إلى الساحل أول مرة سنة ٤٩١هـ – ١٠٩٨م.

استعراض الأسرى وقتل أرناط

استعرض صلاح الدين بعد ذلك كبار الأسرى بعد أن صلى لله تعالى صلاة الشكر على نعمة النصر. وأجلس ملك القدس الصليبى بجانبه وأذن له بشربة ماء مثلوج وأجلس رجنالد بجانب الملك وهو ينوى تنفيذ نذره فيه لمساءاته السابقة وشدة عناده وعداوته للمسلمين.

ولما ناول الملك كأس الماء إلى «رجنالد» قال له صلاح الدين [لم آذن لك فى سقيه الماء فينال أمانى]. وأخذ صلاح الدين يذكر رجنالد بجرائمه وكم حلف ثم نكث وكم عاهد ثم أخلف. ثم قال له «ها أنا ذا أنتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم» فقد كان رجنالد عندما غدر بالقافلة القادمة لمن مصر للشام قال لمن أسرهم من المسلمين «قولوا لمحمد يخلصكم». وعرض صلاح الدين الإسلام على رجنالد فأبى فاستل «التمنجاه»[3] من وسطه وضربه بها فحل كتفه وأجهز عليه من كان عنده من الخدم، وقال الناصر كنت نذرت مرتين أن أقتله إن ظفرت به: إحداهما لما أراد المسير إلى مكه والمدينة والثانية لما أخذ منا القافلة غدراً. وقد ارتعد ملك بيت المقدس آنذاك ولكن صلاح الدين رد الأمان إلى نفس الملك بقوله: [أن الملك لا يقتل الملك].

(١) الداوية : Templars فرسان المعبد.

(٢) الاسبتاريه : Hospitallers

(٣) «التمنجاه» خنجر مقوس يشبه السف القصير.

بعد حطين

لقد استطاع صلاح الدين أن يدمر قوى الصليبيين فى حطين وسقط فيها أكثر الأمراء والنبلاء والقادة ما بين قتيل وأسير حتى أصبحت جيوشهم لا تجد من يقودها أو يدبر أمرها. كما أن اسم صلاح الدين أصبح يسبب رعبا للصليبيين ويملأ قلوبهم بالرهبة كما أصبح يعنى بالنسبة لهم الموت الزؤام.

ولذلك فقد سارع صلاح الدين إلى انتهاز هذه الفرصة وسار إلى عكا فاحتلها وأقام بها قليلاً. ومنها أرسل قواته فاستولت على الناصرية وقيسارية وحيفا. ثم اتجه صلاح الدين إلى صيدا فاستولى عليها وواصل سيره إلى بيروت فاستسلمت بعد حصار قصير ثم اتجه بعد ذلك مباشرة إلى عسقلان والتى حاول الصليبيون اتخاذها قاعدة لتهديد مصر وقطع المواصلات بينها وبين الشام. بعد ذلك مباشرة اتجه إلى بيت المقدس - الهدف الأساسى له فى كل العمليات التى قام بها - فوصلها فى منتصف رجب سنة ٥٨٣هـ - ٢٠ سبتمبر ١١٨٧م.

فتح بيت المقدس(١)

حاول صلاح الدين أن يدخل المدينة المقدسة صلحا حتى لا يعرضها لدمار الحرب. ولكن القدس قد أصبحت ملجأ لكل من هرب إليها من أمام صلاح الدين، أو أفلت من الحصار فى المدن التى فتحها، فاجتمع بها كثير من الخلق كلهم كان يرى الموت أهون عليه من أن يملك المسلمون بيت المقدس ثانية.

ولذلك فقد حصنوا المدينة بكل ما يستطيعون واستكملت عدتها للصراع وأحاط صلاح الدين بالمدينة واتخذ جبل الزيتون مركزاً لجيوشه، وهناك نصب المنجنيق وأخذ يلقى على أسوار المدينة وابلا من الحجارة ففر المدافعون واحتموا بالأسوار الضخمة وبذلك تقدم المسلمون من الأسوار وأخذوا ينقبونها تحت وابل من السهام المتبادلة بين المهاجمين والمدافعين.

ولكن سرعان ما اتضح للفرنجة أن النصر سيحالف العرب ويئسوا من تحقيق أى انتصار نظراً لاستماتة العرب والمسلمين فى الهجوم فمالوا إلى الصلح... فقبل صلاح الدين الصلح بعد تردد وبعد مفاوضات طويلة.

(١) كان صلاح الدين كثيراً ما يبدأ القتال ضد الصليبيين يوم الجمعة تبركاً بدعاء المسلمين والخطباء، ودخل عكا يوم الجمعة غرة جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ. ويوليو ١١٨٧م. وبدأ معركة حطين يوم الجمعة ١٣ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ وفى الجمعة ٢٠ رجب سنة ٥٨٣هـ انتقل إلى الجانب الشمالى لمدينة القدس، وفى يوم الجمعة ٢٧ رجب أى ليلة الاسراء والمعراج تسلم المدينة.

وقد اتفق الطرفان على أن يخرج الفرنجة من المدينة سالمين فى مدى أربعين يوماً وأن يدفع الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة والصبى دينارين. ووفى صلاح الدين والمسلمين بهذا العهد وتناسوا الدماء الغزيرة والأرواح الكثيرة التى أزهقها الفرنجة يوم انتصارهم فى بيت المقدس منذ حوالى تسعين عاماً مضت. وكان صلاح الدين غاية فى الكرم والعطف على نساء الفرنجة ممن طلبن أن يهبهن أزواجهن وأولادهن ليصحبوهن فى الرحيل. وقد سلمت المدينة يوم الجمعة ٢٧ من رجب سنة ٥٨٣هـ - ٢ اكتوبر سنة ١١٨٧م أى بعد نصر حطين بشهرين فقط.

وهكذا عادت بيت المقدس إلى أحضان الإسلام ودوى صوت المؤذن فى المسجد الأقصى وسكت ناقوس المسيحيين وأنزل رجال صلاح الدين الصليب الذهبى من فوق قبة الصخرة وسط تكبير وتهليل المسلمين فرحاً وسروراً. ثم قام بتطهير المسجد الأقصى وأمر بإحضار منبر نور الدين[١] من حلب ووضعه بالمسجد الأقصى بعد عشرين سنة من صنعه. وأخذ فى عمارة المسجد الأقصى وتوسيعه وتحسينه وتدقيق نقوشه. كما أخذ فى إصلاح أسوار المدينة وإعادة المنشآت الإسلامية فيها إلى ما كانت عليه. وكفى صلاح الدين فخراً وشرفاً أنه أول من فتح بيت المقدس بعد عمر بن الخطاب رضى الله عنه واستعادها لحوزة المسلمين.

الموقف بعد سقوط بيت المقدس

كان من المفروض أن يعود صلاح الدين سريعاً إلى صور للاستيلاء عليها حيث كانت تعتبر من أهم الموانئ الباقية فى أيدى الصليبيين. ولكنه أبطأ قليلاً لانشغاله بنصره العظيم فى بيت المقدس وإعادة الأمور فيه إلى ما كانت عليه قبل الغزو الصليبى.

وعندما عاد صلاح الدين إلى صور اكتشف مناعة حصونها وقوة قلاعها وكثرة عدد الحامية بها وذلك نظراً لأن صلاح الدين سمح للصليبيين الذين فتح بلادهم صلحاً - وعلى رأسهم فرنجة بيت المقدس وغيرها - سمح لهم بالخروج من هذه البلاد والقلاع بأموالهم وتحفهم الثمينة وأن يلجأوا إلى صور حيث تجمعوا بداخلها وأصبحوا قوة لا يستهان بها. وكان ذلك خطأ عسكريا وقع فيه صلاح الدين بتساهله مع هؤلاء القوم الذين لا يضمرون للإسلام والمسلمين إلا الحقد والتعصب الأعمى. كما زاد من قوتها أن أساطيل الصليبيين البحرية كانت تمدها من البحر بكل ما تحتاج إليه من عتاد ومؤن وسلاح ورجال لشد أزر حاميتها.

(١) كان نور الدين محمود قد صنع هذا المنبر خصيصا ونذر أن يضعه فى المسجد الأقصى عندما يفتح الله عليه القدس، وقد أحضره صلاح الدين من حلب وفاء لنذر قائده نور الدين محمود.

وقد استمر صلاح الدين فى حصارها مدة طويلة ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها وارتد عنها فى شوال سنة ٥٨٣هـ - ١١٨٧م خاصة لحلول فصل الشتاء. الأمر الذى أعاد للصليبيين بعضاً من الثقة فى النفس بعد هزائم حطين وبيت المقدس.

وفى الواقع فإن صلاح الدين كان كلما فتح بلداً من تلك البلاد تسليما بغير حرب أذن لأصحابها بالرحيل عنها وكانوا جميعاً يختارون مدينة صور. وقد لام كثيرون تلك السياسة وقالوا إنها غلطة من صلاح الدين وقصر فى النظر إذ مهد السبيل إلى جمع عدد عظيم من الصليبيين فى مدينة صور وبذلك خلق لنفسه قلعة حصينة معادية له على الساحل تستطيع مقاومته. ولكن يجب ألا ننسى أنه عندما أوسع صدره لكل من يسلم بدون حرب أن يذهب إلى مدينة صور فإنه بذلك قد شجع أعداءه على التسليم بغير حرب وقلل بذلك من ضحايا القتال. كما أنه كسب بسياسته هذه شيئا هاماً كبيرا وهو تطهير الداخل من اعدائه المتناثرين فى حصونهم وقلاعهم هنا وهناك وحشدهم جميعاً فى جهة واحدة على الساحل حيث يستطيع أن يقضى عليهم إن عاجلاً أو آجلاً وحيث لا يستطيعون البقاء إلا باستمرار النجدات والإمداد من الخارج الأمر الذى لا يمكن بقاؤه واستمراره إلى الأبد.

هذا وإن استمرار هؤلاء الأعداء متناثرين فى حصونهم وقلاعهم فى الداخل كان سيتطلب من صلاح الدين توزيع قواته هنا وهناك لمراقبتهم أو لمهاجمتهم كما كان سيهدد مواصلاته الداخلية وأمن قواته بصفة مستمرة بينما حصرهم فى جهة واحدة على الساحل فى صور سيجعل من السهل حصارهم ومراقبتهم مراقبة دقيقة.

وفى أوائل عام ٥٨٤هـ - ١١٨٨م زحف صلاح الدين لمحاصرة إنطاكية والقضاء على حصونها الباقية فى أيدى الصليبيين. إلا أن أميرها «بوهمند» طلب عقد هدنة مع صلاح الدين مع التعهد بإطلاق سراح الأسرى المسلمين لديه.

عندئذ تحول صلاح الدين إلى الجنوب مرة أخرى حيث استطاع الاستيلاء أخيراً على حصنى الكرك والشوبك وأيضا صفد وكوكب. وهى من أكبر القلاع التى طالما قاومت هجمات المسلمين سنين طويلة.

الحملة الصليبية الثالثة

بسقوط القدس فى أيدى المسلمين عادت الأحوال إلى ما كانت عليه قبل بدء

الحروب الصليبية منذ حوالى تسعين عاماً. وأخذ الصليبيون يستعدون من جديد للاستيلاء على بيت المقدس فأعدوا الحملة الصليبية الثالثة لهذا الغرض ١١٨٩م - ١١٩٢م[1].

ومع التشابه في الهدف بين الحملة الصليبية الأولى والثالثة. فقد كانت هناك خلافات واضحة بين الحملتين أهمها أن الحملة الأولى كان رائدها البابا أما الحملة الثالثة فكان رائدها بعض العلمانيين ورجال السياسة بالإضافة إلى أن جيوش الصليبيين كانت مفككة ومتفرقة بينما كانت جيوش المسلمين متماسكة ومنتصرة بعكس ما كان عليه الحال في الحملة الأولى.

وقد تولى قيادة الحملة الثالثة كبار ملوك أوروبا وهم «فردريك بارباروسا» امبراطور ألمانيا «وريتشارد قلب الأسد» ملك انجلترا و«فيليب أغسطس» ملك فرنسا. وكان فردريك أكثرهم نشاطاً وحماساً فأخذ طريق البر فغرق وهو يعبر نهر سالف بولاية قلقيليا بأرمينيا بالقرب من الرها. وانتهز جيشه هذه الفرصة فعاد معظمه من حيث جاء.

أما الجيشان الانجليزى والفرنسى فقد خرجا من أوروبا بطريق البحر وتقابلا فى صقلية حيث أمضيا الشتاء. وفى خلال هذا الاجتماع دب الشقاق بين الملكين فأبحر كل منهما على حدة واتجه ريتشارد إلى قبرص حيث استولى عليها فى طريقه. واتجه فيليب مباشرة إلى فلسطين حيث حاصر عكا بمساعدة من تبقى من جنود فردريك. وانضم إلى الحصار اللاتين المقيمون في سوريا بقيادة الملك «جى دى لوسنيان» ملك بيت المقدس السابق - مع أنه كان قد أقسم لصلاح الدين بعد هزيمة حطين وأسره ألا يعود إلى محاربته مرة أخرى - وكذا جموع كثيرة من الصليبيين المهزومين والذين سبق أن تجمعوا فى صور بناء على سماح صلاح الدين لهم بذلك.

القتال حول عكا واستسلامها

اتجه صلاح الدين إلى عكا لقتال الصليبيين المحاصرين لها وبدا أن كفته سترجح فاستنجد الصليبيون «بريتشارد» وقواته فهرع إليهم. وشهد القتال حول عكا أقوى هجوم من الصليبيين وأقوى دفاع من صلاح الدين وأظهرت قواته ألواناً من التضحيات والبطولة والفداء. كما أظهر الصليبيون أيضاً من جانبهم ألواناً من الشجاعة إذ أن هزيمتهم أمام عكا كان معناها هزيمة أوروبا كلها. وقد استمر القتال فى البر والبحر طويلاً (أكثر من عامين تبادل فيه الطرفان النصر والهزيمة) ولكن فى النهاية رجحت

---

(١) كانت الحملة الأولى سنة ١٠٩٧ والحملة الثانية سنة ١١٤٧ أى بعد الحملة الأولى بخمسين سنة بينما كانت الحملة الثالثة سنة ١١٨٧ أى بعد الحملة الثانية بأربعين سنة.

كفة الصليبيين بسبب بحريتهم القوية وسيطرتهم على المرفأ واستمرار الإمدادات من جميع أرجاء أوروبا مما أدى إلى استسلام المدافعين عنها بشروط أهمها ألا يتعرض الصليبيون لقوة المدافعين المسلمين بسوء مقابل فدية باهظة (٢٠٠ ألف درهم). ولما تأخر المسلمون في تقديم الفدية فتك ريتشارد ملك انجلترا بالأسرى وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم بعد أن أوثقوهم بالحبال. وكان لذلك العمل رد فعل عظيم وكآبة وحزن لدى المسلمين وجنود صلاح الدين.

وقد استسلمت مدينة عكا الباسلة فى يوم الجمعة ١٧ جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ - ١٢ يوليو سنة ١١٩١م، بعد هذا النصر الكبير الذى أحرزه الصليبيون أصلحوا ما تهدم من أسوار عكا وسدوا ميناءها بالسلاسل الحديدية. وأصبحت عكا أهم قواعدهم على ساحل الشام تأتيهم سفنهم الكبيرة من أرجاء أوروبا حاملة إليهم العتاد والأسلحة والإمدادات.

الموقف بعد سقوط عكا

كان من حسن طالع المسلمين أن نشبت الخلافات الحادة بين ريتشارد ملك انجلترا وفيليب ملك فرنسا حول عرش مملكة بيت المقدس الذى كانوا يطمعون فى استعادته من المسلمين مرة أخرى مما أغضب فيليب نظراً لاستئثار ريتشارد بكل الغنائم دونه. ونقضه اتفاقه السابق مع فيليب قبل وصولهما إلى عكا والذى كان يقضى باقتسامهما كل ما يفتح سواء فى قبرص أو فى مملكة بيت المقدس.

وقد تسبب هذا الخلاف فى عودة فيليب ملك فرنسا وجنوده إلى بلاده بعد سقوط عكا. مما تسبب فى محاولة كونراد (المركيش كما يسميه المسلمون) حاكم صور للتصالح مع صلاح الدين خوفاً من ريتشارد وأطماعه بعد أن انفرد بالقيادة. ولكن كونراد قتل غيلة وهنا ظهرت أطماع ريتشارد بوضوح فقد أرسل على الفور هنرى دى شامبين (الكندهرى كما يسميه المسلمون) ليكون حاكما على صور من طرفه.

وبعد انفراد ريتشارد بالقيادة العامة لقوات الصليبيين بالمشرق واستقرار الأمور بالنسبة له - خرج من عكا على رأس جيش عظيم من المشاه والفرسان فى مستهل شعبان ٥٨٧هـ - ١١٩١م وسار بموازاة الساحل جنوباً للاستيلاء على المدن الساحلية ثم ينفذ بعد ذلك إلى الداخل للاستيلاء على بيت المقدس.

وفى نفس الوقت وجد ريتشارد معظم مدن الساحل مخربة بأمر من صلاح الدين. ورغم ما أبداه من شجاعة فائقة فى القتال حتى أطلقوا عليه لقب «قلب الأسد». رغم

ذلك لم يستطع أن يحقق أى نصر حاسم على صلاح الدين ووجد أن المقاومة ضده تزداد ضراوة كلما حاول التقدم نحو الداخل. لذلك كله لم يكن سقوط عكا كافيا لتثبيت أقدام الصليبيين بفلسطين وظهر أنه ليس بمقدورهم الحصول على انتصارات وفتوحات أخرى لشدة مقاومة المسلمين لهم واستمرار الحرب بلا هوادة.

صلح الرملة

مل «ريتشارد» الحرب وخاف على ملكه البعيد خاصة عندما سمع أن أخاه الذى أجلسه على عرشه بانجلترا أثناء غيابه يحاول اغتصاب عرشه بعد أن طالت غيبته، فجرت مشاورات بين الطرفين أوردهما ابن شداد فى كتابه (النوادر السلطانية).

لذلك فقد كتب ريتشارد إلى صلاح الدين يقول له: (إن المسلمين والفرنجة قد هلكوا وخربت ديارهم وتلفت الأموال والأرواح وليس هناك حديث سوى القدس والصليب. والصليب خشبة عندكم لا مقدار له وهو عندنا عظيم فيمن به السلطان علينا ونستريح من هذا العناء).

فأجاب صلاح الدين (القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم لأنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة فلا يتصور أحد أن ننزل عنه، وأما البلاد فهى لنا واستيلاؤكم كان طارئا لضعف المسلمين).

وقد استغرقت مفاوضات الصلح أو الهدنة سنة كاملة، وقد تخلل الاتصالات الدبلوماسية المعقدة محاولات «ريتشارد قلب الأسد» عقد زيجة بين[1] أخته والملك العادل أخى صلاح الدين كما تخللها المعاملات الدالة على الشهامة بينهما، وقد استمرت العمليات العسكرية (عسقلان ويافا وارسوف) التى رد صلاح الدين خلالها بالمثل على ما فعله الفرنجة بأسرى عكا. وأخيراً وقعت اتفاقية «صلح الرملة» الشهير فى ٢٢ شعبان ٥٨٨هـ - ٢ سبتمبر ١١٩٢م التى أقرت الوضع القائم مع ترك قطعة ضيقة من الساحل للصليبيين ممتدة بجوار عكا تمتد من صور إلى حيفا. كما تسمح لحجاجهم بزيارة الأماكن المقدسة عزلاً من السلاح. واحتفظ صلاح الدين بفتوحاته فى اللد والرملة وعسقلان كما احتفظ بداخل البلاد وبذلك انتهت الحملة الصليبية الثالثة. وعقب الصلح عاد ريتشارد إلى بلاده كما عاد صلاح الدين إلى بيت المقدس حيث قضى بها شهر رمضان سنة ٥٨٨هـ ٠ ١١٩٢م.

---

(١) اقترح ريتشارد هذا الزواج من شقيقته على أن يكون لهما - أى الملك العادل أخو صلاح الدين وشقيقة ريتشارد - يكون لهما عرش القدس وعكا ويتوجا ملكين. وقد رفض صلاح الدين هذا العرض واعتبره مكيدة انجليزية كما رفضته الكنيسة الانجليزية إلا إذا اعتنق الملك العادل المسيحية.

ويذكر ايمرتون[1] Emerton أن السبب فى فشل الحملة الصليبية الثالثة [أن الملوك الثلاثة لم يحملوا السلاح كرجال يدافعون عن الدين وإنما كملوك يعملون لأمجادهم الخاصة. أما «ريتشارد» الذى يعد أحد أبطال العصور الوسطى فقد كان الرجل من البرابرة الذين لا يحترمون القوانين ولا يتخلقون بسجايا رفيعة].

وفاة صلاح الدين

فى السادس عشر من شهر شوال سنة ٥٥٨هـ توجه السلطان الناصر صلاح الدين فى كوكبة من فرسانه من بيت المقدس إلى دمشق بعد غيبة استمرت أربع سنوات قضاها كلها فى الجهاد فى سبيل الله وقتال الصليبيين.

وقد استقبله أهل دمشق استقبالاً شعبيا رائعاً وجاءت إليه وفود الناس من كل أرجاء الشام وسائر البلاد الإسلامية مهنئين ومؤيدين ومبايعين كما اجتمع فى مجلسه العلماء والأدباء والشعراء يغمرونه بالثناء والمديح.

وبعد حوالى ثلاثة شهور من عودته إلى دمشق وفى شهر صفر سنة ٥٨٩هـ أصيب صلاح الدين بالحمى فمرض مرضاً شديداً لم يمهله سوى اثنى عشر يوما حيث توفى إلى رحمة مولاه فى يوم الأربعاء ٢٧ من صفر ٥٨٩هـ الموافق ٤ مارس سنة ١١٩٣م. وعمره سبع وخمسون سنة بعد أن حكم مصر حوالى أربع وعشرين سنة وحكم الشام حوالى تسع عشرة سنة وخلف سبعة عشر ولدا ذكرا وابنة واحدة تزوجت فيما بعد بابن عمها الملك الكامل سلطان مصر.

وقد غشى أهل دمشق يوم موته من البكاء والضجيج مالا يمكن التعبير عنه وقد عظم الأسف واشتد القلق وقال ابن شداد: «وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بأنفسهم وما سمعت هذا التمنى إلا فى هذا اليوم». وقال عنه كارل بروكمان[2] «والحق أن حروب صلاح الدين ضد الصليبيين قد جعلته من أشهر ملوك الشرق فى أوروبا، أما فى الذاكرة الشرقية فلا يزال خالدا إلى جانب كبار الخلفاء والسلاطين كرمز لحقبة من أمجد حقب التاريخ.

وما من شك فى أن قلة ضئيلة من أمراء المسلمين كانت تضارعه من حيث تجرده عن أى نزعة للكسب الشخصى ومن حيث انصرافه إلى خدمة دولته ورعاياها ليس إلا. ولم يستطع اعداؤه إلا الاقرار له بالشهامة والنبل فى معاملة الخصم المغلوب.

---

(١) Midivial Europe ص ٣٧٨.

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية جـ ٢.

كما قال المؤرخ الغربى ستانلى لين بول فى كتابه «صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس» الذى نشره عام ١٨٩٣ قال عن صلاح الدين: «لقد أجمع الناس على أن صلاح الدين كان نادر المثال فى أخلاقه فهو - بلا شك - طاهر الذيل شجاع صنديد غير أنه هادئ النفس رقيق الطبع لين الجانب رحيم الفؤاد زاهد فى الدنيا ليس فيه صلف ولا كبر بل فى بساطة وورع وتقى».

كما كتب عنه بعض المؤرخين العرب الذين عاصروه ومن أشهرهم القاضى بهاء الدين بن شداد الذى كتب كتابه المعروف «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» وأبو شامه الذى كتب كتابه «الروضتين فى أخبار الدولتين» والمقصود بالدولتين هما دولة نور الدين محمود ودولة صلاح الدين.

وليس هذا فحسب بل كان صلاح الدين نصيرا للعلم وقد عاش فى رحابه نفر من خيرة العلماء كـ «ابن العماد الاصفهانى» الذى أرخ لفتح القدس.

وقد حزن عليه الناس حزنا شديدا وبكوا بكاء كثيراً وارتفعت الأصوات وعظم الضجيج عند مشاهدة جنازته وغشى الناس من البكاء والعويل ما شغلهم عن الصلاة وصلى عليه الناس أرسالا.

رحم الله صلاح الدين رحمة واسعة فقد كان قائداً موهوبا تمثلت فى شخصيته كل القيم والمعانى التى كانت تتحلى بها نفوس العرب والمسلمين وأدخله الله فسيح جناته مع النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا.

وقد تولى بعده ولده الملك الأفضل فقد تولى حكم دولة موحدة تمتد من الدجلة إلى النوبة إلى برقة بما فى ذلك العراق والشام ومصر وذلك بفضل جهاد وجهود صلاح الدين الأيوبى.

الفصل الثامن عشر

الملك الصالح أيوب والملكة شجرة الدر والحملة الصليبية السابعة

٦٤٧ - ٦٤٩ هـ - ١٢٤٩ - ١٢٥١م

مقدمة

بعد فشل الحملة الثالثة بقيادة ريتشارد الأول (قلب الأسد) ملك انجلترا فى استعادة بيت المقدس من المسلمين - ازداد تطلع الصليبيين لاسترداد بيت المقدس ولكن عن طريق مهاجمة مصر مباشرة. ولم تكن هذه الفكرة جديدة عليهم فقد كانت هى الفكرة التى وصل إليها ريتشارد قلب الأسد بعد فشله فى استرداد بيت المقدس من صلاح الدين. كما كانت الحملة الصليبية الرابعة على وشك غزو مصر سنة ١٠٢١م. لو لم تتحول أنظار قادتها عن ذلك الهدف إلى الاستيلاء على القسطنطينية نفسها وتقسيم الإمبراطورية البيزنطية.

ولذلك فقد توجهت الحملة الصليبية الخامسة[1] ٦١٥-٦١٨هـ - ١٢١٨-١٢٢١م إلى مصر مباشرة بقيادة جان دى بريين Jean de Brienn ملك بيت المقدس والكاردينال بلاجيوس Cardinal Pelagius بصفته نائبا بابويا «أى بعد انتصار صلاح الدين بأكثر من ثلاثين عاماً». وبدأت عملياتها الحربية بمحاصرة دمياط. وظلت الجيوش الصليبية تحاصرها سنة وحوالى خمسة أشهر دار خلالها قتال عنيف بين الطرفين حتى دخلوها عنوة فى شهر نوفمبر ٦١٦هـ سنة ١٢١٩م. وكان السلطان الملك الكامل سلطان مصر فى تلك الفترة قد عرض عليهم أن يأخذوا مملكة بيت المقدس التى كانت فى يدهم قبل استيلاء صلاح الدين عليها سنة ١١٨٧م ولكنهم رفضوا هذا العرض وصمموا على الزحف نحو القاهرة. وقد ارتكب الصليبيون فى دمياط بعدما دخلوها من الفظائع ما تقشعر منه الأبدان ويعتبر وصمة فى جبين الصليبيين بعد

---

(١) تحدثت بعض المراجع العربية بإسهاب عن هذه الحملة مثل ما كتبه المؤرخ المصرى تقى الدين أحمد بن على المقريزى فى كتابه «السلوك لمعرفة دول الملوك وكتاب المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار» وما كتبه بن تغرى بردى الأتابكى فى كتابه «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة».

أن أعملوا السيف فى الناس كما فعلوا قبل ذلك عند استيلائهم على القدس فى الحملة الصليبية الأولى.

وفى تلك الفترة مات الملك العادل[1] وخلفه بن الملك الكامل فأمر بتشييد الاستحكامات لصد تقدم الصليبيين على الأرض التى عرفت بعد ذلك باسم المنصورة[2] كما أرسل الرسائل إلى أمراء الإمارات الأيوبية فى الشام والعراق لإرسال النجدات والقوات إلى مصر كما قام بحشد قواته ورجاله والمتطوعين من المصريين لصد التقدم الصليبى المنتظر وقد وقف السلطان بقواته أمام طلخا على رأس بحر أشموم والبحر المذكور يحول بينه وبين الصليبيين إلا أن الصليبيين لم يستطيعوا الزحف نحو القاهرة بعد استيلائهم على دمياط مباشرة كما أراد الكاردينال بلاجيوس بل تأخروا حتى شهر يوليو ١٢٢١م – ٦١٨هـ وبذلك أتاحوا للسلطان وقتا كافيا لإعادة تنظيم قواته واتمام بناء الاستحكامات على الطريق نحو الجنوب.

وقد بدأ الصليبيون فى الزحف جنوبا نحو القاهرة حتى وصلوا إلى منطقة المنصورة وصار بينهم وبين جيش المسلمين بحر أشموم وبحر دمياط. وهناك دار قتال عنيف بين الطرفين واشتد القتال بين الطرفين براً وبحراً وكانت العامة تكر على الفرنج بشدة ويتخطفهم جنود السلطان وقام جنود السلطان بقطع الترع والجسور لحصار الصليبيين بمياه فيضان النيل الذى كان فى ذروته فأحاط الماء بهم من كل جانب، كما نشبت معركة بحرية كبيرة فى النيل انتصر فيها المسلمون واستولوا على المراكب الصليبية وما عليها من أسلحة وإمدادات فأحيط بالصليبيين من كل جانب وبعثوا يسألون الملك الكامل واخوته الأمان على أنفسهم على أن يسلموا دمياط بغير عوض، وقد تم الاتفاق والصلح على ذلك وعلى هدنة لمدة ثمانى سنوات على أن يطلق كل فريق ما لديه من الأسرى، وأخيراً رحل الصليبيون عن دمياط بعد أن ظلت فى أيديهم سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما فدخلها السلطان بجنوده وأهله بين معالم الفرح والسرور فى مصر والعالم الإسلامى.

---

(١) مات الملك العادل فى الشام فى أغسطس ١٢١٨م عن عمر يناهز ٧٥ سنة وهو الملك العادل أبى بكر ابن أيوب وخلفه ابنه الملك الكامل محمد سادس ملوك الأيوبيين على مصر.

(٢) المنصورة: قال المقريزى فى الجزء الأول من خططه ص ٢٣١ إن هذه المدينة أنشأها الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى سنة ٦١٦هـ عندما ملك الفرنج دمياط. وقد جعلها الملك الكامل منزلا لعسكره وسماها المنصورة (تيمنا بانتصاره على الصليبيين) ولم يزل بها حتى استرجع دمياط فصارت المنصورة عقب ذلك مدينة كبيرة بها المساجد والحمامات والفنادق والأسواق.

وهكذا انتهت هذه الحملة بالفشل التام رغم القتال العنيف الذى دار فيها بين الطرفين والذى اشترك فيه عشرات الألوف من الفرسان والمشاه من الجانبين.

ولكن يشاء القدر أن الذى تحققت على يديه استعادة بيت المقدس للمسيحيين وبدون قتال هو الإمبراطور فردريك الثانى[1] Frederick II إذ جاء هذا الإمبراطور إلى عكا سنة ١٢٢٨م على رأس فئة قليلة من الجند وأخذ فى مفاوضة السلطان الكامل بمهارة وبالحسنى حتى عقد معه معاهدة [2] من شروطها إعادة مدينة بيت المقدس والناصرة وبيت لحم إلى الصليبيين مع النزول لهم عن أرض تكون طريقا يصل بيت المقدس بميناء عكا. غير أن بيت المقدس لم يتبق فى أيدى الصليبيين سوى خمسة عشر عاما فقط إذ أخرجهم الملك الصالح أيوب منها سنة ١٢٤٤م مما أثار فى أوروبا مشاعر الصليبيين وضرورة تجهيز حملة صليبية جديدة لإستعادة بيت المقدس فكانت بذلك الحملة الصليبية السابعة والتى قادها لويس التاسع ملك فرنسا شخصيا.

الملك الصالح أيوب يتولى الملك

تولى الملك الصالح نجم الدين أيوب عرش مصر سنة ٦٣٧هـ - ١٢٣٩م بعد صراع عنيف بين أبناء و أحفاد صلاح الدين الأيوبى- ذلك النزاع الذى أدى إلى تفكك الإمبراطورية الإسلامية الشامخة التى أسسها «صلاح الدين» والتى كانت الأساس الذى يبنى عليه انتصاراته العظيمة ضد الصليبيين، والملك الصالح هو حفيد صلاح الدين.

وكان الملك الصالح ملكا متين الخلق وافر الحشمة شديد الهيبة يمقت المجون والعبث ويؤثر العزلة ويميل إلى صحبة أهل الفضل والتقوى.

ولكن هذه الصفات الحميدة التى اتصف بها كانت تشوبها قسوته وغطرسته التى لا تحتمل فكان متحفظا صموتاً وكان يعتقد أنه مما يقلل من جلال السلطان وينال من هيبته أن يتنازل فيخاطب أحداً من رعيته.

---

(١) فردريك الثانى إمبراطور الدولة الألمانية الغربية.

(٢) كان من شروط المعاهدة أيضا أن يبقى المسجد الأقصى وقبة الصخرة وقرى بيت المقدس فى أيدى المسلمين، كما كان من شروطها أيضا الاتفاق على هدنة مدتها عشر سنوات بين الطرفين. وكان ذلك الاتفاق بسبب خشية السلطان دائماً من سوء العلاقات فى المستقبل بينه وبين اخوته من ملوك البيت الأيوبى فى الشام والجزيرة.

الملك الصالح يوثق روابط المملكة

وقد عنى الملك الصالح منذ توليه العرش بإصلاح الأمور وتوطيد الدولة وتوثيق روابطها المفككة فاستولى على «دمشق» من عمه اسماعيل وعين ولده المعظم «تورانشاه» نائبا على البلاد الشرقية واستولى بعد ذلك على عسقلان وانتزع الكرك من صاحبها الناصر داود حليفه القديم. ولم تمض أعوام قلائل حتى استطاع أن يبسط سلطاته على معظم أنحاء المملكة المصرية القديمة فى عهد جده صلاح الدين وأن يقضى على أطماع الخوارج عليه.

وحالفه التوفيق أيضا فى محاربة الصليبيين فهزمهم فى عدة وقائع محلية وزحف جنده على بيت المقدس وأعادوا أحياءها النصرانية إلى حظيرة الإسلام مرة أخرى ٦٤٢هـ - ١٢٤٤م الأمر الذى أثار المشاعر فى أوروبا المسيحية وضرورة تجهيز حملة صليبية جديدة لاستعادة بيت المقدس.

كما أنه هو الذى أنشأ فرقة المماليك البحرية التى لعبت أعظم دور فى تاريخ مصر فى القرنين السابع والثامن من الهجرة (١٣-١٤م)، فقد قام الأيوبيون بتغيير العناصر التى كان يتألف منها الجيش أثناء الدولة الفاطمية إذ كان الجيش يتكون عادة من المصريين والمغاربة والأحباش والسودانيين فحل محل المغاربة والأحباش جنود من الأكراد والسوريين والعرب، ولكن الملك الصالح أدخل تعديلاً خطيراً على هذه القوات كان هو السبب فيما بعد فى زوال سلطان أسرتهم وذلك لأنهم - لتخوفهم من العنصر العربى بين رعاياهم - اختص بعنايته فرقة من العبيد المجلوبين بطريق الشراء - المماليك - كان عددهم حوالى ثمانية آلاف مقاتل ثم ازدادت إلى أضعاف هذا العدد فيما بعد. وقد رفع السلطان هذه الفرقة على سائر جيشه وجعل منها حرسه الخاص، وكان هؤلاء الجنود أولى بأس وشجاعة وذوى براعة نادرة فى امتشاق الحسام واستعمال القوس والرمح حتى أصبحوا يؤلفون أكبر جيش منظم فى العالم حينذاك.

ويعتبر الملك الصالح أعظم سلاطين[١] الأيوبيين بعد صلاح الدين.

بدء مرض الملك

أصاب الملك الصالح فى أواخر عهده مرض عضال بدت أعراضه الخطيرة سنة ٦٤٦هـ وكانت حوادث الشام يومئذ تزعج السلطان منذ استولى صاحب حلب على حمص فسار السلطان بالرغم من مرضه إلى الشام لإنجاد حمص وحمل فى محفة

(١) النجوم الزاهرة.

وهناك بلغته الأنباء بأن حملة صليبية[1] ضخمة بقيادة ملك فرنسا فى طريقها إلى مصر فاضطر للعودة إلى مصر فى محفته وقد اشتد به المرض ونزل بقواته بالقرب من دمياط التى كانت فى ذلك الحين المدخل المفضل للصليبيين لفتح مصر وكان ذلك فى المحرم سنة ٦٤٧هـ - ١٢٤٩م وقد عرفت هذه الحملة باسم الحملة الصليبية السابعة.

الملك القديس والحملة الصليبية السابعة

كان الملك الشاب لويس التاسع ملك فرنسا شخصية متدينة بصفة عامة وكان يتصف بالبسالة والإقدام والرجولة كما حدثنا عنه وبإسهاب المؤرخ جوانفيل[2] الذى صحب الملك فى حملته على مصر.

وقد أبحر الملك لويس فى ٢٥ أغسطس سنة ١٢٤٨م من مرسيليا ومعه أسطول ضخم لنقل الجيش والقوات المحاربة تحرسه قوة عظيمة من سفن القتال وكان عدد السفن حوالى ١٨٠٠ سفينة تحمل أكثر من ثمانين ألف مقاتل بعتادهم وخيولهم ومؤنهم.

وقد قضى الجيش فترة فى قبرص - حوالى تسعة أشهر مما أتاح للسلطان الكامل فى مصر الوقت الملائم للاستعداد.

وقد أبحرت الحملة من ليماسول بقبرص فى يوم الأحد أول يونيو سنة ١٢٤٩م فوصلت إلى دمياط بعد أربعة أيام حيث لم يجد الفرنسيون أى مشقة فى نزولهم إلى البر ومعهم ألوف من الفرسان وهم يلبسون خوذاتهم الحديدية اللامعة ودروعهم الثقيلة وسيوفهم المستقيمة ورماحهم الطويلة ممتطين ظهور الخيل ويتبعهم حملة القسى والصفوف المتراصة التى تحجب الأفق من المشاه والأتباع.

وقد وصل الغزاة إلى المياه المصرية تجاه دمياط فى ٢١ صفر سنة ٦٤٧هـ - ٤ يونيو ١٢٤٩م أى بعد واحد وثلاثين عاما من بدء حملتهم الصليبية الخامسة على مصر وفى الحال أوفد لويس التاسع رسالة إلى ملك مصر بكتاب ينذره فيه بوجوب

(١) يقول المؤرخ المقريزى أن هذه الأنباء بلغت الملك الصالح بواسطة فردريك الثانى امبراطور المانيا وملك صقلية الذى أرسل إليه رسولا متنكرا فى زى التجار.

(٢) كان جان دى جوانفيل Joinville مستشار الملك لويس وصحبه فى حملته الصليبية السابعة على مصر، وقد أرخ جوانفيل لهذه الحملة بإسهاب ودقة وذكر اخبار المعارك الصليبية كما وصف بعض أحوال مصر وصفا شيقا.

الخضوع والتسليم وكان الملك الصالح مريضا كما قدمنا فلما وصل كتاب لويس حزن السلطان حزناً شديداً واغرورقت عيناه بالدمع ولكنه تذرع بالشجاعة والعزم وبعث إلى ملك الفرنج بكتاب يرد فيه الوعيد[1] بالوعيد.

نزول الحملة إلى البحر وانسحاب حامية دمياط

وفى اليوم التالى نزل الفرنج إلى البر وكان البلاط فى حيرة ولكن شجرة الدر كانت يومئذ بجانب السلطان وكانت شجاعتها تبعث فى السلطان وفى البلاط روح العزم والثقة. وكان السلطان قد حصن دمياط وشحنها بالمقاتلة والسلاح وكان من المنتظر أن تقاوم الغزاة حتى حين بقيادة الأمير فخر الدين يوسف ولكن بعد مناوشات بسيطة انسحبت الحامية نحو أشموم طناح[2] وهرع فى أثرهم أهل دمياط فارين هلعين ودخل الفرنج دمياط فى صباح اليوم التالى دون مقاومة أو قتال واستولوا على ما فيها من الذخائر والأقوات الوفيرة. واستشاط السلطان غضباً وأمر بشنق عدد كبير من مقدمى الجند المسئولين جزاء جبنهم وتخاذلهم وعدم صمودهم للدفاع عن المدينة والتى صمدت فى الحملة الصليبية السابعة حوالى سنة وخمسة أشهر كما قلت ثقته فى الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ.

من هى شجرة الدر[3]

من هى هذه المرأة التى سطعت فى بلاد مصر والتى قدر لها أن تتولى عرش مصر فكانت بذلك ثانى ملكة لمصر بعد «كليوباترا» وأول وآخر امرأة تتولى عرش دولة إسلامية كبرى فى التاريخ الإسلامى كله.

كانت شجرة الدر حسبما تصفها الرواية جارية «تركية» أو «روسية» أو «أرمينية» اشتراها الملك الصالح نجم الدين وكانت محظيته وأم ولده الأصغر «خليل»، وعندما تولى الملك الصالح نجم الدين «عرش مصر» سنة ٦٣٧هـ - ١٢٣٩م كانت تبلغ من العمر حوالى ٢٥ سنة.

وكانت «شجرة الدر» كما تقول الروايات امرأة وافرة الجمال حسنة التثقيف

(١) الرسائل منشورة فى كتاب المقريزى - السلوك لمعرفة دول الملك.

(٢) أشموم طناح من المدن المصرية القديمة وتقع على الشاطئ الشرقى للبحر الصغير الذى كان يسمى بحر أشموم نسبة إلى هذه المدينة.

(٣) فى أصل كتاب بن واصل «مفرج الكروب فى اخبار بنى أيوب» كتب اسمها «شجرة الدر» ولكن «شجر الدر» هو الصغة الغالبة فى مختلف المراجع والنقوش المعاصرة.

بارعة فى القراءة والكتابة وافرة الذكاء والدهاء وتتمتع بشخصية قوية وقد استطاعت بصفاتها وخلالها أن تحرز مكانة ممتازة لدى سيدها فكانت محظيته الأثيرة.

وتوثقت مكانتها بمولد ولدها «خليل» وبرزت الأمومة بين صفاتها فعرفت «بأم خليل» وغلب عليها هذا اللقب حتى بعد وفاة ولدها ولازمها طوال حياتها ولقبت به حين تولت العرش فيما بعد فعرفت باسم الملكة «عصمة الدين أم خليل شجرة الدر».

تألق شجرة الدر بعد تولى سيدها العرش

وكان من الطبيعى عندما ابتسم الدهر للملك الصالح وتولى عرش «مصر» – كان من الطبيعى أن تتألق جاريته ومحظيته «شجرة الدر» أيضا وخاصة أنه – أى الملك الصالح – فوق حبه العميق لها كان يقدر لها مواهبها ورجحان عقلها فلم تلبث أن تبوأت فى البلاط وفى الدولة أسمى مكانة وغدت مرجع الأمر والنهى كله وأصبحت ملكة غير متوجه يغلب نفوذها كل نفوذ وسلطان، ورأى الملك الصالح أن هذه المرأة الموهوبة تستحق أن تكون أكثر من محظية وأم ولد، فأعتقها الملك وتزوجها فأصبحت بذلك سيدة القصر الشرعية ولما توفى ابنها «خليل» طفلا بعد ذلك بقليل لم تنقص هذه الضربة الأليمة من قدرها بل لبثت محتفظة بنفوذها وسلطانها.

وكانت شجرة الدر إلى جانب خلالها الشخصية البديعة كانت امرأة وافرة الهيبة تميل إلى التدين شغوفة بحب الخير وأعمال البر ولها فى هذا السبيل[1] مآثر لا تحصى.

ارتداد السلطان نحو المنصورة

بعد سقوط دمياط ارتد السلطان وقواته إلى المنصورة وهى القرية التى أنشأها أبوه الملك الكامل على النيل حينما هاجم الصليبيون دمياط لأول مرة فى عام ٦١٥هـ. وأمر بتحصينها وإعدادها لنزول الجند وحشد القوات المصرية فى هذه القاعدة الجديدة. وقدم أسطولا نهريا من الشوانى الحربية وبه العدد والجنود[2] ورابط فى النيل تجاه المدينة كما أقبل الجند والمجاهدون من عامة الشعب كما وصلت وفود من العربان وأخذوا يغيرون على الفرنج وبدأوا يأسرون جنود الأعداء فوصل إلى القاهرة سبعة وأربعون أسيراً من الفرنج وأحد عشر فارساً مما رفع الروح المعنوية للشعب. وكان الفرنج خلال ذلك قد استقروا بدمياط وشحنوها بالمقاتلة والسلاح وأخذوا يتأهبون للزحف صوب الجنوب وكانت المناوشات سجالاً بين المصريين والفرنج.

---

(١) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر بالقاهرة لابن تغرى بردى.

(٢) الشوانى هى نوع من سفن الأسطول وهى كبيرة وذات ابراج للدفاع والهجوم وتحشد بالمقاتلة والجنود البحرية.

وفاة الملك الصالح

استمر الأمر على ذلك زهاء ستة أشهر من صفر إلى أوائل شعبان ٦٤٧هـ – من يونية إلى أوائل ١٢٤٩م، والملك الصالح يعانى خلال ذلك من المرض، وفى أوائل شعبان اشتدت عليه وطأة المرض وتوفى بقصره المتواضع بالمنصورة ليلة ١٥ شعبان سنة ٦٤٧هـ – ٢١ نوفمبر سنة ١٢٤٩م وهو فى الرابعة والأربعين من عمره.

ولم ينص الملك الصالح على من يقوم بالأمر بعده ولكن شجرة الدر أحضرت الأمير فخر الدين يوسف والطواشى جمال الدين محسن واتفقوا على استدعاء الملك المعظم ولده «تورانشاه» نائبه فى الديار الشرقية وكان يومئذ فى «ديار بكر» فى حصن كيفا فأنفذت اليه شجرة الدر تدعوه إلى مصر على عجل.

كانت وفاة السلطان فى هذه الظروف العصيبة ضربة مؤلمة كفيلة بأن تقضى على كل تدبير للقاء العدو. ولكن القدر كان رحيما بمصر فقد شاء أن يختار شجرة الدر تلك الشخصية القوية الحازمة لإنقاذ مصر من الكارثة المنتظرة.

وكانت شجرة الدر إلى جانب زوجها المريض فى قلب المعسكر السلطانى وكانت تتوقع وفاته من آن لآخر، لذلك اتخذت حيطتها لمواجهة كل احتمال فقد كانت تعلم أن وفاة السلطان ستثير الأحقاد الدفينة وتمزق وحدة الجيش والأمن وربما تؤدى إلى حرب أهلية والعدو المغير جاثم على أرض مصر يتأهب لإنزال ضربته القاضية. وهنا تبدو عبقرية هذه المرأة البارعة ودهائها. إذ ما أن توفى السلطان حتى استدعت الأمراء المخلصين بالقصر (الأمير فخر الدين يوسف القائد العام وجمال الدين محسن الطواشى) وأوصتهما بكتمان موت السلطان خوفا من سوء العواقب واتفقت معهما أيضا على تدبير أمور الدولة حتى يحضر «تورانشاه» من حصن «كيفا» – بديار بكر – فصدعا بالأمر، وفى نفس الوقت حملت جثة السلطان فى تابوت إلى قلعة الروضة ثم نقلت عقب ذلك بمدة إلى ضريحه بجوار المدرسة الصالحية بالقاهرة.

استمرار العمل كما لو كان الملك حيا

حافظت شجرة الدر على استمرار العمل فى القصر السلطانى كما لو كان السلطان حياً حتى السماط السلطانى كان يمد في مواعيده وكانت تقول للأمراء أن السلطان مريض ولا يستطيع أن يقابل أحدا. حتى الأوامر السلطانية كانت تصدر ممهورة بالعلامة السلطانية. والخلاصة أن شجرة الدر قد استطاعت أن تنفذ خطتها الجريئة ببراعة تثير الإعجاب وفى نفس الوقت سار الفارس «أقطاى» وهو يومئذ من رؤوس المماليك البحرية – فى خمسين فارسا إلى حصن «كيفا» لإحضار «تورانشاه».

الصليبيون يتحركون لعلمهم بوفاة الملك

ولكن يبدو أن الفرنج علموا من جواسيسهم بوفاة السلطان رغم ما أحيط به من التكتم فقرروا السير من دمياط لمقابلة المسلمين وزحفوا جنوبا نحو فارسكور وسفنهم تسير بحذاء النيل واقتربت طلائعهم من المسلمين فى أواخر شعبان فأخذ المسلمون فى الاستعداد، ووصلت هذه الأنباء إلى القاهرة فانزعج الكافة لاقتراب الخطر وأخذ الخطباء فى الجوامع يحثون الناس على الجهاد فهرع كثير من المتطوعين إلى المعسكر السلطانى بالمنصورة.

بداية المعارك

فى أوائل رمضان وصل الفرنج إلى شرق المنصورة وكان يفصل بينهم وبين المسلمين بحر «أشموم» أو البحر الصغير، وبدأت المعارك المحلية بين الفريقين فى البر والبحر واستمرت مدى أسابيع سجالاً بينهما، يفقد فيها كل منهما قتلى وأسرى، وكان المسلمون يرسلون أسرى الفرنج تباعاً إلى القاهرة لرفع الروح المعنوية للشعب. وقد قام الصليبيون بتحصين مواقعهم أمام بحر أشموم كما أقاموا المنجنيقات وقاذفات الأحجار لتدمير مواقع المسلمين وقواتهم. وقد استمر القتال سجالاً بين الطرفين وتكبد الطرفان خسائر فادحة خلال ذلك.

عبورهم إلى البر الغربى ومعركة المنصورة (انظر الخريطة ص ٣٠٧)

وأخيراً استطاع الفرنجة أن يقفوا من بعض الخونة على وجود مخاضة إلى الجنوب فى بحر أشموم عند قرية سلامون فعبر الملك وأشقاؤه وقوة كبيرة من الفرسان إلى البر الغربى فى يوم الثلاثاء الرابع من ذى القعدة سنة ٦٤٧هـ الموافق ٨ فبراير سنة ١٢٥٠م وتقدمت قوة من فرسانهم بقيادة الكونت «دارتوا»[١] أخو ملك فرنسا مخالفا أمر الملك بالانتظار لحين عبور باقى الجيش فيقوم الجميع بالهجوم مرة واحدة وفاجأوا المعسكر الإسلامى فى جديلة[٢] بالهجوم وقتل الأمير «فخر الدين» وتفرق فرسانه نتيجة للمفاجأة وتابع الفرنجة هجومهم ووصلت طلائعهم إلى باب القصر السلطانى بالمنصورة وكادت تدور الدائرة على المسلمين لولا أن الحرس السلطانى المكون من المماليك

---

(١) Count of Artois وقد سارع بالتقدم نحو المنصورة بقواته دون انتظار لباقى قوات الجيش مخالفاً بذلك أوامر الملك لويس شخصياً.

(٢) جديله هى قرية صغيرة شرق المنصورة مباشرة وكان بها معسكر مصرى بقيادة الأمير فخر الدين يوسف الذى فاجأه الصليبيين وقتلوه وهم فى طريقهم إلى المنصورة للاستيلاء عليها.

البحرية - مماليك الملك الصالح الذين عرفوا بالمهارة وشدة البأس - أطبقوا على الفرنج بقيادة رئيسهم بيبرس البندقدارى (الذى أصبح الملك الظاهر بيبرس فيما بعد) وحملوا عليهم بشدة متناهية حتى مزقوهم عن آخرهم وقتل دارتوا نفسه ومعظم رجاله وهلكت فى تلك الموقعة زهرة الفرسان الانجليز والفرنسيين (فرسان الداوية وفرسان المعبد) من أعتى الفرسان الصليبيين وكانوا حوالى ١٤٠٠ فارس. كما اشترك الشعب فى مقاومة الغزاة داخل «حوارى المنصورة» حسب الخطة الموضوعة لذلك حيث تساقطت فوق رؤوسهم القذائف من الأسطح والنوافذ، ويؤكد «جوانفيل» أنه لولا شجاعة الملك لويس فى هذا الوقت لهلك الجيش الفرنسى كله وهو يصور القتال فى هذه المعركة فيقول: «لقد أظهر الطرفان مهارة فائقة وصلابة ودربه وقام أبطالهما بأروع الأعمال وأعظمها إقداماً وجرأة إذ أن المعارك فيها لم تكن بقوس ولا رمح ولا قذيفة مدفع وإنما كانت صورة مروعة لملحمة هائلة اشتبكت فيها الأجساد البشرية وهى تتبادل الطعنات والسواطير والسيوف والرماح مختلطة ببعضها البعض فليس هناك إلا ضربات ذات اليمين وذات الشمال على الرؤوس وفى الصدور وخلف الظهور وصيحات تزأر وأنات تزفر وكأس المنايا تدور على شفاه الصرعى. وخلال ذلك طارت ضربة أصابت الكونت دارتوا فخر صريعا لتوه فأخذ القائد رداءه ودرعه وقال للمسلمين ها هو درع الملك ورداؤه فإن الملك قد مات وقد قتل فى هذه المعركة حوالى ١٤٠٠ فارس وكثير من نبلاء فرنسا.

شجرة الدر تشحذ عزم الجنود

ولم تكن شجرة الدر بمعزل عن هذه الحوادث الخطيرة إذ كانت هذه المرأة الباسلة وقت هجوم الفرنج - كانت فى القصر السلطانى ترقب سير المعركة ولما قتل الأمير فخر الدين يوسف وظهرت بوادر الهزيمة على المسلمين لم يضعف عزمها ولبثت رابطة الجأش تعاون برأيها وتشجيعها فى توجيه المعركة، ولما زال الخطر ورد الفرنج آثرت أن تتولى بنفسها تدبير أمر الجند ولبثت على ذلك أياما تعنى بشئون الجيش إلى جانب عنايتها بشئون المملكة حتى قدم السلطان الجديد الملك المعظم «تورانشاه»، وأرسلت أنباء النصر فى هذه المرحلة الأولى من معركة المنصورة إلى القاهرة فاطمأن الناس بعد الانزعاج وزينت المدينة ابتهاجاً بالنصر وكان يوما مشهوداً.

الهجوم المضاد للجيش بقيادة بيبرس

قرر بيبرس البندقدارى - وهو القائد الذى اختير خلفاً للأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ - قرر القيام فى الحال بهجوم مضاد كبير لتحطيم قوات الصليبيين بقيادة الملك لويس والذين استطاعوا العبور من المخاضة عند سلامون ووصلوا إلى قرية

جديلة شرق المنصورة مباشرة في أعقاب هزيمة طلائع الفرسان الصليبيين فى معركة المنصورة. وقد علم الصليبيون بأمر هذا الهجوم فبادر الملك لويس بإعداد قواته لصده. وقد بدأ الهجوم فى صباح يوم الجمعة ٧ ذى القعدة سنة ٦٤٧هـ الموافق ١١ فبراير سنة ١٢٥٠م.

ويصف المؤرخ «جوانفيل» هذا الهجوم وخطة بيبرس المحكمة وصفا شيقاً دقيقاً فيقول «فى الصباح أقبل أربعة آلاف فارس يحملون سلاحهم فى منظر رائع ووقفوا أمامنا فى أبدع نظام. وبعد قليل ظهر من خلفهم جيش جرار من المشاة حجب من كثرته أمامنا وجه الأفق فأحاطوا بجيشنا كله، ومن خلفهم جيوش أخرى لا يعرف البصر مداها. ثم تقدم القائد وحده على ظهر جواده وسرح البصر في قواتنا فكان يأمر بزيادة جنده حيث يرى جنودنا أكثر أو بإنقاصها فى الأماكن التى يرانا فيها أقل قوة. ثم وقف أمام جنوده في مهابة وجلال ثم بإشارة من يده دوى فى الفضاء فجأة صوت الطبول وضرب النقرزان وكأنما الأرض قد زلزلت وامتلأت السماء بقصف الرعود فامتلأت قلوب الفرنسيين بالدهشة والروعة إذ لم يسمعوا من قبل مثل هذا الصوت الرهيب ثم بدأ الخيالة والرجالة فى السير معا فى خطوة واحدة وبدأ الهجوم.

وتنقلت فرق المسلمين على رقعة الميدان بنظام عجيب واندفع مشاتهم نحو رجالنا كما انقض فرسانهم فى سرعة عظيمة وحماسة هائلة على فرقة الكونت انجو فأنزلوا بها هزيمة نكراء وكاد الكونت نفسه أن يقتل لولا أن انقذه أخوه الملك. ولكن الجيش الفرنسى أصيب بضربة قاضية فمن بين الفرق السبع التى كان يتألف منها الجيش هلكت اثنتان، الأولى هى فرقة «وليم دى سناك» قائد الفرسان الداوية والثانية فرقة الكونت «دى بواتييه» الى أبيدت عن آخرها كما أبيدت أيضا الفرق التالية لفرق الكونت «دى بواتييه» وهى أضعف الفرق جميعاً وتتكون من المشاة ثم توقف بعد ذلك هجوم المصريين، وأصبح مركز الفرنسيين بذلك فى منتهى السوء فقد كان من المستحيل عليهم أن يهجموا على المصريين مرة أخرى فى حين أن بقاءهم فى مواقعهم كان معناه الهلاك المؤكد ومع ذلك فقد بقى الجيش الفرنسى فى مواقعه وكأنه لا يعرف كيف يتصرف.

وصول تورانشاه

وصل السلطان الجديد تورانشاه إلى المنصورة فى يوم الجمعة ٢١ذى القعدة سنة ٦٤٨هـ الموافق ٢٥ فبراير سنة ١٢٥٠م أى بعد موقعة المنصورة بسبعة عشر يوماً

فاستقبله كبار رجال الدولة وتسلم الحكم بصفة رسمية وأعلنت عندئذ وفاة الملك الصالح لأول مرة.

وكانت فترة عصيبة على «شجرة الدر» استطاعت زهاء ثلاثة أشهر أن تسهر على وحدة الدولة وسلامة المملكة وأن تؤدى مهمتها الشاقة بنجاح منقطع النظير ودخل «تورانشاه» قصر أبيه واستقبلته «شجرة الدر» بحفاوة وسلمت إليه مقاليد الأمور. وكانت تتوقع أن تجد منه الشكر والتقدير لما قامت به من خدمات جليلة ولما يدين به لها من فضل فى ترشيحه للملك وأخذ العهد له فى غيبته ولكن «تورانشاه» كان يخشاها وتوجس من سلطانها وسرعان ما تنكر لها وبعث إليها وهى بالقاهرة يهددها ويطالبها بأموال أبيه وذخائره.

وكان السلطان المعظم تورانشاه فتى نزقا عنيف الأهواء فأساء السيرة وانغمس فى الملذات وبطش بكثير من رجال الدولة واضطهد مماليك أبيه «الملك الصالح» نتيجة لما قام به ندماؤه الخليعون الذين حضروا معه من دسائس وإثارة ضد السلطانة والأمراء إذ ما فتئوا يرددون على سمعه أنه ليس سلطاناً إلا بالاسم وأما السلطة الحقيقية فهى فى أيدى هؤلاء الأمراء وعلى رأسهم شجرة الدر مما أوجد هوة عميقة بين السلطان وبين الأمراء وكانت تزداد عمقاً بمرور الأيام. فنقم عليه أكابر الدولة وزعماء المماليك وأخذوا يتحينون الفرصة لإزالته من طريقهم.

الموقف بعد الهجوم المضاد المصرى

بعد الهجوم المضاد الكبير الذى قام به الجيش المصرى بقيادة بيبرس ضد الصليبيين عند قرية جديلة والذى منى فيه الصليبيون بخسائر فادحة فى الفرسان والأفراد والمعدات أصبح الجيش الصليبى لا يستطيع القيام بأى هجوم ضد المصريين أو محاولة الاستيلاء على المنصورة مرة أخرى وانتظر فى مكانه للقيام بعملية إعادة تنظيم القوات مرة أخرى وتشوين التموين والإمدادات والمعدات ودفن الموتى ومداواة الجرحى والتغلب على الأمراض التى فشت فى جنودهم نتيجة لكثرة الجثث المتعفنة للقتلى قبل القيام بأي هجوم جديد. واعتمد الصليبيون فى ذلك على أسطولهم النهرى ليأتيهم بكل هذه المطلوبات من قاعدتهم الحصينة الآمنة فى دمياط، وتحركت قافلة ضخمة من سفن المؤونة الصليبية من دمياط فى اتجاه المنصورة.

وفى نفس الوقت قرر السلطان تورانشاه قطع الاتصال النهرى للقوات الصليبية عبر نهر النيل فأمر بنقل عدد من المراكب الحربية المصرية إلى شمال المنصورة حيث تم تفكيك هذه المراكب وحملها قطعاً على ظهور الجمال وإعادة تركيبها مرة أخرى

شمال المنصورة قرب شربين حالياً وتمت هذه العملية بسرعة وهدوء كما التحقت بهذه المراكب أعداد أخرى من السفن الحربية المصرية والتى تسمى الشوانى وأخذوا يتربصون بالسفن الصليبية القادمة من دمياط.

المعارك النهرية

وعندما جاوزت القافلة الصليبية شربين فى طريقها إلى المنصورة تحركت نحوها هذه الشوانى المصرية الأيوبية من مكانها واشتبكت معها فى معركة نهرية كبيرة[1] انتهت باستيلاء المصريين على حمولات هذه السفن وعددها اثنتان وخمسون سفينة وعلى ما فيها من العلف والميرة كما أخذوا رجالها أسرى وعددهم حوالى ألفى رجل وأرسلوهم على ظهور الجمال إلى المنصورة ويمكن أن نسمى هذه المعركة النهرية الرائعة باسم «معركة بحر المحلة».

ثم تلى هذه الهزيمة النهرية الصليبية هزيمة نهرية أخرى كانت القاضية على كل آمال الملك لويس فى الحصول على أى نصر لا حاضراً ولا فى المستقبل، وهذه الهزيمة النهرية الثانية حدثت لقافلة أخرى عددها ٣٢ سفينة محملة بالحبوب والأعلاف والمؤن ومن بينها سبع شوانى صليبية لحراستها. وقد حاولت هذه القافلة اختراق خط الشوانى المصرية فنشبت معركة بحرية هائلة انتهت بوقوع القافلة الصليبية بأكملها فى أيدى القوات المصرية الأيوبية وكانت هذه المعركة فى يوم الثلاثاء ٩ ذى الحجة سنة ٦٤٧هـ- أى يوم وقفة عرفات الموافق ١٥ مارس سنة ١٢٥٠م. وهى التى غيرت مصير الحملة الصليبية بأكملها، وقد دارت هذه المعركة على بعد حوالى سبعة كيلو مترات شمال مدينة المنصورة.

موقف الفرنسيين بعد الهزائم النهرية

قضت هذه الهزائم النهرية على أى أمل للملك لويس وللقوات الصليبية فى تحسين موقفها عند جديلة قرب المنصورة كما أخذ الموقف يزداد سوءاً على سوء فبالإضافة إلى الأمراض الوبائية الخطيرة التى انتشرت فقد بات الصليبيون مهددين بالمجاعة أيضا بعد الهزائم النهرية التى أصابتهم. وهنا رأى الملك لويس أن يحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه فانسحب بقواته من مواقعه الأمامية فى معسكر جديلة إلى المعسكر الصليبى الشمالى الذى كانت فيه القوات قبل أن تعبر مخاضة سلامون ومع ذلك فلم

(١) حملة لويس التاسع على مصر للدكتور محمد مصطفى زيادة.

يخفف ذلك شيئا من متاعبه ولا متاعب الجنود ولذلك رأى طلب المفاوضة والمهادنة مع السلطان تورانشاه.

وقد فشلت الجولة الأولى من المفاوضات نظراً لطلب الصليبيين بعض المدن فى فلسطين خاصة القدس مقابل انسحابهم من مصر ورفض السلطان القاطع لكل هذه الطلبات لعلمه بسوء حال الفرنسيين.

لذلك رأى الملك لويس أن ينسحب بقواته جميعاً براً ونهراً نحو دمياط بأسرع وقت ممكن لازدياد حالة القوات سوءاً نظراً للأمراض وللمجاعة ولانهيار الروح المعنوية بين قواته بل وللضعف الذى ألم بهم فلم يعودوا يستطيعون القتال وتحمل مشاقه ومتاعبه. ومن ثم أخذ يعد القوات لهذا الانسحاب.

بدء الانسحاب الصليبى العام

تقرر بدء الانسحاب فى مساء يوم الثلاثاء[١] مستهل المحرم سنة ٦٤٨هـ الموافق ٥ ابريل سنة ١٢٥٠م حتى يكسب الملك لويس فى تلك الليلة مسيرة ليلة كاملة تكون قواته فيها آمنة من أى هجوم مصرى نتيجة للظلام فى أول الشهر العربى. فأخذت السفن الصليبية الحربية وغير الحربية تتخذ طريقها شمالا نحو دمياط وهى محملة بالمرضى والجرحى وقوات الحراسة. وما لبثت تلك السفن أن وجدت نفسها أمام السفن المصرية المستعدة للقتال ففرت سفن الحراسة الصليبية نحو الشمال لتنجو بنفسها بينما تركت باقى السفن المحملة بالمرضى والجرحى لتلقى مصيرها المحتوم. وقد نشبت معركة حامية بين القوات المصرية والأيوبية فى البر والنهر وبين هذه السفن وتساقطت القذائف المصرية على السفن الصليبية واختلط الحابل بالنابل وكثر عدد القتلى من المرضى والجرحى الصليبيين كما تم الاستيلاء عليها بكل سرعة. وغنمت القوات المصرية والأيوبية كميات وفيرة من الغنائم كما أسرت عدداً كبيرا من الأسرى هذا بخلاف الأعداد الكبيرة من القتلى.

وكان المؤرخ الفرنسى جوانفيل[٢] فى إحدى هذه السفن طريح الفراش لمرضه وخاف على نفسه من أن يقتل ولكنه استطاع إيهام قائد القوات الأيوبية نظراً لفخامة ملابسه بأنه من الأمراء ولذا يمكنه أن يدفع فدية كبيرة ولذلك حافظوا عليه وأرسلوه إلى المنصورة مع الأسرى.

---

(١) حملة لويس التاسع على مصر للدكتور / محمد مصطفى زيادة.

(٢) هذا الوصف الدقيق مأخوذ عن مذكرات جوانفيل.

الانسحاب البرى واسر الملك لويس

أما الانسحاب البرى فلم يكن أسعد حظاً من الانسحاب النهرى إذ سرعان ما تطورت عملية الانسحاب الصليبى البرى العام إلى سير متعثر بطئ تعترضه وتعوقه هجمات مصرية أيوبية عنيفة شمالاً ويميناً وفى المؤخرة بقيادة الأمير بيبرس البندقدارى بصفة مستمرة بل وتزداد شدة ساعة بعد أخرى.

وفى صباح اليوم التالى – الثانى من المحرم سنة ٦٤٨هـ الموافق ٦ ابريل سنة ١٢٥٠م– ظهر بوضوح مدى سوء موقف القوات الصليبية حيث ظهرت القوات المصرية الأيوبية الزاحفة ضدها وهى تسير على شكل قوس ضخم من الفرسان والخيالة والمشاة الأيوبية والمصرية المتوثبة بقيادة الأمير بيبرس البندقدارى للإطباق بطرفى هذا القوس الضخم على القوات الصليبية المنسحبة وبعد ساعة أو ساعتين أخذ هذا القوس الضخم يضيق شيئاً فشيئاً حتى أطبق على الصليبيين فى النهاية دون أن يبدو منهم (أى الصليبيين) أى قدرة على المقاومة أو القتال خاصة بعدما أصابهم من الشعور باليأس من النجاة مما هم فيه. وقد أمكن تهريب الملك لويس فى تلك الأثناء لقرية صغيرة وبيت ريفى من بيوتها وهى قرية ميت الخولى عبد الله ومعه مجموعة من النبلاء والأمراء لإنقاذهم من الأسر، وقد قامت مؤخرة الجيش الصليبى بقيادة السير «ولتر دى شاتيلون» Walter de Chatillon بجهود جبارة لحماية القوات الصليبية إلا أن المصريين لم يتركوا لهم لحظة واحدة لالتقاط الأنفاس بل هاجموهم بصفة مستمرة ليلاً ونهاراً وطاردوهم حتى وصلوا بالقرب من فارسكور (فى ثلث المسافة إلى دمياط). هذا وقد قتل دى شاتيلون وكل قواته وفرسانه دفاعاً عن الملك لويس عند محاولة أسره بواسطة القوات المصرية بعد أن لجأ إلى قرية ميت الخولى عبد الله. وسرعان ماتم العثور على الملك وأسره هو وإخوته وباروناته وحاشيته فطلب الملك لويس منهم الأمان فأمنوه باسم السلطان تورانشاه وتم نقل الملك لويس وأصحابه أسرى إلى المنصورة فى سفينة من السفن الراسية فى النيل.

وقد سارت هذه السفينة الهوينا حتى وصلت إلى شاطئ المنصورة وسط ضوضاء الطبول والكوسات التى امتلأت بها سفن أيوبية أخرى تحيط بها وذلك فضلاً عن تهليل العساكر المصرية والأيوبية والعربان[1] وهم يسيرون مشاة وركباناً على جانبى النيل إلى المنصورة والجميع فى فرحة غامرة.

(١) أورد ابن تغرى بردى فى كتابه النجوم الزاهرة وصف نقل الملك لويس إلى المنصورة كما جاء هنا تقريبا.

وهكذا دخل الملك لويس المنصورة مهزوماً مأسوراً ذليلاً مكبلاً بالقيود جزاء وفاقاً على ما ارتكبه بحملته الصليبية الغاشمة من عدوان أثيم على الإسلام والمسلمين ومصر والمصريين.

وقد وضع الملك لويس ورفاقه فى دار ابن لقمان بالمنصورة وعين الطواشى صبيح للإشراف عليه والقيام بحاجات الملك وأخويه شارل كونت أنجو والفونسو كونت بواتييه.

أما مجموعة الأسرى من الفرسان الصليبيين فكان عددهم عشرة آلاف فارس بخلاف كبار البارونات الصليبيين حسب تقدير جوانفيل نفسه. فأمر السلطان تورانشاه بجمعهم كذلك فى المنصورة فى خيمة كبيرة من النوع المسمى فى ذلك العصر باسم «الدهليز». كما أقيم معسكر آخر للأسرى من الفرسان الداوية والاسبتاريه المشهورين[1] بحماستهم الدينية الشديدة وعدائهم الشديد للمسلمين وكانوا يخيرونهم بين الإسلام أو القتل.

ويقرر المؤرخون[2] العرب أن الصليبيين خسروا فى انسحابهم حوالى ٣٠ ألف رجل. وقد يكون هذا التقدير مبالغاً فيه ولكن المؤكد أن ما بقى من الجيش الفرنسى بعد ذلك كان عليه الاختيار بين الموت أو العبودية أو اعتناق الإسلام. وقد أحاط المسلمون بالقوات الفرنسية من كل جانب وأجروا فيهم سيوفهم وتركوهم بين قتيل وأسير ويرجع فضل كبير فى تحقيق هذا النصر إلى بلاء المماليك البحرية بقيادة بيبرس البندقدارى بلاءً حسناً.

المفاوضات

بعد أن استقرت الأمور عقب هذه الهزيمة النكراء للصليبيين بدأت المفاوضات بعد أن عين السلطان تورانشاه الطواشى صبيح ليكون أيضا وسيطاً بين الملك لويس والسلطان فى سبيل تسوية عامة، وبعد أن انتقل السلطان إلى معسكره الذى بناه فى فارسكور وبنى به مساكن وأبراجا عالية من الخشب.

وقد تم الاتفاق فى النهاية على أن يدفع الملك لويس فدية قدرها مليون بيزنطية ذهبية أى ٢٥٠ ألفا من النقود الذهبية الإمبراطورية المتوجة وذلك فضلا عن الجلاء السريع الفورى والتام عن دمياط والسواحل المصرية والإفراج عن جميع الأسرى

(١) حملة لويس التاسع على مصر تأليف الدكتور / محمد مصطفى زيادة.
(٢) الأخبار السنية فى الحروب الصليبية تأليف سيد على الحريرى.

المسلمين وأن يفرج المسلمين عن الأسرى الفرنج. وقد تنازل السلطان عن ٥٠ ألفاً من النقود الذهبية حتى يمكن دفع المبلغ. وأن يتم الجلاء وتسليم دمياط يوم السبت[1] ٣٠ ابريل سنة ١٢٥٠م الموافق ٢٦ من المحرم سنة ٦٤٨هـ، وفى نفس الوقت يطلق سراح الملك لويس.

وقد جرت كل هذه المفاوضات والملك مأسور فى دار ابن لقمان بالمنصورة والسلطان فى فارسكور وبذلك تكون مدة بقاء الملك فى الأسر حوالى ٢٢ يوماً. وقد تمت هذه المفاوضات كلها عن طريق الطواشى صبيح الذى حضر مع السلطان من حصن كيفا ولم يستشر السلطان فيها أحداً من كبار رجال الدولة الذين أهملهم إهمالاً تاماً والذين كان لهم النصيب الأكبر فيما تحقق من نصر على الصليبيين مما أثار المشاعر أكثر وأكثر ضد السلطان وزاد من تحفز رجال الدولة والقادة العسكريين ضده وجعلهم يقررون جميعاً التخلص منه بالقتل قبل أن يتخلص هو منهم بما هو أسوأ من القتل.

مقتل تورانشاه

وفى يوم ٢ مايو سنة ١٢٥٠م الاثنين ٢٨ من المحرم سنة ٦٤٨هـ دخل السلطان تورانشاه إلى المسكن الخاص به فى فارسكور بعد تناول الغداء ولكن سرعان ما لحق به الأمير بيبرس البندقدارى وضربه بالسيف ضربة قوية ثم دخل وراءه كبار القادة مثل أقطاى وغيره من أمراء المماليك فأخذ السلطان «يستغيث ولا مغيث» فأسرع إلى البرج الخشبى القريب منه للاحتماء به ولكنهم أشعلوا فيه النار ففر إلى النيل ليلحق بإحدى سفنه ولكن أقطاى لحق به فى الماء فقتله، وهكذا مات تورانشاه جريحا حريقاً غريقاً، وتركت جثة السلطان ملقاة على الشاطئ يومين كاملين حتى قام بدفنها بعض الفقهاء. وهكذا لم يستمر حكمه أكثر من شهرين. وشاء القدر أن يختتم بموته حكم ملوك بنى أيوب وسلاطينهم وأن تنتقل السلطة فى مصر منهم للمماليك لأول مرة.

وهنا أصاب الصليبيون وعلى رأسهم الملك لويس ذعر كبير وظنوا أن ساعتهم قد دنت وأن الذبح مصيرهم. ولكن فى اليوم التالى أرسل أمراء المماليك وفداً جديداً للتفاوض مع الملك لويس من طرفهم برئاسة الأمير حسام الدين بن محمد انتهت بالاتفاق النهائى بين الأمير أيبك والملك لويس على نفس الشروط السابقة ولكن يكون موعد تسليم دمياط هو الجمعة ٢ صفر سنة ٦٤٨هـ الموافق ٦ مايو سنة ١٢٥٠م بدلاً من الموعد السابق. وفعلا بدأ رحيل الملك لويس وباروناته وقواته وأسطوله نحو عكا فى

(١) انظر كتاب جوانفيل ص ١٨٧.

صباح الأحد الرابع من صفر سنة ٦٤٨هـ الموافق ٨ مايو سنة ١٢٥٠م. وامتلأت دمياط فى ذلك اليوم بأنواع الاحتفال والفرحة الغامرة كما كان ذلك اليوم مليئا بالأفراح فى غيرها من المدن.

هذا ويرجع الفضل الأكبر فى هذا النصر العظيم لأربعة من الرجال هم الأمير حسام الدين ابن محمد والقائد أيبك والأمير بيبرس والقائد أقطاى ولكن تستحق شجرة الدر أن تتصدر هؤلاء الرجال والتى وصفها ابن العبرى[1] بقوله: «لا نظير لها فى النساء حسناً وفى الرجال حزماً» لما قامت به من دور كبير فى تدبير الانتصار النهائى على الملك لويس وحملته الصليبية.

احتفالات القاهرة

زينت القاهرة بأنواع الزينة ودوت البشائر بطبولها وانطلقت من آلاتها الموسيقية أنغام النصر لعدة أيام متوالية ثم وصلت العساكر الظافرة إلى القاهرة فى يوم الجمعة التاسع من صفر سنة ٦٤٨هـ الموافق ١٢ مايو سنة ١٢٥٠م فخرج القاهريون واصطفوا بالشوارع لرؤية العساكر المصرية المملوكية والأسرى الصليبيين فى ركابهم وأضافت الأميرة شجرة الدر من جانبها مازاد هذه الاحتفالات بهاء وروعة فأقامت حفلاً كبيراً فى يوم الثلاثاء ١٣ من صفر سنة ٦٤٨هـ الموافق ١٧ من مايو سنة ١٢٥٠م لتوزيع الخلع السنية والأموال والعطايا على الأمراء وأرباب الدولة من المماليك وغيرهم كما انفقت على باقى العسكر مبالغ كبيرة من الأموال والعطايا.

وللشاعر المصرى جمال الدين بن مطروح قصيدة طريفة فى وداع الحملة الصليبية نقتبس منها:

وقل لهم إن أزمعوا عـداوة	لأخذ ثأر أو لفعـل قبيـح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشى صبيح

من يخلف تورانشاه

بعد مقتل «تورانشاه» نشأت مشكلة حول من يخلف الملك القتيل ولكن المماليك البحرية حلوا المشكلة فقد اجتمع زعماؤهم ورجال الدولة وأمراء الجند فى المعسكر السلطانى واتفقوا على ترشيح «شجرة الدر» لتتولى عرش مصر الإسلامية[2]

(١) ابن العبرى «تاريخ مختصر الدول» ص ٤٥٣.
(٢) خطط المقريزى جـ ٢ ص ٣٢٧.

ولقد كان تنصيب الملكات فى الإسلام بدعة لم يسبق لها مثيل (إلا فى مصر الفرعونية أيام «كليوباترا») .

ولذا كان تنصيبها حادثا فريدا فى التاريخ الإسلامى إذ لم يسبق أن جلست امرأة قبلها على العرش كما لم تجلس بعدها على العرش أى ملكة حتى يومنا هذا.

وقع ذلك فى عالم الإسلام

كان لهذا الحادث وقع عظيم في العالم الإسلامى حتى قيل أن الخليفة «المعتصم بالله العباسى» ، نعى على مصر أن تجلس على عرشها امرأة وأرسل إلى بلاط مصر يقول [إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً] ، ونعاه بعض فقهاء العصر واعتبروه خروجاً على الدين.

وشعر الزعماء الذين ولوا شجرة الدر بهذا الشذوذ ولذا اختاروا الأمير «عز الدين أيبك» ليكون مقدماً على العسكر ويعاون شجرة الدر فى نفس الوقت فى تصريف الأمور ولكن كان لهذا الاختيار أسوأ الأثر عند فارس الدين أقطاى أكبر منافس للأمير أيبك.

توليها الملك وسيرتها

قبضت شجرة الدر على زمام الأمور بحزم وكانت يومئذ فى الأربعين من عمرها تفيض قوة وحيوية وعزما ودعى لها على المنابر بدعوات جديدة مبتكرة مثل «اللهم أدم سلطان الستر الرفيع والحجاب المنيع ملكة المسلمين والدة الملك الخليل» وأيضا دعاء مثل «احفظ الله الجهة الصالحية ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح» .

الشام تنتفض على مصر

كانت تولية «شجرة الدر» حركة جريئة ولكن خطرة فى نفس الوقت إذ بالرغم من كل ما أسدته «شجرة الدر» للمملكة من خدمات جليلة وما أحرزته من نجاح فى إجلاء الفرنجة إلا أن فريقاً كبيراً من الأمراء والزعماء فى مصر والشام لم يرق لهم أن يستظلوا بلواء امرأة، وسرعان ما ظهرت بوادر الانتفاضة الأولى فى الشام حيث أبى نائب السلطان فى دمشق وكثير من الأمراء أن يقدموا عهد الطاعة إلى الملكة الجديدة، عند ذلك جدد الأمراء والمماليك عهد الطاعة «لشجرة الدر» و«عز الدين أيبك» وبادروا إلى تجهيز قوات لإرسالها إلى الشام.

زواجها من عز الدين ثم تعيينه ملكا

ولكن «شجرة الدر» شعرت بحرج الموقف وشعرت بضعفها كامرأة ورأت أن تتزوج من الأمير «عز الدين أيبك» فتقوى بذلك مركزها وتدعم هيبتها كامرأة، وفعلا تم هذا الزواج فى ١ ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ، ولكن يبدو أن هذه الخطوة لم تحدث أثرها فى تهدئة الأمور ولم ترض الأمراء الناقمين وعلى رأسهم سيف الدين أقطاى.

عند ذلك رأت «شجرة الدر» أن تقدم على الخطوة الحاسمة وأن تفتدى سلام المملكة ووحدتها بذلك العرش الذى رفعها القدر اليه فاتفقت مع أمراء المماليك على أن تخلع نفسها وأن يتولى العرش مكانها زوجها الأمير «عز الدين أيبك» ، وفعلا نفذ هذا المشروع فى نهاية ربيع الآخر وأصبح «عز الدين أيبك» ملكاً لمصر باسم الملك المعز وانتهت بذلك سلطة «شجرة الدر» الرسمية وكانت قصيرة المدى ولم تدم أكثر من ثمانين يوما من عاشر صفر إلى آخر ربيع الآخر سنة ٦٤٨هـ - ١٢٥٠م ولكنها ظلت مع ذلك تدير شئون الدولة من وراء الستار.

تعيين ملك آخر من بيت أيوب

فى هذه الفترة المليئة بالصراع انقسم المماليك إلى قسمين: قسم عرف بالمعزيين نسبة إلى الملك المعز أيبك والآخر عرف باسم الصالحيين نسبة إلى الملك الصالح أيوب وتنازعا ففاز الصالحيون.

ولذا رأى المماليك المعزيون إرضاء لبنى أيوب وتهدئة لثورتهم أن ينصبوا إلى جانب المعز على العرش شخصا من البيت الأيوبى فاتفقوا على إقامة الملك «الأشرف موسى» من عقب الملك العادل وهو يومئذ طفل فى الثامنة من عمره وأخذت له البيعة، وبذا جلس على عرش مصر ملكان وخرجت الأوامر والمراسم باسم الملكين الأشرف والمعز وكانت تحمل صورة التوقيع الآتى: «رسم الأمر العالى المولوى السلطانى الملكى الأشرفى والملكى المعزى» وكان الأشرف تحت وصاية أيبك.

لم تحقق كل تلك الخطوات الغاية المنشودة ولم تهدأ ثائرة المعارضين وحدثت حروب وقتال بين صاحب دمشق من آل أيوب وهو ناصر الدين يوسف حفيد صلاح الدين الكبير وبين القاهرة انتهت بهزيمة دمشق بعد حروب طويلة وبذلك استقر الأمر للمماليك فى مصر.

غير أن المماليك البحرية عادوا إلى مصر بعد انتصارهم فى سوريا ممتلئين بالزهو والكبرياء ثم ما لبثوا أن عثوا فى البلاد فسلبوا ونهبوا وخطفوا النساء وعلى الجملة أتوا كل صنوف البغى والإستبداد والتى لم يكن الفرنجة ليأتوا بأسوأ منها.

الصراع بين أيبك وأقطاى

لقد عظم قدر أقطاى فى عيون المصريين لما أظهر من البسالة والإقدام فى الحروب ضد الصليبيين والفرنسيين. وقد تزوج أخت المنصور سلطان حماه وأسكنها فى القلعة وصار حزبه يلقبونه بالملك عند ذلك أوجس أيبك شراً من انتشار نفوذ أقطاى حتى خشى من مناظرته فى الملك فأخذ يسعى للتخلص منه وكان أقطاى زعيماً لحزب من المماليك الصالحيين وكانوا يطالبون له بالمشاركة فى الملك مع الملك الأشرف ومازالوا حتى نالوا طلبهم فرقى كثيرين وفى جملتهم سيف الدين قطز الذى صار ملكا بعد ذلك.

أما الفارس أقطاى فقد قتله أيبك وهوداخل بسراى القلعة فلم تمض برهة حتى جاء الأمراء الصالحيون برئاسة ركن الدين بيبرس وتجمهروا عند أبواب القلعة مطالبين بالإفراج عن أقطاى ظنا منهم أنه كان معتقلاً ولكن أيبك ألقى إليهم برأس أقطاى ففروا مذعورين واتجهوا إلى سوريا.

بعد القضاء على الأمراء والصالحيين قبض أيبك على الملك الأشرف وألقاه فى السجن فمات فيه تعيساً بعد أن حكم سنة وشهرا.

الصراع بين شجرة الدر وعز الدين

وفى هذه الفترة المضطربة وبعد أن خلعت نفسها من الملك عادت «شجرة الدر» كما كانت أيام زوجها الأول «الملك الصالح» سيدة القصر والبلاط. وكان المعز أميراً عاقلاً حصيف الرأى طاغية ظلوما فى نفس الوقت، ولكنه كان يخشى هذه المرأة القوية التى رفعته إلى الملك ويصدع بأمرها. وكانت «شجرة الدر» من ورائه تحميه وتحمى عرشه من كيد خصومه الأقوياء. وفى النهاية عمل الملك المعز على توطيد عرشه شيئاً فشيئاً وتخلص من أقوى منافسيه وهو فارس الدين أقطاى الذى كان فى طريقه إلى انتزاع العرش منه. ولكن بقيت «شجرة الدر» والتى كانت قد جاوزت طور الشباب النضر وأشرفت على الخمسين من عمرها، وقد كان الصراع مستمراً بين المعز وشجرة الدر عندما حاول الاستبداد بالأمر دونها. حتى أصبحت الحياة المشتركة فى نظر الملك المعز جحيماً لا يطاق، فعزمت شجرة الدر على التخلص منه حينما علمت أنه أرسل يخطب ابنة صاحب الموصل وكانت رائعة الجمال وفى نفس الوقت كان أيبك يحاول من جانبه أيضا أن يتخلص منها ومن نفوذها وغيرتها القاتلة.

مؤامرة شجرة الدر ضد عز الدين ومقتله

وفعلا دبرت مؤامرة للملك المعز فقتله خدمها بتدبير الزوجة الخائنة بعد أن جلس على عرش مصر سبع سنين فى ١٠ ابريل سنة ١٢٥٧م.

عقابها على جريمتها بنفس الأسلوب

وفى النهاية لم تفلح «شجرة الدر» فى الإفلات من جريمتها وقبض عليها وسلمت إلى زوجة المعز الأولى وابنها الذى أصبح ملكا بعد أبيه باسم الملك[١] المنصور فيقول المقريزى[٢] [فضربها الجوارى بالقباقيب إلى أن ماتت وألقوا جثتها نصف عارية من سور القلعة إلى الخندق حيث بقيت عدة أيام دون أن يدفنها أحد حتى دفنت بعد أيام بتربتها بالقرب من المشهد النفيسى بالقاهرة دون احتفال أو جنازة] كما قتل كل من ساهم أو اشترك فى مقتل السلطان أيبك من العبيد والخصيان.

وهكذا أسدل الستار على أول وآخر ملكة لمصر الإسلامية وعلى قصة من أعجب قصص التاريخ الإسلامى.

خاتمة

قال عنها الدكتور/ محمد عبد الله عنان المؤرخ المشهور:-

(كانت «شجرة الدر» بإجماع الروايات المتأخرة والمعاصرة شخصية عظيمة تمتاز بخلال ومواهب غير عادية وكانت إلى جانب جمالها الرائع وسحرها الوافر كامرأة تتمتع بصفات باهرة قلما تجتمع فى حسناء وافرة السحر فقد كانت قوية النفس صارمة العزم وافرة الحشمة تعيش فى جو من المهابة والجلال). وقد لبثت منذ تولى سيدها وزوجها الملك الصالح ملك مصر زهاء ثمانية عشر عاماً أبرز شخصية فى البلاط وفى الدولة يغلب رأيها كل رأى ونفوذها كل نفوذ. ولم يكن صعودها للعرش لفترة قصيرة إلا ذروة هذا المجد الرفيع الذى شادته حول نفسها خلال أعوام طويلة من السلطان غير المتوج. وكان لصائب رأيها وثبات جنانها وتوجيهاتها الجريئة اثناء غزو الصليبيين لمصر أعظم الأثر فى إنقاذ مصر من كارثة مروعة وتحويلها إلى نصر حاسم خالد على مدى التاريخ. كما كانت شجرة الدر أول من أرسل المحمل من مصر إلى مكة وعينت له أميرا وكانت تعمل له المواكب الفاخرة. وقد استمر ذلك المحمل حتى عهد الملك فاروق فى القرن العشرين أى ما يقرب من سبعمائة عام ١٢٥٠ - ١٩٥٠.

(١) كان يبلغ من العمر حوالى خمس عشرة سنة.
(٢) السلوك للمقريزى.

الغيرة قضت عليها

وكانت هذه المرأة العظيمة التى رفعها القدر إلى عرش مصر تتمتع فوق ذلك كله بصفات شخصية جليلة، فقد كانت بالرغم من جمالها وسحرها سيدة متينة الخلق وافرة العفاف والصون. تقية خيرة تعشق أعمال البر وتوقف عليها الكثير من مالها. وكانت الغيرة العنيفة هى أظهر ما فيها من ضعف المرأة وهى التى أضلتها ودفعتها فى النهاية إلى هذه الخاتمة الفاجعة.

الفصل التاسع عشر

«الظاهر بيبرس»
منقذ مصر والشام من بقايا الصليبيين ومن المغول

نشأته

كان «الظاهر بيبرس» مملوكا لا يعرف أبا ولا أما، فإن نظام الرق جعله – كما جعل الآلاف المؤلفة من أبناء عصره – يباع في أسواق الرق وهو مازال صغيرا. وقد قال بعض المؤرخين أنه كان من أصل تركي من مواليد بلاد «القفجاق» في «جنوب آسيا» وأن التتار الذين أغاروا على تلك البلاد أسروه وباعوه.. وانتقل من تاجر رقيق إلى آخر حتى حمل إلى دمشق حيث بيع فيها بثمانمائة درهم. ومن دمشق بيع مرة أخرى إلى الأمير «علاء الدين البندقدارى» وقد نسب «الظاهر بيبرس» فيما بعد إلى واليه «البندقدارى» وقد لزم بيبرس صاحبه حتى انتقل به إلى مصر.

الالتحاق بخدمة الملك الصالح أيوب

وقد أصبح «الظاهر بيبرس» مملوكا من مماليك الملك الصالح أيوب والمعروفين باسم المماليك البحرية الذى صادر أموال وأملاك الأمير «علاء الدين البندقدارى»، ولم يمكث «الظاهر بيبرس» فى خدمة الملك الصالح أيوب فترة طويلة فقد أعتقه عندما رأى فيه من حسن الخلق وكفاءة فى التصرف وبذلك أتيحت الفرصة «للظاهر بيبرس» كى يظهر فى ميادين الخدمة العامة.

بيبرس يتقدم طائفته

لم يمض وقت طويل حتى استطاع أن يكون ذا شأن بين أبناء طائفته وموضع ثقتهم حتى أحس به الملك الصالح أيوب فقدمه على طائفته وجعله الرجل الذى يتداول معه شئون الطائفة.

تولى قيادة فرقة المماليك البرية

وبذلك تهيأت الفرصة «للظاهر بيبرس» لأن يكون قريبا من الملك الصالح أيوب،

الأمر الذى وطد مركزه بين كل المسئولين وذوى الحيثية. وعندما مات الملك الصالح أيوب سارعت زوجته «شجرة الدر» بكتمان خبر الوفاة عن الجميع عدا كبار القادة فى القصر فقط وعينت الأمير «بيبرس البندقدارى» قائداً لفرقة المماليك الصالحية على أن تكون إقامة هذه الفرقة داخل معسكر المنصورة حول القصر السلطانى بمثابة الحرس كالمعتاد لهذه الفرقة المملوكية الكبيرة منذ انشائها.

بيبرس يضع الخطة لإيقاف الزحف الصليبى

رأى الأمير «بيبرس البندقدارى» بثاقب نظره الذى اشتهر به دائما أن الزحف الصليبى نحو المنصورة والذى كان قد بدأ بحملة «لويس التاسع» على «دمياط» حيث استولى عليها فى ٢١ صفر سنة ٦٤٧هـ ٤ يونيو ١٢٤٩م – واستمر زحفه نحو المنصورة – رأى بيبرس أنه يجب الاحتياط لإيقاف هذا الزحف الصليبى وأعد خطة حربية وافقت عليها الأميرة «شجرة الدر» – وكانت وقتذاك مقيمة بالقصر السلطانى بالمنصورة. وبناء على هذه الخطة وضع بيبرس فرقته من المماليك البحرية وغيرها من الكتائب المصرية الأيوبية فى كمائن متعددة داخل المنصورة وأمر بمنع التجول وأمر جميع العساكر أن تظل فى كمائنها حتى صدور الإشارة اليها بالحركة.

بيبرس يقود معركة المنصورة

عندما دخلت قوات الفرسان الصليبيين المنصورة (كونت أرتوا وفرسانه) فى يوم ٨ فبراير سنة ١٢٥٠م – ٤ ذو القعدة سنة ٦٤٨هـ – وجدوها مدينة خالية من المقاومة وظنوا أن عسكرها وأهلها هربوا عنها فانتشر الفرسان الصليبيون فى الشوارع والأزقة والحارات واتجهوا إلى القصر السلطانى لطلب التسليم والاعتراف بالنصر الصليبى. ولكن ما كاد الصليبيون يقتربون (كونت أرتوا وفرسانه) حتى أصدر بيبرس أوامره بخروج القوات من مكانها ولم تلبث هذه القوات المصرية الأيوبية المختلفة أن أطبقت على الصليبيين من جميع الجهات كما أسهم الأهالى بسهم كبير فى إبادة الخيالة الصليبية المبعثرة فى مدينتهم وقد قتل حوالى ١٥٠٠ من الفرسان الصليبيين فى هذا اليوم والذى اشتهر فى التاريخ باسم معركة المنصورة. وهكذا فشلت هذه الحملة الصليبية بفضل الأمير بيبرس البند قدارى وجموع الشعب المصرى.

بيبرس فى عهد تورانشاه

بعد هذا الانتصار وصل «تورانشاه» ابن الملك الصالح وتولى الملك خلفا لأبيه واذيعت أخبار وفاة الملك الصالح عند ذلك – وأصبح الأمير بيبرس من رجال السلطة بقيادة فريق المماليك وما أحرزه من انتصار.

وفى هذه الفترة ازدادت قوة المماليك نظرا لأن «تورانشاه» كان ضعيف الشخصية وليس له دراية بسياسة أمور الدولة وكان عاجزاً عن كبح طموحات ومطامع أهل السلطة ومن حوله. لذلك قام المماليك بقتله. وقد وصف المؤرخ «المقريزى» تفاصيل مقتل تورانشاه» وأنهى وصفه بقوله: [إنه مات جريحاً حريقاً غريقاً].

سيف الدين قطز يتولى السلطة فى مصر

بمقتل «تورانشاه»[1] انتهى حكم الأيوبيين لمصر وتولى المماليك السلطة فتولت زوجة أبيه (أى تورانشاه) الملكة «شجرة الدر» الحكم. ثم تولى زوجها عز الدين أيبك من المماليك أيضا السلطة بعد أن تنازلت له عن الحكم. ثم تولى السلطان المنصور ابن أيبك الحكم بعد مقتل أبيه.

وقد حكم الملك المنصور نور الدين ابن أيبك مدة قصيرة بعد مقتل والده ثم لم يلبث أن عين سيف الدين قطز أتابك له أى راعياً ووصيا ونائباً حيث كان عمره لا يتجاوز ١٥ سنة. ولما تولى سيف الدين قطز هذا المنصب استقدم إليه المماليك الصالحية من سوريا[2] وعقد معهم مجلساً أقروا فيه بعدم لياقة نور الدين بالحكم نظراً لصغر سنه فأنزلوه فى أربعة ذو القعدة سنة ٦٥٧هـ بعد أن حكم سنتين.

ثم تولى سيف الدين قطز سلطنة مصر ولقب بالملك المظفر. وحالما استوى على السلطة قبض على نور الدين ابن أيبك وأمر بقتله.

ثم كاتب ركن الدين بيبرس الملك المظفر قطز فبذل له قطز الأمان فجاء بيبرس إلى مصر فى جماعة من أصحابه حيث اكرمه قطز وأنزله فى دار الوزارة. وفى هذه الأثناء جاءت رسالة من هولاكو التترى إلى قطز تنذره فيها بالويل والثبور.

الخطر المغولى يتهدد مصر وقطز يستعد لقتالهم

فى هذه الفترة كانت تتهدد الشرق العربى عامة ومصر بصفة خاصة خطران كبيران أولهما الخطر الصليبى والذى كان الصراع مستمراً ضده والثانى هو خطر المغول الذين جاءوا من أقاصى آسيا بقيادة هولاكو فى أكبر حملة بربرية تخريبية عرفها التاريخ فى محاولة لتدمير الحضارة الإسلامية.

---

(١) تولى السلطان المعز أيبك حكم مصر سنة ٦٤٨هـ - ١٢٥٠م وتولى بعده ابنه السلطان المنصور على ابن أيبك سنة ٦٥٥هـ - ١٢٥٧م وتولى بعده السلطان المظفر قطز سنة ٦٥٧هـ - ١٢٥٩ ثم تولى بعده السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٧هـ - ١٢٦٠م.

(٢) هولاء المماليك الصالحية الذين هربوا إلى سوريا من بطش السلطان المعز أيبك بعد مقتل زعيمهم أقطاي.

وقد خربوا كل البلاد التى مروا عليها تخريباً تاماً وقضوا على الخلافة العباسية فى بغداد بعد أن أحرقوا وقتلوا أهلها ثم وصلوا إلى بلاد الشام[١] فاحتل هولاكو حلب حيث قتل خمسين ألفاً من أهلها ثم احتل حماه ودمشق. وعقد معاهدة مع أنطاكية الصليبية للتعاون ضد المسلمين.

ولاقى المسلمون فى دمشق وغيرها من مدن الشام ألوانا من الذلة والمهانة على أيدى المسيحيين الشرقيين الذين أظهروا التشفى فيهم والانتقام منهم فسارت مواكبهم تحمل الصلبان وألزموا المسلمين القيام لهذه المواكب. ومما ساعدهم على ذلك «كتبغا» نائب هولاكو كان مسيحياً متعصباً ومغولياً شديد القسوة على المسلمين.

وعقب احتلال دمشق تقدم المغول بسرعة فاحتلوا نابلس وقتلوا حاميتها ثم تقدموا إلى غزة دون أى مقاومة وبذلك أصبحوا على حدود مصر التى كانت الخطوة التالية لهم. وقد عاد هولاكو إلى إيران لوجود خلافات على عرشهم بعد وفاة أخيه الأكبر منكو خان وأناب عنه قائده «كتبغا». وقبل عودته أرسل[٢] رسالة طويلة وعنيفة إلى قطز سلطان مصر فى ذلك الوقت مع رسل من عنده يهدده ويتوعده جاء فيها:

«من ملك الملوك شرقاً وغرباً القائد الأعظم - باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء - يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا[٣] إلى هذا الإقليم - «كما جاء فيها» قد سمعتم أننا فتحنا البلاد وقتلنا معظم العباد فعليكم بالهرب وعلينا الطلب ولكن أى أرض تؤويكم وأى بلاد تحميكم، خيولنا سوابق وسيوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال إلخ..»

معركة غزة

حينما استقر الملك للسلطان قطز عام ٦٥٧هـ - ١٢٥٩م - عاد إلى مصر أمراء مماليك البحرية الذين سبق أن هربوا من مصر زمن السلطان أيبك[٤] وانحازوا إلى السلطان الناصر يوسف فى دمشق ومنهم الأمير بيبرس الذى لمس ما أصاب السلطان

(١) بعد هزيمة الصليبيين فى المنصورة وانسحابهم بعشر سنوات إذ كان الانسحاب فى ٦٤٨هـ - ١٢٥٠م.
(٢) الرسالة كلها فى السلوك للمقريزى.
(٣) هذه اشارة إلى أصل قطز الذى ينتمى إلى الخوارزمية.
(٤) ظل أيبك سلطاناً على مصر باسم السلطان المعز لمدة سبع سنوات من ٦٤٨ - ٦٥٥هـ - ١٢٥٠ - ١٢٥٧م هرب خلالها أمراء المماليك البحرية المنافسون له والتجأوا إلى عدوه السلطان الناصر يوسف الأيوبى فى دمشق إذ أن أيبك هو الذى أنهى حكم الأيوبيين فى مصر.

الناصر يوسف فى دمشق من الخوف والوجل من التتار بل وتخاذل الأمراء عن قتال هولاكو فاتهمهم بأنهم السبب فى هلاك المسلمين، وقد قرر العودة إلى مصر للمساهمة فى الاستعداد لقتال المغول، وقد رحب به قطز.

وعندما وصلت رسالة هولاكو إلى قطز اجتمع بالأمراء للتشاور فى الأمر فوجد بعضهم متردداً فى الخروج لقتال التتار فقال لهم : «يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للقتال كارهون. وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى ومن لم يختر ذلك فليعد إلى بيته».

وقرر قطز أن يخرج للقتال بكل حماس وإيمان شجاعة وكان معه بيبرس بنفس الحماس والشجاعة والرغبة فى الخروج للجهاد وباقى الأمراء. وعندئذ قرروا قتل الرسل الذين أوفدهم كتبغا برسالة هولاكو وكان معنى ذلك أن الحرب أصبحت لا مفر منها.

وعندئذ طلب قطز من بيبرس أن يتقدم نحو غزة لمعرفة أخبار المغول فسار إلى غزة وبها جموع التتار بقيادة «بيدر» الذى بعث إلى «كتبغا» ينذره بزحف المماليك. غير أنه لم يستطع الصمود للجيش المصرى واستولى بيبرس عليها فى يوليو ١٢٦٠م - ٦٥٨هـ بعد أن قضى على حاميتها، وكانت بذلك الهزيمة الأولى للتتار.

قطز والاستعداد لمعركة عين جالوت

استشاط «كتبغا» غضباً بعد هزيمتهم فى غزة وأخذ يعد العدة للهجوم على الجيوش العربية - وكان عندئذ موجوداً فى بعلبك فتجهز للسير إزاء بحر الجليل إلى وادى نهر الأردن.

وفى تلك الأثناء عزم قطز على أن يتخذ طريق الساحل الفلسطينى ثم يفارق إلى الشمال لكى يهدد مواصلات كتبغا إذا زحف نحو فلسطين فأرسل سفراء مصريين إلى عكا تطلب من الفرنج السماح للجيوش الإسلامية باجتياز بلادهم وبشراء ما تحتاجه من مؤن.

وقد اجتمع البارونات الفرنج فى عكا للتشاور فى هذا الطلب، والواقع أنهم لم يخفوا كراهيتهم للمغول بعد أن قاموا بمهاجمة صيدا ونهبها. كما أنهم لم تتوافر عندهم الثقة فيهم لما ارتكبوه من مذابح جماعية بينما هم قد اتصلوا بالحضارة الإسلامية وألفوها، بل إن معظمهم كانوا يؤثرون المسلمين على المسيحيين الوطنيين الذين اكتسبوا عطف المغول. وقد استجاب الأمراء الصليبيون لرغبة السلطان قطز وسمحوا له باجتياز أراضيهم وأن يمدوه بالمؤن اللازمة لجيشه.

وقد قاد السلطان قطز جيشه على امتداد الساحل فى أغسطس ١٢٦٠م - ٦٥٨هـ وأقام بعسكره أياماً بالحدائق خارج عكا. واستطاع خلال ذلك أن يقف على تحركات جيش التتار فعلم أنه اجتاز نهر الأردن ونزل بشرق بحر الجليل، ولم يكن «كتبغا» يعلم أن الجيش المصرى ينزل موضعاً قريباً منه إذ أن قطز توجه من عكا نحو الجنوب الشرقى فاجتاز الناصرة حتى بلغ عين جالوت فى ٢ سبتمبر عام ١٢٦٠م - ٦٥٨هـ وكانت عين جالوت تقع غربى بيسان.

معركة عين جالوت

شهدت عين جالوت معركة من أخطر معارك التاريخ فقد اتجه إليها كتبغا قائد التتار مزمجراً غاضباً عندما وصلت أنباء هزيمة جيشه فى غزة، كما اتجه إليها جيش مصر الضخم الذى أعده قطز ومعه بيبرس، وقد أعد قطز خطة للمعركة إعداداً عبقرياً. فأرسل بيبرس فى مقدمة الجيش لملاقاة كتبغا بينما أخفى باقى القوات فى التلال القريبة بقيادته.

ولم يفطن كتبغا للفخ الذى نصبه له قطز وهاجم بيبرس بكامل جيشه. ودار قتال عنيف بين الطرفين وبيبرس يناور ويداور فتارة يتقدم وتارة يحجم فاشتدت مطاردة المغول له ونزل قطز للمعركة بكل ثقله ودار قتال رهيب وأحس قطز باضطراب جيشه أثناء المعركة فخلع خوذته وألقاها على الأرض وصرخ «واسلاماه» واندفع يضرب فى استماتة وقوة ويحرض جنوده على الاستمرار فى القتال الضارى وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة على التتار حتى هزموهم هزيمة كاملة وسقط الجيش المغولى بين قتيل وأسير وجريح. أما كتبغا فعندما ظهرت بوادر النصر للمصريين عرض بعض المغول على قائدهم أن يهرب بحياته ولكنه رفض وظل يصارع وحده حتى قتل كما تقول بعض الروايات أو «حتى سقط حصانه فأُخذ أسيراً» وعندما وقف بين يدى قطز أطلق لسانه بكلمات سباب وقذف فأمر قطز[1] بالقضاء عليه كما تقول رواية أخرى.

وقد لعب بيبرس دوراً كبيراً فى هذه المعركة إذ كان هو قائد القوة الفدائية فى «عين جالوت» ورأس الكمين الذى استدرج قوات «المغول» وأوقع بها حتى تم النصر المحقق لمصر والمصريين.

نتائج النصر فى عين جالوت

كان للنصر على التتار فى عين جالوت نتائج بالغة الأهمية إذ كان انتصار

---

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى جـ ٧ ص ٧٩.

المماليك فى هذه المعركة يعتبر انتصاراً للحضارة وإنقاذا للبشرية كلها من هؤلاء الهمج الذين لم تكن هناك قوة قادرة على ردعهم لا فى الشرق ولا فى الغرب وعلى كف أذاهم وتدميرهم للحضارة.

وبهذا النصر زالت الهالة التى كانت تحيط بجيوش التتار وأنها لا تهزم وانتفضت الشعوب المهزومة ترفع عن كاهلها التتار وتطاردهم خارج بلادهم بلا هوادة.

كما أن هذا النصر أنقذ مصر وحضارتها وشعبها من مصير فاجع كمصير بغداد وشعبها وبقيت مصر بذلك المركز الوحيد للإسلام وهرع إليها عدد كبير من العلماء المسلمين والفقهاء وأصبحوا بذلك مركز إشعاع إسلامى وحضارى متجدد.

وقد أنهى انتصار المماليك فى عين جالوت الخلاف بين الأيوبيين فى دمشق والشام والمماليك فى مصر - الذين أنهوا حكم الأيوبيين لمصر - وحقق الوحدة تحت قيادة المماليك لأول مرة بعد صلاح الدين. إذ أن انقسام إمبراطورية صلاح الدين فى مصر والشام بعد وفاته بين الأمراء الأيوبيين وما تلى ذلك من العداء بين سلاطين الأيوبيين فى مصر وسائر الأمراء الأيوبيين ثم قيام دولة المماليك ٦٤٨هـ - ١٢٥٠م على يد أيبك وما ترتب على ذلك من العداء بين المماليك فى مصر والأيوبيين فى الشام وما أدت إليه هذه الخلافات من إفادة الصليبيين والمغول من هذا الانقسام - نقول أن كل هذه الأوضاع تغيرت وتوحدت مصر والشام تحت حكم المماليك لأول مرة.

كما أن هذا النصر عجل بالقضاء على الصليبيين فى الشام كما أتاح الفرصة لبيبرس للتخلص من قطز فى طريق العودة للقاهرة وأصبح سلطاناً على مصر. وأخيراً وليس آخراً فقد ترتب عليه دخول عدد كبير من التتار فى الإسلام مما كان له نتائج بالغة الأهمية فيما بعد.

الخلاف بين قطز وبيبرس ومقتل السلطان قطز

لاشك أن السلطان قطز كان من أبرز سلاطين المماليك فى عصره فهو الذى قاتل الصليبيين وهزم المغول وكانت مواقفه مشرفة ولكن يبدو أن الخلاف قد دب بينه وبين الظاهر بيبرس فأراد أن يتنكر للظاهر بيبرس ولكن بيبرس كان قد اتفق مع المماليك الصالحية على قتل قطز. فتحرك بيبرس والمعركة لم تجف دماؤها بعد وأنهى حكم «قطز» بعد أن قتله مع رجاله عند الصالحية فى طريق العودة من عين جالوت واستولى على السلطة كلها يوم ١٧ ذى القعدة ٦٥٨هـ أكتوبر ١٢٦٠م فى نفس اليوم. وببلوغه

السلطة بزغت قوة دولة المماليك الحقيقية لأن الظاهر بيبرس كان يتميز بالحكمة والدهاء والقوة مع سعة الأفق وشدة الطموح. وكانت مدة حكم قطز أحد عشر شهراً و١٣ يوما وقد لقب بيبرس بلقب الملك الظاهر بيبرس وسار إلى القاهرة فدخلها وكانت مزينة للملك المظفر قطز فاستمرت الزينة للملك الظاهر بيبرس.

السلطان الظاهر بيبرس يتولى السلطة

ويقول المؤرخ سعيد عاشور[1]

بدخول بيبرس قلعة الجبل سنة ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م بدأت صفحة جديدة فى التاريخ ذلك أن السلطان «الظاهر بيبرس» أثبت بأعماله وإصلاحاته وحروبه أنه المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر والشام. ومن يتأمل دولة المماليك فى الدور الأول من نشأتها يجد أنه تعاقب على عرشها فى السنوات العشر الأولى من عمرها خمسة سلاطين مما يدل على حالة القلق التى تعرضت لها تلك الدولة حينئذ.

أما بيبرس فيكفيه أنه شغل كرسى السلطنة ١٧ عاماً وهى مدة طويلة لم يبلغها أحد من المماليك البحرية سوى السلطان الناصر «محمد بن قلاوون».

الظاهر بيبرس يوطد حكمه ويعيد الخلافة العباسية إلى مصر

بعد تولى السلطة أخذ «بيبرس» يوطد حكمه بالتخلص من المنافسين والمناوئين أولاً ثم بإصلاح الجبهة الداخلية وتوطيد الأمن وتخفيف الأعباء عن الأهالى ووضع قواعد النظام الإدارى فى مصر والشام مع القيام بالعديد من الإصلاحات المتنوعة كما قام بنقل الخلافة العباسية إلى مصر.

ففى عام ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م سقطت بغداد فى أيدى التتار بقيادة هولاكو الذى قتل الخليفة العباسى وأسرته ودمر بغداد تدميراً تاماً وبذلك انتهت الخلافة العباسية فى بغداد.

وعندما تولى الظاهر بيبرس السلطة فى مصر ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م فكر فى إعادة الخلافة العباسية فاستدعى فى سنة ٦٥٩هـ - ١٢٦١م أحد أبناء العباسيين الذين فروا من وجه التتار واسمه أبو القاسم. وعقد مجلساً حافلاً حضره القضاة ورجال الدين والعظماء. وثبت فى هذا الاجتماع نسب أبى القاسم فبايعه الحاضرون بالخلافة ليكون

(١) دكتور سعيد عاشور: العصر المملوكى فى مصر والشام.

خليفة الإسلام والمسلمين ولقب «بالمستنصر بالله» ثم أخذت له البيعة على الناس على أن يكون مقره القاهرة[1].

وبعد ذلك قلد الخليفة الظاهر بيبرس حكم البلاد جميعها باسمه وحكم ما سيفتحه الله عليه بالدعوة أو بالسيف. ونقشت السكة باسم الخليفة والسلطان، ودعا لهما الخطباء فى المساجد فى صلاة الجمعة[2]

وبذلك أحاط بيبرس عرش المماليك بالقداسة والإجلال والشرعية.

بعد ذلك أخذ بيبرس يعد العدة ويحشد الجيوش ويشحذ الهمم للاستمرار فى التصدى للأخطار الصليبية والمغولية.

وعندما قرر أن تبدأ معاركه الكبرى بدأ العمل بذكاء وبراعة سياسية أولاً فقد أراد ألا يحارب فى جهات متعددة فى وقت واحد، لذلك نراه يحيط حروبه بسياج من المعاهدات والاتفاقات الدولية الخارجية فيسعى إلى محالفة الإمبراطورية البيزنطية ويؤكد الود والتحالف مع حكام جزيرة صقلية.

أى أنه بذلك يهادن طرفا ليقاتل الطرف الآخر ويسعى إلى الانفراد بأعداء الأمة العربية واحدا بعد الآخر.

الظاهر بيبرس يبدأ حروبه ضد الصليبيين

بدأ الظاهر بيبرس حروبه ضد الصليبيين أولاً بعد أن تلقى التتار أكبر هزيمة لهم فى عين جالوت وكان قد بدأ القتال ضدهم فى معركة «المنصورة» وحقق فيها نصراً كبيراً ولكنه لم يكن هو السلطان فى ذاك الوقت كما اكتسب خلالها تجارب عديدة ساعدته فى الحرب ضدهم بعد أن تولى السلطة.

وفى عام ١٢٦٣[3] بدأ السلطان بيبرس جهاده العظيم بالهجوم الشامل على الصليبيين فى بلاد «الشام» جميعها أى فى فلسطين وسوريا ولبنان والأردن ومشارف العراق. وقد بدأ هجومه من «غزة»، وعندما أحس الصليبيون بهذا الهجوم الشامل

(١) استمرت الخلافة العباسية فى القاهرة طوال حكم المماليك البحرية والبرجية. ولكنها لم يكن لها حول ولا قوة ولا رأى فى سياسة الأمور. وإنما كانت رمزاً تبارك سلطة من حصل على السلطة بسيفه، وقد استمرت كذلك حتى الفتح العثمانى لمصر سنة ١٥١٧م.

(٢) المقريزى – كتاب السلوك.

(٣) يلاحظ أن بيبرس بدأ جهاده هذا بعد انتصار صلاح الدين فى حطين واستعادة القدس فى ٥٨٣هـ – ١١٨٧م بحوالى ٧٦ عاماً.

تملكهم الخوف وأرسلوا للسلطان «بيبرس» الرسل يطلبون «مراحم السلطان» حسبما ذكر «المقريزى» فى كتابه «السلوك لمعرفة دول الملوك» الذى أرخ فيه لمصر فى هذه الفترة الخطيرة من حياة الأمة العربية فى العصرين «الأيوبى والمملوكى».

كما تعهدوا بإطلاق سراح الأسرى العرب والمسلمين والمحافظة على العهود والوثائق المعقودة مع العرب. ولكن بيبرس رفض وعودهم المعسولة قائلاً : (كان هذا قبل خروجى من مصر فى هذا الشتاء وهذه الأمطار ووصول العساكر إلى هنا).

بعد ذلك بدأ يهاجم المناطق المحيطة «بعكا» واستحكاماتها الأمامية لأنه كان يريد أن يكشف مدينة «عكا» لأن الفرنجة كانوا يزعمون أن أحداً لا يجرؤ على الاقتراب منها. ثم بعد ذلك أخذ يتوجه إلى المعاقل الصليبية فى «فلسطين» ليكتشفها موقعا موقعا، ثم توجه «للقدس» وهناك أمر بإعادة تجديد وتعمير «المسجد الأقصى» ثم اتجه إلى «الكرك» فاستولى عليها وعلى قلعتها الحصينة.

اصلاحات الملك الظاهر بيبرس

عاد بعد ذلك إلى «مصر» عامى ١٢٦٣و١٢٦٤م حيث قام بجولات تفتيشية فى «الجيزة» و«الاسكندرية» و«وادى النطرون» إذ كان يريد أن يطلع بنفسه كيف تسير البلاد وكيف يعمل رجال الإدارة فيها. وفى هذه الفترة أخذ بيبرس يستعد لحروب جديدة وينظم الشئون الداخلية للبلاد، فأمر بإراقة الخمور وإبطال المسكرات وتعقب بيوت المسكرات ومنع الحانات والفواحش بجميع أقطار مملكة مصر والشام فعادت البلاد إلى الهدوء. ثم أمر بمنع النساء الخواطئ من التعرض للبغاء ونهب الحانات التى كانت معدة لذلك وسلب أهلها جميع ما كان لهم ونفى بعضهم وحبس النساء حتى يتزوجن وكتب بجميع ذلك توقيعاً (منشوراً قرئ فى المنابر). ثم علم أن الطواشى شجاع الدين عنبر يشرب المسكر فشنقه تحت قلعة الجبل وكل ذلك لإرضاء الله تعالى.

وكان فى سنة ٦٢٢هـ قد بنى دار العدل القديمة تحت القلعة وصار يجلس بها لعرض العساكر فى كل يوم اثنين وخميس، وكان ينظر فى أمر المتظلمين بنفسه ويفصل فى تظلماتهم.

الاستيلاء على قيسارية

بعد ذلك عاد مرة أخرى إلى «فلسطين» فهاجم مدينة «قيسارية» وأمسك المطرقة ووقف بنفسه وسط الجند يعمل فى هدم سورها حتى جرحت يداه كما ذكر «المقريزى». وهاجم بيبرس المدينة على حين غفلة من أهلها فنجح هو ورجاله فى

حرق أبوابها واقتحامها، عندئذ دخل أهل «قيسارية» من الصليبيين إلى قلعة المدينة وكانت من أحسن القلاع وأحصنها فتابع بيبرس هجومه على القلعة نفسها وكان يخرج بنفسه وبيده ترسه للقتال ويعود آخر النهار وفى ترسه عدة سهام. واستمر في حصاره لها حتى استسلمت فى نفس العام فى مارس ١٢٦٥م فتسلق المسلمون الأسوار وحرقوا الأبواب ودخلوها من أعلاها وأسفلها.

الاستيلاء على أرسوف

بعد ذلك اتجه «بيبرس» إلى «أرسوف» حيث استبسل العرب والمسلمون فى قتالها استبسالا عظيماً وقد شاركت النساء الرجال فى الجهاد ولم تكتف النساء بالعمل فى سقاية الماء بل كن يعملن فى جر المنجانيق - حتى سقطت «أرسوف» فى ابريل ١٢٦٥م وقد استعمل الظاهر بيبرس أسرى الصليبيين فى هدم قلاعهم وتخريب حصونهم بأيديهم حتى لا يعودوا لها من البحر ثانية.

الاستيلاء على صفد

وفى عام ١٢٦٥ عاد «بيبرس» إلى «القاهرة» قادماً من «الشام» ولكنه لم يمكث طويلاً فكانت فكرة الجهاد فى سبيل الله تسيطر عليه فعاد مرة أخرى إلى «فلسطين» ٦٦٤هـ - ١٢٦٦م حيث اتجه إلى جبال «الجليل» مرسلاً وحدات عسكرية بين حين وآخر للاستكشاف والمناوشة ثم اتجه إلى «صفد» حيث حشد كل قواته للاستيلاء عليها. وقد أظهر فى ذلك همة وشجاعة نادرين فاستقدم المنجانيق من «دمشق» ولما عجزت عن حمله الجمال حمله الجنود والقادة على الرقاب وأخذ السلطان بيبرس بنفسه يعمل فى جر الأخشاب مع البقر ويقول المؤرخون [أنه ربما تعب الناس واستراحوا إلا أن بيبرس لم يكن يسأم من الجر].

وقد استماتت الصليبيون فى الدفاع عن موقعهم «صفد» إلا أنهم عجزوا عن صد هجمات المسلمين المستمرة بقيادة بيبرس حتى اضطروا فى النهاية إلى التسليم سنة ٦٦٤هـ فى آخر يوليو سنة ١٢٦٦م. وقد أعاد بيبرس تعمير قلعة «صفد» ليجعل منها موقعاً لرجاله وقد كتب على أسوارها عبارات تتضمن سيرة جهاده ضد الصليبيين كما استدعى جماعات من أهالى «دمشق» للإقامة فى «صفد وبنى فيها مسجدين[1] حتى يعيد إليها وجهها الإسلامى مرة أخرى، وبسقوط «صفد» أصبحت له السيطرة على إقليم الجليل.

(١) كتب بيبرس على جدران قلعة صفد بأنه «عماد الدين الذى حول الكنائس إلى مساجد ورنين النواقيس إلى أصوات المؤذنين والهمهمة بالإنجيل إلى ترتيل بالقرآن.

الاستيلاء على أرمينيا الصغرى - قليقية

بعد ذلك أرسل بيبرس قواته إلى أرمينيا الصغرى - (قليقية) لمهاجمتها لأن الأرمن تحالفوا مع المغول فى الشرق وساعدوهم فى قتالهم ضد المسلمين فى عين جالوت كما تحالفوا مع أمير إنطاكية بوهمند السادس وارتبطوا معه برباط المصاهرة. وقد بادر الأرمن إلى اعتراض طريق العسكر المصرى والشامى أثناء هبوطهم إلى سهل قليقية فدارت معركة رهيبة فى ٢٤ أغسطس سنة ١٢٦٦م - ٦٦٤هـ هزم فيها الأرمن هزيمة ساحقة وقع فيها «ليو» ابن ملك الأرمن أسيراً. واجتاح المسلمون قليقية ودخلوا سيس عاصمتها فخربوها وأخذوا يقتلون ويأسرون وينهبون كل ما يصادفهم.

وفى نهاية سبتمبر انسحب المنتصرون إلى حلب ويصحبهم من الأسرى نحو أربعين ألفاً ومن الغنائم ما حملته قافلة ضخمة.

وبذلك أصبح المسلمون يحدقون بقليقية من كل جانب واقتربت بذلك ساعة زوال إمارة إنطاكية من شمال الشام.

الاستيلاء على يافا ثم إنطاكية

بعد ذلك عاد إلى مصر كالعادة ليتفقد شئونها ولكن بلغه أن «التتار» فى «حلب» قد بدأوا يتحركون فأسرع وغادر «القاهرة» مرة أخرى فى أوائل عام ٦٦٦هـ - ١٢٦٨م قاصداً «الشام» وفى طريقه حاصر «يافا» فى «فلسطين» واستولى عليها بعد اثنتى عشرة ساعة فقط وهدم قلعتها وأرسل أخشابها ورخامها للقاهرة ليبنى مسجده «بالحسينية» بالقاهرة - ومن هذا الرخام صنع محراب هذا المسجد. بعد ذلك استمر فى تقدمه مستعينا بالسرية والكتمان، إذ قد عقد النية على دخول معركة كبيرة ضد الصليبيين كى يبطش بأكبر قوة من قواتهم، واستمر فى السير حتى وصل إلى «إنطاكية» وكانت من أكبر ممالك الصليبيين التى أقاموها على الأرض العربية وكانت شديدة التحصين عجز من قبل «الأباطرة البيزنطيون» عن أخذها من الصليبيين.

كان بيبرس يطبق نظريات الحرب الخاطفة إذ أنه عندما كان يصادف فى طريقه القلاع والحصون المنيعة التى يتطلب إسقاطها وقتاً طويلاً كان يتركها ويمضى لمهاجمة المواقع التى يسهل الاستيلاء عليها والتى تحقق له أكبر النتائج.

ولذلك نراه يترك طرابلس نظراً لمناعتها وقوة حصونها وقوة حاميتها ويتجه شمالاً نحو إنطاكية التى كان يتطلع للاستيلاء عليها نظراً لأن أميرها بوهمند السادس ارتبط بصلة المصاهرة والتحالف مع ملك أرمينيا الصغرى (قليقية).

وقد وضع بيبرس خطة محكمة للاستيلاء على إنطاكية فجعل قواته ثلاثة أقسام، توجه القسم الأول منها للاستيلاء على الميناء لقطع أى اتصال بها عن طريق البحر. وسار القسم الثانى نحو الدروب السورية فى جبال «طوروس» حتى يحول دون قدوم أى إمدادات لها من حليفتها أرمينيا الصغرى - قليقية، أما الجيش الثالث - وهو القوة الأساسية - فقد تولى بيبرس قيادته بنفسه وقام بتطويق المدينة. وقام بمهاجمتها حتى استطاع فى ١٨ مايو سنة ١٢٦٨م - ٦٦٦هـ اختراق استحكاماتها والنفوذ منها إلى داخل المدينة حيث استولى عليها بعد قتل المدافعين، ووقع النهب والأسر فى المدينة وأحاطت قوات بيبرس بأبوابها حتى لا يفلت منها أحد، فالتجأ إلى قلعة المدينة حوالى ثمانية آلاف من المقاتلين بخلاف النساء والأولاد حيث استسلموا بعد طلب الأمان.

ثم جمع السلطان الغنائم لتقسيمها فأحضر الناس المصاغ والذهب والفضة حتى صارت تلاً ثم وزعها على الجنود. ثم ركب السلطان إلى القلعة فأحرقها وبذلك سقطت إنطاكية بعد أن ظلت ١٧١ عاماً إمارة صليبية عاتية.

نتائج الاستيلاء على إنطاكية

ويقول المؤرخ الدكتور سعيد عاشور:

إن استيلاء بيبرس على «إنطاكية» ٦٦٦هـ - ١٢٦٨م كان أعظم فتح لمصر حققه المسلمون والعرب ضد الصليبيين منذ استيلاء صلاح الدين على «بيت المقدس» سنة ١١٨٧م، ولذلك فرح العرب والمسلمون فرحاً شديداً بذلك الفتح وأرسلت البشائر إلى الأقطار الشامية والعربية والمغربية حيث أقيمت الزينات والأفراح. أما بالنسبة للصليبيين فإن ضياع إنطاكية منهم كان أكثر من كارثة، لأن إنطاكية كانت أولى الإمارات التى أسسها الصليبيون فى الشام منذ ١٧١ سنة. ولذلك كان سقوطها إيذاناً بانهيار البناء الصليبى فى الشام وتتويجاً لحركة الجهاد الكبرى ضد الصليبيين التى لم تنته إلا فى سنة ١٢٩١م بطرد آخر بقايا الاستعمار الصليبى من الشام.

وترتب على سقوط إنطاكية أن سارعت القوى الصليبية بالفرار وترك البلاد فى مواقع كثيرة مختلفة تاركة وراءها أموالاً وعتاداً كثيراً، أما صاحب عكا الفرنجى فقد أسرع يطلب الصلح ويقدم الهدايا - فهادنه السلطان بيبرس لمدة عشر سنوات على أن تحكم عكا حكماً مشتركاً من العرب والفرنج.

بيبرس يؤدى فريضة الحج

بعد ذلك ذهب السلطان بيبرس سراً إلى الحجاز حيث أدى فريضة الحج كأى

واحد من الناس لا يحجبه أحد ولا يحرسه إلا الله . وبعد تأدية المناسك عاد إلى «الكرك» ومنها إلى «دمشق» ثم «حلب» ثم «القدس و«الخليل» ثم «القاهرة» .

ولم يمكث كعادته كثيراً فى مصر بل عاد إلى ساحة النضال فى الشام وهناك علم أنه تجرى اتصالات كثيرة بين الصليبيين والمغول للتحالف سوياً ضد العرب والمسلمين وعلم بخروج «لويس التاسع» [صاحب هزيمة المنصورة] مرة أخرى على رأس حملة صليبية فظن أنها تستهدف مصر ولكنه اتجه إلى «تونس» حيث هزم ولقى حتفه هناك.

الاستعداد لملاقاة المغول مرة أخرى

بعد ذلك أخذ يستعد لملاقاة المغول وهزيمتهم بهمة عالية وحماس لا يفتر. فبعد هزيمة المغول فى «عين جالوت» لم يكفوا عن التطلع إلى الأرض العربية والطمع فيها فاستمروا كلما اشتدت المعارك مع الصليبيين وانشغل العرب بقتالهم إذا بهم يلجأون إلى الإغارات السريعة على الأرض العربية ولكن العرب والمسلمين بقيادة «بيبرس» وقفوا لهم بالمرصاد وكانوا يصدون غاراتهم بل كانوا يوسعون المعارك ضدهم وينقلونها من أرض العرب إلى أرض العدو.

لذا نرى السلطان بيبرس يأمر بنقل المعارك من أرض العراق وأن تمتد حتى يقاتلوا حلفاء «المغول» فى أرمينيا وآسيا الصغرى أى مقاتلة سلاجقة الروم، ومن المعارك المشرفة ضد المغول معركة «البيرة» على نهر الفرات فى عام ١٢٦٥م بالقرب من حلب. عندما هجم المغول عليها وحاصروها للاستيلاء عليها كما استطاعوا الاستيلاء على حلب وقتل عدد كبير من سكانها انتقاماً لمصرع كتبغا، كما استمروا فى زحفهم حتى وصلوا إلى مشارف حماه وحمص. فسارع بيبرس إلى نجدتها وبينما هو فى الطريق علم أن صاحبى حماه وحمص مع الطلائع التى أرسلها بيبرس قد هزموا المغول هزيمة ساحقة بالقرب من حمص فى ديسمبر ١٢٦٠م – ٦٥٨هـ وبذا استقرت الأوضاع الناجمة عن معركة عين جالوت وتم دفع المغول إلى شرق الفرات. وعندئذ أمر بيبرس بإرسال المؤن إلى «البيرة» والعتاد الحربى وأصلح حصونها وأرسل ما تحتاجه المدينة لمدة عشر سنوات حتى تستطيع الصمود لحين وصول النجدات إليها.

توحد الخطرين المغولى والبيزنطى ضد المسلمين

عندما توفى «هولاكو» ورث ابنه «أبغا» الملك وتزوج ابنة الإمبراطور البيزنطى، وبهذا الزواج ارتبط الاستعمار الشرقى التتارى مع الاستعمار الغربى الصليبى وكثرت

الاتصالات بينهما وكان التتار يكاتبون «البابا» الذى كان يحرك تلك الحروب الاستعمارية الصليبية ويباركها.

بيبرس يهزم الجميع

بعد ذلك بدأ القتال بين «أبغا» وبين المسلمين وتحرك المغول على نهر الساجور قرب حلب متحالفين مع الصليبيين فى ساحل سوريا القريب من حلب فأرسل «الظاهر بيبرس» قوة من الجند فهزم المغول وردهم مرة أخرى عن أرض العرب فى الشام، ولكن شراسة «أبغا» وتطرفه الهمجى لم تقف عند حد فعاد إلى القتال مرة أخرى فقاتله بيبرس حيث هزمه عند «طرف» فتدخل الصليبيون لمساندة المغول فأغاروا على «فارون» ولكن العرب والمسلمين هزموا الجميع وردوهم على أعقابهم.

وهكذا بقيت الحال بين مد وجزر وبين إقبال وإدبار - يحاول المغول بشتى الطرق أن ينالوا من الأرض العربية إلا أن عزيمة المقاتلين العرب والمسلمين بقيادة القائد البطل بيبرس لم تمكنهم من تحقيق أهدافهم أو مطامعهم.

وهكذا مضت أيام «الظاهر بيبرس» مستهدفة تحرير الأرض والوطن والذود عن الإسلام وهو لا ينسى فى كل هذا وحدة العرب واستمرار بناء المجتمع العربى.

بيبرس والنوبة(١)

فى بداية عهد المماليك كان الإسلام قد انتشر فى بلاد النوبة بين الأفراد، إذ كانت مجموعات عربية قد هاجرت من الشمال إلى الجنوب تحت ضغوط مختلفة عندما سقطت الدولة الأموية حيث هرب كثير من أفرادها وأنصارها كما هاجر عدد كبير عندما بدأت دولة أحمد بن طولون فى مصر.. الخ.

ومع ذلك فقد بقيت الممالك القائمة فى النوبة على المسيحية، وخلال الصراع الذى بدأ بين المماليك والصليبيين ظهر بشكل أو بآخر تأييد المسيحية بالنوبة للصليبيين خاصة عندما استولى الظاهر بيبرس على ميناء سواكن إثر اعتداء حاكمها

---

(١) بلاد النوبة فى التاريخ الوسيط هى ما يعرف الآن باسم شمال السودان تقريباً وكانت النوبة على مر العصور منذ عصر الفراعنة وما بعده هى المهرب الذى يلجأ إليه المضطهدون أو المهزومون فى الشمال أى فى مصر، فقامت فيها دولة كوش فى عصر الفراعنة كما قامت بها دولتان مسيحيتان على أثر هروب المسيحيين المضطهدين فى مصر من الرومان كانت إحداها فى الشمال وهى مملكة «مقره» وعاصمتها دنقله والثانية مملكة «علوه» فى الجنوب وعاصمتها سوبا. وفى عام ٥٨٠م أصبحت المسيحية الدين الرسمى لهاتين الدولتين.

على بعض التجار المصريين. وكانت سواكن هى الميناء الذى يبحر منه المسيحيون فى النوبة إلى الأماكن المقدسة بفلسطين.

وقد ازدادت حدة التوتر عندما قام الملك «داود» ملك «مقره» بهجوم على أسوان أسر فيه جمعا كبيراً من المسلمين سنة ١٢٧٢م ونهب ثروات الناس. كما اعتدى على ميناء عيذاب وكانت من موانى مصر الكبرى على البحر الأحمر[١] فى ذلك العصر. وكان الظاهر بيبرس مشغولاً فى معاركة الكبرى ضد الصليبيين عند حدوث هذه الغارة فاكتفى بإرسال حملة تأديبية ردت المعتدين.

وعندما استقرت له الأمور أعد جيشاً ضخماً زحف على بلاد النوبة سنة ١٢٧٦ بقيادة الأمير افسنقر لمعاونة رجل يدعى شكنده فى المطالبة بعرش «مقره» وقد التقى جيش بيبرس بجيش داود فهزمه وفر داود وتوج شكنده فى دنقله فى نفس العام ملكاً على «مقره» ، وعقدت معه معاهدة تعيد الرباط الوثيق بين النوبة ومصر وتجعل سلطان مصر هو فى الحقيقة سلطاناً على كل الوادى. وبذلك أصبحت «مقره» جزءا من السلطة المصرية وأصبح النوبيون بذلك أهل ذمه وأنشأ لهم السلطان بيبرس[٢] ديوانا سماه ديوان النوبة لمراقبة جمع الجزية والخراج وتعيين العمال، وبذلك وضع اللبنة الأولى القوية فى سبيل تحويل النوبة إلى دولة[٣] إسلامية فيما بعد.

اهتمام بيبرس بالنواحى الاقتصادية

وفى نفس الوقت أعطى بيبرس الحياة الاقتصادية اهتماما كبيراً ظهرت آثاره فى الحياة الاجتماعية وبنيت القصور والجوامع والمدارس والخانات (أى الفنادق) وأصبحت القاهرة مركزا تجاريا كبيراً. وكان الصليبيون يفكرون دائماً فى فرض حصار اقتصادى على العرب لحرمانهم من تجارتهم وأرباحها وأصدر البابا «جريجورى العاشر» قراراً يحرم فيه على التجار الأوربيين التعامل مع التجار العرب ويهدد كل من يخالف ذلك بالحرمان (حققوا ذلك فيما بعد - بعد اكتشاف «رأس الرجاء الصالح والطريق إلى الهند») .

وكان بيبرس حريصا على أن يوطد السلطة المملوكية بإقامة جيش نظامى من المماليك والإفادة من الكتائب العربية وإعادة إنشاء البحرية ثم توزيع الاقطاعات من جديد بين الأمراء وإصلاح الطرق والجسور ورصف الترع والمصارف فى جميع أنحاء

(١) نهاية الأرب للنويرى جزء ٢٨ ص ١٠٩.
(٢) المقريزى : السلوك جـ ١ القسم الثانى ص ٦٢٣.
(٣) انتهت المسيحية فى النوبة سنة ١٤١٨م بعد حروب متعددة وبعد أن عين لها ملك مسلم وأصبحت بذلك بلاد إسلام.

البلاد يضاف إلى ذلك ما أجراه فى الشام من عمارة الاستحكامات والحصون وشحنها بالعساكر وتنظيم البريد بين القاهرة والشام كما وجه اهتمامه أيضا إلى إصلاح استحكامات الاسكندرية.

كما امتدت أيدى «الظاهر بيبرس» إلى بلاد الشام والحجاز لإقامة المنشآت والمدارس والمؤسسات كما فعل فى عاصمة ملكه فى «القاهرة».

بيبرس يعمل من أجل الوحدة

وقد ظهر لبيبرس أثناء حكمه أن العرب لا يمكنهم بدون الوحدة السياسية والعسكرية أن يقاتلوا عدوهم فبلاد الشام كلها (فلسطين وسوريا والأردن ولبنان) كانت تقع فريسة سهلة فى أيدى المغيرين عندما تكون غير متحدة مع بعضها البعض ومع مصر. (ما أشبه الليلة بالبارحة) ولذلك كانت جهود «الظاهر بيبرس» فى هذا المجال الوحدوى جهوداً ذكية واعية تتحرك ضمن إطار قومى وبأفق تاريخى وكانت حركته تتركز فى قلب الأرض العربية أولا (مصر وسوريا والعراق) وكان يقترب من أرض الجزيرة العربية نفسها كلما سمحت ظروف النضال وظروف السياسة بذلك.

وفاته

فى سنة ١٢٧٧م فى ٣ يونيه - ٢٨ محرم سنة ٧٧٦هـ. مات السلطان «الظاهر بيبرس» - كانت وفاته فى دمشق فدفنوه حسب وصيته فى قرية «داريا» بقرب دمشق نفسها، مات من آلام دبت فى أمعائه وفى باطنه واستعمل دواء لم يكن برأى طبيب، وكانت مدة حكمه ١٧ سنة وشهرين وعشرة أيام.

وكان ملكا جليلا عجولا طويل القامة مليح الشكل سريع الحركة فارسا مقداماً وترك من الذكور ثلاثا وسبعا من البنات.

ومما فتح الله على يده من أيدى الصليبيين:

قيسارية وارسوف وصفد وطبريه ويافا والشقيف وإنطاكية وبقواص والقصير وحصن الأكراد والقرين وحصن عكا وصافينا ومرقبة وحلب. وقد ناصفهم على المرقب وبانياس وطرسوس وأدنه والمصيصة وغيرها من مدن الأناضول.

الظاهر بيبرس الذى ودع الحياة مناضلا شامخا واقفا كالأشجار العالية أصبحت سيرته النبيلة وبطولته الفريدة ومثابرته فى الجهاد صفة مشرفة فى تاريخ أمتنا الإسلامية، ولما بلغ خبر وفاته العرب فى مصر والشام بكاه الجميع وتأثروا تأثراً شديدا وردد الجميع مع المقريزى تلك العبارة: «كان من خير ملوك الإسلام».

الباب الخامس

الإمبراطورية البيزنطية فى سطور

الفصل العشرون

الإمبراطورية البيزنطية(1) فى سطور

«بداية ونهاية»

مقدمة

بدأ تاريخها عام ٣٣٠م عندما نقل الإمبراطور قنسطنطين الأول عاصمة الإمبراطورية من روما إلى بلدة «بيزنطة» وأعاد بناءها وسماها القسطنطينية Constantinople (نسبة إليه) – ولو أن حكومة وقوانين الدولة البيزنطية كانت رومانية إلا أن الثقافة والمدنية كانت يونانية.

وفى أوج مجدها فى القرن السادس الميلادى كانت الإمبراطورية البيزنطية تتضمن آسيا الصغرى والشام ومصر وشبه جزيرة البلقان وشمال أفريقيا وإيطاليا وجنوب أسبانيا.

وعند سقوطها فى سنة ١٤٥٣م فى يد الأتراك العثمانيين كانت عبارة عن مدينة واحدة وضواحيها وهى القسطنطينية وما حولها.

هذا ويمكن القول أن السبب الأساسى – من بين أسباب أخرى عديدة – فى انهيار هذه الإمبراطورية العظيمة كان المسلمون. فقد بدأ ذلك الانهيار باستيلاء العرب على الشام ومصر وبرقه فى عهد الخلفاء فى بداية القرن السابع الميلادى ثم توالى الصراع بعد ذلك بين الأمويين والبيزنطيين فى حوض البحر المتوسط وما حوله واستمر الصراع بعد ذلك بين الأتراك السلاجقة الذى بلغ ذروته فى معركة مانزكرت سنة ١٠٧١م. التى هزم فيها السلاجقة بقيادة ألب ارسلان، هزموا قوات بيزنطه بقيادة الإمبراطور رومانوس الرابع والذى أسر فى المعركة وبالتالى فتحت المجال أمام السلاجقة ثم العثمانيين من بعدهم للاستيلاء على الأناضول وأخيراً احتلال القسطنطينية نفسها سنة ١٤٥٣م على يد محمد الفاتح مما قضى على هذه الإمبراطورية العتيدة نهائيا بعد أكثر من حوالي ألف ومائة سنة من عمرها.

(1) الروم كما ورد اسمها في القرآن الكريم.

«إنشاء الإمبراطورية»

فى عام ٣١٢م تخلص الإمبراطور قنسطنطين الأول من منافسيه وأصبح الحاكم الأوحد لروما. ولكن النزاعات الداخلية أضعفت الإمبراطورية الرومانية إلى حد كبير. وكان نصفها الغربى على حافة الانهيار الاقتصادى بينما كان نصفها الشرقى أكثر ثراء.

ولحماية هذه النصف الشرقى من الإمبراطورية اختار قنسطنطين مدينة بيزنطه لتكون العاصمة نظراً لموقعها المسيطر والمتوسط والتجارى واعتنق المسيحية وجعلها دين الدولة وسرعان ما أصبحت مدينة غنية من التجارة وصناعة الأسلحة وتجارة المجوهرات والحرير.

بعد وفاة قنسطنطين اشتد الانقسام بين الشرق والغرب وفى عام ٣٨٥م بعد وفاة ثيودوسيوس الأول قسمت الإمبراطورية الرومانية بصفة دائمة على ولديه أركاديوس وهونوريوس إلى قسمين شرقى وغربى، وقد أخذ أركاديوس القسم الشرقى وكان يضم آسيا الصغرى والشام ومصر وتراقيا ومقدونيا وكانت العاصمة بطبيعة الحال هى «بيزنطه».

انهارت الإمبراطورية الرومانية الغربية سريعا تحت وطأة هجمات البرابرة. وفى عام ٤٧٦م عزل آخر امبراطور غربى، فتولى الإمبراطور الشرقى زنيو السلطة الاسمية على جميع أرجاء الإمبراطورية ولكن لم يمارس سلطة فعلية على الغرب وبقيت الكنيسة فى الغرب مستقلة بينما خضعت الكنيسة فى الشرق لسلطة الإمبراطور الشرقى.

«حكم الإمبراطور جستنيان»

بلغت الإمبراطورية البيزنطية أوج مجدها فى تاريخها الأول فى حكم جستنيان من سنة ٥٢٧م - ٥٦٥م الذى أرسل اثنين من القادة العظام هما بلزاربوس ونارسيس لاستعادة أملاك الإمبراطورية القديمة. فاستطاعا الاستيلاء على روما واستعادة أسبانيا وأفريقيا من أيدى البرابرة وصدوا الهجمات الفارسية المتكررة على القسم الشرقى من الإمبراطورية.

وقد تحسنت الأوضاع تحت حكم جستنيان وسنت القوانين ويعتبر جستنيان من أكبر المشرعين فى التاريخ الرومانى، وقد حاول جستنيان مصالحة الكنيستين الشرقية «بيزنطه» والغربية «روما» فى مؤتمر عام ٥٥٣م حول طبيعة السيد المسيح ولكن فشل لتشدد الغرب «روما»، وقد تميز حكم جستنيان بنقص ملحوظ فى استخدام اللغة اللاتينية وانتشار استخدام اللغة اليونانية فى الدوائر الرسمية بينما كانت اليونانية هى باستمرار لغة الشعب.

ونتيجة لاتساع الإمبراطورية واستمرار الصراعات اضطر الاباطرة إلى ترك إيطاليا وجنوب أسبانيا إلى اللومبارديين.

الفن البيزنطى

يعتبر الفن البيزنطى المرآة الحقيقية للتحول الذى تم خلال القرون الثلاثة من الرابع إلى السابع الميلادى نتيجة لتحول الدولة البيزنطية إلى الدين المسيحى، فالفن المسيحى المتقدم لم يكن خلال القرون الثلاثة الأولى من تاريخه إلا تطويراً أو تعريفاً للفن الرومانى المتأخر، وهو فن تظهر فيه الرغبة فى تصوير الجانب الروحى لا الحسى وتظهر بجلاء فى صور القبور.

ثم تطور الفن البيزنطى وحاول تقديم صورة رائعة للشخصيات الرسمية التى كانت تطالب باحترام الناس وتبجيلهم، فالمسيح يصور فى بيزنطه كما لو كان ملكاً والعذراء كما لو كانت ملكة وهما يلبسان ملابس ملكية نفيسة ويجلسان على عرشيهما فى وقار وتحفظ دون أن يعبر وجهاهما عن شئ.

وتعد كنيسة «أيا صوفيا» التى شيدها جستنيان فى القرن السادس فى القسطنطينية تعد بحق أعظم إنجاز فنى فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطيه على الإطلاق فهى عنوان الفن البيزنطى وقمته. وإن أحداً لا يمكنه مطلقاً أن يفهم أو يقدر قيمة الفن المسيحى الشرقى وأصالته قبل أن يرى هذا البناء الرائع «الكنيسة الكبرى» كما كانت تسمى به فى الشرق إبان العصور الوسطى.

وصف القسطنطينية

تحتل القسطنطينية موقعاً استراتيجياً ممتازاً فهى تقع فى أقصى طرف أوروبا الشرقية أمام سواحل آسيا الصغرى مباشرة وفى أضيق مسافة بينهما فهى تسيطر على مضيق البسفور تماماً وبذا تتحكم فى المواصلات البرية من الغرب إلى الشرق وبالعكس كما تتمتع بالتحكم فى المواصلات البحرية من الشمال إلى الجنوب وبالعكس بين البحر الأسود والأبيض عبر بحر مرمرة، ولذا كان من المتعذر حصارها حصاراً كاملاً إذ لابد من حصارها براً وبحراً.

وقد وصفها القلقشندى[1] بقوله: «ولها أسوار من حجارة بينهما فضاء ستون ذراعاً وعرض السور الداخلى اثنا عشر ذراعاً وارتفاعه اثنان وسبعون ذراعاً وعرض السور

(١) صبح الأعشي للقلقشندي جـ ٥ ص ٣٧٧ - ٣٧٨.

الخارجى ثمانية أذرع وارتفاعه اثنان وأربعون ذراعاً وفيما بين السورين نهر يسمى «قسطنطينيانوس» وبها قصر فى غاية الكبر والعلو وهو من عجائب الدنيا يمشى فيه بين سطرين من صور مفرغة من النحاس البديع الصناعة على صور الآدميين وأنواع الخيل والسباع وغير ذلك. وفى القصر ضروب من عجائب المصنوعات».

الأسرة الهرقلية،

بعد وفاة الإمبراطور تيبيرياس دبت الفوضى فى الإمبراطورية والفتنة الداخلية والمؤامرات والغزوات الخارجية حتى عام ٦١٠م حين استطاع Heraclius هرقل (نجل حاكم أفريقيا) - تأسيس الأسرة الهرقلية التى حكمت حتى عام ٧١٧م.

وتحت حكم الأسرة الهرقلية اتخذت الإمبراطورية البيزنطية شكلها الذى تميزت به فى العصور الوسطى.

الموقف عند تولى هرقل السلطة

وهنا يهمنا أن نقف قليلاً عند مؤسس الأسرة الهرقلية فهو الذى صد غزو الفرس لها وانتصر عليهم فيما بعد انتصاراً ساحقاً كما أنه فى نفس الوقت هو الذى عاصر غزوات العرب لبلاد الشام ومصر وبرقه حيث هزمت جيوشه على طول الخط.

وفى هذه الفترة كانت هناك انقسامات دينية حادة كان لها تأثير كبير فى اضمحلالها فيما بعد. فبالرغم من أن المسيحية عمت جزيرة الفرات والشام فى هذه الفترة، فقد انقسم النصارى من سكانها إلى فريقين فريق يقول بوجود طبيعة واحدة للمسيح وهم اليعاقبه وهم الأغلبية فى الشرق وفريق يقول بوجود ثلاث طبائع فيه بين الأب والابن والروح القدس وهم الكاثوليك فى الغرب وهم الملكيون. وكان كل فريق يتهم الفريق الآخر بالزندقة والإلحاد ويعمل على قهره وإذلاله ونشبت بينهما صراعات عديدة. يضاف إلى ذلك الانقسامات والفتن الداخلية والمؤامرات العديدة وآخرها التى دبرها هرقل وانصاره لانتزاع العرش لنفسه من الإمبراطور «فوكاس» صاحبه.

ففى سنة ٦٠٩م سار هرقل من مقره فى برقه - وكان يحكمها باسم الإمبراطورية - إلى سالونيك باليونان حيث أعد فيها حملة قصد بها القسطنطينية ففتحها بعد عناء، وأوقد أنصاره ثورات أخرى فى بعض أنحاء الإمبراطورية ولاسيما فى مصر تأييداً له، وكانت هذه الفتنة من الفتن الكبرى التى عصفت بالإمبراطورية وانتهت بالقبض على الإمبراطور فوكاس ومحاكمته وقتله شر قتلة فقد قطعوا يديه ورجليه وتفننوا فى تعذيبه.

الغزو الفارسى

وما كاد هرقل يستوى على عرشه الجديد حتى زحف الفرس زحفهم العظيم على بلاد الشام بين عامى ٦١١، ٦١٢م منتهزين فرصة الثورات الداخلية والاضطرابات السياسية والانقسامات المذهبية التى كانت تمزق الإمبراطورية من الداخل فلم يستطع الروم أن يصمدوا أمامهم فاحتلوا دمشق واستولوا على بيت المقدس سنة ٦١٤م وانتزعوا الصندوق المقدس (ويقال أنه كان يحتوى على الخشبة التى صلب عليها السيد المسيح)، ونقلوه إلى المدائن (طيسفون) ثم زحفوا إلى مصر فاستولوا عليها فيما بين سنة ٦١٦م إلى ٦١٩م بينما كان هناك جيش فارسى آخر يتوغل فى آسيا الصغرى قاصداً القسطنطينية. فاستطاع بقيادة (شهر براز) اجتياح معظم مناطق الأناضول الجنوبية وبلغ أسوار العاصمة نفسها سنة ٦١٧م.

وفى نفس الوقت كانت قبائل شرق أوروبا وخاصة من البلغار والسلاف تهاجم الإمبراطورية فى منطقة الدردنيل من الجانب الأوروبى، فوجد هرقل نفسه فى موقف عصيب قرر معه أن يعد عدته للهرب والرجوع سراً إلى أفريقيا للتخلص من هذا الموقف.

وقد اتصل ذلك بالبطريرك سرجيوس وعلم بما يدبره الإمبراطور فذهب إليه واقنعه بالبقاء والعمل على إنقاذ الإمبراطورية.

كان أول ما فعله الإمبراطور بعد ذلك هو إرسال ثلاثة من خاصته يحملون هدايا ثمينة إلى كسرى (خسروا الأول) ومعهم كتاب يقترح فيه عقد صلح بين البلدين، ولكن خسروا قبل الهدية ورفض الاقتراح وارسل رداً شفهيا للإمبراطور فحواه «أن دولة الروم من أرضى وأن قيصرها عاص وثائر وعبد آبق ولن أمنحه سلاماً حتى يترك عبادة الصليب ويعبد الشمس».

وكان لهذا الموقف المهين من كسرى والفرس فيه كل الإذلال للروم مما أثار الرأى العام وقام الناس ونهضوا وأقبلوا على التطوع فى الجيش وتبرعوا له لإنقاذ الوطن وأخذ هراكليوس يستعد لحرب الفرس.

الحرب ضد الفرس

بعد أن اتم هرقل استعداداته فى منطقة كيليكية (وهى واقعة بين جبلين شاهقين «طوروس وأمانوس») ذهب إليها بنفسه لقيادة قواته ضد الفرس وكان ذلك فى ربيع سنة ٦٢٢م.

ودارت رحى الحرب واستطاع هرقل أن يتقدم فى اتجاه حلب حيث استولى على قنسرين وسار شرقا فى اتجاه الفرات للوصول للمدائن، فأحدث فوزه الرعب فى نفوس الفرس الذين انسحبوا على وجه السرعة من الأناضول والشام وارتدوا إلى بلادهم للدفاع عنها ولكن هرقل انتصر عليهم فى معركة كبرى دارت فى (دستجرد) (غير معروفة الآن ويعتقد أنها شرق الفرات) ثم احتل المدائن ففر خسروا برويز (ملك الفرس حينئذ) ثم قبض عليه وسجن وقتل بعد ذلك على يد نجله قباذ شيرويه. وهكذا حقق هرقل نصراً عظيما واسترد بلاده كما استرد الصندوق الذى فيه بقايا خشبة الصليب وعقد صلحا معهم فى يوليو سنة ٦٢٨م.

عاد بعد ذلك إلى عاصمته حيث استقبل استقبالاً فخماً، وفى السنة التالية أى فى سنة ٦٢٩م عاد إلى سوريا يبتغى الحج وزيارة بيت المقدس ليعيد بقايا الصليب إلى مكانه فجاء إلى إنطاكية ومنها إلى حمص فاستقر فيها أياماً ثم سار ماشياً على قدميه إلى بيت المقدس لشكر الله على ما أتاه من نصر وتوفيق. وفى هذه المرحلة أتاه كتاب النبى محمد(صلعم) يدعوه للإسلام.

وهذه الحرب هى التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم وتنبأت بهزيمة الفرس فى سورة الروم:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الم(١) غلبت الروم(٢) فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون(٣) فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون(٤) بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم(٥)﴾

(آيات ١ –٥ سورة الروم)

صدق الله العظيم

بدء الفتوحات العربية

وفى أوائل سنة ٦٣٤م الموافق أواخر سنة ١٢هـ فى عهد الخليفة أبى بكر الصديق بدأت الفتوحات الإسلامية فى بلاد الشام، ودارت معارك عنيفة بين جيوش هرقل والإمبراطورية البيزنطية وبين جيوش العرب. وكانت جيوش هرقل تتفوق فى العدد والعدة تفوقا ساحقاً على العرب، ومع ذلك كله فقد هزمت جيوش هرقل فى كافة المعارك التى خاضتها واستطاع العرب الاستيلاء على دمشق وحمص وبصرى كما

استطاعوا القضاء على أقوى جيش للإمبراطورية البيزنطية فى معركة اليرموك فى رجب سنة ١٥هـ الموافق أغسطس ٦٣٦م والتى حسمت الموقف نهائيا لصالح العرب. وكانت الحرب بعد ذلك عبارة عن تصفية لحصون المقاومة الباقية فى مختلف المدن وحصار القدس (ايلياء) ثم استسلامها فى ربيع الآخر سنة ١٦هـ الموافق مايو ٦٣٧م على يد الخليفة عمر بن الخطاب.

وبعد أن استقر الأمر للعرب فى الشام ساروا إلى مصر[1] بقيادة عمرو بن العاص فوصلوا إلى العريش فى أواخر سنة ١٨هـ خريف سنة ٦٣٩م واستمرت عمليات فتح مصر حتى ابريل سنة ٦٤١م حين سلم حصن بابليون للعرب كما سلمت الاسكندرية فى المحرم سنة ٢١هـ الموافق ١٠ ديسمبر سنة ٦٤١م. ثم بعد ذلك سار عمرو بن العاص بمفرده ففتح برقة فى شمال افريقية وانتزعها من الإمبراطورية البيزنطية أيضا.

أما بالنسبة لهرقل نفسه فقد أصيب بخلل فى عقله إثر عودته من الشام سنة ٦٣٦م ثم مات فى القسطنطينية سنة٦٤١م أى بعد ٣١ سنة من اعتلائه العرش أثناء معركة الإسكندرية. وتولى بعد ولداه قسطنطين وهو الأكبر وهركلوناس وهو الأصغر وجعلت الإمبراطورة مرتنيه والدة الثانى شريكة لهما وقد استأنفوا العمل لإنقاذ مصر من أيدى العرب ففشلوا كما فشل أبوهم من قبل.

لقد تركت الأسرة الهرقلية امبراطورية صغيرة فى حجمها لدرجة كبيرة بعد ضياع الشام ومصر وبرقة ولكن يمكن الدفاع عنها وكانت تتكون من آسيا الصغرى والأجزاء من البلقان التى لم يستول عليها البلغار والسلاف وباقى شمال افريقيا (بعد استيلاء عمرو ابن العاص على برقة وصقلية)وفى نهاية القرن السابع الميلادى كانت الإمبراطورية كلها تتكلم باليونانية تقريبا وتعتمد على بطريرك القسطنطينية فى القيادة الدينية.

ولقد لعبت الكنيسة دوراً كبيراً فى حياة الدولة وكانت الفنون والآداب دينية بصفة عامة. وفى السنوات الأخيرة من الأسرة الهرقلية تهدد حكم الامبراطورية بغزو عربى جديد وقلاقل داخلية وعجز الامبراطور عن مجابهة الموقف. وفى عام ٧١٧م عين خلف جديد للإمبراطور ثيودوسياس الثالث.

«الأسرة الأيسورية» وعبادة الأيقونات «الصور المقدسة»

أصبح «ليو الثالث» أول امبراطور فى الأسرة الأيسورية سنة ٧١٧م ، واستطاع

(١) كانت مصر قد دخلت تحت حكم الرومان سنة ٣٠ ق.م على يد أغسطس قيصر الذى انتزعها من كيلوباترة آخر ملوك البطالسة فانتهى بموتها الحكم اليونانى لمصر.

خلفه قسطنطين الخامس ٧٤٠-٧٧٥م صد غزوات العرب ضد الإمبراطورية بنجاح. وفى تلك الفترة سيطرت على الحياة الاجتماعية فى الدولة البيزنطية الروح الدينية المشبعة بالأوهام والخرافات فضلاً عن الاعتقاد فى المعجزات والتنبؤات ونتيجة لذلك فقد أخذ الناس يستلهمون النصح والبركات من صورة السيد المسيح والسيدة العذراء ويسجدون لها ويقدسونها.

وقد امتلأت الكنائس والأديرة بالصور المقدسة «الأيقونات» كما جرى تعليقها فى المنازل والحوانيت ونقشت على الكتب والأثاث.

كما نحتوا لهذه الصور تماثيل أقاموها فى الميادين العامة وعلى أسوار القصر الإمبراطورى وأخذ الناس يسجدون لها ويضيئون المشاعل والشموع من حولها ويحرقون لها البخور ويقبلونها بإخلاص وخشوع.

لذلك فقد ظهرت حركة مناهضة لعبادة الصور المقدسة «الأيقونات» وأخذت تزداد قوة حتى بلغت ذروتها فى عصر الإمبراطور ليو الثالث الأيسورى ٧١٧-٧٤١م كذلك فى عصر خليفته قسطنطين الخامس ٧٤١-٧٧٥م فتعرض عباد الصور المقدسة لمختلف أنواع القسوة والاضطهاد وجرى تعذيبهم وكى جباههم وسمل عيونهم وتقطيع أوصالهم ونفيهم إلى الأماكن النائية.

وقد تركزت عبادة الأيقونات فى البلاد والجزر اليونانية والأقاليم الأوروبية من الإمبراطورية الذين تمسكوا بهذه العبادة تمسكاً شديداً. أما الأقاليم الآسيوية فقد كانت ضد هذه العبادة ويرجع ذلك على الأرجح إلى تأثر هذه المناطق بالديانات السماوية كاليهودية والإسلام.

الإضطرابات السياسية

إلى جانب هذا الصراع الدينى الذى اشتعل داخل الإمبراطورية البيزنطية ظهرت عوامل سياسية أدت إلى تدهور الموقف. فقد بدأ الاضطراب السياسى ينتشر داخل الدولة البيزنطية منذ منتصف القرن الثامن الميلادى تقريباً وذلك بعد وفاة الإمبراطور «ليو الثالث الأيسورى» (٧١٧-٧٤١م) إذ تتابع على الحكم بعده عدد من الأباطرة الضعفاء خاصة فى عصر الإمبراطورة «ايرين» التى تولت مقاليد الأمور فى بيزنطة كوصية على ابنها الطفل «قسطنطين السادس» بعد وفاة والده «ليو الرابع» فى ٨ سبتمبر ٧٨٠م. وكان قسطنطين فى العاشرة من عمره، وفى سنة ٧٩٠م استطاع قسطنطين أن يصبح امبراطورا بدون وصاية والدته ولكنها لم ترض بذلك وقاسمته السلطة فى عام ٧٩٢م ثم

فى النهاية أمرت بسمل عينيه فى سنة ٧٩٧م وبذلك تم إبعاده نهائياً عن السلطة وانفردت بها الإمبراطورة «ايرين» ولكن قامت ثورة فى القصر الإمبراطورى فى القسطنطينية فى ٣١ أكتوبر سنة ٨٠٢م أطاحت «بإيرين» وأبعدتها عن الحكم.

الصراع بين الكنيستين الشرقية والغربية

فى فترة هذه الاضطرابات التى سادت الإمبراطورية البيزنطية خلال حكم «إيرين» بالإضافة إلى اضطرارها لدفع جزية سنوية قدرها سبعون ألف دينار إلى الخليفة العباسى هارون الرشيد بل وإلى اضطرارها إلى دفع جزية سنوية للبلغار على إثر الهزائم العديدة التى منيت بها الجيوش البيزنطية أمامهم.

فى تلك الفترة وجدت البابوية فى روما أن الفرصة سانحة لقطع الرباط الواهى الذى يربطها بالإمبراطورية الشرقية فقام البابا ليو الثالث «٧٩٥-٨١٦م» بتتويج شارلمان ملك الفرنجة إمبراطوراً فى يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠م فى كنيسة القديس بطرس فى روما.

وكان هذا التتويج بمثابة صدمة عنيفة للإمبراطورية البيزنطية لأنه منذ سقوط الإمبراطورية الرومانية القديمة فى القرن الخامس الميلادى والعالم الرومانى لا يعرف إلا إمبراطوراً واحداً هو الإمبراطور البيزنطى الذى يتمتع بسيادة ولو اسمية على الغرب بوصفه وريث الأباطرة الرومان. ولذلك فإن تتويج «شارلمان» إمبراطوراً أوجد منافساً للإمبراطور البيزنطى وأوقف كل سيطرة تدعيها الإمبراطورية البيزنطية على البابوية والعالم الغربى.

يضاف إلى ذلك أن تتويج شارلمان لم يجعل منه إمبراطوراً فحسب بل جعل منه الإمبراطور الأساسى فى الدولة الرومانية.

«الأسرة العمورية»

انتهى حكم الأسرة الأيسورية عام ٨٠٢م وبدأ بعده حكم الأسرة العمورية الذى استمر حوالى ٥٠ سنة وكان فيها الحكام جميعاً Iconoclasts أى ضد تقديس الأيقونات، وكان الحكم بصفة عامة ضعيفاً ويجابه عدة صعاب. وفى عهد الإمبراطور العمورى ميخائيل الثانى ٨٢٠-٨٢٩م تم فتح جزيرة كريت بواسطة المسلمين فى ربيع الأول سنة ٢١٢هـ- يونيه سنة ٨٢٧م.

«الأسرة المقدونية»

أسسها باسيل الأول وبدأت حوالى منتصف القرن التاسع الميلادى وتميزت بنهضة سياسية وثقافية فى أرجاء الإمبراطورية واستطاعت استعادة نفوذها شرقا حتى حدود الفرات، وغربا نشرت المسيحية فى بلغاريا وروسيا وصربيا.

وكان الأباطرة المقدونيون أقل نجاحاً فى الغرب، فقد استولى العرب على صقلية ولم تبق سوى مقاطعة لونجوبارديا فى جنوب إيطاليا خاضعة للبيزنطيين.

وفى عهدهم اشتد النزاع بين الكنيستين الشرقية والغربية وخاصة بسبب السباق على فرض السيطرة على كنيسة بلغاريا، ومن ناحية الثقافة فقد كان القرنان ٩- ١٠ أهم فترة فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية فقد ازدهرت فيهما الثقافة البيزنطية والفن إلى حد كبير.

«الامبراطورية فى أواخر العصور الوسطى»

بدأت الأحوال تعود فيها إلى الاضطراب مرة أخرى ونشبت الصراعات الداخلية. وقد أدى غياب الحكم القوى إلى تفكك عرى الإمبراطورية وضعفها. كما أنه نتيجة للأزمات المختلفة فقد اضطرت الإمبراطورية إلى تخفيض عملتها الذهبية مما أدى إلى ضعف مركزها التجارى الذى اعتمد دائماً ولمدة طويلة على ثبات عملتها الذهبية.

«معركة ملاذكرد - منزكرت Manzikert»

كان عام ١٠٧١م عاما حاسما فى تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ونقطة تحول بارزة فى تاريخها إذ جرت فيه أحداث معركة ملاذكرد - مانزكرت بين الأتراك السلاجقة بقيادة السلطان ألب ارسلان وبين الجيوش الجرارة للإمبراطورية البيزنطية بقيادة الإمبراطور رومانوس الرابع - امبراطور بيزنطه شخصيا - فى رمضان سنة ٤٦٣هـ-١٩ أغسطس سنة ١٠٧١م على ضفاف بحيرة وان (فان) فى أرمينيا - شرق الأناضول.

وقد انتهت هذه المعركة الفاصلة بهزيمة الإمبراطور رومانوس هزيمة نكراء ساحقة ووقوعه هو شخصيا فى الأسر بالإضافة إلى تحطيم قواته تحطيماً تاماً.

وقد ترتب على هذا الانتصار العظيم للمسلمين فتح أبواب الأناضول للمسلمين من الاتراك السلاجقة وبعدها للأتراك العثمانيين حيث استقروا فيها ونشروا دين الإسلام إلى يومنا هذا.

وكان ضياع الأناضول من الإمبراطورية البيزنطية بمثابة كارثة على الإمبراطورية إذ كان لقرون عديدة يورد الحبوب والجنود للإمبراطورية.

كما أثارت هذه الهزيمة الحقد والغضب فى القسطنطينية ضد الإمبراطور الأسير أدت إلى خلعه ثم قتله فى النهاية. وكذلك أثارت الحقد ضد المسلمين والسلاجقة ولم ينته هذا الحقد إلا بقيام الحروب الصليبية واندفاع جيوش أوروبا الصليبية للاستيلاء على بلاد المسلمين فى الشرق.

وفى تلك الفترة تزايدت الخلافات بين الكنيستين وأدت إلى انفصال وقطيعة كاملة بين بطريرك القسطنطينية وبابا روما فى القرن الحادى عشر الميلادى.

«الأسرة الكومينية»

إن تولى الإمبراطور الكسيوس كونين الأول للحكم ثبت سلطة الأرستقراطية العسكرية على البيروقراطية المدنية. وقد حكم الكسيوس من ١٠٨١م إلى ١١١٨م واستطاع عقد صلح مع الاتراك السلاجقة بعد هزيمة مانزكرت وأوقف الغزو النورمانى لليونان كما استطاع استرداد بعض أراضى الإمبراطورية فى آسيا الصغرى بالاستعانة بالجيوش الصليبية.

ويعتبر الامبراطور الكسيوس هو أول من وضع الأتجاهات ضد المسلمين موضع التنفيذ إذ ادرك أنه لا قبل لجيوشه بمواجهة المسلمين فأرسل استغاثة إلى البابا جريجورى السابع بابا روما الذى رأى فيها اعترافا ضمنيا بسلطانه المسيحى العام وأعلن ان الكنيسة الغربية ستقود المعركة ضد المسلمين انتصاراً لبيزنطه وللمسيحيين على العموم، ثم توفى البابا جريجورى السابع وجاء بعده البابا «أوربان الثانى» وهو الذى ألقى خطابه الشهير فى كلير مونت بجنوب فرنسا فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٠٩٥م الذى أعلن فيه بدء الحروب الصليبية. وقد أدى الاحتكاك الصليبى إلى ظهور القوى اللاتينية مرة أخرى فى الشرق وبعضهم استقر فى الإمبراطورية البيزنطية. ورغم أنهم كانوا مفيدين فى مقاتلة الأتراك إلا أن اماراتهم فى سوريا وفلسطين أضعفت مركز الإمبراطورية البيزنطية فى الشرق كما أن الكسيوس اضطر لمنح البحرية فى فنسيا وبعض المدن الإيطالية الأخرى بعض الامتيازات أيام الصليبيين مما أدى إلى ازدياد تجارة الغرب على حساب تجارة بيزنطه، وفى النهاية انتهى حكم هذه الأسرة فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى.

بدء سقوط الإمبراطورية

فى أواخر القرن الثانى عشر الميلادى بدأت الإمبراطورية تتفكك فقد استطاع النورمان بقيادة وليام الثانى الاستيلاء على صقلية من المسلمين وزحفوا نحو القسطنطينية بينما ثارت عليها المجر وصربيا. ولم يكن بوسع حكام بيزنطه عمل أى شئ سوى مصالحة صربيا والمجر وصد زحف النورمان مما أضعف الإمبراطورية جدا التى أصبحت ممزقة ولا حول لها ولا قوة أمام الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٣٠٤م. فقد استطاع الغزاة الصليبيون الاستيلاء على القسطنطينية نفسها مع جنود فينسيا واستولوا على جزء كبير من الإمبراطورية البيزنطية وأنشأوا امبراطورية لاتينية جديدة فى

القسطنطينية مكونة من تراقيا ومقدونيا واليونان. أما باقى الإمبراطورية فقد أصبحت امارات متفرقة، ودمرت معظم كنوز وآثار القسطنطينية ونهبت، وقد استمر هذا الاحتلال الصليبى سنتين.

وبقيت الإمبراطورية البيزنطية تحاول لم شتاتها حتى استطاع الإمبراطور ثيودور لاسكاريس فرض نفوذه على الأجزاء المتبقية من الإمبراطورية، وفى عام ١٢٦١م استطاع الإمبراطور باليولوجاس استعادة القسطنطينية وحكم باسم ميشيل الثامن، ولكن كانت الإمبراطورية قد انكمشت كثيراً وأصبحت قاصرة على الجزء الشمالى الغربى من آسيا الصغرى وتراقيا ومقدونيه. ولم تستطع موارد الإمبراطورية مقابلة احتياجاتها المتعددة للدفاع عن نفسها ضد الغزاة على حدودها المختلفة.

نهاية الإمبراطورية

تميز القرن الأخير من حياة الإمبراطورية البيزنطية بالتقدم المستمر للاتراك العثمانيين والذى كان بطيئا ولكن كان مستمراً، وفى نهاية القرن ١٤م كانت الإمبراطورية البيزنطية قاصرة على القسطنطينية وما حولها.

وفى عام ١٤٥١م توفى السلطان مراد الثانى العثمانى وتولى مكانه ابنه محمد الثانى أو محمد الفاتح الذى أخذ يخضع الثوار فى آسيا الصغرى فانتهز الإمبراطور البيزنطى قسطنطين التاسع هذه الفرصة وراح يهدد السلطان محمد بما أغضبه فعمد إلى إقامة الحصون حول القسطنطينية. فلما بعث الإمبراطور بسفرائه للاحتجاج على هذا التصرف قطع السلطان محمد رؤوسهم وكان ذلك بمثابة إعلان الحرب، وهاجم العثمانيون القسطنطينية سنة ١٤٥٣م من البر والبحر وكانوا قد أحاطوا بها من جميع الجهات فسقطت فى أيديهم أخيراً وتم لهم النصر وقتل الإمبراطور البيزنطى فى المعركة ودخل محمد الفاتح القسطنطينية ثم اتجه إلى كنيسة أيا صوفيا الشهيرة فدخلها وحولها مسجداً.

وبذلك تم القضاء على الإمبراطورية البيزنطية نهائيا حتى اليوم، وفى نهاية القرن كان الاتراك قد استولوا على معظم أملاك الإمبراطورية فى أوروبا.

الفصل الواحد والعشرون

محمد الفاتح وفتح القسطنطينية

(٨٥٧ هـ - ١٤٥٣م)

المحاولات العربية لفتح القسطنطينية

بعد أن استتب الأمر لمعاوية بن أبى سفيان وصار خليفة العالم الإسلامى الذى عاصمته دمشق - بدأ يعمل على تصفية الموقف المعلق بين دولته وبين الإمبراطورية البيزنطية، فمنذ موقعة «ذات الصوارى» والهزيمة التى منيت بها بيزنطه فى هذه المعركة تخلت بيزنطة عن مشاريعها القديمة فى استعادة مصر والشام واتخذت سياسة تتلاءم مع ظهور المسلمين كقوة عظمى على الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط.

وقد استهل معاوية جهاده ضد القسطنطينية بعد أن نالت جيوشه قسطاً وافراً من المران الحربى على اجتياز آسيا الصغرى فأرسل حملة تمهيدية استطلاعية سنة ٤٨هـ-٦٦٨م بقيادة فضاله بن عبيد الأنصارى إلى ضواحى القسطنطينية. واستطاع فضاله أن يكتسح المعاقل البيزنطيه التى اعترضت طريقه حتى وصل إلى مدينة خلقدونية على ضفاف البسفور حيث أقام بها خلال فصل الشتاء إذ كانت العمليات الحربية تتوقف فى الشتاء بسبب شدة البرودة، وأعد معاوية حملة إمداد كبيرة لفضالة جعل على رأسها ابنه وولى عهده يزيد لشدة اهتمامه بالحصول على نصر كبير فى هذا الميدان.

كما أنه ضم إلى ابنه شخصية كبرى من أصحاب الرسول (صلعم) وهو الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى الذى استقبل الرسول الكريم (صلعم) فى بيته بالمدينة المنورة وحارب إلى جانبه فى غزوة بدر وكان الهدف من ذلك الإفادة من شخصية أبى أيوب فى رفع الروح المعنوية للجند وبث الثقة فى نفوسهم.

ووصل يزيد بقواته إلى خلقدونية حيث عبر مضيق البسفور إلى الشاطئ الأوروبى ووقف أمام أسوار القسطنطينية حيث بدأ يدقها بآلاته الحربية ويعمل على إحداث ثغرات فيها.

وامتاز هذا الحصار بصبر المسلمين وجلدهم فى القتال واستشهادهم فى سبيل الله دون خوف أو تردد. وكان على رأس الشهداء الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى نفسه ودفن بالقرب من[1] أسوار القسطنطينية.

وفى صيف سنة ٦٦٩م، رفع المسلمون الحصار عن القسطنطينية بعد أن أثبتوا للبيزنطيين أن عاصمتهم ليست بعيدة المنال عن قوات الإسلام، ولذا شرع البيزنطيون نتيجة لهذه الحملة فى زيادة تحصين القسطنطينية كما وضعوا نظاماً جديداً للدفاع عن آسيا الصغرى وزيادة قواتها وحصونها.

حرب السنوات السبع (٥٤-٦٠هـ) ٦٧٤-٦٨٠م

صمم معاوية بن أبى سفيان على إعداد حملة ثانية للاستيلاء على عاصمة البيزنطيين قبل أن تفيق دولتهم من حالة الفوضى التى سادتها حيث كانت تجتاز مرحلة انتقال من عهد العظمة والتوسع إلى عهد الانكماش والانطواء، فبعث فى سنة ٦٧٣م حملة بقيادة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد إلى القسطنطينية يؤازرها أسطول بحرى قوى.

وحل فصل الشتاء والقوات الإسلامية فى طريق زحفها عبر آسيا الصغرى، وتمكنت هذه القوات من اجتياز آسيا الصغرى فى سهولة ويسر واستولى الأسطول الإسلامى على جزيرة «أرواد-كزيكوس» فى مياه القسطنطينية واتخذوها مقراً لإدارة حملتهم على العاصمة.

شددت القوات الإسلامية من هجماتها فى فصلى الربيع والصيف من كل عام براً وبحراً وأذاقت حاميات المدينة أشد أنواع الضنك والإرهاق طوال السنوات السبع التى استغرقتها هذه الحملة، ولكن فى نهاية تلك الفترة أحس معاوية بن أبى سفيان بدنو أجله وأن الصالح العام للدولة الإسلامية واستقرارها يحتم عليه سحب قواته المرابطة أمام القسطنطينية وخاصة لمجابهة المقاومة المنتظرة لبيعة ابنه يزيد بالخلافة من بعده، وبذلك دخل معاوية فى مفاوضات مع الدولة البيزنطية لسحب قواته التى تحاصر القسطنطينية وإعادتها إلى قواعدها بالشام. ونجحت المفاوضات وعادت القوات الإسلامية إلى الشام بعد حصار دام سبع سنوات.

---

(١) نال هذا القبر تكريم المسيحيين اليونانيين المقيمين بالقرب منه لاعتقادهم أنه يجلب لهم الأمطار وتعهدوه بالترميم والإصلاح وقد اكتشف الاتراك العثمانيون موضع القبر عند حصارهم للقسطنطينية سنة ١٤٥٣م، وبنوا عنده مسجداً وبذا أصبح مكرماً من المسلمين والمسيحيين والاتراك.

الحصار الثالث للقسطنطينية

انتقلت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك وقد تابع الوليد سياسة أبيه عبد الملك بن مروان فى الاستيلاء على المعاقل الهامة الواقعة على الطريق الرئيسى المؤدى إلى القسطنطينية والتى أعدها البيزنطيون لصد أى تقدم إسلامى نحو القسطنطينية وقد نجح الوليد فى ذلك نجاحا كبيراً فأخذ يعد العدة لإرسال حملة ضخمة لمهاجمة القسطنطينية نفسها وأسند قيادة هذه الحملة إلى أخيه مسلمة بن عبد الملك الذى أخذ فى تجهيز هذه الحملة الكبرى وإتمام كافة الاستعدادات المتعلقة بها، ولكن فى تلك الفترة توفى الوليد بن عبد الملك إلا أن الاستعدادات للحملة الكبرى استمرت كما هى بعد ما تبناها الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك بحماسة أشد قوة.

وكان الإمبراطور البيزنطى فى تلك الفترة هو أنسطاسيوس الثانى Anastasious الذى أخذ يستعد لملاقاة الزحف الإسلامى المنتظر.

وفى سنة ٩٨هـ - ٧١٧م تحركت الجيوش الإسلامية نحو القسطنطينية بقيادة مسلمة بن عبد الملك أخى الخليفة نفسه، وقد استولى مسلمه بجيشه البالغ ٨٠٫٠٠٠ جندى على مدينة برجام ثم عبر الدردنيل وعسكر أمام أسوار القسطنطينية فى ١٥ أغسطس سنة ٧١٧م، وبعد حوالى أسبوعين دخل مياه البسفور فى أول سبتمبر أسطول إسلامى كبير مكون من ١٨٠٠ سفينة كبيرة عدا سفن صغيرة كثيرة أخرى للانضمام إلى الحملة الكبرى على القسطنطينية.

وحاصر المسلمون القسطنطينية حصاراً قاسياً شديداً برغم بقاء جهتها المطلة على القرن الذهبى مفتوحة، واستمر الحصار حتى جاء الشتاء ببرودته الشديدة القاسية، وكان مسلمة قد احتاط لهذا الشتاء سواء فى المؤن أو فى الإقامة حيث عمل بيوتاً من خشب شتا فيها الناس، وبمطلع الربيع وصلت نجدات بحرية وبرية للقاء مسلمة بن عبد الملك فجاءه أسطول من مصر وآخر من شمال أفريقية.. واستخدم المسلمون النفط واستعانوا بنوع أشبه بمدفعية الحصار حول القسطنطينية وأبلى الجند من ضروب الشجاعة ما شهد لهم بعلو روحهم المعنوية وحبهم للاستشهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمة الإسلام.

وفى تلك الفترة التى اشتد فيها الحصار الإسلامى لمدينة القسطنطينية توفى الخليفة سليمان بن عبد الملك وتولى بعده الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى رأى أن الدولة الإسلامية أصبحت تمتد من حدود الصين شرقاً إلى الأندلس غرباً ومن بحر أرال شمالاً إلى شلالات النيل السفلى جنوباً وأصبحت بذلك تفوق سائر الإمبراطوريات التى

عرفها التاريخ من قبل وأن الأمر أصبح يستدعى بذل الجهود لتنظيمها وتأمين أرجائها قبل الاستمرار فى فتوحات جديدة.

ولذا أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز أمره بسحب القوات الإسلامية التى تحاصر القسطنطينية فى ١٥ أغسطس ٧١٨م، أى بعد حصار دام اثنى عشر شهراً كاملة.

السلاجقة فى آسيا الصغرى

بعد ثلاثة قرون كاملة من انسحاب مسلمة بن عبد الملك من حول أسوار القسطنطينية حدثت معركة مانزكرت (ملاذكرد) - ١٩ أغسطس سنة ١٠١٧م - رمضان سنة ٤٦٣هـ فى بلاد الأناضول، وكانت من المعارك الفاصلة فى تاريخ الإسلام فقد خلقت وضعاً جديداً غير مجرى التاريخ حيث هزمت فيها جيوش الإمبراطورية البيزنطية وأصبحت الغلبة بعدها للمسلمين السلاجقة فى آسيا الصغرى وأصبح الأناضول مفتوحاً أمامهم نحو الغرب - بعد أن استمرت مقاومة البيزنطيين لذلك قروناً عدة - الأمر الذى أدى فى النهاية إلى استقرار المسلمين فى الأناضول رويداً رويداً حتى أصبح كله إسلامياً على عهد الأتراك العثمانيين وحتى الآن.

وكانت هذه المعركة قمة المجد للسلاجقة بقيادة سلطانهم «ألب ارسلان» وأصبح نفوذ دولة السلاجقة يمتد من «حلب» غرباً إلى «كشغر» على حدود الصين شرقا.

ولكن ما إن جاء القرن السابع الهجرى حتى انفرد عقد دولة السلاجقة على يد المغول واقتسم حكام الأقاليم وأمراء الحدود أراضيها، وكان عثمان الأول رئيساً لإحدى العشائر التركية القاطنة على الحدود الغربية لدولة السلاجقة ثم تبوأ منصب أمير حدود فى عهد السلطان السلجوقى كيخسرو الثالث (٦٦٣ - ٦٨٢هـ).

وكانت هناك عوامل مختلفة أدت إلى سرعة نمو هذه الإمارة الحدودية بقيادة عثمان الأول لكى تتبوأ مكان الصدارة بين جيرانها وتصبح دولة فى مطلع القرن الثامن الهجرى، ولعل من أهمها:

هو غلبة العنصر التركى المسلم فى المناطق المتاخمة للحدود البيزنطية بالإضافة إلى ضعف الإمارات التركية الأخرى وتناحرها علاوة على ضعف الدولة البيزنطية وانشغالها فى حروب مستمرة مع الدول البلقانية، هذا بالإضافة إلى أن العالم الإسلامى كله كان منقسماً إلى دويلات صغيرة متناحرة كانت أقواها هى دولة المماليك فى مصر والشام.

أما أهم هذه العوامل فكان حرص الحكام العثمانيين على بناء دولتهم على أسس إسلامية صادقة منذ البداية مما حقق لهم النصر على الأعداء دائماً وبسر لهم سبيل النجاح وقد حرص الأمير عثمان وهو على فراش الموت أن يوصى ابنه أورخان ١٣٢٦م (٧٢٩-٧٦١هـ) بالالتزام بالشرع الشريف فى كل أعماله والتشاور مع أربابه فى كل ما يقدم عليه من عمل وأن يثابر على الجهاد فى سبيل الله وإعلاء كلمته.

ولذلك نجد أن أورخان عندما استقل بدولته حرص على أن يكون جيشه أداة حرب وحكم معاً فعين القضاة والمفتين وكانوا يسيرون فى ركابه ويستفتيهم فى كل أمر، وقد ظل منصب (قاضى عسكر) من المناصب المرموقة طوال الحكم العثمانى كذلك حرص أورخان على تطبيق المفهوم الإسلامى للدولة من حيث عدم الفصل بين الدين والدولة هذا بالإضافة إلى التخلق بالأخلاق الإسلامية فكان لسياستهم العادلة وتسامحهم الدينى أبعد الأثر فى إقبال الأعداء من النصارى على الدخول فى الإسلام ومن ثم الخدمة فى الجيوش العثمانية.

وقد قال المؤرخ الإنجليزى جيبونز Gibbons فى عثمان «سرعان ما كان أعداؤه يتحولون إلى أصدقاء يخدمونه فقد اعتنق آل ميخائيل وآل ماركوزو الإسلام بعد طول صداقتهم مع عثمان فأصبحوا يأتمرون بأمر قادته - لقد كان الرجل غيوراً على دينه بقدر ما كان متسامحاً.

وقد قامت الدولة العثمانية فى دار حرب وتمرس أهلها على غزو الأراضى البيزنطية والجهاد فى سبيل الله ووضعوا نصب أعينهم التوسع على حساب الأراضى البيزنطية وليس على حساب جيرانهم من الإمارات التركية الأخرى رغم ضعفها.

وهكذا لم يكد ينتصف القرن الثامن الهجرى حتى كانت قد أرسيت دعائم دولة إسلامية فتية قيض لها القدر أن تتسلم لواء الجهاد الإسلامى فى الأناضول بل وتتعداه إلى البلقان.

العثمانيون فى البلقان

كانت الأوضاع السياسية فى شبه جزيرة البلقان من العوامل المساعدة للعثمانيين على فتوحاتهم فيه إذ كان من بين القوى السياسية الحاكمة آنذاك ما هو فى دور الاحتضار مثل بيزنطه أو تعيش فى صراع مرير كالحال بين الصرب والبلغار أو كلاهما مع بيزنطه أو بين دول البلقان قاطبه والمجر التى كان ملكها لودفيج الكبير (١٣٤٢-١٣٨٢م) يسعى جاهداً لنشر المذهب الكاثوليكى بالقوة. فإذا أضفنا إلى كل

هذه الصراعات صراعاً أكثر شمولاً وهو الصراع التقليدى بين الكنيستين الشرقية فى القسطنطينية والغربية فى روما أدركنا إلى أى مدى كان البلقان عبارة عن أتون مستعر، ومع ذلك فكل هذه الصراعات لم تكن لتحول دون تجمع هذه القوى المتناحرة لتكون جبهة واحدة كلما نشبت الحرب ضد العثمانيين المسلمين.

تولى السلطان مراد الأول الحكم (٧٦١-٧٩٢هـ) والدولة العثمانية لديها من أسباب القوة ما يمكنها من العبور إلى البلقان فأخذ يعد العدة للحصول على قواعد حصينة تسهل الانطلاق إلى أوروبا وفى نفس الوقت سعى إلى إجهاض محاولة البيزنطيين لعقد تحالف صليبى ضده ونقل ميدان الحرب إلى البلقان.

وقد نجح السلطان مراد فى ذلك اذ استطاع فتح مدينة أدرنه عام ٧٦٣هـ ذات الموقع الاستراتيجى الهام وأعقبها بفتح مدينة فيليبه التى على استقامة أدرنه وبذلك يكون قد رسم خطاً يمنع وصول أى إمدادات من وسط أوروبا إلى بيزنطه.

بعد ذلك نقل العثمانيون حاضرة بلادهم إلى أدرنه وتوالت عليهم السفارات والوفود الأوروبية عارضة الصداقة وعدم الاعتداء ودفع الجزية، ومع ذلك فقد استمرت الحروب فى البلقان وكانت كلها تؤدى إلى مزيد من التوسع الإسلامى فى البلقان حتى وصل العثمانيون إلى صوفيا عاصمة البلغار وحاصروها وسقطت فى أيديهم بعد ثلاث سنوات من الحصار.

وحين تولى السلطان بايزيد الأول (٧٩٢-٨٠٥هـ) كانت القسطنطينية محاطة بالعثمانيين من كل جانب (فى أوروبا والبلقان) ولذا أصبحت هدفاً لسلاطين آل عثمان لفتحها وجرت محاولات متعددة فى عهد مختلف السلاطين ولكنها باءت جميعها بالفشل حتى جاءها محمد الفاتح.

محمد الفاتح

فى عام ٨٦٣هـ وفى آسيا الصغرى وفى بيوت آل عثمان ومجدهم وسلطانهم ولد السلطان محمد خان إبن السلطان مراد خان الثانى بن السلطان محمد خان الأول بن السلطان بايزيد بن السلطان مراد الأول فهو من سلالة سلاطين آل عثمان.

جلس محمد الثانى على العرش العثمانى بعد وفاة والده ٨٥٥هـ - ١٤٥١م، وكان عمره عشرين عاماً واستمر سلطاناً مرهوب الجانب صعب المراس يخافه أعداؤه ويهابونه مدة ٣١ سنة إلى أن توفى عام ٨٨٦هـ - ١٤٨١م.

ولقد أخذ لقب الفاتح الذى علق باسمه وكاد يتغلب عليه نتيجة لعمله البطولى فى فتح القسطنطينية وضمها لحظيرة الإسلام.

وقد ظلت «الإمبراطورية الرومانية الشرقية» التى عرفت أيضا باسم «الإمبراطورية البيزنطيه» – ظلت قائمة لأكثر من عشرة قرون بفضل قوة ومناعة عاصمتها القسطنطينية.

وعندما بدأ العرب فتوحاتهم الكبرى فى صدر الإسلام انتزعوا من الدولة البيزنطية بلاد الشام بكاملها ووصلوا إلى جبال طوروس وأمانوس فى آسيا الصغرى كما انتزعوا منها مصر وبرقه ثم باقى الشمال الأفريقى فيما بعد. ثم اتجهت أبصارهم إلى الاستيلاء على القسطنطينية نفسها فجرت محاولتان كبيرتان للاستيلاء عليها، المحاولة الأولى كانت سنة ٤٩هـ –٦٧٠م فى عهد معاوية بن أبى سفيان، وجرت المحاولة الثانية فى عام ٧١٦م فى عهد سليمان بن عبد الملك ولكن كلتا المحاولتين باءتا بالفشل واضطر الجيش العربى فى كل مرة إلى رفع الحصار عنها والعودة بالأسطول إلى الشام وذلك نظراً لمناعة اسوارها وبسالة حاميتها وقد استشهد تحت اسوارها الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى.

وبمجرد أن أصبح محمد الثانى سلطاناً على تركيا إذ بفكرة فتح القسطنطينية تستحوذ على جميع أفكاره وتسيطر على وجدانه فأخذ يعد العدة ويعد الخطط للاستيلاء عليها واضعاً نصب عينيه أحاديث الرسول (صلعم) التى تدل على أهميتها عند المسلمين. فمنها قوله (صلعم):– «لتفتحن القسطنطينية ولنعم الأمير أميرها. ولنعم الجيش ذلك الجيش». (رواه أحمد بن حنبل فى المسند)

الاستعدادات لفتح القسطنطينية

كان أول ما فكر فيه من استعدادات هو عزل القسطنطينية تماما وقطع الاتصال بينها وبين البلاد المجاورة حتى لا تساعدها خلال المعركة المنتظرة. فعزل القسطنطينية سياسياً وذلك بعقد اتفاقات سلمية مع المجر والبندقية وغيرها من الدول المجاورة حتى يضمن عدم مساعدتها لعدوه ولكى يتقى شرها فلا تصطدم معه فتضعف قواته قبل المعركة بل لقد دعم علاقاته الطيبة مع البلاد الإسلامية مثل دولة المماليك فى مصر والشام.

ولكى يتم عزل القسطنطينية ويحكم تطويقها بعث قائده طرخان إلى الموره للقضاء على قواتها ومنع حاكمها من مساعدة أخيه قسطنطين امبراطور القسطنطينية،

كما طهر المناطق المجاورة الأخرى المحيطة بالقسطنطينية حيث بدأ بضرب الأضعف ليخيف به الأقوى ويرهبه.

وكانت الجهة الوحيدة المتصلة بالقسطنطينية بالبر هى الجهة الغربية التى تعتبر طريق الاتصال المباشر مع أوروبا ولكنها كانت محصنة بثلاثة خطوط من الأسوار المنيعة بارتفاع ٤٠ قدماً تمتد على شكل قوس ضخم من بحر مرمره جنوباً إلى القرن الذهبى فى الشمال. والقرن الذهبى عبارة عن مجرى مائى متسع يتفرع من البسفور فى اتجاه الغرب وقد قام الروم بسد مدخله بسلسلة حديدية ضخمة لمنع سفن الأتراك من دخوله. (انظر الخريطة ص ٣٠٨).

وقد زحف السلطان العثمانى محمد الثانى بمجرد أن اتم استعداداته بجيش قوامه مائة وخمسون ألف مقاتل عبر البلقان وعسكر أمام أسوار القسطنطينية من ناحية الغرب بعد أن قسم جيشه إلى ثلاث كتل كبيرة ميمنة وقلب وميسرة وأقام السلطان مركز قيادته وراء قوات القلب.

ثم شرع فى بناء قلعة حصينة لا تزال قائمة حتى اليوم على مضيق البسفور على الشاطئ الأوروبى مقابل القلعة التى بناها بايزيد الأول على الشاطئ الآسيوى وبهذا يستطيع التحكم فى أضيق ممر مائى أمامه ويضمن عدم عبور أى سفن من البحر الأسود لنجدة القسطنطينية، وقد اشتغل بنفسه مع كبار رجال الدولة والقضاة والفقهاء فى أعمال البناء وتزاحموا فى نقل الأتربة والأحجار حتى انتهى العمل فى هذه القلعة بعد ثلاثة أشهر فقط، وكانت على شكل مثلث سمك جدارها عشرون قدماً وفى كل زاوية منها برج ضخم مغطى بالرصاص سمكه اثنان وثلاثون قدماً.

ثم نصب على الشاطئ مجانيق ومدافع ضخمة صوبها نحو المجرى المائى لمنع السفن المعادية من المرور. ثم عهد السلطان إلى أحد القواد من الإنكشارية ومعه أربعمائة منهم وأمره بأن لا يسمح لأى سفينة بالمرور وتجاوز البسفور إلا بعد أن تؤدى ضريبة المرور فإذا أبت أطلقت عليها القذائف لإغراقها وبذلك تم إحكام الحصار البحرى حول القسطنطينية.

وفى خلال هذه الاستعدادات وفد عليه أمهر وأشهر صناع المدافع فى أوروبا ويسمى «أوبان» وهو من أصل مجرى وعرض عليه بضاعته ورغبته فى مساعدة السلطان حربياً حباً فى المال وطمعاً فى الثروة فأكرمه السلطان غاية الإكرام وبذل له الهدايا وفتح له الخزائن ثم طلب منه صنع أكبر مدفع ممكن لم يسبق له أو لغيره صنعه فأجابه بأنه يستطيع أن يصنع مدفعاً يدك به أسوار القسطنطينية. وفى خلال ثلاثة أشهر أتم «أوبان»

ويساعده مهندسان تركيان صناعة هذا المدفع الجبار ومجموعة كبيرة من المدافع الأخرى كانت كلها سلاحاً قوياً وعوناً هائلاً للسلطان محمد الفاتح فى الاستيلاء على القسطنطينية.

استعدادات السلطان البحرية

محمد الفاتح كان من القادة العسكريين الذين لا ييأسون ويأخذون الأهبة الكاملة للحرب التى يخوضونها لذلك نراه يدخل القوة البحرية لأول مرة فى الجيش العثمانى ويقوم بعزم وإصرار ببناء أسطول بحرى قوى ليخوض به المعارك البحرية ضد الأساطيل الأوروبية المعادية وليحكم الحصار البحرى حول القسطنطينية، ولكن عندما يخوض أول معركة بحرية ضد خصومه تغرق أغلب هذه السفن التى بناها وذلك لضعف مقاومتها ورداءة صنعها وقلة خبرة العاملين عليها بشئون الحرب البحرية.

ولكنه وهو الرجل والجندى الذى صمم وقرر أن يصل إلى هدفه مهما كانت المصاعب وبلا يأس خاصة أنه مقتنع دينيا بأنه هو الرجل الذى سيكون له شرف النصر فى فتح القسطنطينية مصداقاً لحديث الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والذى كان يحرك به حماس الجيش فى كل وقت ويدفعهم للبذل والفداء بلا حدود.

وهكذا يقوم محمد الفاتح بإعادة بناء البحرية بسرعة مذهلة ويختار لها قيادة قوية جديدة. وبدأ يستخدم حيلاً مختلفة لتحقيق النصر فى البحر فكان يستدرج القطع البحرية المعادية واحدة بعد الأخرى للقضاء عليها فرادى.

أما حيلته البرية الكبرى والتى لم يسجل لها التاريخ مثلاً حتى الآن فهى قيامه بنقل سفنه على البر إلى ميناء القرن الذهبى.

نقل السفن براً إلى القرن الذهبى

كانت القسطنطينية من جهة مناعتها أشبه بقلعة حصينة مثلثة الشكل وكانت المياه تحيط بها من ثلاث جهات فمن الشرق مياه البسفور ومن الجنوب بحر مرمره ومن الشمال القرن الذهبى هو مجرى مائى متسع يتفرع من البسفور فى اتجاه الغرب وقد قام الروم بسد مدخله بسلسلة حديدية ضخمة لمنع سفن الأتراك من دخوله.

وكانت الجهة الوحيدة المتصلة بالبر هى الجهة الغربية التى تعتبر طريق الاتصال المباشر مع أوروبا ولكنها كانت محصنة بثلاثة خطوط من الأسوار المنيعة بارتفاع ٤٠ قدماً وتمتد على شكل قوس ضخم من بحر مرمره جنوباً إلى القرن الذهبى شمالاً وتتخللها أبراج شاهقة بحيث كان من المتعذر على أى جيش فى ذلك العهد اقتحامها.

وقد بذلت السفن التركية محاولات عديدة لتحطيم السلاسل التى كانت تسد مدخل القرن الذهبى ليمكنها اقتحامه ولكن سفن الروم التى كانت ترسو داخله وقفت لها بالمرصاد وكانت تتصدى لكل محاولة وتقوم بإطلاق قذائفها على السفن التركية مستغلة تفوقها عليها فى التسليح وفى الحجم مما أفسد جميع المحاولات التركية.

ولكن لم تهن عزيمة السلطان العثمانى إزاء فشل محاولاته بل على العكس زاد تصميمه على بلوغ هدفه فهداه الله إلى فكرة مبتكرة لم يسبقه إليها أحد من الفاتحين وهى أن ينقل السفن التركية من مرساها فى ميناء (بشكطاش) على البسفور إلى مياه القرن الذهبى بجرها على الطريق البرى الواقع بين الميناءين والذى يبلغ طوله ٥ كيلو مترات. (انظر الخريطة) فقام جنوده بتعبيد الطريق وتسويته ثم أحضروا ألواحاً من الخشب دهنت بالزيت والشحم وصفت بانتظام على الطريق البرى واختار السلطان مجموعة كبيرة من السفن الخفاف وبعد أن وضعت فى صفوف متتالية على أول الطريق نشرت أشرعتها وأخذ العمال يجرونها بالحبال وهى تنزلق على هذه الألواح الخشبية المدهونة وكأنها تسير فى البحر.

وعندما وصلت إلى القرن الذهبى دفعها العمال فهبطت تتهادى بسلام وتشق طريقها إلى الماء، وتم بهذه الوسيلة نقل نحو سبعين سفينة وراء السلسلة الحديدية.

وخلاف هذه العملية تمكن الأتراك من تحويل أنظار الروم عنها حتى لا يتدخلوا لإفسادها وقد تم ذلك عن طريق ضرب أسوار حصونهم بالمدفعية طوال اليوم مما اضطر المدافعين إلى خفض رؤوسهم فى الوقت الذى أخذت فيه بعض السفن التركية تقوم ببعض العمليات الخداعية لاقتحام السلسلة الحديدية المقامة على مدخل القرن الذهبى لجذب انتباه الروم بعيداً عما يجرى فى القرن الذهبى، ونجحت الحيلة واستيقظ أهل القسطنطينية صباح يوم ٢٢ أبريل سنة ١٤٥٣م على صيحات الأتراك المدوية وهم يرددون فى حماسه (الله أكبر الله أكبر، لا إله الا الله، محمد رسول الله)، وعندما أطلوا من فوق الأسوار وجدوا سبعين سفينه تركية فى مياه القرن الذهبى فانتابهم الهلع ودب اليأس فى قلوبهم.

استعدادات أخرى

لم يدخر هذا القائد الشاب وسعاً فى عمل استعدادات أخرى متنوعة ليضمن النصر فى المعركة فهو لم يترك باباً إلا طرقه ولا حيلة إلا اتبعها ولا سلاحاً إلا ابتكره حتى يضمن النصر التام فى النهاية، فنراه مثلاً يشكل قوة من الفدائيين ليحفروا ممرات تحت الأرض تتجاوز أسوار المدينة الحصينة وتمر من تحتها ليتسلل الجنود من خلالها

إلى داخل المدينة كما نراه يشكل قوة من الصاعقة لهدم السور ومحاولة التسلق عليه بالسلالم المصنوعة من الحبال ثم نراه يفاجئ الروم بقلعة ضخمة مصنوعة من الخشب ومكسوة بالجلود السميكة المبللة بالماء حتى لا تحترق بنيران الأعداء ويركب فى أعلاها المنجنيق الكبير وفى داخلها وأعلاها أمهر الرماة فى الجيش وقد جعلها مرتفعة حتى تعلو سور القسطنطينية ثم نراه يستخدم نوعاً جديداً من المدافع يرمى قذيفته إلى أعلى (وليس فى خط مستقيم مثل المدافع العادية حتى تعلو أسوار القسطنطينية وتسقط بداخل المدينة).

ونتيجة لكل هذه الأعمال وغيرها أصبح أهل القسطنطينية فى هم وقلق شديدين لا يدرون متى يداهمهم الخطر الأكبر وكلما ظن قادتهم أنهم عرفوا سراً من أسرار الحرب عند المسلمين إذا بالسلطان يفاجئهم بسلاح غيره لم يعرفوا سره. وأدخل السلطان تحسينات كثيرة على اسلحته فقواها وعلى ذخيرتها فزاد مداها ومرماها.

الهجوم النهائى

فى فجر يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى عام ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ مايو سنة ١٤٥٣م سمعت فجأة فى المعسكر التركى دقات الطبول وتصاعدت التكبيرات عالية مدوية من ناحيتى البر والبحر بما أثار الخوف والرهبة فى نفوس أهل القسطنطينية الذين هرعوا إلى الكنائس طلباً للأمان. وكانت خطة السلطان محمد الثانى للهجوم على القسطنطينية تتضمن الهجوم العام على أسوارها على ثلاث موجات بحيث يكون واجب الموجتين الأولى والثانية الفضاء على كل ما لدى الروم من قدرة على المقاومة وجلد على القتال حتى يصابوا بالإعياء وحينئذ تندفع الموجة الثالثة وهى من الجنود الإنكشارية الأقوياء الشكيمة لمهاجمة الروم الهجوم الأخير الكاسح فيتم بذلك اقتحام المدينة والوصول إلى داخلها.

وفى نفس هذا الوقت يتم الهجوم على أسوار المدينة المطلة على القرن الذهبى وكذلك المطلة على بحر مرمره بحيث يتم الهجوم على اسوار المدينة من جميع الجهات فى وقت واحد فلا يستطيع المدافعون التحرك من أماكنهم فوق الأسوار لنجدة النقاط الضعيفة فى دفاعاتهم.

وتبعاً للخطة الموضوعة فقد وضع جنود الروملى والمتطوعون من شتى الجنسيات حول الأسوار فى الميسرة وكلفهم بالهجوم فى الموجه الأولى فاندفعوا نحو الأسوار وأقاموا عليها مئات السلالم محاولين الصعود ولكن المدافعين من الروم تمكنوا بعد قتال عنيف من قلب معظم السلالم بحمولتها من المقاتلين على الأرض فأمر

السلطان الموجة الأولى بالانسحاب بعد أن استمر القتال لمدة ساعتين، وبإشارة من السلطان اندفعت الموجه الثانية من الجنود وكانت تتكون من جنود الأناضول الأشداء نحو الأسوار.

وكانوا أحسن تدريباً وأشد مراساً فى القتال من الموجه الأولى ولكن بادر جستنيان القائد العام لقوات الروم وجنوده المدرعون بالتصدى لهذا السيل الأناضولى الجارف من الجنود الأتراك وصبوا عليهم وابلاً من النار المحرقة كما تمكنوا بعد مقاومة مستميته من قلب معظم السلالم بمهاجميها على الأرض وهنا أمر السلطان الموجه الثانية بالانسحاب بينما كان المدافعون من الروم قد بلغوا غاية الإرهاق والإعياء.

وبينما كان هذا القتال محتدماً أمام الأسوار البرية كان هناك قتال شديد الضراوة والعنف يدور أمام الأسوار المطلة على بحر مرمره والقرن الذهبى فقد اقتربت السفن التركية منها وأخذت تطلق قذائفها على الأجزاء المهمة منها فى حين أخذ آلاف من البحارة في تسلق باقى الأسوار بسلالم الحبال واشتبكوا فى صراع عنيف مع جنود الروم الذين كانوا يقذفون سيلاً من النار الحارقة على السفن التركية ويلقون بالسلالم وحمولتها من البحارة إلى البحر.

وأخيراً جاءت ساعة الفتح الأكبر فقد أمر السلطان الموجه الثانية من جنوده الإنكشارية بالدخول فى المعركة وكانوا يتواثبون كالأسود من فرط حماستهم بعد أن أدركوا أن مصير المعركة بات معلقاً على مدى شجاعتهم وقوة شكيمتهم.

ووسط قرع الطبول القاصف ودوى الأبواق اندفعوا كعاصفة ماحقة نحو الأسوار وقد تعالى هتافهم (الله أكبر الله أكبر) كدوى الرعد، وبسرعة خارقة أقاموا السلالم والحبال وتسلقوها إلى أعلى الأسوار دون أن ترهبهم قذائف الروم أو تردهم شعلات نارهم الحارقة، كل ذلك وسط أصوات التكبير والتهليل التى بلغت عنان السماء ويتخللها همهمه بالدعاء والتضرع وأصوات كأزيز النحل بقراءة القرآن الكريم والعبادة حتى يرتبطوا بالخالق الذى يهيىء أسباب النصر من عنده، ذلك النصر الذى رأوا بشائره تلوح فى الأفق، وبقدر ما كان هذا الشعور يدفع جنود الأتراك المسلمين ويزيد من حماسهم فى القتال بقدر ما كان يؤثر على معنويات الرومان فانهارت عزائمهم ووهنت قواهم.

وخلال المعركة الرهيبة فوق الأسوار التى تلاحمت فيها السيوف وتصارعت فيها الأجساد أصيب جستنيان قائد الروم بجراح بالغة مات بسببها وتولى امبراطور الروم القيادة بنفسه كما خاض السلطان محمد غمار المعركة وسط جنوده وهو على ظهر جواده.

وبينما كان القتال محتدماً أمام الأسوار من جميع الجهات فى البر والبحر انطلقت صيحات عالية من الجهة الشمالية للسور أى جهة القرن الذهبى وهى تنادى فى ذعر «دخل الأتراك المدينة» ولم تلبث أن سرت هذه الصرخات فى جميع الأرجاء تبث الذعر والفزع فى نفوس الروم.

ولم يكد الروم يشاهدون الأعلام التركية ترتفع أعلى الأسوار حتى أصيبوا بالانهيار فكفوا عن المقاومة ولاذوا بالفرار. ولكن الإمبراطور قسطنطين صمم على المقاومة فترجل عن جواده وخلع ملابسه الإمبراطورية وأخذ يقاتل بشجاعة نادرة مع نفر قليل من حراسه حتى خر صريعاً فارتفع الصياح في كل مكان «قتل الإمبراطور» فاشتد خوف الناس وازداد فزعهم وتدافعت جموع الأهالى فى فوضى وذعر نحو الكنائس وأغلقوا الأبواب على أنفسهم وأخذوا فى الصلاة داعين الله تعالى أن ينقذهم من محنتهم.

السلطان محمد الفاتح يدخل القسطنطينية

عند الظهيرة دخل السلطان محمد الفاتح على ظهر جواده عاصمته الجديدة يحف به كبار رجاله وحاشيته وحوله كوكبه من فرسانه المغاوير، وعندما بلغ الميدان الكبير توقف عن السير وترجل عن فرسه واستقبل القبلة وصلى ركعتين شكراً لله ثم تلا على جنوده الحديث النبوى الشريف «لتفتحن القسطنطينية فنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش» ثم توجه السلطان الفاتح إلى كنيسة أيا صوفيا التى كانت غاصة باللاجئين والهاربين والمكروبين وعندما رأوه كفوا عن الصلاة لفرط خوفهم وتوقعا لما سوف يصيبهم من هلاك، ولكن السلطان الفاتح طلب من البطريرك فى سماحة إسلامية رائعة أن تستمر الصلاة وأن يبقى كل فرد فى مكانه بالكنيسة دون خوف أو فزع.

وأعلن السلطان في بيان عام على الناس أن كل فرد فى المدينة آمن على نفسه وعلى ممتلكاته وأمواله وأن حرية العبادة مكفولة للجميع على اختلاف أديانهم ومذاهبهم ودعا كل فرد فى المدينة أن يعود إلى ما كان يمارسه من عمل من قبل. وأرسل السلطان الفاتح إلى مختلف أرجاء المدينة نفراً من رجاله لتأمين الناس وبث الطمأنينة فى نفوسهم وليعودوا إلى حياتهم العادية.

وعند غروب الشمس كانت دولة الروم (الدولة البيزنطية) قد غربت شمسها إلى الأبد، وأمر السلطان بتحويل كنيسة أيا صوفيا إلى مسجد، وعندما حان وقت الصلاة ارتفع فوقها صوت المؤذن بالأذان الإسلامى «الله أكبر الله أكبر – حى على الصلاة حى على الصلاة – داعيا المسلمين إلى الصلاة».

نتائج فتح القسطنطينية

كان لهذا الفتح العظيم من الآثار العسكرية والسياسية والاقتصادية ما جعل المؤرخين يعدونه نقطة تحول فى مجرى تاريخ العالم بل لقد جعله مؤرخو أوروبا حداً فاصلاً بين العصور الوسطى والعصور الحديثة.

وسنتناول هنا آثار هذا الفتح على نشر الإسلام فقد اتبع السلطان محمد الفاتح سياسة حكيمة تقوم على الترغيب لا على الترهيب، فأعلن حرية ممارسة الشعائر الدينية وحرية التملك وضمان حقوق الملكية، واستدعى القساوسة وأمرهم بانتخاب رئيس لهم يتولى شئونهم الدينية فانتخبوا أحد القساوسة الفارين من ظلم الأباطرة، وكان مختبئاً فى أحد بلاد البقان فاستدعوه لتولى منصبه.

ونتيجة لهذه السياسة فقد شهدت السنوات التالية للفتح عمليات إشهار إسلام جماعية تحدث لأول مرة فى العهد العثمانى حين جاء أهالى البوسنة إلى محمد الفاتح ليعلنوا إسلامهم ورغبتهم فى العمل فى خدمة الدولة. وقد سر محمد الفاتح بذلك سرورا كبيرا وألحقهم بخدمة الجيش ومازالوا على إسلامهم حتى اليوم رغم ما يلاقونه من عداء وبطش الصرب والكروات.

ولكى يؤمن محمد الفاتح هذا الانتصار العظيم قام ببعض الأعمال العسكرية الضرورية فى البلقان لتثبيت هذا الفتح فقد توجه إلى شبه جزيره الموره وأرغمها على دفع الجزية ٨٦٣هـ - ١٤٥٨م وتوجه إلى الصرب والأفلاق فضمها نهائياً إلى الدولة العثمانية وحارب المجر وحاصر مدينة بلجراد التابعة لهم آنذاك، كما أجبر البنادقة والألبان على توقيع اتفاقيات عدم اعتداء، ثم استولى على بعض الجزر القريبة من السواحل العثمانية حتى لا تكون قاعدة للهجوم البحرى المضاد.

وزيادة فى تأمين هذا الفتح فقد أرسل محمد الفاتح إلى ولاته فى الأناضول يدعوهم لتهجير من يرغب من المسلمين إلى اسطنبول وفرض الهجرة بصفة خاصة على الصناع والحرفيين وذلك لتطعيم البلد بالعناصر الإسلامية وتخفيف كثافة العنصر المسيحى فيها علاوة على القضاء على العصبيات القبلية والإقليمية.

الجهاد فى سبيل الله

لا يتسع المجال هنا لذكر كافة الاستعدادات الحربية لحصار القسطنطينية والتى استمرت حوالى ثلاث سنوات ولا لذكر أحدث الآلات الحربية التى جهز بها السلطان جيشه.

ولا عبقرية السلطان نفسه وإدارته للمعركة بهمة لا تعرف الكلل ولا الملل طوال هذه السنين ولكننا سنتكلم عن أهم العوامل قاطبة فى الاستعداد للمعركة ألا وهو العامل الإيمانى لدى جموع الفاتحين وإخلاصهم لمبدأ الجهاد فى سبيل الله واستعدادهم للموت أو الشهادة بنفس راضية فى سبيل الله سبحانه وتعالى.

وقد عبر أمير الشعراء أحمد شوقى عن ذلك المعنى بقوله:

قد جاءها الفاتح فى عصبة من الأسود الركع السجد

رمى بهم بنيانها مثلمـــا يصطدم الجلمد بالجلمدَ

وقد كان دور السلطان فى إذكاء هذا الشعور الإيمانى الصادق العميق فى نفوس الجنود المجاهدين فى سبيل الله كبيرا وعظيماً فقد ضرب بخيمته وسط جنوده - كدأب السلاطين العثمانيين الفاتحين جميعاً - وظل يطوف بهم ويذكرهم بالأحاديث الشريفة التى تبشرهم بالفتح ويحثهم على قراءة القرآن فى حين أرسل فريقا من الشيوخ والعلماء يتلون على الجنود آيات الجهاد فى سبيل الله وسورة «الأنفال» ويقومون بالأذكار الدينية كى يزداد الجنود إيماناً وإقبالاً على الجهاد فى سبيل الله والقتال ضد الأعداء بروح إيمانية عالية، الأمر الذى جعلهم يستهينون بالموت فى سبيل الله ولا يهابون القسطنطينية وأسوارها ونيرانها ويقتحمونها كالأسود الضارية حتى سقطت فى أيديهم وانتشر الإسلام بعد ذلك على أيديهم فى البلقان.

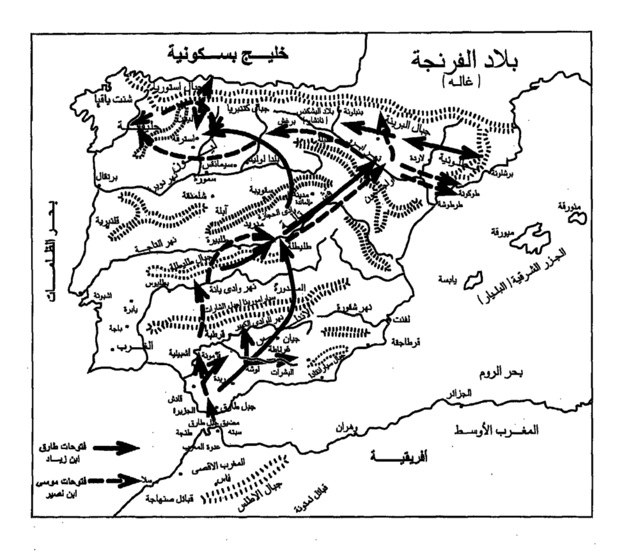
ومن عجائب القدر أنه فى نفس هذا الوقت تقريبا كانت هناك بقايا دولة الأندلس فى الغرب تحتضر وتكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة وهى تستغيث بالسلطان محمد الفاتح وغيره من سلاطين المسلمين ولا مغيث ولا معين، وبعد أن كانت دولة إسلامية عظيمة مرهوبة الجانب أصبحت لا حول لها ولا قوة لأنهم نسوا الله سبحانه وتعالى فأنساهم أنفسهم ونسوا الجهاد فى سبيل الله واتبعوا الشهوات وانغمسوا فى حب الدنيا فكانت النتيجة ضياع الدين والدنيا معاً فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم القائل فى كتابه الكريم ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ (سورة محمد ٧).

والقائل فى كتابه العزيز: ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ (١٢٦ آل عمران).

صدق الله العظيم.

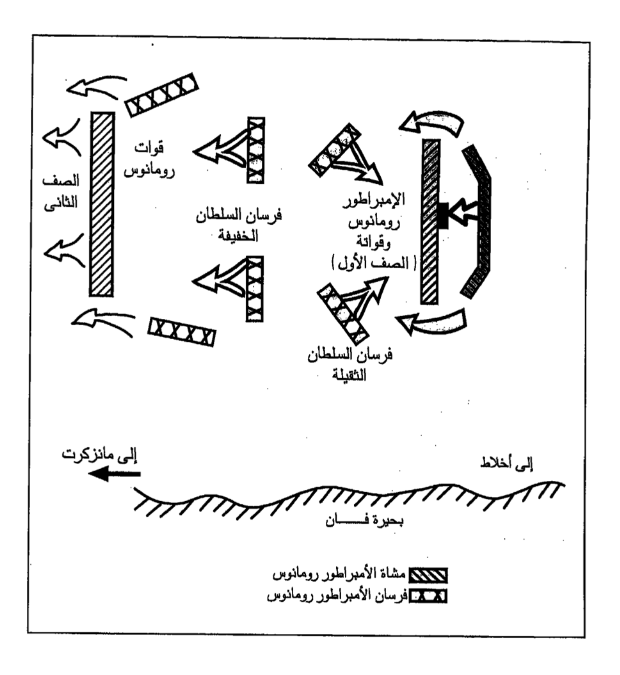
* * *

اللوائح والخرائط

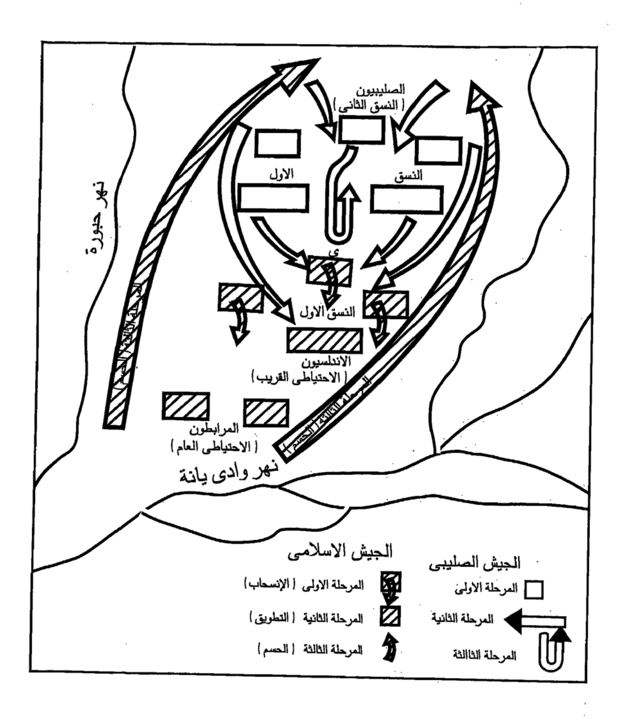

خليـــج بسـكونية
بلاد الفرنجة
(غالـه)
بحر الظلمات
بحر الروم
المغــرب الأوسـط
أفريقيـــة
الجزر الشرقية (البليار)
ميورقة
منورقة
يابسة
شنت ياقبا
برتقال
طليطلة
قرطبة
اشبيلية
غرناطة
برشلونة
طركونة
طرطوشة
قرطاجنة
وهران
الجزائر
المغرب الاقصى
فاس
سبته
طنجة
جبال الأطلس
قبائل صنهاجة
فتوحات طارق ابن زيـاد
فتوحات موسى ابن نصير

معركة ملاذ كرد ٤٦٣ هـ - ١٠٧١م

المرحلة الثانية عند حلول الظلام



معركة الزلاقة ٤٧٩ هـ

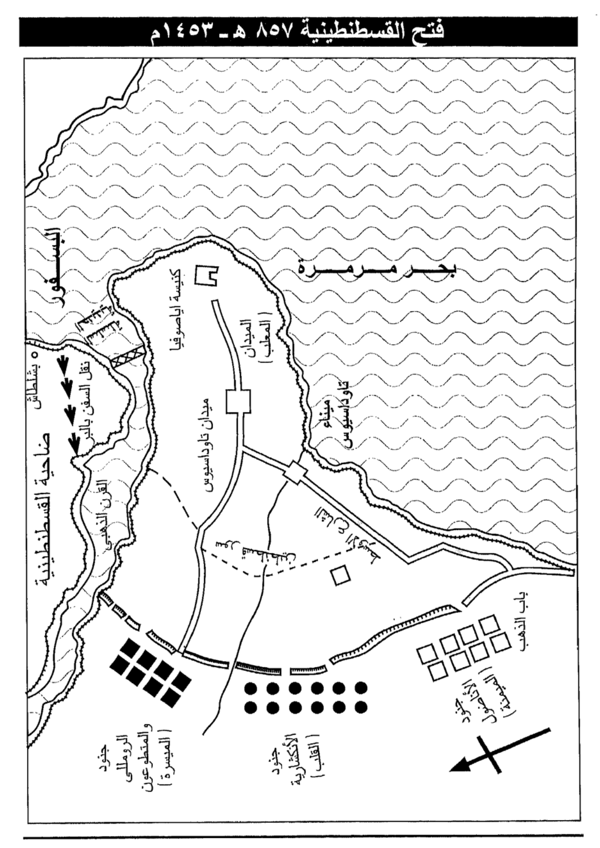


تكوين الإمارات اللاتينية بالشام نتيجة للحملة الصليبية الأولى

سلطنة سلاجقة الروم
الدولة البيزنطية
مملكة أرمينيا الصغرى
إمارة الرها
الرها
نهر الخابور
اسكندرونة
إمارة أنطاكية
أنطاكية
حلب
الرقة
نهر الفرات
اللاذقية
قبرص
البحر المتوسط
إمارة طرابلس
طرابلس
حمص
بيروت
دمشق
عكا
أرسوف
يافا
عسقلان
غزة
الدولة الفاطمية

حملة لويس التاسع على مصر ١٢٤٩م

فتح القسطنطينية ٨٥٧ هـ - ١٤٥٣م



المراجع

١ – المسلمون والبيزنطيون فى شرق البحر المتوسط فيما بين القرنين الثالث والسادس.
الجزء الأول: – للدكتور أحمد عبد الكريم سليمان
٢– الحركة الصليبية – للدكتور سيد عاشور
٣– أطلس تاريخ الإسلام – للدكتور حسين مؤنس
٤– العالم البيرنطى – ترجمة وتعليق دكتور رأفت عبد الحميد
٥– الأمويون والبيزنطيون – للدكتور ابراهيم أحمد العدوى
٦– المغول – للدكتور السيد الباز العرينى
٧– الإسلام فى حوض البحر المتوسط – للدكتور على حسن الخربوطلى
٨– الحروب الصليبية – للأستاذ حسين أحمد أمين
٩– الطريق إلى المدائن – للأستاذ أحمد عادل كمال
١٠– القادسية – للأستاذ أحمد عادل كمال
١١– الطريق إلى دمشق – للأستاذ أحمد عادل كمال
١٢– الحروب العثمانية الفارسية – للدكتور محمد عبد اللطيف هريدى
١٣– النوادر السلطانية – لإبن شداد
١٤– السلوك لمعرفة دول الملوك – للمقريزى
١٥– الكامل فى التاريخ – لإبن الأثير
١٦– فى تاريخ المغرب والأندلس – للدكتور أحمد مختار العبادى
١٧– فتوح الشام – للواقدى
١٨– دولة المرابطين فى المغرب والأندلس – للدكتور سعدون عباس

١٩- حملة لويس التاسع على مصر - للأستاذ محمد مصطفى زيادة
٢٠- سقوط المدائن - للأستاذ أحمد عادل كمال
٢١- تاريخ الطبرى
٢٢- فتوح البلدان - للبلاذرى
٢٣- كتاب الحلل - لابن الخطيب
٢٤- حضارة العرب - لجوستاف لوبون
٢٥- فجر الحروب الصليبية - للدكتور حسين مؤنس
٢٦- موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية الأجزاء من ٢-٨ - للدكتور أحمد شلبى
٢٧- معالم تاريخ المغرب والأندلس - للدكتور حسين مؤنس
٢٨- معارك حاسمة فى تاريخ مصر - للبكباش عبد الرحمن زكى
٢٩- صلاح الدين الأيوبى - للأستاذ محمد فريد أبو حديدى
٣٠- تاريخ الإسلام السياسى - للأستاذ أمين سعيد
فتح الشام ومصر وأفريقيا الشمالية
٣١- تاريخ المسلمين فى شبه القارة وحضارتهم - الأجزاء ١ ,٢ - للدكتور أحمد محمود الساداتى
٣٢- تاريخ إبن خلدون - الجزء ٤
٣٣- معجم البلدان - لياقوت
٣٤- نفح الطيب - للمقرى
٣٥- مفرج الكروب فى سيرة بنى أيوب - لابن واصل

Gibb : The Armies of Saladin

Lane Poole : Saladien and the Fall of Jerusslem 1898

R. Ernest Dupuye the Encyclopedia of Military History From 3500 B.C. To the Present.



المؤلف

- تخرج فى الكلية الحربية فى فبراير عام ١٩٣٨.
- اشترك فى الحرب العالمية الثانية فى سلاح المدفعية المضادة للطائرات دفاعا عن الأهداف الحيوية فى مرسى مطروح والاسكندرية وبورسعيد والسويس لمدة أربع سنوات.
- عين مدرسا لعلوم المدفعية م . ط بمدرسة المدفعية المضادة لمدة عامين سنة ٤٣، سنة ٤٤
- حصل على شهادة كلية القادة والأركان وماجستير العلوم العسكرية عام ١٩٤٥.
- فى عام ١٩٤٧ عين مدرسا بالكلية الحربية لمدة أربع سنوات حيث تخرج على يديه أجيال من الضباط.
- حصل على الدبلوم العالى لمعهد الدراسات الأفريقية والسودانية بجامعة القاهرة عام ١٩٥٠.
- فى عام ١٩٥٢ خدم فى سلاح المدفعية المضادة للطائرات فى القاهرة والإسكندرية حيث عين قائدا للواء الثانى م . ط.
- فى عام ١٩٥٤ عين مدرسا بكلية القادة والأركان حتى عام ١٩٥٦ حيث اشترك فى حرب ٥٦ بالإسكندرية ثم قائدا للفرقة المضادة للطائرات ثم نائبا لمدير المدفعية لشئون المدفعية م . ط حتى عام ١٩٥٩ برتبة العميد.
- فى عام ١٩٦٠ وبعد ترقيته إلى رتبة اللواء عين مديرا لكلية القادة والأركان
- فى عام ١٩٦١ عين سفيرا بوزارة الخارجية.
- حصل على عديد من النياشين والأوسمة والأنواط.
- له مؤلفات وأبحاث فى التاريخ العسكرى تدرس فى الكليات العسكرية.


International
انترناشونال برس
Press
٥ شارع جمال الشاهد – مدينة الصحفيين ت ٣٤٧٤٢٥٩


دار المستقبل العربي